



المشروع القومي للترجمة

طالع حسن

من الأثر هدر إلى السوربون

تأليف وترجمة: عبد الرشيد الصادق محمودي



462



قالوا عن الكتاب عند صدوره بالانجليزية :

«اليوم يضيف عبدالرشيد محمودى لبنة جديدة إلى جهوده العلمية المخلصة...»
«إضافة جديدة وأصيلة ليس فقط فى سياق الدراسات المكتوبة باللغات الأوروبية وإنما هو أيضا فى السياق العربى...»
«هو الدراسة النهائية لتطور فكر طه حسين الخصب»

Al-Ahram Weekly

«هذا العرض الممتاز لتعليم طه حسين»

Times Literary Supplement

«موثق بعناية شديدة ومصاغ بوضوح قاطع. وهو يدفع حتى العارفين منا بكتابات طه حسين إلى تنقيب فهمهم له...»

Journal of Semitic Studies

«مساهمة جديدة بالترحاب وقد طال انتظارها»

Middle Eastern Book Reviews

«عمل يقوم على معرفة راسخة ويعد مساهمة هامة فى فهم المسعى العقلى لطه حسين»

Arabica

«من الممكن أن يقرأه الأخصائى وطالب الجامعة، ولكن يوسع القارئ العادى أن يستمتع بقراءته نظرا لوضوح عرضه»

Banipac

طه حسين

من الأزهر إلى السوريين

تأليف وترجمة
عبد الرشيد الصادق محمودي



٢٠٠٣

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٦٢

- طه حسين من الأزهر إلى السوربون

- عبد الرشيد الصادق محمودي

- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة لكتاب

**Taha Husain's Education from
the Azhar to the Sorbonne**

Abdelrashid Mahmoudi

Curzon Press, Surrey, U.K.

1998

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٢٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

7	الاختصارات المستخدمة فى الحواشى
9	تصدير
11	مقدمة
21	الفصل الأول : شوق إلى العالم
33	الفصل الثانى : من علوم الدين إلى درس الأدب
61	الفصل الثالث : اكتشاف التاريخ
62	أستاذ الجيل
69	الجامعة المصرية
77	كارلو ألفونسو نالينو
84	دافيد سانتلانا
87	لويس ماسينيون
93	الفصل الرابع : الكتابات المبكرة
99	فى النقد
102	نقد جرجى زيدان
110	اللغة العربية ومجدها القديم
115	حياة الآداب
127	اللقاء مع حكيم المعرة
141	الفصل الخامس : الرجوع إلى المصادر الفرنسية
181	الفصل السادس : أقول الوضعية
181	الصوت العذب

182 خواطر عن الخنساء
189 قصة حب
193 السوربون الجديدة
196 المجال الوضعى
200 النزعة الإصلاحية الوضعية
207 الشك الديكارتى
214 الأزمة المنهجية
223	الفصل السابع : مصالحات
225 المركب اللانسونى
230 جبهة موحدة ضد ابن خلدون
240 الأخوان كروازيه
246 النزعة الإنسانية الهلينية
255 منطق القلب
265 احتضار الوضعية
269	الختامة
291 ملحق
	ل . ماسينيون : تقرير عن بعثة لدراسة اتجاهات الأفكار الفلسفية
293 فى البلدان الناطقة باللغة العربية
307 البليوجرافيا

الاختصارات المستخدمة في الحواشي

- م ك المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين (بيروت : دار الكتاب اللبناني)
- محاضرات لويس ماسينيون ، محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية، تحقيق زينب الخضيرى (القاهرة ١٩٨٣).
- محاضرة « محاضرة لطف حسين عن إ . جويدى وك . أ . نالينود . سانتلانا وغيرهم من المستشرقين الذين درسوا في مصر » في طه حسين ، من الشاطئ الآخر ، كتابات طه حسين الفرنسية ، ترجمة عبد الرشيد الصادق محمودى (القاهرة ١٩٩٧) .
- «تقرير» (ل. ماسينيون ، تقرير : بعثة لإجراء دراسات عن اتجاهات الأفكار الفلسفية في البلدان الناطقة باللغة العربية (يرد في ملحق هذا الكتاب) .

²
EI

Encyclopaedia of Islam, new edn.

JRAS

Journal of the Royal Asiatic Society

“l’ Histoire “

Louis Massignon, “l’Histoire des doctrines philosophiques arabes à

l’Université du Caire, *La Revue du Monde Musulman*, XXI (1912),

pp . 149 - 157

تصدير

يسعدنى أن أقدم إلى القراء هذا الكتاب الذى ألفته فى الأصل بالإنجليزية كرسالة للدكتوراه (جامعة مانشستر، ١٩٩٥) . كانت بداية المشروع فكرة خطرت لى منذ عدة سنوات ، وهى أن أدرس الدور الذى أداه طه حسين كوسيط بين الثقافات ، وبدا لى عندئذ أن الأمر يقتضى أن أبحث عن بذور النزعة الحداثية والنزعة الإنسانية فى تعليم طه حسين ؛ فلما أقدمت على هذا البحث وانهمكت فيه وجدت اهتمامى يتحول بالتدريج - وعلى نحو تلقائى - إلى تعليم طه حسين فى حد ذاته . وقد تأكد لدى مع تقدم البحث أن هذا التحول كان أمراً موفقاً وضرورياً ؛ فليس من الممكن أن نفهم طه حسين فى نضجه دون أن ندرس كيف تشكل تفكيره فى مراحل تعليمه المختلفة.

وقد بقى من الخطة الأصلية شىء ، لأن دراسة رحلة طه التعليمية أجريت ، وكان لا بد أن تجرى، مع مراعاة معاناته - على صعيد الخبرة الحية - ومعالجته - على صعيد الفكر - لالتقاء الشرق والغرب ، أو التقاء الثقافتين فى تعليمه ؛ ثقافته العربية الإسلامية كما تلقاها فى الأزهر، والثقافة الغربية كما تلقاها فى الجامعة المصرية وفى السوربون .

ولقد حرصت بصفة عامة على أن تأتى الترجمة العربية مطابقة للأصل الإنجليزى ، فلم أتصرف إلا فى حدود ضيقة. فقد صوبت بعض الأخطاء التى تتعلق بالحقائق (كالتواريخ مثلاً) أو ترجع إلى عدم الدقة فى ترجمة النصوص التى استشهدت بها ، وراعى أن يكون النص العربى سليماً سلساً حتى لو اقتضى الأمر أن أضحى بالحرفية ، كما تخففت من بعض الحواشى فى حالات قليلة بدا لى أنها لا تهم القارئ العربى أو أن من الممكن إدراجها فى حواش أخرى ؛ وأعدت كتابة المقدمة والخاتمة،

وأضفت إلى هذه الطبعة العربية ملحقاً تضمنته تقرير ماسينيون عن الفترة التي قضاها محاضراً في الجامعة المصرية .

وينبغي إذن أن أعرب عن شكرى لمؤنس طه حسين الذى كان دائماً ودوداً ومستعداً للإجابة عن استفساراتى بشأن والده ؛ ولدانييل ماسينيون الذى أذن لى بأن أترجم وأنشر التقرير المذكور آنفاً ، وهو التقرير الذى لم ينشر أصله الفرنسى بعد ؛ وللأستاذ إدموند بوزورث الذى أشرف على الرسالة وكانت معاونته العلمية والمعنوية ذات أهمية كبرى فى وصول البحث إلى نهاية سعيدة .

والواقع أننى تخيلت فى البداية أن اضطلاعى أنا نفسى بترجمة الكتاب لن يكون مهمة بالغة الصعوبة ، وسرعان ما تبينت كم كنت واهماً ، ولكننى وقد خضت غمار التجربة لم أستطع التراجع، وكان على أن أتجرع الكأس المرة حتى ثمالتها . فما أشد سعادتى الآن وقد صارت المحنة طى الماضى وأصبحت قادراً على أن أدفع بالكتاب إلى المطبعة !

عبد الرشيد الصادق محمودى

مقدمة

كثيرة هي الكتابات التي نشرت عن طه حسين ، فمازال عميد الأدب العربي يجتذب المؤلفين سواء أكانوا جامعيين أم من خارج الجامعة ، باحثين أم صحفيين ، ولكن كثيراً من هذه الأعمال غير جدير بالقراءة ، وقراءته مضيعة للوقت والمال الذي يتفق في شرائه . ولقد وقع طه حسين ضحية للمغامرين والطامحين وأصحاب السجال والدعاية والهواة من كل صنف ، لا يختلف في ذلك عتاة خصومه عن المعجبين به المفتونين ، فجميع هؤلاء لا يقرأونه بعناية دعك من أن يقرأوه بموضوعية .

والكل يعتقد أنه يعرف طه حسين ويحسن الكتابة عنه ، وقد اكتشف الجميع أن هناك صيغة أو صيغاً سهلة لركوب الموجة ، فما على الكاتب الطامح إلا أن يتخذ سمت الإفتاء فيحكم الرجل في دينه ويكفره ، أو أن يتقمص دور الوطنى الغيور فيتهمه بالعمالة أو ممالأة الصهيونية ، أو أن يتمسح به حتى يعود عليه من مجد الرجل شىء من الشهرة أو إعجاب الناس . وطه حسين يغرى كلا الفريقين : أسلوبه يتدفق سهلاً سلساً لا التواء فيه ، ويبدو واضحاً شفافاً سواء اتسم بطابع الحديث الحميم أو بجلال الأستاذية والخطابة الفخمة، أسلوب يغرى خصومه والمعجبين به على السواء ويوهمهم جميعاً بأنهم يفهمون مراميه ، والكل لا يدرك أن السطح الأملس الشفاف يخفى فكراً يعتمل بالتوتر والتناقض .

والكتاب الذى أضعه الآن بين يدي القارئ محاولة لاستكشاف تلك الأعماق المضطربة ، فهو يتقصى مسيرة طه التعليمية من الكتاب إلى السوربون ويقدم من ثم جزءاً من دراسة أوفى يتكفل بها المستقبل عن حياته الفكرية ككل . غير أن الكتاب رغم ضيق نطاقه يرتاد ويمهد الطرق المؤدية إلى الغاية القصوى ؛ فهو يتجاوز - فى عدة مواضع - حدود التعليم النظامى الذى تلقاه طه فى مصر وفرنسا ، ويتناول خبرته الحياتية أو لنقل موقفه الأساسى من الحياة ؛ كما يتطرق إلى محاولاته التى

استمر يبذلها فى مراحل نضجه لمصارعة التناقضات الناجمة عن التزامه بالوضعية والحدثة فى فترة شبابه . وليس ثمة مجال هنا للتهاون أو الرضى بظواهر الأشياء أو الجبن عن مواجهة المشكلات . وإنه لمن السذاجة أن نتخيل أن أزهرياً مثل طه حسين يمكن أن يتحول إلى الإيمان الصارم بالعقلانية والعلم وضرورة التحديث دون أن يكون لذلك التحول نتائج خطيرة مزلزة ، أو أن نتظاهر بأن حياة طه سارت على نفس المنوال ، أو أنه كان ممثلاً بارعاً يؤدي دوراً أو أنواراً لا صلة لها بواقع الأمر . فنحن بإزاء رجل متمرد متشكك لم يتورع عن الانقلاب على نفسه مرة بعد مرة ، وليس من حق الدارس أن يتحاشى النظر فى أوجه القلق والتقلب ، وفيما ترتب على ذلك من مشكلات حقيقية شائكة .

ولقد كان من الضرورى لكى يحقق الكتاب غاياته أن ألتزم بمنهج تاريخى صارم، وهو ما يعنى - بالإضافة إلى مراعاة التسلسل الزمنى - العناية بالتحليل النقدى والحرص على إبراز التغير والتطور .

من هنا كان تقديرى لكتاب الدكتور جابر عصفور المرايا المتجاورة (القاهرة ١٩٨٣) بوصفه أهم وأوفى دراسة للنقد عند طه حسين، يقترن باعتقادى أن منهجية الكتاب البنيوية تنال من قيمته إلى حد بعيد . ولما كنت أرفض ميل صاحب الكتاب إلى القول بأن فكر طه حسين النقدى لم يتعرض لأى تغير جوهري وبأنه ظل دائماً محصوراً فى نطاق صيغة توفيقية أو تلفيقية واحدة، فإنى أريد أن أعرض بدلاً من ذلك صورة أكثر حيوية ونشاطاً وأصدق - فيما أرجو - لذلك المفكر القلق الذى لم يحقق الاستقرار إلا فى مرحلة متأخرة من حياته، ولم يكن الاستقرار عندئذ إلا نسبياً .

والواقع أن طه حسين ظل طيلة حياته ككاتب يحاول أن يوفق أو يؤلف بين عدة ثنائيات أو مناقضات ؛ فإلى جانب التقابل فى مجال النقد الأدبى بين ما هو موضوعى وبين ما هو ذاتى ، كانت هناك ثنائيات أخرى مثل الفرد فى مقابل المجتمع، والشرق فى مقابل الغرب، والعلم فى مقابل الدين . ولكن الاكتفاء بهذا القول لا يكفى لكشف الحقيقة كاملة فى حالة طه حسين، ولن تتكشف هذه الحقيقة إلا إذا فسرنا كيف نشأت تلك الثنائيات أصلاً ، وبينما كيف تطور تفكير طه حسين بشأنها ، وذلك أنه ظل

لفترة طويلة - وفي مراحل متعددة من حياته - يتصارع مع هذه المناقضات ويحاول أن يؤلف بين الطرفين المتقابلين في كل منها . وقد تمخضت محاولاته عن طرق مختلفة في التأليف أو التوفيق ، فما من ثنائية من الثنائيات التي ذكرناها إلا وجدت لدى طه صيغاً متعددة للمصالحة . ومثال ذلك أنه لم يقنع قط بطريقة واحدة للمصالحة بين العلم والإيمان ، والأمر نفسه يصدق على المصالحة بين الشرق والغرب في وحدة إنسانية جامعة ، وهلم جرا . وليس من المجدي أن نتمسك بالصيغة البنيوية المجردة ، صيغة التوفيق، للثنائيات، فننكر أو نغفل ما لحق بها من تغيرات بدعوى أنها ثانوية أو عارضة ، وذلك أن هذه التغيرات - أي ذلك القلق الدائم وتلك التجارب المتعددة في طلب الاستقرار واليقين - هي السمة التي تميز طه حسين وتكشف عن جوهره وتعد أساسية في تقدير تفرد وأصالته .

ولابد إذن من اتباع منهج تاريخي في الدراسة ، ومما يعنيه وصف المنهج المتبع هنا بأنه تاريخي أن الدراسة قد أجريت من زاوية بعينها، ألا وهي موضوع اللقاء الثقافي بين أوروبا والعالم العربي في العصر الحديث . وليس اختيار هذه الزاوية مما يحتاج إلى دفاع خاص ، فالموضوع مثار اهتمام في الوقت الحاضر بالإضافة إلى أن طه عاش هذا اللقاء في خبرته الشخصية، وكانت تلك الخبرة أضخم حدث في حياته الفكرية بوصفه خريج الأزهر والجامعة المصرية الناشئة والسوربون . وصحيح أن كثيراً غيره من المصريين - من قبله ومن بعده - قد قطعوا الشوط من الكتاب إلى السوربون، ولعلهم مروا في وسط الشوط بالأزهر والجامعة المصرية ، ولكن حالة طه تظل فريدة بالإضافة إلى أنها غنية بالعبر، نظراً لأنه عاش اللقاء بحدة لا نظير لها واستخلص من تلك الخبرة النتائج على نحو منهجي ينفرد به في كتابات شديدة الغزارة والتنوع رفيعة المستوى .

ولما كانت رحلة طه التعليمية قد درست من قبل ككل^(١) أو بصفة جزئية وعلى نحو غير مباشر^(٢) ، فقد ينبغي أن أبين لم كان الأمر يقتضي دراسة الموضوع من

(١) انظر أحمد علبى ، طه حسين ، قصة مكافح عنيد (بيروت ١٩٩٠) .

(٢) Miftah Tahar, Taha Husayn, sa critique littéraire et ses sources françaises (Tunis 1968) .

جديد، ولماذا كنت أرجو لهذا العمل أن يسد كثيراً من الفجوات المعرفية فى هذا المجال .
فقد رأيت على خلاف كل من سبقنى أن أتبع نهجاً ديناميكياً فى الدراسة، مما يعنى أن أنظر إلى مختلف البيئات التعليمية التى مر بها طه بوصفها مجالات قوى يمثل فيها بطل القصة نفسه قوة قائمة بذاتها . فبينما أفدت بصفة خاصة من كتاب مفتاح طاهر، حاولت فى نفس الوقت أن أتجنب المزالق التى ينطوى عليها نهجه التحليلي الصرف فى دراسة التأثيرات ، وهو النهج الذى يقتصر على اكتشاف وحصر استعارات طه من المؤلفين الآخرين . فلقد توسعت وتعمقت فى تقصى تلك التأثيرات والمصادر، ولكننى حرصت مع ذلك على أن أضع البحث فى موضعه من السياق الحى المعنى سواء أكان الأزهر أم السوربون . وليس السياق الحى فى كل حالة إلا مجالاً تنشط فيه قوى مختلفة من بينها طه نفسه . فقد تتصارع تلك القوى على جذب اهتمامه أو تأييده بينما لا يقنع هو بدور المتلقى السلبي حامل الصفحة البيضاء التى تتلقى أى نقش يقع عليها، وإنما يؤدي دوراً فاعلاً . والقوى المشتركة فى المجال هى - من ناحية - المناخ المحيط بما فيه من أفكار (تدور حول قضايا واهتمامات كبرى) ومصالح ، وهى - من ناحية أخرى - استعدادات طه والتزاماته ومطامحه . فقد كان على طه فى كل حالة أن يحدد اختياراته، أن يبت فيما يأخذ وفيما يدع، ولكن المبدأ الذى يقوم عليه الاختيار يحدده إلى حد ما محاولته أن يحقق ذاته .

وتلك فيما أعتقد هى الطريقة الوحيدة التى تضمن لدراسة التأثيرات أن تؤتى أعظم الفائدة . ولتوضيح هذه الفكرة يمكننا أن ننظر فى الحالات الكثيرة التى تتعدد فيها المؤثرات على طه . يصدق هذا بصفة خاصة على وضعية طه المبكرة كما طورها فى مصر فى السنوات ١٩١١ - ١٩١٤ ، أى قبل سفره إلى أى بلد أجنبى أو إتقانه لأى لغة أجنبية . وهو يصدق أيضاً على شكه المتطرف فى صحة الشعر الجاهلى . وهى وجهة نظر بسطها فى سنة ١٩٢٦، ولكنها ذات تاريخ طويل يرجع إلى سنة ١٩١١ . ومما يبعث على الدهشة حقاً أن من كتبوا فى هذين الموضوعين يميلون بصفة عامة إلى تفسير موقف طه بالإشارة إلى تأثير واحد (نالينو مثلاً بالنسبة للحالة الأولى ، وشك ديكارت المنهجى بالنسبة للحالة الثانية) ، أو أنهم عندما يضطرون إلى الاعتراف بعدة تأثيرات يعجزون عن تحديد الدور الذى أداه كل تأثير أو المساهمة

التي قدمها . وليس من الممكن - فيما أعتقد - حل هذه المشكلات إلا عندما تدرس التأثيرات بوصفها قوى متفاعلة ، وقد تكون متنازعة في نطاق المجالات المناسبة .

ولا مناص في كتاب يركز على التقاء الثقافتين من أن تكون دراسة التأثيرات مهمة جوهرية، ولا بد لهذه الدراسة من أن تكون شاملة بقدر المستطاع، إذا أردنا أن نفهم مذهب طه حسين في الحداثة، وهو المذهب الذي كان ثمرة لاستقباله ذلك اللقاء ومعاناته له وتفاعله معه . ولكن هذه الدراسة ينبغي أن يتوافر فيها من الحس المرهف والتمييز الدقيق ما يمكن من تقدير قيمة كل مؤثر ومدى إسهامه الحقيقي (في مقابل المظاهر التي قد تكون خداعة) .

تتوقف القدرة على التمييز وإصدار الحكم في هذا المجال على تحديد موقع كل تأثير في تطور طه وفي المركب الفكري الذي أتى به في نهاية المطاف . فنظرية طه في الشك في صحة الشعر الجاهلي مركب فكري بمعنى أن لها تاريخاً متعدد المراحل فضلاً عن أنها تنطوي على عناصر وتأثيرات متعددة . فإذا أردنا أن نزن قيمة تأثير ما كان علينا أن نحدد موقعه من ذلك التاريخ ومدى أهميته المنطقية في تشكيل المركب النهائي . ينبغي بعبارة أخرى أن نبحث كيف تلقى طه تلك التأثيرات خلال تطوره وكيف وظف كلا منها وألف بينها جميعاً في مركبه النهائي . وما دما قد نظرنا في موقع كل تأثير من تطوره ومنتجه (بفتح التاء) النهائي ، فقد أدخلناه طرفاً فاعلاً وقوة قائمة بذاتها في معترك القوى . وسوف يرى القارئ في صلب الكتاب أمثلة عدة على تطبيق هذا المنهج في دراسة التأثيرات .

ومؤدى ذلك كله أن هذا الكتاب ليس دراسة للتأثيرات التي تعرض لها طه حسين . إنه أساساً كتاب في الطريقة أو الطرق التي تعامل بها مع التأثيرات التي تلقاها في إطار تعليمه وتكوينه ككاتب، أو لنقل في إطار تحقيقه لذاته . لننظر على سبيل المثال في الفترة الانتقالية (١٩٠٨ - ١٩١٠) التي التحق فيها طه بالجامعة المصرية وإن ظل طالباً بالأزهر . كانت تلك هي الفترة البوتقة أو لنقل إنها كانت مجالاً لعدة قوى . فطه في تلك المرحلة كان مازال تابعاً لشيخه الأزهرى سيد على المرصفي محافظاً على أصولية محمد عبده، ولكنه كان في نفس الوقت واقعاً تحت تأثير أحمد

لطفى السيد ومفتوناً بدروس التاريخ كما كان يلقيها أساتذته المستشرقون ، وخاصة نالينو ، فى الجامعة . فهبنا أردنا أن ندرس تأثير تلك القوى المتعددة المتضاربة على طه . من حسن الحظ أننا نستطيع أن نفعل ذلك بأن نتقصى التأثيرات كما ظهرت فى كتاباته المبكرة التى تواكبت مع الفترة المذكورة وما تلاها حتى سنة ١٩١٤ . فلو أننا قنعنا بالمقابلة بين هذه الكتابات وبين كتابات الأعلام المذكورين وبتعداد استعارات طه من كل طرف لانتبهنا إلى قائمة أو قوائم من البنود المتفرقة التى لا تفيد شيئاً فى معرفة ما حدث فى واقع الأمر، وتلك هى دراسة التأثيرات بالمعنى التحليلي الذى لا يؤدى إلى أى نتيجة، اللهم إلا القول بأن الطرف المتأثر كان سارقاً أو (على أفضل الفروض) جهازاً للتسجيل .

أما هذا الكتاب فهو لا يتبع تلك الطريقة التعيسة فى الدراسة، بل يرصد تنازع المؤثرات على عقل طه وموقفه من كل تأثير والنتيجة التى استقر عليها فى نهاية المطاف بعد تعرضه للشد والجذب . وذلك ما أعنيه عندما أقول إن طه كان هو نفسه قوة فاعلة فى معترك القوى، فقصة التأثير والتأثر برمتها لا معنى لها إلا إذا روعى فى روايتها اهتمامات طه ومصالحه ورغبته فى تحقيق ذاته .

أو لنأخذ مثلاً آخر نذكر فيه تأثيراً واحداً هو تأثير المستشرق الإيطالى نالينو . لقد كان هذا التأثير قوياً وكان له دور باق فى تفكير طه . فإذا اكتفينا بحصر استعارات طه من أستاذه الإيطالى لما عرفنا شيئاً عن حقيقة ما حدث . وذلك أن موقف طه من هذا التأثير كما يظهر فى كتاباته المبكرة قد تغير على مر السنين . ففي الفترة التى قضاها فى الجامعة المصرية مر هذا الموقف بثلاث مراحل : من التلقى السلبي والاستيعاب فى صمت مع المحافظة على مواقف قديمة إلى التمثل الإيجابى (بمعنى الاستيعاب مع التحليل وإعادة الصياغة بغية استخلاص صورة مفصلة متسقة من تعاليم الأستاذ) إلى التجاوز (تخطى الحدود التى رسمها الأستاذ ولم يحد عنها) . ولم تكن تلك التغيرات إلا حلقات فى تطور طه نحو الاستقلال عن أستاذه الإيطالى . وليس من المكن إدراك هذه التغيرات إلا إذا وضعناه فى الاعتبار كقوة فاعلة .

وبفضل هذا المنهج التاريخي نستطيع أحياناً أن نخاصم طه حسين نفسه في تقديره لبعض التأثيرات التي تعرض لها . فالتأثير الأعلى صوتاً في كتابات طه حسين ليس بالضرورة أهم التأثيرات ، والدين الذي يعترف به طه ويفيض القول فيه ليس بالضرورة أهم من دين لا يصرح به أو لا يشير إليه إلا تلميحاً ، والمرجع النهائي في الحكم ليس ما يصرح به طه حسين ، وذلك أن أقواله في تقدير ديونه أقوال تخرج عن إطار المركب المنتج ، وهي أقوال تؤخذ في الاعتبار دون أن تكون صادقة بالضرورة . ولا بد من الرجوع في نهاية المطاف إلى تطور طه كما وقع فعلاً (وليس كما يصفه هو نفسه) وإلى منتجه النهائي كما صاغه بالفعل ، فنتناول هذا وذاك بالتقصي والتحليل لنكتشف موقع كل تأثير منهما .

وهناك سمة أخرى تميز هذا الكتاب عن سابقيه، وهي تركيزه على فترات التكوين في حياة طه حسين . وهو تركيز تمليه طبيعة الموضوع (تعليم طه حسين) كما يمليه المنهج التاريخي المتبع (وما يقتضيه من بحث عن البدايات) ؛ ولكن يمليه أيضاً تطور طه حسين نفسه، فهو ينتمى إلى فئة النوابغ الذين يتكونون في فترة مبكرة من حياتهم . وذلك أن طه حسين قد تكون ككاتب ذي مشروع في مرحلة الطلب . يدل على ذلك كتاباته الأولى التي تواكبت مع دراسته في الجامعة المصرية وما تلاها من كتابات أنجزها أثناء دراسته في فرنسا . وهناك إذن فترتان رئيسيتان في نطاق مرحلة الطلب والتكوين: فترة الدراسة في الجامعة المصرية (١٩٠٨ - ١٩١٤) وفترة الدراسة في فرنسا (١٩١٤ - ١٩١٩) . في هاتين الفترتين وضعت الأسس لكل ما أنجزه طه حسين في مراحل نضجه التالية . ولا يعنى هذا أنه توقف عن التطور في هذه المراحل الأخيرة ، بل يعنى أنه لا سبيل إلى فهم هذه التطورات المتأخرة إلا بوصفها تطويراً وتنقيحاً ونقداً للأسس التي أرساها لمشروعه في مرحلة التكوين .

وقد بذلت قصارى جهدى في دعم البحث بالمصادر الأصلية . ورغم أنني أدرك أن الحصول على هذه المصادر مازال يقتضى مزيداً من الجهود ، فإننى حاولت أن أفتح الباب على مصراعيه فيما يتعلق بالفترتين الرئيسيتين في نطاق مرحلة التكوين . ففي الفترة الأولى بدأ طه يطلع ، وهو لم يزل طالباً في الأزهر ، على المعارف المدنية

والحديثه بفضل التقائه بأحمد لطفى السيد والتحاقه بالجامعة المصرية فور افتتاحها . وقد حرصت فى هذه الحالة على أن أدرس على نحو منظم ما نشر من المحاضرات التى قدمت فى الجامعة ، وخاصة على يدى المستشرقين من أساتذة طه ، وكتابات طه المبكرة التى مازالت مجهولة إلى حد بعيد ومهملة .

أما فيما يتعلق بالفترة الثانية التى شهدت تعليم طه فى فرنسا فقد حاولت أن أشق مسالك متعددة فى دراسة الكتابات ذات الصلة، ومنها الدروس التى تلقاها عن أساتذته فى السوربون ، والدراسات التى تتناول المناخ المحيط بما يعتمل فيه من أفكار ومصالح واهتمامات . فقد أصبح لدينا الآن محصول وفير من الكتابات التى تتناول العالم الأكاديمى والحياة الفكرية فى فرنسا عند منعطف القرن الماضى . ومن الكتابات ذات الصلة فى هذا السياق ما ألفه طه فى فرنسا، سواء أثناء إقامته فى مونتبلية أو فى باريس . وسوف يجد القارئ فى هذا الكتاب أول محاولة تبذل لدراسة هذه المؤلفات دراسة منهجية بهدف الكشف عن استجابة طه للمؤثرات الفرنسية أو دخوله طرفاً فى مجال القوى التى اجتمعت فى فرنسا .

وإنى لأرجو للمحصلة النهائية - التى هى فى المقام الأول عرض لتعليم طه وتمهيد لفهم التطورات التى طرأت على تفكيره فى المراحل التى تلت فترة الطلب والتكوين - أن تفتح المجال لدراسات أخرى من بينها على سبيل المثال إجراء دراسة مقارنة للثقافة الفرنسية والثقافة المصرية فى تلك الفترة من الزمان ، ودراسة استقبال طه - واستقبال مصر بالتالى - للوضعية وما ترتب على ذلك من صعود للعلوم الاجتماعية . وإذا كنت أعتقد أن حالة طه فريدة - وإن كانت نموذجية - فذلك لأنه تميز بين كل معاصريه بأنه كان أشدهم حماساً وأقواهم مشاركة فى ذلك الاستقبال، وحالته فى الواقع هى بمثابة المحك فى دراسة قضية الاستشراق التى تثير فى الوقت الحاضر كثيراً من الاهتمام وقضية الحوار أو الصراع بين الثقافات .

ولقد حاولت فى هذا العرض لتعليم طه حسين أن أحيى لدى القارئ حماس طه وقد لاح له فى الأفق اكتشاف علوم جديدة (دراسة الأدب، وتاريخ الأدب، والتاريخ، وعلم الاجتماع بدرجة أقل)، وينبغى أن أعترف هنا بأننى تأثرت فى ذلك بمقالة إدموند

ولسون البديعة عن اكتشاف ميشيليه لفيكو^(١) . ولا بد أن الأثر الذي خلفته تلك المقالة الممتعة التي قرأتها منذ مدة طويلة كان حاضراً في نفسى عندما أقدمت على العمل الشاق من أجل الإحاطة بكل أطراف العملية التي استوعب طه المعارف الجديدة من خلالها . وإنى لأرجو أن أكون قد تمكنت بذلك من أن أثبت دور طه بوصفه أول مفكر عربى فى العصر الحديث استطاع أن يرفع مسألة المنهج التاريخى إلى شىء قريب من مستواها السابق المنسى لدى ابن خلدون، وأن ينشئ تاريخاً حديثاً للأدب العربى .

ومن الممكن عرض الخطة المتبعة فى تصميم هذا البحث كما يلى: يتضمن الفصل الأول عرضاً موجزاً لرحلة طه التعليمية مع التأكيد على معاناته للعمى كنوع من العزلة التى تستدعى بالضرورة الرغبة فى التحرر منها والخروج إلى العالم الرحب .

ويتناول الفصل الثانى تعليم طه فى الأزهر مع التأكيد على النزاع الذى قد لا يسترعى الانتباه وإن كان محتدماً بين تيار محافظ تمثله المؤسسة الأزهرية وبين اتجاه اصلاحى يمثله محمد عبده وأتباعه، وفى ذلك السياق على وجه التحديد درست سخط طه على الاسكولائية الأزهرية وتمرده عليها و «اكتشافه للأدب» .

أما الفصل الثالث فهو يبرز أخطر نقطة تحول فى حياة طه بأسرها ، لأنه يتناول لقاءه مع لطفى السيد وتعليمه فى الجامعة المصرية . وفى هذه المرحلة توصل طه إلى « اكتشاف » آخر، وأعنى بذلك اكتشافه للتاريخ .

ويستأنف الفصل الرابع هذه القصة فيتناول اكتشاف التاريخ كما تحقق فى الكتابات المبكرة لطله حسين .

ويدفع الفصل الخامس ببحث هذه الكتابات إلى مستويات أعمق، فهو محاولة لتحخيص وضعية طه المبكرة بغية تحديد البنود الأولى لاندفاعه نحو المستقبل يتخطى بها أساتذته الأوروبيين نحو المصادر الأصلية الفرنسية للفكر الوضعى .

(١) انظر Edmund Wilson, *To the Finland station. A study in the writing and acting of history* (New York 1947) , ch.I

ويستهل الفصل السادس المرحلة الكبرى الثانية فى تعليم طه حسين ، أى تعليمه فرنسا ، أولاً فى مونبلييه وبعد ذلك فى باريس . فبعد فترة تمهيدية وجيزة فى مونبلييه يذهب طه إلى السوربون ليجد أن الوضعية قد بلغت مرحلة الأفول، وهى مرحلة شهدت دخول المذهب فى فترة من الإرهاق والتحلل بعد أن تجاوز أزهى أيامه وتمخض عن عدة علوم اجتماعية ، وكان الوقت مناسباً للنزعات التليفقية أو محاولات المصالحة والتركيب .

ويتضمن الفصل السابع والأخير شرحاً يبين كيف عمد طه - وقد رفض الانحياز إلى أى من الأطراف فى الأزمة الوضعية - إلى وضع مجموعة من التركيبات أو المصالحات . والفصل إذ يتقصى هذه الجهود الرامية إلى المصالحة كما تواصلت بعد تعليم طه فى فرنسا، يرمى إلى إبراز هذه الجهود بوصفها سمات مميزة لفكره فى مراحل نضجه .

أما الخاتمة فتتضمن محاولة لتلخيص الرحلة بأسرها وتقييم أداء طه، مع الاهتمام خاصة بجانبين مترابطين من تفكيره وهما : مذهبه فى الحداثة ، ونزعتة الإنسانية .

وقد ينبغى فى النهاية أن أوضح لماذا أتحدث عن خبرة طه فى مواجهة اللقاء مع الثقافة الأوروبية بصفة عامة بدلاً من الثقافة الفرنسية بصفة خاصة . فرغم أننا ينبغى أن نضع نصب أعيننا أن للثقافة الفرنسية أولوية بالنسبة لطله وأن اتجاهه غرباً كان مركزاً على فرنسا خاصة، فإننا لا يجوز أن نغفل عن الموضوع فى سياقه الواسع . فأساتذة طه الأجانب فى الجامعة المصرية لم يكونوا جميعاً من الفرنسيين ، بل كان معظمهم من الإيطاليين (جويدى ، نالينو، سانتلانا، ميلونى) وكان من بينهم ألماني (لتمان) . يضاف إلى ذلك أن تعليم طه فى فرنسا وتفكيره بعد ذلك كانا يتضمنان عنصراً قديماً (يونانياً- رومانياً) لا ينبغى أن نهمله فى دراسة مذهبه فى الحداثة أو نزعتة الإنسانية . ولقد كانت فرنسا فى نظره هى أثينا القرن العشرين التى تلخصت فيها الثقافة الأوروبية والمتوسطية (الهلنية أصلاً) .

الفصل الأول

شوق إلى العالم

يحسن أن نبدأ دراستنا عن طه حسين باستعراض سريع لرحلته التعليمية كما رواها أساساً في سيرته الذاتية ، أى كتاب الأيام .

ولد طه فى سنة ١٨٨٩ فى عزبة الكيلو بالقرب من مغاغة بمصر الوسطى لأسرة متواضعة الحال كثيرة الأبناء ، وفقد بصره فى سن مبكرة ^(١) . وكانت الفرص التعليمية المتاحة له محدودة جداً ؛ فقد ذهب إلى الكتاب وحفظ القرآن فى سن التاسعة، وكان من الممكن أن ينتهى تعليمه عند ذلك الحد وأن يكسب رزقه طيلة حياته كمقرئ للقرآن، ولكن كان من حسن حظه أن أباه أرسله وهو فى الثالثة عشرة من عمره إلى القاهرة ليطلب العلم فى الأزهر . وكان أقصى ما يتمناه والده له أن يحصل على شهادة العالمية التى تؤهله للتدريس فى الجامعة الجليلة مع كل ما يترتب على ذلك المنصب من مزايا مادية ومعنوية . غير أن طه لم يحقق آمال أبيه ؛ وذلك أنه فقد اهتمامه بالعلوم الأزهرية وأثار من المتاعب ما عرضه لسخط سلطات الأزهر . وفى سنة ١٩٠٨ التحق بالجامعة المصرية أو الجامعة الأهلية كما كانت تسمى عند افتتاحها ؛ وتفرغ بعد فترة تفرغاً كاملاً لهذه الدراسة الجديدة . وفى سنة ١٩١٢ سقط (أو أسقط) فى امتحان العالمية ، بيد أنه بعد ذلك بعامين حصل على أول دكتوراه تمنحها الجامعة الفتية، وذلك عن الرسالة التى أعدها عن أبى العلاء المعرى؛ وفاز بمنحة للدراسة قى فرنسا . وفى سنة ١٩١٧ حصل من السوربون على درجة

(١) ليس هناك اتفاق فى الآراء حول السن التى فقد فيها طه بصره ، ولا بد أنها كانت بين الثالثة والسادسة .

الليسانس فى الآداب ، وبعد ذلك بعام منحه السوربون دكتوراه الجامعة عن الرسالة التى أعدها عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . وفى سنة ١٩١٩ اختتم دراسته فى الجامعة الباريسية بدبلوم الدراسات العالية فى التاريخ القديم .

وعند هذه النقطة من الرحلة نجدنا مازلنا على مسافة بعيدة من ظهور طه ككاتب كبير وشخصية عالمية . ولكن مسيرته من كتاب القرية إلى السوربون باهرة فى حد ذاتها ؛ فهى تدل على قدرته فى تلك المرحلة على أن يعبر - ولو إلى حد ما - ما وصفه أندريه جيد وصفاً سديداً بـ « الهوة الضخمة التى تبدو مستعصية على العبور فيما بين بدايات طه حسين ككائن منبؤ وبين إنجازه المجيد »^(١) . وما كان لإنجازه حتى ذلك الحد أن يتحقق بدون القوة الدافعة التى حملته إلى غايات أبعد ، وأعنى بذلك حاجته الراسخة الملحة إلى الضرب فى آفاق أوسع فأوسع . وذلك أن طه - على عكس العميان الذين صورهم ديدرو فى كتابه رسالة عن العميان والذين ولدوا مكفوفين - لم يتقبل قط عجزه ، ولم يقنع فى يوم من الأيام بعالم يخلو من النور والألوان^(٢) . ولعل ذلك راجع إلى أنه عندما فقد بصره كان فى سن أتاحت له أن يذكر ولو على نحو باهت بعض سمات العالم المرئى وأن يقدر فداحة الخسارة التى حاقت به ، ومن ثم كان وصفه لعاهته أوصافاً متعددة (مثل « الآفة » بل و « الشيطان الماكر »^(٣)) بيد أن أبرز صورة رسمها للعمى هى تلك التى تشببه بالسياج . ولزيد من التحديد نقول إن شعوره بالإحباط إزاء عاهته جاء على شكل وعى حاد بدأ منذ سنواته الأولى ولم يفارقه طيلة حياته بأن النفاذ إلى العالم ممتنع عليه كأنه محجوب وراء ستار صفيق أو باب مغلق . بيد أن الحاجز فى حالة طه لم يكن مجرد عائق يحول بينه وبين العالم ؛ فقد كان يشعر أيضاً بأنه خطر حقيقى يتهدد وجوده ذاته ، وكان العمى ينطوى

(١) انظر تصدير أندريه جيد للترجمة الفرنسية للمجلدين الأول والثانى من الأيام :

Taha Hussein, *Le livre des jours*, tr. Jean Lecerf et Gaston Wiet (Paris 1949), p. 12

(٢) يقول طه حسين : « ... كان [الشخص الحبيب] يخيل إليه أنه يكشف له عن حقائق كانت مستخفية عليه

ولم تكن غريبة بالقياس إليه كأنه قد عرفها فى الزمان البعيد الأول ، ثم نسيها دهرًا طويلاً ، فهو يذكرها

بعد أن طال عهده بها » . الأيام ، م ك ، المجلد ١ (١٩٨٠) ، ص ٥٩٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٦٢ .

بالنسبة له على كل المخاطر التي تنجم عادة عن الاعتماد على الغير، وكان أسوأ هذه المخاطر أن يعامل معاملة الشيء^(١) . والأدهى من ذلك أن بطل الأيام كان ينتهي به الأمر أحياناً إلى الشك في وجود العالم الخارجي بل وفي وجوده هو نفسه^(٢) .

ولذلك كان التغلب على ذلك الحاجز مسألة حياة أو موت، وكان عليه أن يجد لنفسه موطئ قدم في العالم وإلا فقد نفسه ، ومن ثم اقترن هذا الوعي الحاد بذلك الحاجز الخائق بدافع لا يقل قوة إلى تخطيه .

وإننا لنجد كل تلك المعاني كامنة في ذلك المشهد المشحون في مستهل الأيام . ففي هذا المشهد الذي يحدد النغمة الأساسية للكتاب ككل يستدعى طه حسين أهم ذكرياته المبكرة فيقول : « إذا كان قد بقي له من هذا الوقت ذكرى واضحة بينة لا سبيل إلى الشك فيها، فإنما هي ذكرى هذا السياج الذي كان يقوم أمامه من القصب ، والذي لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطوات قصار، هو يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس، يذكر أن قصب هذا السياج كان أطول من قامته، فكان من العسير عليه أن يتخطاه إلى ما وراءه ، ويذكر أن قصب هذا السياج كان مقترباً كأنما كان متلاصقاً ، فلم يكن يستطيع أن ينسلّ في ثناياه، ويذكر أن قصب هذا السياج كان يمتد من شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية، وكان يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية، وكان آخر الدنيا من هذه الناحية قريباً ؛ فقد كانت تنتهي إلى قناة عرفها حين تقدمت به السن ...»^(٣) .

ومن المهم أن نلاحظ أن الطفل يتمكن في نهاية المطاف من تخطي سياجه . كانت الأرناب فيما يقول مؤلف الأيام تتخطى السياج وثباً أو انسياً بين قصبه . أما هو فكان « ... يعتمد على قصب هذا السياج مفكراً مغرقاً في التفكير، حتى يرده إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله، والتف حوله الناس وأخذ ينشدهم في نغمة عذبة غريبة أخبار أبي زيد وخليفة ودياب، وهم سكوت إلا حين

(١) نفس المصدر ص ٥٧٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٩٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٨ .

يستخفهم الطرب أو تستقزهم الشهوة، فيستعيدون ويتمارون ويختصمون، ويسكت الشاعر حتى يفرغوا من لفظهم بعد وقت قصير أو طويل ، ثم يستأنف إنشاده العذب بنغمته التي لا تكاد تتغير»^(١) .

ومؤدى ذلك أن الطفل طه إذ يكتشف هذا الحاجز يجد أيضاً طريقه إلى الإفلات منه . فهو إن استعصى عليه فى مشهد السياج أن ينتقل بجسمه لى يكون بين مستمعى الشاعر ، فإنه يستطيع أن ينضم إليهم بسمعه وخياله وإحساسه بالجمال . والواقع أننا هنا بإزاء نمط ثابت من التفكير لا يفتأ يتردد فى الأيام . فالكاتب يخبرنا مثلاً أن الطفل كان يحرم على نفسه من ألوان اللعب والعبث كل شىء وكان أحب اللعب إليه أن يجمع طائفة من الحديد وينتحي بها زاوية من البيت أو أن يقف على إخوته أو أترابه فيشاركهم فى اللعب « بعقله لا بيده »^(٢) كما يروى مؤلف الأيام أن انصراف الطفل عن العبث حبيب إليه الاستماع إلى القصص والأحاديث . ثم يروى فى مشهد آخر كيف كان أبوه وطائفة من أصحابه يستمعون إلى القصص بينما يقعد الطفل منهم « مزجر الكلب وهم عنه غافلون ، ولكنه لم يكن غافلاً عما يسمع . بل لم يكن غافلاً عما يتركه هذا القصص فى نفوس السامعين من الأثر »^(٣) .

وقد كان إدراك الطفل فى تلك السن المبكرة أن استخدام العقل يمكن أن يعوض عن قصور البدن فيلغى المسافة التى تفصل بينه وبين الغير ويوسع بذلك حدود عالمه هو الأساس الذى قام عليه مشروع تعليمه بأكمله بل رحلة حياته ذاتها . ففى عين اللحظة التى تحقق فيها ذلك الاكتشاف انفتح أمامه الطريق إلى الخروج من محبسه، ومن هنا استوعب كل ما كان باستطاعة البيئة الريفية أن تقدمه داخل الكتاب أو خارجه من معارف شفهية، بما فى ذلك القرآن والقصص والأشعار الشعبية والتعاويد السحرية وتعدد الريفات الموقع .

وفى الجزء الثانى من الأيام ، حيث ينصب الاهتمام الرئيسى على تعليم طه فى الأزهر، تتأكد فكرة التعليم بوصفه وسيلة لدخول العالم ، وذلك أن المؤلف إذ يصف

(١) نفس المصدر ، ص ٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧ .

(٣) نفس المصدر .

هذه المرحلة بالتفصيل يدرجها ويرسخها في إطار خبرة البطل الحية إذ يحاول الانطلاق من محبسه . ولذلك نجد تصويراً مسهباً لحياة الطالب - وقد صار صبياً في الثالثة عشرة من عمره - وهي تسير وفقاً لمجراها العادي في ثلاثة «أطوار». فالطور الأول يشمل حياة الطفل في «بيئته القريبة» أي في حيز من المكان يمتد من موقع الصبي في الغرفة التي يشارك فيها أخاه حتى يشمل البناء كله . ويلى ذلك الطور الثاني الذي يطابق مسيرة الصبي من مسكنه إلى الأزهر. وفي الطور الثالث والآخر يدخل الصبي فناء الجامع العريق ويصبح قاب قوسين أو أدنى من « بحر العلم » . وهكذا تتخذ حياة الصبي الطالب في الأزهر شكل رحلة في بيئة لا تفتأ تتسع . ففي البداية يوجد الطفل حبيس المكان المخصص له في الغرفة حيث يقاسى شر الوحدة والظلام. فإذا خرج في الصباح المبكر قاصداً الأزهر بدأ ينعم بقدر محدود من الشعور بالحرية، وهو قدر محدود لأن طريقه تعبر به حارة قذرة بائسة موبوءة بالوطايط. يقول مؤلف الأيام: «وما يزال الصبي ماضياً في طريقه ... حتى يبلغ موضعاً ينحرف فيه قليلاً نحو الشمال، ثم يندفع في طريق ضيقة أشد الضيق، ملتوية أشد الالتواء، قذرة أشد القذارة، قد استقر فيها هواء فاسد كل الفساد، انعقدت فيه روائح كريهة منكرة ، وانبعثت فيه بين حين وحين أصوات نحيلة تصور البؤس وتبين عن الضر وتلح في السؤال، يبعثها وقع الخطى كأن أصحابها لا يحسون الحياة إلا بأذانهم، فهم يدعونها كلما سمعوها، وتتجاوب فيها أصوات أخرى قصيرة غليظة مختنقة متقطعة، هي أصوات هذه الطير التي تحب الظلمة وتأنس إلى الخلوة وتآلف الخراب، وربما اختلطت هذه الأصوات بخفق الأجنحة، وربما دنا هذا الخفق من أذن الصبي أو من وجهه فأخافه وأفزعه، وإذا يده ترتفع فجأة وعلى غير إرادة لتحمي وجهه أو أذنه، وإذا قلبه يخفق خفقاً خفيفاً متصلاً»^(١) .

وبعد هذه المحنة المروعة يسير الصبي قليلاً حتى يصل في نهاية المطاف إلى الأزهر، وهو لا يجد الراحة والأمن إلا في هذا الطور الثالث من يومه، وذلك أنه يدخل صحن الجامع الأزهر فيلتقاه نسيم الصبح بالتحية ويملا قلبه أمناً وأملاً كأنه قبلات

(١) نفس المصدر ، ص ١٦٣ .

أمه. وهناك تصبو نفسه إلى العلم وقد أصبح فيما يبدو قريباً غاية القرب : «وكان قد سمع من أبيه الشيخ ومن أصحابه الذين يجالسونه من أهل العلم أن العلم بحر لا ساحل له ؛ فلم يأخذ هذا الكلام على أنه تشبيه أو تجوز، وإنما أخذه على أنه الحق كل الحق ، وأقبل إلى القاهرة وإلى الأزهر يريد أن يلقي نفسه في هذا البحر فيشرب منه ثم يموت فيه غرقاً»^(١) والواقع أن الرحلة موصوفة على هذا النحو صورة مفصلة من البنية التي يقوم عليها مشهد السياج الذي يطالعنا في بداية الأيام . بل ويقوم عليها الجزء الأكبر من قصة تعليم طه كما رويت في الأيام، فالعذاب الذي يعانيه البطل في محبسه باديء ذي بدء يجد حله السعيد في حركة تتجه إلى الخارج وتتخذ شكل رحلة مطولة نحو معرفة بلا حدود . وهذا الدافع نحو الخارج هو الذي حمل طه فيما بعد إلى السوربون وإلى ما هو أبعد منها ، وهو دافع لا يكف عن العمل لأن أزمة العزلة والانتماء لا تفتأ تتكرر. ولسوف يأتي وقت يتبين فيه أن العلم الأزهرى ضيق وخانق بعد أن كان مطلباً يسعى إليه بحماس يبلغ حد النشوة . بل ولسوف يأتي وقت يبدو فيه أن العلم على الإطلاق عاجز .

حدث هذا أثناء مقام طه في باريس كطالب في السوربون . ففي باريس على وجه التحديد، حيث اتسعت آفاقه إلى حد بعيد واستطاع أن يروى تعطشه إلى المعارف الغربية، مر بأسوأ شكوكه في قيمة العلم في النفاذ إلى العالم ؛ وذلك أنه عندما فتنه سحر قارئته ذات « الصوت العذب » (والتي صارت فيما بعد رفيقه الدائم وزوجه) ولاح له من بعيد بعيد إمكان الحب شعر أن جده في طلب التفوق الدراسي كان بغير طائل لأنه لم يقربه قيد أنملة من الأشياء ، وكان أن شعر حينذاك أنه غريب في مصر غريب في فرنسا، وعانى أكثر شكوكه تطرفاً في وجود العالم الخارجى ووجوده هو نفسه^(٢) .

ومما حدث في تلك الفترة أيضاً أن "صوت أبي العلاء" صار يلح عليه إلحاحاً أيما إلحاح ليحثه - فيما يبدو - على الثبات والمتابعة في طلب العلم ويحذره من مغبة

(١) نفس المصدر ، ص ١٧٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٩٤ .

الاعتماد على الغير^(١) . بيد أن الأمور اتخذت مساراً مختلفاً ولم يستطع طه أن يستمع إلى نصيحة مرشده واختار اختياراً لا رجعة فيه أن يوثق علاقته بالدنيا .

ولقد كان للحب دور حاسم فى تطور طه؛ فقد قربه من الطبيعة إلى أقصى حد ممكن . يقول صاحب الأيام : « كان [الشخص الحبيب] يحدثه عن الناس فيلقى فى روعه أنه يراهم وينفذ إلى أعماقهم، وكان يحدثه عن الطبيعة فيشعره بها شعور من يعرفها من قرب . كان يحدثه عن الشمس حين تملأ الأرض نوراً، وعن الليل حين يملأ الأرض ظلمة، وعن مصابيح السماء حين ترسل سهامها المضيئة إلى الأرض، وعن الجبال حين تتخذ من الجليد تيجانها الناصعة، وعن الأنهار حين تجرى عنيفة والجداول حين تسعى رشيقة، وعن غير ذلك من مظاهر الجمال والروعة ومن مظاهر القبح والبشاعة فيمن كان يحيط به من الناس، وفيما كان يحيط به من الأشياء .»^(٢)

وبفضل الحب أيضاً بدأ طه يتغلب على خجله وميله الطبيعى إلى الابتعاد عن الغير وأن يدخل مجتمع البشر^(٣) - إذا صح هذا التعبير. وما إن أتحت له هذه القاعدة الصلبة حتى أخذ يشق لنفسه طريقاً فى العالم شتى بوصفه صاحب علم وصاحب عمل على حد سواء، واستطاع من ثم أن يتصدى بمتعة وبراعة فائقة لمختلف أدواره كأستاذ جامعى وكاتب ورجل إدارة وسياسة وشخصية اجتماعية وعالمية ورحالة ومرتاد للمسارح وسائح "يشاهد" المواقع التاريخية والمناظر الطبيعية .

وهكذا اقترب من الأشياء كأقصى ما يكون الاقتراب؛ ولكن ذلك لم يكن يكفيه لكى يأنس إلى العالم . وما كان لشئ أن يرضيه تمام الرضى إلا أن يتعرف على الطبيعة كما هى متاحة للبصر مفتوحة للحركة الحرة المستقلة . ولذلك ظل يشعر من

(١) ذلك هو تفسيري لهذا الجزء من القصة ، لأن مؤلف الأيام لا يصور بدقة الظروف التى أحاطت بقصة حبه . وقد كان من رأى أبى العلاء - كما يروى طه حسين - أن العمى « عورة » . (نفس المصدر ، ص ٥٦٣ و ٥٦٩) . وكان يشكو لأنه رجل مستطيع بغيره (نفس المصدر ، ص ٥٧٦ - ٥٧٧) ؛ كما جعل حياته وقفاً على الدرس محرماً على نفسه ما أباح الله من طيبات الحياة (نفس المصدر ، ص ٥٨٥) .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٩٧ .

(٣) كان طه يرى نفسه فى كلمة أبى العلاء حين قال إنه إنسى الولادة وحشى الغريزة (نفس المصدر ، ص ٥٩٣) .

حين إلى آخر أن « الباب المغلق » لم يفتح بعد على مصراعيه وأن بعض الأشياء مازال مغموراً بالظلام . ومن ثم كان تعرضه بين الحين والآخر لحالات من الانقباض ونوبات من الاكتئاب^(١) وشعور لا يفتأ يلح عليه أنه قد حلت به لعنة . ويستطيع القارئ الذي ينشد مثلاً على ذلك أن ينظر في الفصل الأخير من الجزء الأول من الأيام حيث يتجه المؤلف بالخطاب فجأة إلى ابنته فيذكرها بما قص عليها ذات يوم من قصة «أوديب ملكاً» وقد خرج من القصر بعد أن فقأ عينيه لا يدرى كيف يسير فقادته ابنته أنتيجون^(٢) .

ولكن مما يدل على قوة طه وتماسكه رغم كل شيء أنه لم يستسلم لليأس قط وأنه على عكس ذلك استمد من وجوده المهدد ذاته دافعاً قوياً إلى العمل . وصحيح أنه كان إنساناً متشائماً كما روى نقلاً عن مؤنس طه حسين^(٣) . بيد أن هذا التشاؤم لم يحل دون تفاؤله في مجال العمل . ومن حسن حظه أنه رزق طبعاً براجماتياً ، فلم يكن بالرجل الذي يستغرقه إحساسه بالنكبة التي حلت به، ولم تكن حالاته السوداوية إلا مقدمات لتفجر طاقاته الإبداعية . ومن الطريف في هذا الصدد أن نرى كيف شخص هو نفسه مشاعر السأم والتشاؤم بوصفها نتيجة للتفكير في النفس وتحليلها أكثر مما ينبغي وكيف أنه كان يعتقد أن النشاط هو العلاج الوحيد . يقول في هذا الصدد: « لا أمل إلى أن يفكر الإنسان في نفسه كثيراً؛ فالإنسان لا يستحق هذا التفكير، وإنما أمل إلى أن يشغل الإنسان نفسه بالقراءة والحديث والعمل والاستمتاع بلذات الحياة التي أباحها الله والأخلاق »^(٤) .

(١) تروى سوزان طه حسين في مذكراتها عن حياتها مع زوجها أنه كثيراً ما كانت تنتابه نوبات سوداء مخيفة وأنه كان عندئذ يحبس نفسه وراء صمت شرس مخيف كأنه سقط في حفرة لا يستطيع أي شيء أن ينتزعه منها . انظر كتابها معك ، ترجمة بدر الدين عروكي (القاهرة ١٩٧٩) ، ص ١٠٧ . لاحظ أن الأصل الفرنسي لم ينشر .

(٢) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) انظر تصدير كاردينال فيليب لقصة أديب لطف حسين :

Taha Hussein, *Adib ou l'aventure occidentale*, tr. Amina et Moenis Taha - Hussein (Paris 1998) p. 15 - 16

(٤) طه حسين ، « في الطريق » في م ك ، المجلد ١٢ ، ص ١٠٧ - ١١٥ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

وبفضل هذا الموقف الإيجابي لم يستسلم طه قط لإغراء حياة الاعتزال كما ارتأها أبو العلاء . ورغم أنه كان دائماً يرى في الشاعر الحكيم مثله الأعلى فإن الخطة التي اقترحها هذا الأخير لم تكن إلا احتمالاً نظرياً . فواقع الأمر هو أن طه كان دائماً إنساناً اجتماعياً محباً للاختلاط عميق الانخراط في الحياة الثقافية والسياسية في بلاده ولم يكن قط عزوفاً عن المطامح الدنيوية أو زخرف الشهرة والمجد .

وقد تعلم مع مرور الزمن أن يعامل أبا العلاء كإنه ذاته الأخرى وإن لم يكن يمثل إلا جزءاً من نفسه . فلقد ظل يعزه ويقدر وجهة نظره، ولكن ذلك كان قصارى جهده . يتضح هذا في كتاب مع أبي العلاء في سجنه (١٩٣٩) الذي ألفه طه في مرحلة نضجه ، فهو يحرص فيه حرصاً خاصاً على التعاطف مع « صاحبه » القديم وتفهم عمله من الداخل . وإنه لمن اللافت للنظر كيف انعكست الأنوار تماماً في هذا الكتاب نفسه، فطه الآن هو الذي ينتقد صديقه - متوخياً بطبيعة الحال أقصى درجات الرفق- لصرامة منطقته وتشدده في طلب الكمال؛ وهو الذي ينصح بالاعتدال والواقعية. وأبو العلاء لا بد أن يكون في نهاية المطاف أحد الفلاسفة الذين كان يقصدهم طه عندما كتب يقول إنهم اتخذوا مذهب التشاؤم ديناً لهم لأنهم فكروا في أنفسهم وحللوها ودرسوها أكثر مما ينبغي^(١) .

كان عميق التشاؤم ؛ وقد كان مع ذلك متفائلاً . وليس من وسيلة لفهم هذه المفارقة إلا الفكرة التي شرحناها فيما تقدم؛ وهي أن وعى طه الحاد بأنه حبيس قد اقترن منذ سن مبكرة بالدافع الذي لا يقل عن ذلك قوة نحو الفكاك من الحبس . ويستدل مما يقوله مؤلف الأيام أن خبرة البطل بالحاجز بوصفه عقبة كأداء وتحدياً حافزاً على حد سواء تسبق سائر الخبرات والمعارف وتقوم منها مقام الأساس . وقد أصاب جاك بيرك عندما تحدث في هذا الصدد عن « مقدمة وجودية » أو ما يشبه الكوجيتو [الديكارتى] الذي يركز عليه كل ما أتاه طه من أعمال^(٢) .

(١) نفس المصدر ، ص ١١٥

(٢) انظر ما يقوله في هذا الصدد جاك بيرك في تقديمه للمختارات التي نشرها لطه حسين في كتاب : Taha Hussein, *Au delà du Nil*, ed. Jacques Berque (Paris 1977) p. 13
بيرك في دراسة مفصلة للجوانب الديكارتية في فكر طه حسين ، انظر عبد الرشيد الصادق محمودي ، « طه حسين وديكارت » ، فصول ، المجلد (٢) (يوليو / أغسطس / سبتمبر ١٩٩٢) ، ص ١٠٤ - ١١٣

وبناء على ذلك نستطيع أن نرى بسهولة لماذا أخطأ أنور لوقا فى آرائه عن دور القرآن الأساسى فى تشكيل النزعة الإنسانية لدى طه . فقد كتب يقول: "فى سن التاسعة تمكن [طه] من حفظ القرآن بأكمله . وهو إن لم يكن قد استوعب محتواه فقد أتقن حفظه من حيث شكله ، وكان يجد متعة كبيرة فى فصاحة آياته الرنانة و تتردد فى خاطره حكمته الفياضة ، وكانت بعض التعبيرات تعلق بذهنه أو تراوده وهو وحده وتوحى له بأفكار . وفى السن التى ينهمك فيها الأطفال فى ألعابهم أصبح هو حافظاً للكتاب ، واتسع عالمه الصغير على نحو خارق بحيث أصبح يشمل الخليفة بأسرها ، وصار عندئذ يتجاوز حدود القرية بل وأفق القاهرة المرتقب ليشمل كل بنى الإنسان الذين يخاطبهم القرآن سواء أكانوا من الأخيار أم الأشرار . و طبق طه يرى الجنس البشرى من حيث علاقته بالله . وينبغى إذن أن ننوه بدور هذا الانفتاح المبكر على ما هو كونى فى تطور وعى طه ، فلقد كان من الأهمية بمكان؛ فبذلك تشكل إطار انتظم فيه على نحو تلقائى كل ما تلا ذلك من العناصر التى خطرت للمفكر" (١) .

إنه لما يصعب تصديقه أن يقال إن القرآن الذى حفظه طه فى سن التاسعة قد ساعده على توسيع حدود عالمه بحيث تشمل البشرية جمعاء . وليس من الممكن دعم هذا الزعم بأى من أقوال طه سواء أكانت صريحة أم ضمنية ، وإنما يستدل من أقواله -كما بينا - أن هذه الحدود بدأت تنبسط بداية من نقطة وقوفه حيال سياج القصب ونتيجة لتلك الخبرة الأولية التى وصفناها فيما تقدم .

وهذه الخبرة هى التى يمكننا أن نقول إنها تسبق بزمن طويل وعلى نحو غير مباشر نزعة طه الإنسانية كما تكونت فيما بعد . غير أننا ينبغى ألا نستبق الأحداث وأن ندع القصة تتكشف شيئاً فشيئاً وفقاً لمنطقها ذاته . ومن الواضح فى المرحلة التى نحن بصددتها أن هذه الخبرة ذات طبيعة أساسية ، فهى نظراً لصدورها عن عجز طه الطبيعى تتركز على العالم فى جانبه المادى وبعده المكانى . وانطلاقاً من نقطة المنبع تلك فى مشهد السياج ينبسط العالم على شكل دائرة لا تفتأ تتسع . وتلك هى

(١) Anouar Louca, " Taha Hussein et l 'Occident " , Cultures, Vol . II(1975) p. 119

البنية التي اختارها طه لقصته؛ وليس هناك ما يدعونا إلى أن نظن أن حياته فى واقع الأمر سارت على نحو مباين .

ويمكن أن يقال بصفة عامة إن توجه طه نحو العالم لم يصدر عن أى معتقد واع أو غير واع أو أى مذهب أو نظرية . وغنى عن الذكر أن خبرته تلك قد أثرت فيها وشحذتها البيئة الاجتماعية والثقافية التى عاش فيها . ولنا أن نفترض أيضاً أن ما اعتنقه من نظريات أو مذاهب فيما بعد قد لعب دوراً فى ترسيخ تلك الخبرة وتفصيل معالمها والتعبير عنها، ولكن ليس من الممكن أن نشك من ناحية أخرى فى أن استعدادات طه المبكرة، أى مقتته لمحبه وشوقه للحرية، يفسر - ولو إلى حد ما - قابليته فى مراحل لاحقة لاتباع اختيارات أقرب إلى العقل مثل درس الأدب - من حيث تناقضه مع الاسكولائية الأزهرية - والنزعة التاريخية والمذهب الإنسانى .

الفصل الثانى

من علوم الدين إلى درس الأدب

من السهل على الباحث الذى يريد أن يروى قصة تطور طه وتحوله إلى وسيط بين الشرق والغرب أن يميل إلى تأكيد المراحل التى اتجه فيها تعليمه نحو الغرب كما حدث فى الجامعة المصرية - حيث تعرف لأول مرة على مناهج البحث الحديثة - والسوربون فى باريس وإهمال تعليمه فى الأزهر قبل هاتين المرحلتين أو التغاضى عنه أو استبعاده استبعاداً بوصفه «تقليدياً» أو «مدرسياً» .

ولكن الاستسلام لهذا الإغراء ينطوى على خطأ جسيم . ففى الأزهر على وجه التحديد تعلم طه أن يضع الثقافة «التقليدية» موضع التساؤل وأن يكتشف تحت هذه الطبقة المكونة من التقاليد المتحجرة المصادر الأولى للإبداع العربى . ولم يكن سخطه على النزعة المدرسية فى الأزهر إلا مقدمة لذلك الاكتشاف البديع الذى استطاع بفضلله أن يهتدى إلى كل من هويته الثقافية الأصيلة ورسائله الحقيقية فى الحياة . فقد أصبح مصيره منذ ذلك الحين أن يكون أديباً؛ وهو ما يعنى وفقاً للمثل العربية الكلاسيكية أن يكون رجلاً واسع الثقافة . وبداية من ذلك الاكتشاف أصبح البحث عن أفق ثقافى أرحب أمراً ممكناً إن لم يكن ضرورياً. وبعبارة أخرى نقول إن نزعتة الإنسانية فى مرحلة نضجه لا يمكن أن تفهم إلا كخاتمة لعملية من التطور بدأت بنوع من أنواع الأصولية الأدبية أو شكل من أشكال الكلاسيكية الجديدة تعلمه طه فى الأزهر .

والواقع أن الفترة الأزهرية فى تعليم طه حسين كانت أبعد ما تكون عن الركود. وقد حرص سواء فى الأيام أو غير ذلك من المؤلفات على أن يصف بالتفصيل ما كان

فى تلك الفترة من اضطراب وقلق . وقد رأينا فيما تقدم كيف استقبل يومه الأول فى الأزهر بحرارة تقرب من الحماس الدينى . ولما مرت السنون وتقطعت الوشائج التى كانت تربطه بالمؤسسة الجلية ظل يذكر ذلك الحدث والفترة بأكملها بحنين موجد وحنان شديد^(١). كان « يحمل فى نفسه » - كما قال - صورة حية عن أيام دراسته فى الجامع الجليل وعن المكان ذاته^(٢). ورغم أنه سرعان ما أصيب بعد حماسه الأول بخيبة الأمل والسأم فإنه ظل يجاهد لسنوات كى يستبقى صلاته الواهنة بالأزهر، وظل يتنقل فى سبيل ذلك من درس إلى درس ومن شيخ إلى شيخ . ولم يكن حنقه على الأزهر إلا حنق العاشق الذى خابت آماله واستمر يحاول حتى النهاية أن يستعيد السحر الأول للسعادة المولهة . وكانت مشاعر السأم وخيبة الأمل دلائل على الصحة التى يتمتع بها عقل متمرد ينشد معرفة من نوع جديد يأتى بمزيد من الرضى . يضاف إلى ذلك - من الناحية الإيجابية - أن الأزهر فى ذلك العهد لم يكن يخلو من السمات الجذابة؛ ومنها تحرر التعليم والتعلم فيه من القواعد الصارمة وحيوية المكان كملتقى للعلماء والمصلين^(٣) . ثم كان هناك بعد هذا وذاك الحضور المهيبة للشيخ محمد عبده ودروس الأدب المراثونية التى يلقيها الشيخ سيد على المرصفى ، وأعذب من ذلك كله اكتشاف الأدب .

ذهب طه إلى الأزهر فى سنة ١٩٠٢ فى لحظة حاسمة من تاريخه ، لحظة اشتد فيها التوتر بين المؤيدين الأوفياء للوضع القائم وبين تيار إصلاحى لا يقل إصراراً على الإصلاح ويمثله خاصة محمد عبده . والواقع أن هذه الفترة التى انتهت باستقالة الأستاذ الإمام ووفاته بعد ذلك بشهور فى سنة ١٩٠٥ تعد - كما لاحظ طه حسين بحق - فصلاً مهماً وإن بقى مهملاً فى تاريخ مصر الحديثة^(٤). ونحن إن كنا لا نستطيع هنا أن نفى هذه الفترة الخصبة الصاخبة حقها من البحث فإننا ينبغى أن

(١) انظر فى الصيف (بيروت ١٩٨١) ، ص ٢٠ وما يليها . وانظر أيضاً أحاديث فى م ك ، المجلد ١٢ ، القسم الأول (١٩٧٤) ، ص ٧٠٨ وما يليها .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٠٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٠٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٣ .

نضع فى اعتبارنا التيارات المتصارعة التى كانت تعتمل فيها . فبدون هذه الخلفية المهمة يستعصى فهم سخط طه على التعليم الأزهرى وانفصاله فى نهاية المطاف عن الأزهر دون رجعة .

ونحن إذن بإزاء طالب موهوب عظيم الموهبة يحدوه دافع قوى إلى طلب العلم ولديه من الاستعدادات ما يجعله طالباً نموذجياً للدراسة فى الأزهر . فلقد كان لديه - فضلاً عن ذاكرته الخارقة - استعداد للتفوق فى كثير من فضائل الذكاء الأزهرى وبهارجة ، وذلك مثل الفكاكة اللاذعة والمهارة الجدلية التى عرف بها الأزهرية أو ما يسمى بـ « الفنقلة »^(١) . وقد احتفظ طه ببعض هذه العادات والمميزات طيلة حياته . بل إن لغته فى أكثر أشكالها تجديداً ظلت تتردد فيها - على نحو أو آخر - أصداً من طرق الأزهرية فى التفكير والتعبير ، ولا يمكن لقراء طه حسين أن يفوتهم نغمة « الترتيل » أو « الإنشاد » وما ترسخ لديه من أساليب النزعة المدرسية الأزهرية ولوازمها . فما الذى أفسد الود إذن ؟

كان التعليم فى الأزهر يقوم على دراسة عدد من النصوص الأساسية أو المتون التى يلخص كل منها المؤلفات الرئيسية فى المادة المعنية تلخيصاً شديداً التركيز، وكان الأمر يقتضى أن يحفظ الطالب هذه المتون عن ظهر قلب وأن يعلق الأستاذ عليها على ثلاثة مستويات من التفسير هى : الشرح والحاشية والتقرير . وكان الشيخ يبدأ الدرس بقوله : « قال الشيخ يرحمه الله ، ثم يشرح المتن كلمة كلمة ؛ ولم يكن يكتفى بمناقشة الموضوع قيد البحث ، وإنما يخوض فى استطرادات لغوية وبلاغية حتى ولو كان الدرس فى الفقه ، فإذا فرغ الشيخ من شرح المتن انتقل إلى قراءة الحاشية فالتقرير »^(٢) .

(١) يبدو أن « الفنقلة » كلمة مصكوكة عن طريق الاشتقاق من « فنقول » للدلالة على الجدل الأزهرى بما يتضمنه من اعتراض واعتراض مضاد : « إن قال فلان كذا قلنا كذا » ، انظر سيف النصر الطلخاوى ، شيخ ألباء مصر سيد بن على المرصفى (القاهرة ١٩٨٤) ، ص ٢٧ . انظر أيضاً طه حسين ، الأيام ، الجزء الثانى ، فى م ك ، المجلد الأول (١٩٨٠) ، ص ٢١٢ .

(٢) Ibrahim Salama, *L'enseignement Islamique en Egypte* (Le Caire ١٩٢٩) p. ٢٧٢

وواضح أن هذه الطريقة فى التعليم كانت تفترض أساساً أن الحقائق الرئيسية فى أى موضوع قد تقررت فى سالف الأيام وأنه لم يبق للأجيال التالية إلا أن تحفظ هذه الحقائق النهائية وتعلق عليها. وكان الحرص على نقل أكبر قدر من المعلومات الموروثة فى أوجز صورة ممكنة يتمخض بالضرورة عن نصوص مكتظة بالمعانى شديدة الإبهام منظومة شعراً فى كثير من الأحيان؛ وهو ما يستدعى الشرح المفصل كلمة كلمة .

وقد اقترن هذا الشرح - الذى لا بد منه - بشغف الأزهرية المفرط بتقصي الافتراضات المتمحلة وبالألاعيب الجدلية، فكان الناتج كما لا ينتهى من التفاصيل التى لا تتصل بالموضوع، وكان من الصعب على الطلاب - إن لم يكن من المستحيل - أن يتبينوا موضوع النقاش الحقيقى فى غمرة التفاصيل أو أن يستخدموا أياً من قدراتهم عدا الذاكرة. أما على الصعيد الجماعى فإن الاستغراق فيما هو مشتق ولفظى محض كان يعنى من بين ما يعنى - إدراج المؤلفات الكبرى والأصيلة فى حيز النسيان . وهكذا أدت هذه الطريقة - التى لم يكن لها من مبرر سوى المحافظة على التراث - إلى نوع من فقدان الذاكرة الجمعى فيما يتعلق بأفضل ما فى الثقافة الإسلامية: وأعنى بذلك الثقافة الكلاسيكية.

ومن الجدير بالذكر أن إحلال ما هو مشتق محل ما هو أصيل كان أمراً شائعاً على عهد ابن خلدون ، فهو قد انتقد ذهاب « كثير من المتأخرين » فى عصره إلى اختصار الطرق والأنحاء فى العلوم فى مختصرات وعبارات قليلة محشوة بالمعانى الكثيرة.^(١) ومما هو أقرب من ذلك عهداً وأمس بموضوع اهتمامنا تلك الملاحظات الثاقبة التى أبداه رفاعه الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) فى معرض المقارنة بين الكتب التعليمية العربية والفرنسية . كتب يقول :

« ومن جملة ما يعين الفرنسيات على التقدم فى العلوم والفنون سهولة لغتهم ... وإذا أراد المعلم أن يدرس كتاباً لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبداً . فإن الألفاظ مبينة

(١) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق على عبد الواحد وافي (القاهرة ١٩٧٩) ، المجلد ٢ ، ص ١٢٤٢ .

بنفسها وبالجمله فلا يحتاج قارئ كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر...[و] ليس لكتبها [أى كتب اللغة الفرنسية] شروح^(١) ولا حواش إلا نادراً وإنما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة تكميلاً للعبارة بتقييد أو نحوه...فإذا شرع الإنسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان، تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكاة فى الألفاظ...»^(٢).

أما كتب اللغة العربية فهى فى رأى الطهطاوى على خلاف ذلك: «...إن الإنسان الذى يطالع كتاباً من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة، ويدقق فى الألفاظ ما أمكن، ويحمل العبارة معان بعيدة عن ظاهرها»^(٣).

ولنا أن نتوقع إذن اتفاق ابن خلدون ورفاعة رافع الطهطاوى على ضرر المتون الأزهرية ؛ لأنها تصرف انتباه الطالب عما هو جوهرى وتجعل من الصعب عليه إدراك المسائل موضوع البحث . غير أن هذه الفكرة لا يمكن تطبيقها فى حالة طه دون شىء من التحفظ؛ وذلك أنه لم يكن يجد صعوبة فى النفاذ إلى لب الموضوع عبر التفاصيل المتراكمة . فقد كانت مشكلته بالأحرى هى أنه طالب عظيم الموهبة لا صبر له على ما يراه علماً زائفاً أو خارجاً عن الموضوع . ومن هذا مثلاً أنه وهو يستمع إلى درس فى الحديث فهم عن الشيخ فى وضوح وجلاء ولم ينكر منه إلا تلك الأسماء التى كانت تساقط على الطلبة يتبع بعضها بعضاً، تسبقها كلمة « حدثنا » وتفصل بينها كلمة « عن » . وكان الصبى لا يفهم معنى لهذه الأسماء ولا لتتابعها ولا لهذه العنونة المملة، وكان يتمنى أن تنقطع هذه العنونة وأن يصل الشيخ إلى الحديث...»^(٤).

وفى درس آخر من دروس البلاغة كان الشيخ يفسر الجملة المشهورة « ولكل كلمة مع صاحبها مقام » : « وما أكثر ما يقال حول هذه الجملة من كلام فى

(١) « شراح » فى الأصل .

(٢) رفاعة رافع الطهطاوى ، تلخيص الإبريز فى تلخيص باريز فى محمرد فهمى حجازى (تحقيق) ، أصول الفكر العربى الحديث (القاهرة ١٩٧٤) ، ص ٢٩٧ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) طه حسين ، الأيام ، الجزء ٢ ، فى م ك ، المجلد ١ (١٩٨٠) ، ص ١٧٥ .

المختصر والمطول والأطول وفي الحواشي والتقارير، وهى على ذلك واضحة جلية لا تعمية فيها ولا غموض. وكان الشيخ كغيره من شيوخ الأزهر يقبل على تفسير هذه الجملة وتقرير ما يقال حولها من كلام كثير، مجهودا مكثودا قد ببح صوته وخارت قواه وتصيب جبينه عرقا (١).

ولكن لم يكن من السهل دائما إطفاء ظمأ الصبى إلى المعرفة أو إشباع شهوته إلى الجدل حتى فى الحالات التى كانت فيها المسألة موضوع النقاش أبعد ما تكون عن التفاهة وكان الشرح جيدا . ففى درس من دروس التفسير حضره مع الطالب المستشرق الإيطالى دافيد سانتلانا (٢) كان على الشيخ أن يفسر آية قرآنية تدل فيما يبدو على الجبر، وفسر الشيخ الآية فأحسن التفسير ولكنه أخذ يخوض فى حديث الجبر والاختيار، وجعل يرد على الجبريين ويدفع مقالاتهم؛ فانتهز طه الفرصة وأخذ يحاور الشيخ على عادة الأزهرين فى الجدل ويثير اعتراضا بعد اعتراض إلى أن نهره الشيخ، وكان مما قاله له: « حضرتك مسلم؟ » وكان من ضيق الشيخ بلجاجة الطالب أن اضطر سانتلانا إلى التدخل حتى لا يزداد الأمر سوءا... (٣).

بيد أن رد الشيخ ينبغى أن يذكرنا بأن تبرم طه بالتعليم الأزهرى لا يفسر تفسيراً كاملاً بالرجوع فقط إلى أساليب التدريس السائدة آنذاك : وذلك أن طه بعقله الطلعة ما كان ليرضى عن مضامين هذا التعليم ذاتها . ولا ينبغى أن ننسى أن الطرق الأزهرية - بما تفرضه من قيود - كانت فى نهاية المطاف تركز على فلسفة كاملة فى التربية والمعرفة ، وأن هذه الفلسفة كانت تحفل بأنواع شتى من الكوابح والتحريمات . فالاعتقاد ضمناً أن ليس هناك ما تكتشفه الأجيال المعاصرة كان يقترن بقواعد صريحة تنص على أن كل ما هو جدير بالدراسة لا بد أن يخضع - على نحو أو آخر - للمعرفة الدينية كما تحدت وفقاً للمعتقد الإسلامى القويم . ومن الضرورى إذن أن ننظر فى عناصر المقرر الأزهرى عند منعطف القرن الماضى .

(١) نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .

(٢) كان طه فى ذلك الوقت (أى فى السنة الدراسية ١٩١٠ - ١٩١١) يدرس على سانتلانا فى الجامعة المصرية ؛ ولم يكن قد قطع بعد كل صلاته بالأزهر .

(٣) طه حسين ، الأيام ، الجزء ٢ ، فى المجلد ١ (١٩٨٠) ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

بمقتضى إصلاح أدخل فى سنة ١٨٧٢ قسم المقرر الأزهرى إلى فئتين رئيسيتين تتضمنان معاً إحدى عشرة مادة دراسية إجبارية ؛ فقد كان هناك من ناحية علوم المقاصد مثل الفقه والتفسير، وكان هناك من ناحية أخرى علوم الوسائل أو العلوم الآلية مثل النحو والصرف والمنطق . وكانت الفئة الأولى من العلوم تدرس لذاتها بينما لا تدرس الفئة الثانية إلا من حيث هى أدوات تساعد على طلب علوم المقاصد . ثم وسعت هذه القائمة بمقتضى إصلاح آخر أدخل فى سنة ١٨٩٦ بتحريض من محمد عبده . وبذلك أضيفت اثنتا عشرة مادة أخرى كان بعضها علوماً حديثة . ولكن توسيع نطاق المنهج الدراسى على هذا النحو لم يدخل - كما يتبين من الجدول التالى ^(١) - أى تعديل جوهري على البنية الأساسية .

علوم إجبارية
علوم تعطى الأولوية^(٢)
أولاً - علوم المقاصد

- | | |
|-----------------------|----------------------------------|
| (١) التوحيد | (١) تاريخ الإسلام ^(٣) |
| (٢) الأخلاق الدينية + | (٢) الإنشاء + |
| (٣) الفقه | (٣) الخطابة + |
| (٤) أصول الفقه | |
| (٥) التفسير | |
| (٦) الحديث | |

- (١) الجدول منقول ، مع بعض التعديلات الطفيفة ، عن Ibrahim Salama (إبراهيم سلامة) ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .
- (٢) علوم تعطى الأولوية : هى علوم اختيارية ولكن دارسها يفضل على غيره فى الوظائف والمرتبات . انظر عبد المتعال الصعدي ، تاريخ الإصلاح فى الأزهر وصفحات من الجهاد فى الإصلاح (القاهرة : بدون تاريخ) ، ص ٥٩ .
- (٣) تدل علامة + على العلوم التى أضيفت بمقتضى قانون ١٨٩٦ .

ثانيًا - علوم الوسائل

- | | |
|------------------------|---------------------|
| (١) النحو | (١) اللغة الغربية + |
| (٢) الصرف | (٢) الأدب العربى + |
| (٣) المعانى | (٣) الهندسة + |
| (٤) البيان | (٤) تقويم البلدان + |
| (٥) البديع | |
| (٦) المنطق | |
| (٧) مصطلح الحديث + | |
| (٨) الحساب + | |
| (٩) الجبر + | |
| (١٠) العروض والقوافى + | |

وهكذا نرى أن العلوم الحديثة الإضافية قد أدرجت بدورها فى الفئتين الرئيسيتين وفقاً للتفرقة الموروثة، وأن أغلبية هذه العلوم قد صنفت إما كعلوم وسائل أو/ وعلوم اختيارية . ويلاحظ أيضاً أن أيّاً من هذه العلوم - باستثناء الأخلاق الدينية - لم يوضع فى أعلى مرتبة : أى مرتبة العلوم التى تتميز بأنها إجبارية وبأنها تقصد لذاتها فى نفس الوقت، وبذلك اقتصررت هذه المرتبة على العلوم الدينية . ومما له دلالة أيضاً أن المرتبة التى دون ذلك مباشرة ، أى مرتبة العلوم التى تعد بين المقاصد وإن كانت اختيارية، لم يحظ بها من بين العلوم الحديثة الإضافية إلا التاريخ الإسلامى وفنان ليس لهما إلا أهمية ثانوية هما الإنشاء والخطابة ؛ وأن اللغة العربية والأدب العربى وتقويم البلدان والهندسة لم يسمح لها بالدخول إلا بوصفها وسائل اختيارية .

ولتقسيم العلوم إلى مقاصد ووسائل تاريخ طويل لا يعنينا هنا إلا بقدر هيمنته على التعليم الأزهرى . ومن ثم كان ينبغي أن نلاحظ أولاً أن هذا التقسيم ينم على نحو ما عن الطريقة التى نشأت بها شتى مجالات المعرفة فى الإسلام بحيث كان محورها القرآن الكريم والسنة . وتنطبق هذه الملاحظة على علم واضح أنه من علوم الوسائل مثل علم الكلام بقدر ما تنطبق على دراسة الشعر الجاهلى^(١) . بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أيضاً أن نشأة العلوم على هذا النحو لم تحل دون تطورها بحيث أضحت فى أوج الثقافة الإسلامية مباحث مكتملة النمو قائمة بذاتها على نحو باهر . وهكذا أصبح علم الكلام ذاته مبحثاً شديداً التعقيد ميالاً إلى الفلسفة . ولابد أن محاولة الحد من هذا التطور كانت ظاهرة متأخرة نسبياً ؛ ولعلها صدرت عن تصنيف الغزالي للعلوم، فهو فى هذا التصنيف يخضع جميع أشكال المعرفة للضابط الدينى . ولعل هذا التصنيف الذى بسطه الغزالي فى إحياء علوم الدين^(٢) هو الأصل الذى انتهى مع التبسيط والتجبر إلى الصورة التى نراها فى مناهج الأزهر عند منعطف القرن الماضى .

وكان من عادة الأزهر كلما دعت الحاجة إلى التغيير أن يلجأ إلى ذلك النسق الفكرى الكامل بوصفه خط الدفاع الرئيسى . وكان الأمر يقتضى وضع كل اقتراح يرمى إلى إضافة علم جديد إلى المنهج الدراسى إلى محك ذلك الجهاز الضخم المتقن من التقسيمات الدقيقة والخانات الجاهزة . ويكفى للتدليل على حذق المؤسسة الأزهرية فى استخدام هذا الجهاز الجبار أن نذكر الفتوى الشهيرة التى أصدرها الشيخ محمد الأنابى^(٣) عندما طلب إليه أن يدلى برأيه فى إدخال العلوم الرياضية والطبيعية فى الأزهر، وكان طلاب الفتوى من مؤيدى هذه الخطوة، ولكنهم أرادوا أن يستدرجوا الشيخ فيوافق عليها رسمياً، وقدموا إليه من ثم عدداً من الأسئلة المرتبة^(٤) معتقدين -

(١) كان الشعر الجاهلى يدرس لما يحتويه من شواهد تساعد فى تفسير القرآن وإثبات فصاحته .

(٢) إحياء علوم الدين ، تحقيق بدوى طيانة (القاهرة ١٩٥٧) ، المجلد ١ ، ص ١٤ وما يليها .

(٣) شيخ الأزهر من سنة ١٨٨٦ حتى سنة ١٨٩٥ ، انظر " al-Azhar " 5 List of Rectors ، انظر عبد المتعال الصعدي ، المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٠ - ٤١ ، كانت الأسئلة مرتبة بمعنى أنها تنتقل مما هو عام إلى ما هو خاص .

لا شك - أنها لا بد أن تحظى منه برد إيجابى : هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية والطبيعية والكيمياء وغيرها من سائر المعارف ، لاسيما ما يبنى عليه منها من زيادة القوة فى الأمة بما تجارى به الأمم المعاصرين لها فى كل ما يشمله الأمر بالاستعداد؟ بل هل يجب بعض تلك العلوم على طائفة من الأمة، بمعنى أن يكون واجباً وجوباً كفائياً على نحو التفصيل الذى ذكره حجة الإسلام الغزالي فى إحياء علوم الدين ؟ وإذا كان الحكم فيها كذلك، فهل يجوز قراءتها مثل ما تجوز قراءة العلوم الآلية - من نحو وغيره - الرائجة الآن بالجامع الأزهر؟

ردا على هذه الأسئلة قدم الشيخ إجابة مستفيضة محتجاً فيها بدوره بالغزالي؛ فقال: يجوز تعلم العلوم الرياضية مباحة ؛ لأنه لا تعرض فيها لشيء من الأمور الدينية. بل يجب منها ما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوباً كفائياً. كما يجب علم الطب لذلك كما أفاده الغزالي . وأما الطبيعيات وهى الباحثة عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغييرها، فإن كان ذلك البحث على طريق أهل الشرع فلا منع منها، وإن كان على طريقة الفلاسفة فالاشتغال بها حرام، لأنه يؤدى للوقوع فى العقائد المخالفة للشرع. فاعلم - إذن - أن العلوم الرياضية والطبيعية وعلم تركيب الأجزاء [أى الكيمياء] لا بأس من قراءتها كما تقرأ علوم الآلات طالما كانت تقرأ على طريقة لا يفهم منها منابذة الشرع بحال^(١) .

ورغم هذه الحجج البديعة فى تأييد العلوم الرياضية والطبيعية فإن الاقتراح الرامى إلى إضافة هذه العلوم إلى منهج الدراسة فى الأزهر لم يوضع موضع التطبيق. وذلك أن الشيخ الأنباى - كما لوحظ بحق - قد تهرب من هذه المشكلة العملية وعالجها كأنها مسألة نظرية صرف^(٢). وهو لم يشعر بأن هناك ما يضطره إلى تغيير الوضع القائم ؛ لأن هذه العلوم لم تكن فى نهاية المطاف ذات أهمية - على ضوء عادات الأزهر فى التفكير : فقد كانت تعد جميعاً أقل شأنًا من علوم الدين،

(١) نقلًا عن نفس المصدر ، مع شىء من الاختصار .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٢ .

وكانت تحمل وصمة الاتصال بالفلسفة (ومن ثم باحتمال مخالفة الشرع) فضلاً عن أنه لم يكن لها نفع عملي واضح كالطب^(١).

والقول بأن العلوم الرياضية والطبيعية يمكن أن تعامل معاملة الوسائل ما كان على غرابته ليدعم قضية هذه العلوم ؛ لأن علوم الوسائل كانت موضع ازدراء . فكما قال طه حسين: من ذا الذى يعنى بعلوم الوسائل؟ أليس خيراً من ذلك أن يعنى بالغايات؟^(٢)

والواقع أن اتجاه الطالب طه بجل انتباهه إلى ما كان من قبيل الوسائل وانصرافه عن العلوم الأزهرية "المحترمة" إلى دراسة الأدب كان يرجع - إلى حد ما - إلى أسباب غير أدبية ؛ وذلك أن دراسة الأدب كانت بالنسبة له مهرباً من سطوة علوم الدين . وقد خطا أول خطوة فى طريق « الحرية » تحت تأثير رجل كان شيخاً أزهرياً وكان فقيهاً مبرزاً فى علوم الدين وهو الإمام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) .

وذلك أن هذا الأزهرى الذى أصيب مرتين بصدمة التعليم الأزهرى^(٣) كان هو القوة الدافعة وراء أول محاولة جادة تبذل فى العصر الحديث لإصلاح الجامعة العريقة ، وكان إصلاح سنة ١٨٩٦ الذى كان هو واضعه واسع النطاق^(٤). فقد كان يشمل من بين ما يشمل جانبين مهمين بصفة خاصة : وهما توسيع المنهج الدراسى على نحو ما رأينا آنفاً ؛ وإصلاح أساليب التدريس باستبعاد الحواشى والتقارير فى السنوات الأربعة الأولى من الدراسة والاكتفاء بالمتون مع بعض الشروح المبسطة^(٥). إلا أن الإصلاح الثانى من بين هذين الإصلاحين المعتدلين لم يوضع قط موضع

(١) ولكن لاحظ أن العلم بالحساب كان يعد ضرورياً لتقسيم الموارث وما إلى ذلك من الأمور العملية .

(٢) فى الأدب الجاهلى فى م ك : المجلد ٥ (١٩٧٣) ، ص ٥٩ .

(٣) وقعت الأزمة الأولى عندما كان محمد عبده صبياً يطلب العلم فى الجامع الأحمدي بطنطا ، أما الأزمة الثانية فقد وقعت بعد التحاق محمد عبده بالأزهر (فى سنة ١٨٦٦) بثلاث سنوات . انظر عثمان أمين رائد الفكر فى مصر الإمام محمد عبده (القاهرة ١٩٦٥) ، ص ٣٤ و ٣٥ .

(٤) للاطلاع على عرض مفصل لهذا الإصلاح انظر عبد المتعال الصعيدى ، المرجع السابق ، ص ٥٩ وما يليها .

(٥) نفس المصدر ، ص ٥٨ - ٥٩ .

التطبيق، بينما أدت المقاومة التي واجهت الإصلاح الأول - كما رأينا أعلاه - إلى خفض رتبة معظم العلوم التي اقترحت إضافتها وخاصة ما كان منها دنيوياً . ولا مجال للشك إذن في أن المنهج الدراسي المعدل كان ثمرة لمفاوضات عسيرة روعيت فيها آراء المحافظين في الأزهر وحساسياتهم. وكان على محمد عبده رغم نفوذه وحذقه أن يدفع ثمنًا باهظًا مقابل السماح - على مضض - بإدخال العلوم الحديثة، فهل يعنى هذا أنه كان الطرف الخاسر في المناورة؟ ذلك ما سنبحثه فيما بعد، أما الآن فإن الأمر يقتضى النظر فيما كان لتعاليمه وأفكاره من تأثير، وخاصة على الطالب طه حسين .

إن هذا الموضوع على أهميته لم يدرس من قبل دراسة وافية . ولقد أصاب بيير كاكيا عندما حذر من التهوين من شأن ذلك التأثير على طه حسين، وأشار في هذا الصدد إلى أن طه إن لم يكن من المقربين إلى محمد عبده وأنه إن لم يحضر من دروسه إلا درسين ، فقد كان على علم بأفكار الإمام عن طريق أخيه وصحبه الذين كانوا من أتباع المصلح الكبير من ناحية وعن طريق القراءة من ناحية أخرى^(١). ولكن هذا الرأي الذى صاغه صاحبه فى عبارة عامة يتطلب مزيداً من التفصيل والتدليل .

يبدو أن نفوذ محمد عبده بلغ أوجه فى السنوات الأولى من دراسة طه حسين وانتهى برحيل الإمام ووفاته فى سنة ١٩٠٥ . وفى غضون تلك الفترة تقريباً استطاع الإمام أن يجمع من حوله داخل الأزهر وخارجه تياراً قوياً من الأتباع المناصرين للإصلاح . وفى غضون تلك الفترة أيضاً اشتد الصراع مع المحافظين حتى بلغ ذروته. وقد كان طه بمعنى من المعانى فى غنى عن الاتصال بمحمد عبده ؛ لأن أفكار هذا الأخير كانت شائعة على أى حال . ومن المؤكد أن بعض مواقف طه الأساسية فيما يتعلق بالدين والأدب والإصلاح تشكلت فى ظل ذلك المناخ المشحون بالصراع .

ولقد أتى طه أن يشهد الاضطراب عن كثب بحيث استطاع أن يقدم فى الأيام وغيره من الأعمال معلومات جد مفيدة عن أفكار وأنشطة الشباب من أتباع

(١) Pierre Cachia, *Taha Husayn, his place in the Egyptian literary renaissance* (London 1956) p.33 and 35 .

محمد عبده . كان هذا الجيل - فيما يقول طه حسين - من أشد الناس تأثراً بالشيخ محمد عبده وتعصباً له وإيماناً به وافتتاقاً بما كان يدعو إليه^(١). وكان من بين أفراد هذا الجيل مجموعة من الطلاب يتميزون بالذكاء عن غيرهم ، وكانوا يعقدون اجتماعات دورية ليناقشوا موضوعات الإصلاح الاجتماعى والسياسى بعد أن «شب الأستاذ الإمام فى قلوبهم جذوة الثورة على ذلك الركود الذى اطمأن إليه الأزهر قروناً طوالاً»^(٢).

غير أن طه لم يقنع بدور المشاهد؛ فقد انتهى به الأمر إلى خوض المعركة وصار يعد من أتباع الإمام^(٣). ومن الضرورى إذن أن ننظر فى آراء محمد عبده التى لا بد أنها أشعلت الحماس فى قلوب أولئك الفتية، وخاصة طه . ويبدو أن أقوى تأثير وأمسّه بواقع الحال هو ما صدر عن كتاب محمد عبده عن الإسلام دين العلم والمدنية، ففي هذا الكتاب السجالي شن محمد عبده حرباً صريحة لا هوادة فيها على المحافظين من رجال الأزهر وعنف الفقهاء لجمود تفكيرهم وتمسكهم بالحرفية وخنوعهم المهين إزاء المتأخرين من أسلافهم ، ورأى أن هذا الخنوع أدى إلى إحلال المختصرات محل أمهات الكتب القديمة التى وضعها الأوائل وإلى فقدان الاجتهاد^(٤). ولا بد أن هذه الانتقادات المباشرة التى كان محمد عبده يثيرها أيضاً فى دروسه وفى أحاديثه التى يديرها فى بيته كانت تغذى وتخرج إلى حيز التعبير ما كان يعتمل فى نفوس طلابه من سخط يومى كما كانت تبت فى بعضهم روح التمرد.

وكانت هذه الانتقادات تركز بدورها على تصور إيجابى دينى وتاريخى ؛ وكان لهذا التصور تأثير أكثر حسماً وأبقى . ولسنا نريد أن نقلل من شأن إسهام الرواد

(١) فى الصيف ، ص ٤٣ .

(٢) طه حسين ، «مصطفى عبد الرازق كما عرفته» ، كتب ومؤلفون فى م ك ، المجلد ٦ (١٩٨١) ، ص ٤٤ .

(٣) انظر طه حسين ، الأيام ، الجزء ٢ ، فى م ك ، المجلد ١ (١٩٨٠) ، ص ٣٠٩ ، وانظر أيضاً لنفس المؤلف ، « محمد عبده » ، الوادى ، ١١ يولييه ١٩٣٤ .

(٤) محمد عبده ، الإسلام بين العلم والمدنية ، تحقيق محمد عاطف العراقى (القاهرة ١٩٨٧) ، ص ١٤٥ و ١٥١ و ١٧١ ، انظر أيضاً ، " Muhammad Abduh " ، J. Schacht, *El* ٢ .

الذين سبقوا محمد عبده مباشرة إذا قلنا إنه كان أول من صاغ مشكلة الإصلاح والتقدم على نحو فعال . كان يؤمن بأن التقدم لا يتحقق إلا خطوة خطوة وعن طريق التربية أساساً؛ ومن ثم عمل على توضيح طبيعة الفكر الذي يمكن في رأيه أن يطلق عملية التقدم . وكان أن أعاد تحديد التراث الإسلامى بعد أن كان يبدو لمتلقيه تركة جسيمة غير متميزة المعالم ، وذلك أن هجومه على زملائه من الشيوخ لخنوعهم إزاء المتأخرين من أسلافهم وإيمانهم الأعمى بالتقليد وإهمالهم المصادر الأصلية للإسلام وأمّهات الكتب القديمة تمخض عن تفرقة واحدة بين أسس الإسلام كما وضعها الأوائل من السلف وبين الزيادات والتحريفات التى أضافها المتأخرون ، بين المصادر الأساسية وبين التقاليد التالية . وقد استطاع محمد عبده أن يوجه هذه التفرقة الأصولية توجيهاً بارعاً بحيث يهزم بها الرجعية الأصولية : فذهب إلى أن الإسلام فى أصوله النقية على وفاق مع العلوم الحديثة والتقدم التكنولوجى . ففى رأيه أن لا تناقض ولا فارقاً أساسياً بين الدين - وفقاً لهذا الفهم - وبين استخدام العقل .

ولا يسع المرء إلا أن يعجب بالذكاء التاريخى الذى كان يتمتع به محمد عبده: فهو إذ يتحدث أساساً كفقيه فى سياق إسلامى يواجه جمهوره العميق الإيمان بالنواة الصلبة لتاريخهم، أى بنقطة البدء فى أى مبحث إسلامى ، ألا وهى واقعة الوحي كما تضمنها القرآن. وبفضل هذه العودة إلى ينبع - وهى العودة التى استند فيها إلى الغزالي حجة الإسلام - استطاع أن يقوض البناء الشامخ الذى شيدته الدجماطيقية الأزهرية . كتب يقول: « ... كان [الإسلام] أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى الأكوان، وأطلق له العنان، يجول فى ضمايرها بما يسعه الإمكان، ولم يشترط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان...»^(١) وكان من رأيه أن الإسلام منح العقل والإرادة شرف الاستقلال^(٢). وهكذا فتح الباب على مصراعيه لأول مرة فى الفكر الإسلامى الحديث لعمل العقل سواء اتخذ شكل الاجتهاد فى مجال الدين أو شكل البحث العقلى والعلمى بصفة عامة .

(١) رسالة التوحيد ، (القاهرة : دار الشعب ، بدون تاريخ) ، ص ١٥٦ ، انظر أيضاً ص ١٢٧ وما يليها .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٧ .

تلك هي الأفكار التي لابد أنها أشعلت حماس أتباع الأستاذ الإمام بما فيهم الطالب طه حسين . ولدينا في هذا الصدد وثيقة ثمينة كتبها طه حسين بالفرنسية بعد ذلك بسنوات عديدة وبقيت مجهولة منذ نشرها^(١). وفي هذه المقالة كتب طه حسين في وصف الدرسين اللذين حضرهما لمحمد عبده فقال: «... ما من شيء يمكن أن يمحو من نفسى ذكرى ذلك الصوت الذى لا نظير لعذوبة نبراته وهو يتلو آيات القرآن الكريم أو لحرارة إيمانه وقد شرع فى التفسير أو لقوة اقتناعه وهو يحاول أن يثبت أنه لا يخرج على ما أقره العلم الحديث وأنه لا يعارض فى شيء متطلبات الحضارة الغربية. وكان طلابه يستمعون إليه فى شغف وإعجاب وفيما يشبه النشوة الصوفية. فإذا انتهى الدرس دار الحديث بشأنه طيلة الأمسية ودار بشأنه الغداة. فتحدث عنه تلامذته بحماس وتحدث عنه خصومه بكراهية راسخة وإن شابتها الرهبة»^(٢).

ويبدو أن الدرس موضوع الحديث كان جزءاً من دروس الإمام فى التفسير^(٣). ولما كان الدرس قد نوقش بالتفصيل فى حضور طه بعد إلقائه بساعات فلا مجال للشك فى صدق ذاكرته . أما الفكرة التى كان لها أكبر وقع فى نفسه فهى التى رأى أن يؤكد لها : وهى التوافق الكامل بين النص المنزل وبين العلم الحديث والمدنية . وكان إثبات هذا التوافق يعتمد - فيما يقول طه حسين - على تفسير النصوص للتوفيق بين عبارات القرآن وحقائق العلم الحديث^(٤).

ولتأثير محمد عبده جانب آخر يمكن أن نستنتجه من وصف طه حسين لمنهج الإمام، فقد رأى أن تعاليم الشيخ لم تكن من حيث مضمونها تحيد فى شيء عن التقاليد الموروثة . يقول طه حسين: « كان [محمد عبده] يلتمس أسس تعاليمه فى أقدم الكتب وأكثرها حظاً من التوقيير . أما منهجه فى التدريس فقد كان جديداً كل

(١) للاطلاع على الترجمة العربية لهذه المقالة النظر طه حسين ، « الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبده ، فى من الشاطئ الآخر . كتابات طه حسين الفرنسية ، ترجمة عبد الرشيد الصادق محمودى (القاهرة ١٩٩٧) ، ص ٤٥ - ٥١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٨ .

(٣) فى تلك الفترة ذاتها كان محمد عبده يلقى أيضاً دروساً فى البلاغة والمنطق .

(٤) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

الجدّة ، وكان يعنى خروجاً كاملاً على الإسكولائية الأزهرية، فقد كان يبدى الإهمال - عامداً ومغالياً فى بعض الأحيان- بالقياس إلى كل ماله علاقة بالألفاظ ، بينما يولى عناية فائقة لكل ما يتعلق بالأفكار . وكان يحرص أشد الحرص على كل ما من شأنه أن يحفز على التفكير والتمعن، وكان يسائل تلاميذه ويحثهم على أن يسائلوه . ثم كان يحاول أن يدفعهم إلى الإجابة ويناقش إجاباتهم وينتهى بذلك إلى أن يفتح لهم آفاقاً غير معروفة . ولقد غرس فيهم الرغبة فى الاطلاع والنقاش، ودفعهم إلى حب حرية الفكر، وعلمهم التعبير عن آرائهم»^(١) .

وقد تساعدنا هذه الملاحظات التى قدمها طه حسين بالاستناد إلى ما شاهد بنفسه على فهم التأثير القوى الذى أحدثه محمد عبده . ومن ذلك أن أفكار هذا الأخير بشأن استمرار صلة الإسلام بالعصر لم تكن فقط حسنة الوقع على مستمعيه ؛ بل لابد أنها بهرتهم أيضاً فنزلت من نفوسهم منزلة الكشف الجديد، وذلك أن هذه الأفكار المدعمة بالشواهد والنصوص بعثت أمامهم ماضياً مجيداً ظل مطوياً لزمان طويل تحت ركام خانق من المعارف اللفظية، ولابد أن إبصار هذا الماضى كتاريخ محدد المعالم نسبياً كان له فى حد ذاته تأثير يشبه تأثير نفحة من الهواء المنعش. ورغم أن أفكار محمد عبده كانت تفتقر إلى الجدّة فإنها لم تكن مألوفة بحال، فقد كانت تستمد قوتها من أنها تسترعى الأنظار إلى ما هو قريب غاية القرب وإن كان منسياً منذ زمن طويل .

ولابد أن منهج محمد عبده كما وصفه طه حسين كان له دور يعتد به فى هذا الصدد، وذلك أن رجوعه إلى المصادر الأولى وإعطاءه الأولوية للأفكار -بدلاً من الألفاظ- وإشراكه لمستمعيه فى نقاش حر عن الموضوع قيد البحث كان له لابد أثر فى تحرير العقول . ذلك فيما يرى طه حسين هو التراث الباقي لمحمد عبده. يقول فى هذا الصدد: «... لا شك أن الشيخ محمد عبده هو محرر العقل فى مصر»^(٢) .

غير أننا ينبغى أن نبين حدود هذه الحرية ، على الأقل فى حالة طه . فقد وردت فى الأيام إشارات توحى بأن الفتى الأزهرى أصبح تحت تأثير محمد عبده أشبه شىء

(١) نفس المصدر ، ص ٤٧ .

(٢) نفس المصدر .

بـ « المفكر المتحرر من قيود الدين » . فقد كان من عادته عند رجوعه إلى أهله أثناء الإجازة الصيفية أن يروع الناس بأرائه « الضالة المضلة » . يقول مؤلف الأيام : « تسامع... الناس جميعا بمقالات هذا الصبي وإنكاره لكثير مما يعرفون، واستهزائه بكرامات الأولياء، وتحريمه التوسل بهم وبالأنبياء، وقال بعضهم لبعض : إن هذا الصبي ضال مضل »^(١) . وفي حادثة أخرى تفوه الصبي بعبارة شنيعة تعليقاً على قول المبرد في كتابه الكامل : « ومما كفرت الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره » : إنما يطوفون برمة وأعواد » . فأنكر الصبي أن يكون في كلام الحجاج ما يكفي لتكفيره وقال لقد أساء الحجاج أدبه وتعبيره، ولكنه لم يكفر »^(٢) .

ويسبب هذه الحوادث وأمثالها جلب الصبي على نفسه غضب سلطات الأزهر . غير أنه من الخطأ أن يقال إن طه كان حينذاك « يتشهى الإلحاد » كما روى زكى مبارك.^(٣) فحقيقة الأمر أن طه كان بكل بساطة ينادى ببعض آراء محمد عبده الأصولية والمعتزلية ، فقد كان يرى على غرار الإمام ضرورة الالتزام الصارم بالمبادئ الأساسية للإسلام كما تقررت في القرآن والسنة وكما يوافق عليها العقل . فكل ما خلا ذلك ليس إلا تحريفاً وبدعة .

كما ينبغي أن نؤكد أهمية الأصولية المستنيرة كما اعتنقها محمد عبده بالنسبة لتزايد اهتمام طه بالأدب، وذلك أن اهتمام محمد عبده بإحياء المؤلفات العربية الكبرى وإصلاح اللغة العربية بصفة عامة^(٤) لابد قد أسهم في تنفير طه من مواد الدراسة والكتب الأزهرية المألوفة وفي انصرافه عنها في نهاية الأمر . وفي بادئ الأمر أقبل طه بمساعدة أخيه على قراءة الأعمال الأدبية التي أوصى بها الإمام ، ولكنه سرعان ما تعلم كيف يطلب المصادر الأولى ويطلع عليها في دار الكتب^(٥) ثم خطا طه

(١) الأيام ، الجزء ٢ ، في م ك ، المجلد ١ ، ص ٣٠٩ ، وانظر أيضاً لنفس المؤلف « محمد عبده » ، الوادي ، ١١ يولييه ١٩٣٤

(٢) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٣٦٠ .

(٣) زكى مبارك ، البدائع ، المجلد ١ (القاهرة ١٩٥١) ، ص ٧١

(٤) كان ذلك إحدى الغايات الرئيسية لمحمد عبده كما حددها في الشذرة التي كتبها من سيرته الذاتية . انظر محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (القاهرة ١٩٣١) ، المجلد ١ ، ص ١١ .

(٥) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٢٥٣ و ٢٥٩ - ٢٦٠ .

خطوة أخرى حاسمة في الطريق إلى الأدب عندما أخذ يختلف إلى دروس الشيخ سيد على المرصفي الذي كان يحظى بحماية الأستاذ الإمام ويتولى بتكليف منه تدريس الأدب ، تلك المادة التي كانت بين علوم الوسائل كما كانت موضوعاً اختيارياً في منهج الأزهر. وبفضل المرصفي اتخذت أصولية محمد عبده طابعاً أدبياً .

ولا يمكن لقارئ الجزء الثاني من الأيام أن يفوته أن يلاحظ الأهمية التي يعلقها المؤلف على اكتشاف الأدب: فالفصل التاسع عشر الذي خصصه لهذا الاكتشاف والذي يأتي قرب نهاية الكتاب بعد وصف مطول للبؤس الذي كان يحيا فيه طلاب الأزهر ولضيق طه بالأزهر يمثل نقطة تحول في حياة البطل ويفضي بهذا الجزء من القصة إلى نهاية سعيدة . وفي قلب هذا المشهد الذي يشع بالنور والأمل يقف المرصفي شامخاً؛ إذ يصفه طه حسين في مقاطع تعد من أبدع نثره دون أدنى شك .

فالشيخ سيد على المرصفي (حوالي ١٨٦٢ - ١٩٣١) كما وصفه طه حسين رجل قوى لكنه وحيد يسبح ضد التيار ويحيط به أعداء لا يكف عن مهاجمتهم دون هوادة ، رجل لا يعدل عظمته إلا ضعفه كإنسان . بل إن لقصته جانباً يمكن أن يوصف بأنه مأساوي . وذلك أن تبحره في العلم وصرامته وخشونته تجد ما يعادلها على نحو رائع في صفاته الخيرة المحببة مثل حبه الأبوى لطلابه المقربين وعزة نفسه وثباته في وجه الفقر ورفعته الرفيع بأمه التي حطمتها الشيخوخة^(١) .

والعجيب في أمر هذا الأزهرى القح أنه استطاع أن يخرج من تعليمه التقليدي سليماً معافى وأصبح دون مساعدة من أحد حجة بلا منازع بين أبناء جيله من حيث العلم بلغة العرب وأدبهم . ولا يقل عن ذلك إثارة للعجب طريقة الرجل في استخدام الأدب بوصفه نقداً للذوق ووسيلة للتحرر.

كان يعتمد في تدريسه على عدد من أمهات الكتب القديمة ومن بينها الكامل للمبرد والحماسة لأبي تمام . وكان استخدام هذه الكتب - التي طال نسيان الأزهرية لها - أمراً ينطوي في حد ذاته على تجديد . فقد ألفت هذه الكتب وفقاً لتعريف

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥٦ وما يليها .

عريض للأدب^(١). وكانت بمثابة خزائن جبارة للتراث العربى شعره ونثره فى كل ميادين المعرفة ، وكانت تقدم من ثم صورة متعددة المناظر والألوان لتاريخ العرب وإبداعهم، وكانت على خلاف الكتب الأزهرية تنتقل بحرية من موضوع إلى آخر دون قيد أو تسمية .

وكان تدريس المرصى فى التعليق على تلك المصنفات . وكثير هم الأزهرية الذين تزاحموا على دروسه ليكتشفوا على الفور أنهم لا يستطيعون الاستمرار فيها ، وذلك أن عمل المرصى بأسره بدا لهم غريباً كل الغرابة شاقاً غاية المشقة دون أن تكون له مع ذلك قيمة كبيرة نظراً لمكانته الدنيا فى المنهج الدراسى . ولم يكن الشيخ فى تدريسه يسير على النهج المتوقع ؛ لأنه لم يكن يتخذ من الحماسة متناً مع ما يرافقه من الشروح المتعددة^(٢). يضاف إلى ذلك أن سخريته من أساتذتهم وكتبهم الأزهرية - على ما فيها من تسلية - كانت من الخشونة بحيث لا يحتملونها^(٣). أما المرصى فقد كان يراهم غير مستعدين لدرسه الذى يحتاج إلى الذوق ولا يحتمل الفنقلة^(٤). وكان يفضل أن تكون له حلقة صغيرة من الطلاب الذين يتحملون مشقة تمحيصه الصارم للنصوص القديمة بالإضافة إلى قدرتهم على التذوق .

وكان المرصى مثله مثل محمد عبده يرى ضرورة العودة إلى المصادر الأولى، لولا أن أصوليته كانت أدبية. ولم يكن أبطاله هم المسلمون الأوائل بل عرب البادية الجاهليون الذين ظلت مؤلفاتهم نماذج تحتذى فى صدر الإسلام وفى ظل الأمويين. ومن ثم كان أجود الشعر فى رأيه أقرب إلى المثل العليا الجاهلية من جزالة ورصانة

(١) « إذا أرادوا [أى علماء اللغة] حدّ هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل بطرف ... » ابن خلدون ، المرجع السابق ، المجلد ٣ ، ص ١٢٢٧ .

(٢) الواقع أن المرصى فى تدريسه لديوان الحماسة كان يستخدم شرح الخطيب التبريزى على هذا الكتاب وإن كان يفعل ذلك بطريقته النقدية الخاصة . انظر طه حسين ، تجديد ذكرى أبى العلاء فى م ك المجلد ١٠ ، ١٩٧٤ ، ص ١٠ - ١١ . إلا أن طلبية الأزهر من الطراز المألوف مثل أخى طه وأصحابه كانوا « يرون الحماسة متناً وكتاب التبريزى شرحاً ، وكانوا يأسفون على أن أحداً لم يكتب على هذا الشرح حاشية » .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٥٠ .

(٤) نفس المصدر .

ومتانة وتمكن من اللغة تمكناً يحول دون طغيان الضرورة الشعرية^(١). وكان من الطبيعي أن ينفر المرصفي من المتأخرين من شعراء الحضر مثل مسلم بن الوليد وأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء المعري لتكلفهم وولعهم بالبديع وكلفهم بفلسفة اليونان ومنطقهم، وكان شعرهم - وفقاً للمرصفي - يخضع المعنى للفظ ومصنوعاً فاسداً^(٢).

ولما كان المرصفي لم يترك شرحاً نظرياً لطريقته في النقد، فإن العرض الموجز الذي قدمه طه حسين لمنهج أسقاده نو أهمية باللغة : « ... ما أعرف شيئاً يدفع النفوس الناشئة إلى الحرية والإسراف فيها أحياناً كالأدب ، وكالأدب الذي يدرس على نحو ما كان الشيخ المرصفي يدرسه لتلاميذه حين كان يفسر لهم الحماسة أو يفسر لهم الكامل بعد ذلك . نقد حر للشاعر أولاً، وللراوى ثانياً، وللشرح بعد ذلك، وللغويين على اختلافهم بعد أولئك وهؤلاء، ثم امتحان للذوق ورياضة له على تعرف باطن الجمال في الشعر أو النثر، في المعنى جملة وتفصيلاً، وفي الوزن والقافية وفي مكان الكلمة بين أخواتها، ثم اختبار للذوق الحديث في هذه البيئة التي كان يلقي فيها الدرس، وموازنة بين غلظة الذوق الأزهرى ورقة الذوق القديم، وبين كلال العقل الأزهرى ونفاذ العقل القديم، وانتهاء من كل ذلك إلى تحطيم القيود الأزهرية جملة، وإلى الثورة على الشيوخ في علمهم وذوقهم وفي سيرتهم وأحاديثهم... »^(٣).

ولا ينبغي أن ندهش لأن هذا الوصف لمنهج المرصفي يتخذ لهجة البيان (الثوري)، فالنغمة فيه تتصاعد شيئاً فشيئاً حتى تبلغ الذروة عند الانقضاخ النهائي على الذوق الأزهرى والحساسية الأزهرية. وذلك أن الإنجاز الذي حققه المرصفي يعد في واقع الأمر « ثورة » نقدية ينبغي وصف ما تنطوى عليه. إن التقدم الأساسي الذي أحرزه هو ترسيخ وضع النصوص الأدبية بوصفها ظواهر جمالية أي بوصفها موضوعات للتذوق وأحكام القيمة. ففي هذا السياق - على وجه التحديد - يمكننا أن نفهم بغض المرصفي لمسائل النحو والصرف واهتمامه بدلاً من ذلك بـ « اللغة والنقد »

(١) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٩ - ١٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠ .

(٣) الأيام ، الجزء ٢ ، في م ك ، المجلد ١ ، ص ٢٥٤ .

أو لنقل بمزيد من التحديد اهتمامه بـ « مناحي الإعراب في فنون القول »^(١). فبدلاً من اتباع النهج السائد آنذاك وما يستتبع من إمعان في متاهات التحليل النحوي ونسيان العنصر الأدبي بالمعنى الدقيق للكلمة، كان المرصفي يحرص على إبراز الخواص المكونة والمفسرة لـ « جمال النصوص » . وكان تمحيصه اللغوي والنقدي على عكس التحليل النحوي ذا طابع أسلوبى أو بلاغى ، وكانت العملية النقدية التى تشمل الشاعر والراوى والشارح تستهدف أساساً وضع النص المعنى فى أفضل الظروف المواتية لاستقباله، فكان الشيخ يصوب النص (كلما ورد فيه فيه خطأ أو تحريف) ويعيده إلى سياقه الطبيعى سواء أكان أدبياً أو تاريخياً . وهو إذ يفعل ذلك يعنى بسلامة النص ووحدته^(٢) ويقدم معلومات مستفيضة عن مؤلفه^(٣). وما إن يستكمل هذا العمل العلمى حتى يدعو طلابه إلى النظر فى خواص النص الجمالية، وعند هذه النقطة - فيما يبدو - كان تحليل الشيخ للأسلوب يقترب باضطلاع الطلاب بدور إيجابى ، فقد كان تدريس الشيخ مثله مثل تدريس محمد عبده يتخذ طابعاً سقراطياً ، فيدعى الطلاب إلى المشاركة وإصدار الحكم بأنفسهم^(٤). وكان هذا التواطؤ النابع من اشتراك الطرفين فى خبرة جمالية واحدة منطلقاً لشن الأستاذ لهجومه المدمر الأخير، وكانت المحصلة النهائية أن يشعر الطلاب الذين يختلفون إلى هذه الدروس ويصبرون على المحنة^(٥) أنهم صاروا أحراراً . يصف طه حسين نقد أستاذه بأنه « نقد حر » ؛ وكانت عملية النقد بأكملها تستهدف تحطيم أغلال الأزهر. ويبدو أن هناك رابطة لا تنفصم بين الأدب، وخاصة إذا ما درس على طريقة المرصفي، وبين الحرية. والواقع أننا لا يمكن بحال أن نفهم دور الأستاذ فى التطور

(١) طه حسين ، تجديد ذكرى أبى العلاء ، ص ٩ - ١٠ .

(٢) سيف النصر الطلخاوى ، شيخ أبناء مصر سيد بن على المرصفي (القاهرة ١٩٨٤) ، ص ١٧٣ وما يليها .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٤١ وما يليها .

(٤) انظر زكى مبارك ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٥) يروى زكى مبارك (نفس المصدر ، ص ٧٣) أن الدرس من دروس المرصفي كان يستغرق ثلاث ساعات .

العقلى لطفه حسين إلا إذا حللنا هذا المفهوم المركب للحرية^(١). فالمرصفي يوصف بأنه حر من حيث إنه أديب : « كان يصطنع وقار العلماء إذا لقي الناس أو جلس للتعليم... فإذا خلا إلى أصدقائه وخاصتهم عاش معهم عيشة الأديب، فتحدث في حرية مطلقة عن كل إنسان وعن كل موضوع، وروى لخاصته من شعر القدماء ونثرهم وسيرتهم ما يثبت أنهم كانوا أحراراً مثله ، يقولون في كل شيء وفي كل إنسان لا متنطعين ولا متحفزين، كما كان يقول»^(٢) واتصاف الرجل بالحرية بهذا المعنى يعنى تمتعه بصفات خلقية وعقلية مثل الشجاعة واتساع الثقافة وتعدد المواهب والطلاقة .

ولكن ليس من الدقة أن يقال إن المرصفي لم يكن « حراً » إلا في صحبة خلصائه: فالواقع أنه كان يحقق أعلى درجات الحرية عندما كان يجلس للتعليم : ففي هذا السياق يصبح الأديب ناقدًا، وذلك أنه وقد تخلص من طغيان التحليل اللفظي (على الطريقة الأزهرية) وأدى ما يقتضيه الأمر من عمل لغوي وعلمي يجد نفسه في نهاية المطاف وجهًا لوجه مع مواده الحقيقية ، أى النصوص بوصفها موضوعاً للذوق. وعندئذ يتعين عليه أن يصدر حكمه عليها . وعندما تظهر النصوص صفاتها الجمالية يتخذ الناقد وضعه بوصفه ذاتاً مستقلة حقاً أى أنه يصبح قادراً على الاستجابة والفعل .

وفي مفهوم الحرية المركب - كما يستخدمه طه حسين - عنصر آخر نجده في المقدمة الطويلة الرصينة التي صدر بها كتابه في الأدب الجاهلي (١٩٢٧)، فهو يدعو فيها إلى ضرب من الحرية لا يتمتع بها الأديب وإنما يتمتع بها الأدب ذاته . ولكي يكون الأدب حراً بهذا المعنى ينبغي أن يدرس لا بوصفه وسيلة بل بوصفه غاية في حد ذاتها: « أريد أن يظفر الأدب بهذه الحرية التي تمكنه من أن يدرس لنفسه... فالأدب عندنا وسيلة إلى الآن، أو قل إن الأدب عند الذين يعلمونه ويحتكرونه وسيلة منذ كان عصر الجمود العقلي والسياسي. بل قل إن اللغة كلها وما يتصل بها من علوم وأداب وفنون لاتزال عندنا وسيلة لا تدرس لنفسها، وإنما تدرس لتحقيق

(١) للاطلاع على مناقشة مفصلة لهذا المفهوم انظر عبد الرشيد الصادق [محمودى] ، « الأدب والحرية » ، الهلال ، أبريل ١٩٨٥ ، ص ٨ - ١٥ .

(٢) طه حسين ، الأيام ، الجزء ٢ ، فى م ك ، المجلد ١ ، ص ٢٥٥ .

غرض آخر...وهى من هذه الناحية مقدسة ومبتذلة: مقدسة لأنها لغة القرآن والدين، وهى تدرس فى رأى أصحاب الأدب القديم من حيث هى وسيلة إلى فهم القرآن والدين، ومبتذلة لأنها لا تدرس لنفسها ولأن درسها إضافى ... ولأن الفقه خير منها وأشرف، ولأن التوحيد خير منها وأشرف..»^(١) .

وعندما دعا طه حسين إلى حرية الأدب بهذا المعنى كان قد ابتعد عن الأزهر وعن المرصى واعتنق وجهة نظر تاريخية فى دراسة الأدب، ولكن الحرية التى كان يطالب بها للأدب حينذاك كانت قد تحققت - ولو إلى حد ما - على يدى شيخه الأزهرى . وذلك أن الصبغة الأدبية الخالصة التى اتسم بها مشروع المرصى لابد قد ساعدت على تكريس الأدب بوصفه موضوعاً مستقلاً ، فقد كان هو أول من درس النصوص الأدبية بوصفها موضوعات جمالية أو موضوعات للمتعة المحض والتقدير الخالى من الغرض . وبينما أدى محمد عبده دوره كفقيه ومصلح دينى خرج المرصى عن الإطار المرجعى الدينى تماماً . وبينما ساعد أولهما جمهوره على النظر فيما يتجاوز النظام الأزهرى فإن ثانيهما قدم مثلاً محدداً للتفكير بمعزل عن الأزهر والدين معاً . وإذا طرح السؤال عما إذا كان محمد عبده قد انهزم أمام خصومه المحافظين فى التفاوض بشأن إصلاح المنهج الدراسى فى الأزهر، فإن الإجابة ينبغى أن تكون إذن بالنفى . وذلك لأن الثمن الفادح الذى كان عليه أن يدفعه لكى يجد فى هذا المنهج منفذا للعلوم الحديثة لم يكن بغير طائل، فالرجل الذى عهد إليه بتدريس الأدب كان بمثابة حصان طروادة داخل القلعة الأزهرية^(٢) .

بل لقد يقال إن المرصى كان له فضل التمهيد للنهج التاريخى لأن طريقته فى النقد وإن كانت لغوية أساساً انطوت على صورة أولية من الوعى التاريخى . فهو فى عمله كمحقق وشارح للمصنفات القديمة كان يستعين بمعرفته المتعددة الجوانب

(١) فى الأدب الجاهلى فى م ك ، المجلد ٥ ، ١٩٧٣ ، ص ٥٨ .

(٢) للاطلاع على قائمة بالأدباء المرموقين الذين تعلموا على يدى المرصى انظر محمد كامل الفقى ، الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة (القاهرة ١٩٦٥) ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

بماضى العرب فضلاً عن أنه كان يرتب مادته ترتيباً تاريخياً^(١). يضاف إلى ذلك أن نزعة المرصفي الكلاسيكية مثلها مثل أصولية محمد عبده لابد قد مهدت الطريق لاتباع نهج تاريخي حقيقي لأنها ميزت بين « عصر ذهبي » أول وبين عصر متأخر من الانحطاط في نطاق ماض كان غائم المعالم قبل هذه التفرقة .

والواقع أن طه حافظ على الدروس الأساسية المستفادة من شيخه الأزهرى حتى بعد أن تجاوزه؛ فقد وسع مع مرور الزمن نطاق اهتماماته وأفضلياته بحيث تخطت الفترة الكلاسيكية وصار يفسح مكاناً للشعراء والمجددين الذين كان المرصفي يحقرهم ، بل وصار يمجدهم أحياناً . وكان الأمر يقتضى وضع كل الشخصيات والظواهر التاريخية في نطاق التاريخ الشامل وإخضاعها للدراسة المنظمة من حيث علاقتها بمجتمعاتها . ومع ذلك فإن طه لم يهجر قط النقد اللغوي أو الأسلوبى على طريقة المرصفي ، بل لقد ظل يحذو حذو شيخه في كلفه بالفصاحة وبغضه لطغيان الضرورة الشعرية^(٢). فإذا جاز لنا أن نستخدم فكرة هيكلية قلنا إن طه حسين قد تجاوز إسهام المرصفي مع استبقائه في المركب النهائى الذى توصل إليه^(٣). وما إن توصل طه إلى هذا المركب حتى صار نقده لغوياً فى جانب منه تاريخياً فى جانب آخر.

لقد كان تأثير محمد عبده والمرصفي على طه من الأهمية بحيث يمكن أن يقال إن طه تجاوز الأزهر وهو مازال طالباً فيه : فقد أصبح بفضل هذين الشيخين على وعى بالمصادر الأولى للثقافة العربية الإسلامية . وعندما تعلم هذا الدرس الأساسى عن ذاتيته الثقافية أصبح مستعداً للتقدم نحو اعتناق النزعة الإنسانية والحدأة ، ومما يدعم صدق هذه الفكرة أن عودة طه إلى الينابيع اقترنت أيضاً بالعودة إلى قيم ومثل

(١) سيف النصر الطلخاوى ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٢) انظر على سبيل المثال كيف انتقد طه حسين شوقي وحافظ لنزولهما على حكم الضرورة الشعرية فى كتابه حافظ وشوقي ، فى م ك ، المجلد ٢ ، ١٩٧٤ ، ص ٤٤٨ وما يليها .

(٣) أعنى هنا فكرة هيكل التى يعبر عنها فى الألمانية بكلمة " aufhebung " . ففى الديالكتيك الهيجلى ثمة حركة من القضية إلى النقيض إلى التآليف بين الجانبين . وفى هذه الخطوة الأخيرة يحدث الـ " aufhebung " إذ ينطوى التآليف على تجاوز الخطوتين الأوليين أو طرحهما جانباً مع استبقائهما فى صورة جديدة .

عليها بعينها مثل الإيمان بالعقل وضرورة استيعاب التقدم الحديث (في حالة محمد عبده) واتساع الثقافة والحرية (في حالة المرصفي) ، وهي العودة التي كانت شرطاً لا بد منه لأي محاولة تبذل من أجل تقبل ثقافة أخرى .

ومن هذه الناحية قد يبدو لأول وهلة أن محمد عبده كان أكثر الشيخين تقبلاً للجديد؛ وذلك أنه أكد على نحو صريح غاية الصراحة أن الإسلام الحقيقي على اتفاق كامل مع العقلانية والإنجازات الغربية في مجالات العلم والتكنولوجيا. بيد أن اتخاذ محمد عبده من الدين مرجعاً أساسياً كان على وجه التحديد سبب انتهاء طه إلى أن فكر الأستاذ الإمام بالومعرقل للتقدم ، فهو في سنة ١٩٢٤ - على سبيل المثال - يرى أن محمد عبده لم يعد مواكباً للعصر وأن لباقتة في إحداث التجديد تبدو مستحزاة تعوزها الجسارة ، وأن آراءه بشأن العلم والدين لم تعد تتجاوب مع التقدم الذي أحرزته شعوب الشرق في طريقها إلى الحرية الكاملة . فقليل هم المسلمون الذين يهتمون بالتوفيق بين الإيمان والمعارف الحديثة في غمرة اندفاعهم نحو الحضارة الغربية. كما رأى طه حسين أن محاولة محمد عبده تبرير حقائق العلم عن طريق تفسير آيات القرآن توقع الضرر بالجانبين؛ فهي تتناول نص الكتاب الكريم بعنف وتعوق التقدم العلمي^(١) .

وواقع الأمر أن المرصفي على صلابته وضيق أفقه كان له التأثير الأقوى والأبقى نظراً لأن آراءه في الحرية الأدبية وممارسته لها بثت في نفس طه التفتح الضروري لاستقبال التأثيرات الأجنبية واستيعابها. ورغم أن محمد عبده والمرصفي قد أسهما كلاهما في اكتشاف ما أسماه طه حسين فيما بعد بـ « التراث القديم الحي »^(٢) فإن الفضل يرجع إلى المرصفي خاصة في إسباغ الطابع الأدبي على هذا التراث وفي

(١) « الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبده » في طه حسين ، من الشاطئ الآخر ، ترجمة عبد الرشيد الصادق محمودي (القاهرة ١٩٩٧) ص ٤٩ - ٥٠ .

(٢) أدبنا الحديث ما له وما عليه ، في م ك ، المجلد ١٦ ، ١٩٨١ ، ص ٣٥٥ ، لاحظ كيف يفرق طه على غرار محمد عبده بين ما أسماه « التراث الحي » وبين « التراث القديم الجديد » ، وهو التراث الذي يصفه بالبلى والسماجة والذي يرجع إلى العصر العثماني . نفس المصدر .

تشكيل استعداد طه الذي كان أدبياً أساساً لاستقبال الثقافات الأجنبية . وكل ذلك كان جزءاً مما عناه طه ضمناً عندما قال إنه يدين بحياته العقلية كلها لأستاذين عظيمين هما سيد على المرصفي وكارلو نالينو ، وأن كل ما تعلمه بعد هذين الأستاذين في مصر وفي خارج مصر قد أقيم على الأساس الذي تلقاه منهما^(١) .

بيد أن كل هذه الدروس ما كان يمكن أن تؤثر في طه تأثيراً كبيراً لولا أنه كان يتمتع باستعداد خاص لتلقيها . وقد أصاب بيير كاكيا عندما رأى أن طه بدأ يكتشف نفسه عندما اكتشف الأدب^(٢) . فلماذا تحققت ذاتية الفتى عن طريق الأدب ، هنا ينبغي - فيما أعتقد - أن نشير إلى دلالة أخرى من دلالات الحرية الأدبية، دلالة تتصل خاصة بمعاناة طه لمحبيه ، وكانت من ثم تقع من فكره موقع الأساس بحيث لم يصفها قط على نحو صريح . فقد كان للأدب في حالته دور تحريري نظراً لأنه يحطم الحواجز بين الذات والعالم . ولقد كان الأدب في حالته نوعاً من الخطاب المسموع أو الكلام الذي يصل إلى متلقيه بفضل خواصه الصوتية والجمالية ويعقد الصلة بين القائل والسامع ويدمج الطرفين في عالم البشر . وكان للكلمة المنطوقة من القوة ما يتيح لها اختراق ظلمة العمى وإنشاء مجتمع أعلى قوامه وحدة الشعور والتواصل .

غير أن هذه المعانى متغلغلة في فكر طه حسين بحيث يصعب الاختيار من بين الأمثلة العديدة التي يمكن أن توضحها . وقد يحسن أن نبدأ بالنظر في اعتقاد طه حسين أن الأديب يشترق إلى من يتلقى عمله . فالمرصفي كما رأينا كان حراً وفي أحسن حالاته عندما يتحدث في الأدب إلى أصدقائه المقربين . بل إن شهوة الاتصال هي أهم ما يميز الأديب في رأى طه حسين . نجد هذا واضحاً أشد الوضوح في رواية أديب التي أريد لبطلها أن يكون صورة متطرفة ومأساوية لطبيعة الأديب . ومن هنا نراه مدفوعاً - دون هوادة - بقوة خفية كأنها شيطان داخلي إلى الاتصال بالغير، وليس لوحده ما يعادلها إلا أحاديثه التي لا تنقضى .

(١) انظر تقديم طه حسين لكتاب نالينو تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية (القاهرة ١٩٧٠) ، ص ٨ - ٩ .

(٢) بيير كاكيا ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

ولا يقل عن ذلك إثارة للانتباه ما يفترضه طه بشأن استعداد الآخرين للاستجابة للرسالة الأدبية وسهولة قيام مجتمع من الشعور المشترك بين الفنان والجمهور، ولعل طه كان أقرب ما يكون من التعبير الصريح عن هذا الافتراض عندما حاول في مقالة عن الكاتب في المجتمع المعاصر أن يوضح الطبيعة الاجتماعية للأدب، ومما له دلالة هنا أنه اختار لهذا الغرض مثال المغنى . كتب يقول : « في لحظة من حياة المجتمع رفع رجل عقيرته بالغناء، فأصغى له الآخرون ، وراقت لهم أغنيته فأرادوا الاستماع إليها من جديد، وهو بدوره قد سرّ لأنه وجد من يصغى إليه، وأجابهم عن طيب خاطر إلى ما أرادوا؛ وبذلك نشأ تجاوب بين هذا الرجل وبين الجمع الذي أحاط به؛ ومن ثم نشأ نظام اجتماعي»^(١).

وإننا لنجد الرغبة الملحة في المشاركة في مثل ذلك المجتمع الرفيع كامنة في نزوع طه على الدوام إلى إسباغ صبغة الحديث على ما يكتب: فأعماله حتى ما كان علمياً منها تتخذ شكل الحديث إن لم تتخذ شكل الحوار الصريح . وهو يفترض دائماً وجود شخص يخاطبه صراحة أو ضمناً . وقد يحدث أحياناً أن يعهد إلى القارئ نفسه بأداء هذا الدور.

والواقع أن استعداد طه لتلقى الكلمة المنطوقة خاصة قد نمت قبل وصوله إلى الأزهر بزمان طويل . فهو في طفولته المبكرة في قريته بصعيد مصر عرف سحر الأدب عندما كان يستمع إلى الشعراء الجوالين، فلما استمع - بعد فترة من الوحدة في القاهرة ومن اليأس في الأزهر- إلى محمد عبده بصوته العذب الذي لا ينسى وإلى المرصفي الذي كان بدوره صاحب « صوت شجي حنون »^(٢) وقعت كلمات الشيخين على تربة خصبة. وكان ما قاله المرصفي صراحة أو ضمناً عن الحرية (الأدبية) مطابقاً ومصدقاً لما عرفه طه عن طريق الخبرة الحية . وهكذا حقق طه نفسه عن طريق الأدب. وعلى هذا النحو بذرت بذور نزعة الإنسانية كما اعتنقها فيما بعد، وذلك أن التحرر الذي أتيح له عن طريق الأدب كان يعنى اتساع الثقافة والعودة إلى المصادر الأولى والاندماج في مجتمع أعلى .

(١) « الكاتب في المجتمع المعاصر » في طه حسين ، من الشاطئ الآخر ، ص ١٣٣ - ١٦٦ ، ص ١٥٧ .

(٢) زكي مبارك ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

الفصل الثالث

اكتشاف التاريخ

رأينا فى الفصل السابق كيف استطاع طه وهو لم يزل طالباً فى الأزهر أن يتحرر من ربقة التعليم الأزهرى التقليدى بفضل تأثير محمد عبده وسيد على المرصفى؛ فقد كان كلا الأستاذين يدعو إلى العودة إلى ينبوع أصلى نقى وراء ركام المعارف المدرسية. كان أولهما يعتقد أن نصوص الإسلام الأساسية هى المعيار الذى يستند إليه فى استقبال العلوم والحضارة الحديثة ، بينما كان ثانيهما يرى أن الأدب القديم - والشعر الجاهلى بصفة خاصة - هو المثل الأعلى الذى يحتذى فى تحقيق النهضة الأدبية الحديثة. وسوف نتناول فيما يلى مرحلة أخرى فى تطور طه حسين ، مرحلة استطاع فيها أن يتخلى عن أصولية محمد عبده وعن كلاسيكية المرصفى الجديدة وأن يعتنق وجهة نظر حداثة . ومن الملاحظ أن هذه المرحلة التى تتطابق - إلى حد بعيد - مع سنى الدراسة التى قضاها طه فى الجامعة المصرية الوليدة ومع ظهور كتاباته المبكرة قد لقيت إهمالاً واسع النطاق ، وذلك لأسباب ستوضح فيما بعد. غير أننا لا نبالغ إذا قلنا إن الفترة موضوع البحث كانت أهم فترة فى تعليم طه حسين، ففيها تلقى على يدى أحمد لطفى السيد وأساتذته فى الجامعة أول دروسه فى الفكر الغربى ومناهج البحث الحديثة. وفى تلك الفترة عرف لأول مرة - وكما لم يحدث له من قبل ولا من بعد - حالة من الفوران والانتشاء ناتجة عن التقاء الثقافتين. وفى نفس الفترة توصل طه إلى اكتشافه الضخم الثانى ، فاهتدى إلى التاريخ. وبفضل هذا الاكتشاف الذى لا يقل أهمية ولا تحقيقاً للحرية عن اكتشافه الأدب من قبل استطاع طه أن يخرج من عالم النصوص ليدخل عالم الحوادث المفتوح، وأتيح له منذ ذلك الحين فصاعداً أن ينظر فى كل شىء ، بما فى ذلك العلاقات بين الشرق والغرب ، فى إطار

تاريخي صريح . ونستطيع الآن أن نبدأ بالنظر في التاريخ كما تعلمه في الجامعة المصرية الوليدة على أن نرجىء إلى الفصل القادم مهمة البحث في فكره التاريخي المبكر الذي يتميز رغم ذلك بأهمية كبرى في تكوينه .

أستاذ الجيل

لم يكن انتقال طه من الأزهر إلى الجامعة سهلاً، ولم يحدث بين يوم وليلة، وإنما امتد لفترة طويلة مضطربة بحيث بقي طه زمنًا بين العالمين قدمًا هنا وقدمًا هناك، فكان يحضر درسين من دروس الأزهر في الصباح^(١) ويذهب إلى الجامعة عصرًا^(٢) ولم تحدث القطيعة الكاملة إلا بعد أن سقط (أو أسقط) في امتحان العالمية. وعند ذلك خلس طه للمرحلة الجديدة من تعليمه. ولكن ينبغي قبل أن نصل إلى نقطة اللاعودة أن نتوقف قليلاً لننظر مرة أخرى في عملية الانفصال عن الأزهر منذ بدايتها. ولنتذكر كيف شعر طه وهو في الأزهر بالكمد عندما أدرك عند وفاة الأستاذ الإمام في سنة ١٩٠٥ أن أتباع الشيخ من الأزهرية قد خانوه، فقد أحس الفتى «... شيئاً آخر زاد به انحرافاً عن الأزهر وانصرافاً عن شيوخه وطلابه . أحس أن الذين بكوا الشيخ صادقين وحزنوا عليه مخلصين لم يكونوا من أصحاب العمائم وإنما كانوا من أصحاب الطرابيش، فوجد في نفسه ميلاً خفياً إلى أن يقرب من أصحاب الطرابيش هؤلاء ، وأن يتصل ببيئاتهم بعض الاتصال»^(٣) .

ثم بدأت هذه الرغبة الخفية تتحقق - وتتحقق على نحو لافت للنظر - عندما أتيح لطه في سنة ١٩٠٧ أن يلتقى بأحمد لطفى السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣)^(٤) لكى ينشر في

(١) أحدهما درس الأدب للمرصفي وثانيهما درس البلاغة .

(٢) طه حسين ، الأيام ، في م ك ، المجلد ١ (١٩٨٣) ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢٤ - ٣٣٥ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٦٥ ، لم يحدد طه حسين تاريخ لقائه الأول مع لطفى السيد ، لكن لنا أن نستنتج هذا التاريخ من قوله في موضع آخر أنه كان في الثامنة عشرة من عمره عندما التقى بلطفى لأول مرة . انظر تأبين طه حسين للطفى السيد المرحوم الأستاذ أحمد لطفى السيد ، في مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ١٨ (١٩٦٥) ، ص ١١٣ - ١١٦ ، ص ١١٣ .

الجريدة^(١) مقالة يهاجم فيها الأزهر وشيخ الأزهر^(٢). ولكن مدير الجريدة لم يستجب لهذا الطلب . وبدلاً من ذلك توسط بنجاح بين الأزهر وبين الكاتب المتمرّد^(٣). ومنذ تلك اللحظة بدأ طه ينجذب على نحو لا يقاوم إلى دائرة أتباع لطفى السيد . وهكذا وجد نفسه فى بيئة الطرابيش، وأخذ وهو الفقير المتوسط الحال يتصل من هذه البيئة بأرقاها منزلة وأثراها^(٤).

وقد حرص الأستاذ على أن يؤكد لمريده أنه ينزل على الرحب والسعة فى ذلك المجتمع المتميز. يروى طه حسين فى هذا الصدد أنه حين هم بالانصراف بعد لقائه الأول مع لطفى السيد سمع صوت الأستاذ يدعوّه إلى أن يعود إلى زيارته كلما أحب ذلك؛ وأنه عندما أكب على يد الأستاذ يقبلها كما كان طلاب الأزهر يقبلون أيدي أساتذتهم امتنع لطفى عليه ووضع قبلة على جبينه^(٥). ومن ثم بدأ دخول طه فى عالم المعارف الدنيوية واحتلاله مكانة متميزة ما فتئت تتوطد منذ ذلك الحين بين النخبة الفكرية والسياسية فى مصر.

وبمرور الزمن أصبح طه لدى لطفى أحب تلاميذه إليه وأخصهم برعايته، وكان يحدث أحياناً أن يزور طه مدير الجريدة فى مكتبه يومياً . وهناك كان يلتقى بالصفوة من أصدقاء لطفى وأتباعه . والواقع أن الجريدة بوصفها اللسان الناطق باسم حزب الأمة كانت إرهاباً بالجامعة قبل أن تنشأ الجامعة^(٦). ففيها أزمع لطفى السيد أن يعلم مريديه الذين أتوا من مدارس مختلفة ما لم يتعلموا فى مدارسهم . وهكذا أتيح

(١) كان لطفى فى ذلك الوقت مدير الجريدة ، وهى الصحيفة اليومية التى كانت لسان حزب الأمة (الذى كان لطفى سكرتيه) . وقد بدأت الصحيفة فى الصدور فى مارس ١٩٠٧ واستمرت حتى نوفمبر ١٩١٥ .

(٢) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٣٦٥ . كان الشيخ قد أمر بمحو أسماء طه وزميلين له من سجلات الأزهر عندما وشى بعض الطلبة بهم متهمين بإيادهم بالكفر . نفس المصدر ، ص ٣٦١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٦ .

(٥) انظر « المرجع السابق » لطفى السيد ، ص ١١٣ .

(٦) طه حسين ، « كتاب السياسة لأرسطاطاليس » . ترجمة : أحمد لطفى السيد ، فى مقالات عرض وتقد ، فى م ك ، المجلد ١٦ ، ص ٣٣٤ - ٣٤٠ ، ص ٣٣٥ .

لهم فى « مدرسة » الجريدة أن يسمعوأ لأول مرة أسماء مونتسكيو وفولتير وروسو وديدرو وكانط وأوجست كونت وجون ستوارت ميل وجول سيمون وهربرت سبنسر وربما سمعوا منه أسماء ديكارت وليبنتز ومالبرانش وسبينوزا^(١).

وكان لطفى السيد يعد داعية الفلسفة فى الشرق، وخاصة فلسفة أرسطو والفلسفة السياسية . ولكن يبدو من طريقة طه حسين فى سرد أسماء الفلاسفة المذكورين أعلاه أن لطفى كان يفضل بين الفلاسفة المحدثين فلاسفة التنوير الفرنسى وأصحاب الفلسفة النقدية والوضعية ومذهب المنفعة ، وذلك فى مقابل التراث العقلانى فى التفكير . كما كان لطفى قادراً على أن يبهر الأزهرين بين طلابه بما يعرفه فى مجال الفكر الإسلامى^(٢). ولقد كانوا يعرفون شيئاً عن منطق أرسطو وميتافيزيقاه . وإذا بلطفى السيد يفتنهم عندما يظهرهم على فلسفة أرسطو فى الأخلاق والسياسة . ولم يكن شىء يخلب ألبابهم كما كانت تخلبها ألفاظ مثل الديمقراطية والأرستقراطية والأوليغاركية^(٣).

وكان هذا الرجل الذى سمي بحق « أستاذ الجيل » يدين بنفوذه للمنحى العلمى لتفكيره^(٤) ووعيه بالأمور الموائمة لمقتضى الحال وحسن إدراكه . ولم يكن من دأبه أن يكتب فى أى موضوع على سبيل الدراسة المنظمة، وإنما كان يفضل الاسترسال وإن لم يغفل قط عن عدد من التوجهات التى كان يستمسك بها على نحو لافت للنظر . وكانت مهمته المباشرة فى الجريدة هى تحقيق الإصلاح عن طريق تقديم المعلومات والأفكار المتعلقة بقضايا السياسة والاجتماع والتربية . وعلى نحو أعم من ذلك كان لطفى السيد يسعى إلى تحقيق « مزاج معتدل » من الثقافة العربية والثقافات الأخرى . وكان يفترض أن من الضرورى لتحقيق ذلك استعادة انطلاق الفكر الإسلامى وتوسعه وهو فى أوج ازدهاره والإحاطة بأسس الثقافة الغربية فى التراث اليونانى^(٥).

(١) نفس المصدر ٢٢٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٤) « العلمى » بمعنى العناية فى المقام الأول بالفلسفة العملية : أى فلسفة الأخلاق والسياسة فى مقابل المنطق والميتافيزيقا .

(٥) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

وكانت تعاليم لطفى السيد من جوانب عديدة أنسب تمهيد وتوطيد لتعليم طه فى الجامعة. وأول ما يذكر فى هذا الصدد أن لطفى كان يقف موقف الترحيب من الثقافة الغربية. وليس أدل على ذلك من أنه كان فى بعض الأحيان يعبر عن فكرة « المزاج المعتدل » التى كانت متضمنة أصلاً فى ثقافته المختلطة بلهجة التأكيد الذى لا يخلو من التحدى. فهو كما يقول شارلز وندل يدعو صراحة إلى التعلم من الغرب و اتخاذ أوروبا دليلاً^(١). وهو يقرر فى مقالة عنوانها « التقليد » أن من الضرورى الأخذ عن التمدن الأوروبى وتقليده ، وخاصة فى الأمور المفيدة ؛ فالصورة فيما يقول قد تبلغ ما بلغه مثلها الأول^(٢). وكان لديه فى بعض الأحيان رد براجماتى على الذين يهتمون الحضارة الغربية بالمادية والاستعمار ويخشون أن يؤدى تقبلها تقبلاً كاملاً إلى فقدان الذاتية، فكان يقول إن على المصريين أن يأخذوا بصفات التمدن الجديد واكتساب صفات وأسباب القوة اللازمة للمزاحمة فى الحياة الحديثة^(٣). ومن الخطأ فيما رأى التمسك بالأفكار والصفات التى يثبت أنها كانت سبباً فى التأخر^(٤). ولا يحق للمصريين أن يخافوا من أن يقضى تقليد الغير على ذاتيتهم؛ وذلك لأن كل واردات أوروبا متى دخلت مصر اكتسبت بمرور الوقت « طابعا » مصرى وصارت ملكا تاما للمصريين. وقد حدث ذلك فى الماضى عندما نقل العرب المدنية عن الفرس واليونان وطبعوها بطابع إسلامى ، وليس هناك ما يحول دون حدوث ذلك من جديد^(٥).

وكان لطفى فى بعض الأحيان لا يوكل الأمر تماماً لتأثير الزمن؛ بل يدعو إلى بذل الجهد من أجل تمصير المنتجات الثقافية المستوردة. وكان يرى بناء على ذلك أن

(١) Charles Wendell, *The Evolution of the Egyptian national image from its origins to Ahmad* (Lutfi al - Sayyid (Berkeley , Los Angeles, London 1972) , p . 223

(٢) أحمد لطفى السيد ، *تأملات فى الفلسفة والسياسة والاجتماع* ، تحقيق إسماعيل مظهر (القاهرة ١٩٤٦) ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٣ - ٧٤ و ٧٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٥ . ولكن لاحظ أن لطفى السيد لا يوجه النقد لتراث السلف الأوانل بل لـ « أفكار سلفنا الصالح فى هذا الماضى القريب » ، نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر ، ص ٨٠ .

مواجهة المادية (الأوروبية) تقتضى الرجوع إلى العقائد الدينية الأولى التى كان عليها رجال الدين الأولون أو تعلم تقدير الآثار المصرية القديمة^(١) أو التمسك ببعض القيم التقليدية التى يتميز بها المصريون مثل حب الضيافة والتكافل وحسن العشرة^(٢). غير أن عملية طبع الواردات بالطابع المصرى ينبغى فى كلتا الحالتين أن تحدث دون رجوع إلى مجموعة مقننة من القواعد أو النصوص الدينية^(٣). وذلك أن لطفى السيد على خلاف جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده بنى حجته الرئيسية فى تأييد استقبال الثقافة الغربية على أساس الحاجة إلى مواكبة الزمن أو تحقيق التقدم. وهو لا يربط هذا بأى شرط سوى فرض طابع مصرى لا يخضع لأى تعريف صارم ويتميز أساساً بأنه طبع سهل. ويبدو أن لطفى السيد أراد لما وصفه بـ « المزاج المعتدل » أن يكون فى صالح الحداثة على وجه اليقين، وذلك على خلاف أصولية محمد عبده (أى استقبال أشكال التقدم الحديثة شريطة مواعمتها مع الإسلام) .

ويزداد الخروج على أصولية محمد عبده وضوحاً إذا أخذنا بعين الاعتبار آراء لطفى السيد فى القومية المصرية حيث يضع للذاتية المصرية مفهوماً علمانياً واضح العلمانية؛ فالمرجع الأساسى فى هذه الحالة هو الأرض : أرض مصر ذاتها - هذا الكيان المحدد الذى هو قوام مصر جغرافياً وتاريخياً^(٤). ومن هذه الناحية يبدو أن القومية كما يفهمها لطفى السيد تعد استثناء هاماً لقول فاتيكوتيس إن المجتمعات العربية لم تعرف أى حركة تدعو إلى علمنة الذاتية السياسية^(٥). فمصر فى رأى لطفى السيد أمة متميزة بل إن أحقيتها بالتفرد أقوى مما قد يكون لأى أمة أخرى^(٦). ومقومات هذه القومية « عوامل موضوعية » - على حد تعبيره - تتعلق بالأرض ذاتها

(١) نفس المصدر ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٥ .

(٣) قارن Albert Hourani, *Arabic thought in the liberal age, 1798- 1939* (Cambridge 1984) , p. 172 .

(٤) أحمد لطفى السيد ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٥) P.J. Vatikiotis, *EF " Kawmiyya "*

(٦) أحمد لطفى السيد ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

وسكانها، وذلك مثل عوامل الإقليم والقرباة والنسب والاشتراك فى المنافع^(١). وعلى أساس هذا المفهوم المرتكز على الأرض يستطيع لطفى السيد أن يعلن دون مواربة أن الجامعة الإسلامية والاتحاد العربى (أو « الوحدة العربية » بلغة عصرنا) ليسا إلا أوهاماً وخيالات^(٢). والقول بأن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين لا يخدم فى رأيه إلا مصالح العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين. أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق عاجزة عن أداء هذا الدور وصارت هدف للاستعمار الغربى فإن أكبر مطمح لكل أمة شرقية هو الاستقلال^(٣).

ومما يؤكد أن تعاليم لطفى السيد كانت مواتية إلى أقصى حد لتعليم طه فى الجامعة المصرية أن ننظر فى آراء الأستاذ فى التربية ودورها وغاياتها وأساليبها. فقد كان إصلاحياً يكره العنف وكل أشكال العمل المندفع، وكان من رأيه أن استقلال مصر ينبغى أن يتحقق بالوسائل السلمية وعلى نحو تدريجى وخاصة عن طريق الإصلاح الهادئ وزيادة اشتراك المصريين فى التشريع والإدارة^(٤) وعن طريق العمل التربوى والفكرى الصبور.

مثل هذا العمل - فيما يرى لطفى السيد - « لا تأخذ طرائقه بالأبصار ولا تطلب الألباب » ولا يأتى بنتائجه دون انتظار. وهو لا يمكن إذن أن يرضى العوام ولا بد أن يكون مخالفاً لمزاج الشباب وميله إلى العجلة وحبه للمخاطرة؛^(٥) ولكن من مزاياه أنه لا يثير اعتراض السلطات الحاكمة فضلاً عن أنه لا غنى عنه ولا طريق سواه^(٦). ولما كان لطفى السيد يعتقد أن من الضرورى اكتساب « وسائل القوة » فإنه ينبغى أن نؤكد أن « القوة » التى عناها لم تكن تكنولوجية فى المقام الأول، وإنما كان يرى أن

(١) نفس المصدر ، ص ٦٢ ؛ وانظر أيضاً لنفس المؤلف ، المنتخبات ، الجزء ١ ، تحقيق إسماعيل مظهر (القاهرة ١٩٣٨) ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٥٢ و ٥٣ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٥٤ .

أهم شكل من أشكال القوة بالنسبة للمصريين هو القوة المعنوية وأن الحرية الوحيدة التي يسهل الحصول عليها ولا يستغنى عنها بحال هي الحرية « العلمية » (أو لنقل : الفكرية)^(١) .

أما فيما يتعلق بغايات التربية فإن لطفى كان ينتقد السياسة التي كانت سائدة في ذلك الوقت والتي كانت ترمى إلى تخريج مرشحين للوظائف الحكومية أو آلات مضبوطة للدخول في ماكينة الحكومة^(٢) . والأحرى بنظام التعليم في مصر أن يستهدف إنماء قوى الناشئ وملكاته حتى تبلغ كمالها الممكن وأن يكون غرضه العام هو توطيد الفضائل العامة والمدنية بحيث يعزز التجانس بين المواطنين والوحدة الوطنية^(٣) . ولتحقيق هذا الهدف ينبغي أن ينصب التأكيد لا على الموضوعات العملية الصرف ولكن على العلوم التي لا تلقى إلا الإهمال وإن كانت تسهم في تربية العلماء والقادة السياسيين والكتاب والفلاسفة : أي العلوم الأخلاقية وعلوم التربية والاجتماع^(٤) .

وبعبارة أخرى يرى لطفى السيد أن النظام التعليمي عند إصلاحه ينبغي أن يكون هدفه المباشر هو تدريب نخبة من المثقفين يمكنهم تعميم عملية التعليم بحيث تشمل المجتمع بأسره . ومثال ذلك أن الكتاب يمكنهم وقد تسلحوا بالتفكير النقدي أن يؤديوا دوراً رئيسياً في إصلاح العلاقات في نطاق الأسرة وفي غرس الفضائل العامة مثل العدل والكرم وحسن العشرة والشجاعة ؛ فليس من الممكن تضيق دائرة الفروق بين الأفراد وتوطيد الوحدة القومية إلا بذلك الجمع بين الإصلاح التعليمي وتعميم الجهود الفكرية^(٥) .

- (١) نفس المصدر ، ص ٥٩ .
(٢) نفس المؤلف ، صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر ، تحقيق إسماعيل مظهر (القاهرة ١٩٤٦) ، ص ٢٠ ، وانظر أيضاً ص ١١٩ و ١٣٠ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١١٤ و ١١٧ و ١١٩ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٠ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٢١ .

ولقد كان من الطبيعي بناء على هذه الغايات أن يدين لطفى السيد الأساليب التقليدية فى التعليم وأن ينتقد الاعتماد على حفظ القرآن عن طريق التلقين فى الكتاتيب^(١). ولما كان الهدف الأول للتعليم فى رأى لطفى هو تدريب المواطنين بما فى ذلك الصفوة الفكرية القائدة ، فبإمكاننا أن نتفهم تماماً ما رآه من أن المعلم ينبغى أن ينصرف عن الكتاب التعليمى ويقبل على التلميذ « يناجى روحه فيكمل ملكاتها لتقوم بالواجب عليها فى الحياة .»^(٢) كلا ولا يمكن أن يكون لدينا أدنى شك فى أن لطفى كان يسترشد فى تدريسه فى « مدرسة » الجريدة بذلك المبدأ القاضى بالتوجه إلى عقول أتباعه . ومما يقوله طه حسين فى هذا الصدد أن لطفى كان يتبع فى تعليم تلاميذه طريقة الحديث والحوار كما كان سقراط يعلم شباب الأثينيين . كما كان يحاضرهم أو يأتى بمن يحاضرهم حين يقبل المساء؛ أو يتبع طريقة « حبيثة » بصفة خاصة فيكلف من يحسنون الفرنسية أو الإنجليزية بأن يترجموا بعض النصوص المختارة^(٣).

الجامعة المصرية

فتحت الجامعة المصرية - أو الأهلية كما تسمى عادة لتمييزها عن جامعة الدولة التى أنشئت فى سنة ١٩٢٥ - أبوابها فى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨. ومن الواضح مما تقدم أن طه كان مستعداً على نحو ما لتلقى التعليم الذى كانت الجامعة بسبيل تقديمه . والواقع أن بعض القيم والمثل العليا التى كانت الجامعة تمثلها كانت بالفعل شائعة فى جو الثقافة المصرية بفضل تأثير عدة رواد بالإضافة إلى لطفى السيد، ومن بينهم أعلام مرموقون مثل : الشيخ محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وقاسم أمين ، وسعد زغلول^(٤). فقد كان هناك ما يشبه الإجماع على إدانة طابع المنفعة الضيق

(١) نفس المصدر ، ص ٢٠ وانظر أيضاً ص ١١٥ و ١١٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٩ .

(٣) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

(٤) يرى بعض الكتاب أن أول من دعا إلى تأسيس جامعة مصرية كان جرجى زيدان صاحب الهلال ورئيس تحريرها ، وأن مصطفى كامل ومحمد عبده وأتباعه قد تبنا الفكرة فيما بعد . انظر عبد المنعم الدسوقي الجمعية الجامعة المصرية والمجتمع ، ١٩٠٨ - ١٩٤٠ (القاهرة ١٩٨٢) ، ص ١٠ و ١١ ، وقارن سامية حسن إبراهيم ، الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور (القاهرة ١٩٨٥) ، ص ١٢ .

الذى كان يميز نظام التعليم القائم . من هنا كان يروى عن محمد عبده أنه استهجن الإهمال الكامل للعلوم الاجتماعية والفلسفة والفنون الجميلة والأدب العربى والآداب الأجنبية^(١) . ومن ذلك أيضاً أن قاسم أمين دعا إلى نوع من التعليم يستهدف طلب العلم لذاته لا يحدوه فى ذلك إلا حب الحقيقة والشوق إلى اكتشاف المجهول^(٢) . ورأى قاسم أمين أن الجامعة المصرية ينبغى أن تؤدي ثورة فى اللغة والأدب^(٣) .

كما ينبغى أن ننظر إلى معارضة الطابع النفعى لنظام التعليم القائم فى سياق صعود الوطنية المصرية وحركة الاستقلال : فعلى خلاف سلطات الاحتلال التى كانت تؤيد التعليم الأساسى^(٤) كان المناصرون لمشروع الجامعة يسعون بذلك إلى تأكيد رغبة مصر فى الحرية والنهضة . وقد تحدث عبد الخالق ثروت فى حفل افتتاح الجامعة فأشار إلى أن الوقت قد حان لتخريج شبيبة تأخذ بيد الأمة فتحلها المقام الذى يجب أن يكون لها بين الأمم الراقية^(٥) . وكانت هذه الدعوة بدورها تفترض تصوراً معيناً لدور مصر فى التاريخ بوصفها مهد الحضارة وملاذاً رئيسياً للثقافة . وقد صيغت هذه الافتراضات صياغة صريحة فى خطبة أخرى ألقاها بنفس المناسبة أحمد زكى بك ،

(١) من خطاب كتبه محمد عبده بالفرنسية ونشره De Guerville فى (La Nouvelle Egypt (Paris 1905) pp. 201 - 208 نقلاً عن عثمان أمين ، رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده ، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٥) ، ص ١٥٣ - ١٥٤

(٢) اقتباس من خطبة يرد نصها فى محمد حسين ميكل تراجم مصرى وغربية (القاهرة ١٩٨٠) ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٤٩

(٤) يقال إن اللورد كرومر كان يؤيد تعزيز الكتابيب لى يصرف الأنظار عن مشروع الجامعة (انظر سامية حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٣١ - ٣٢) . وقد ثار فى صحف ذلك العهد نقاش حول أى المشروعات أنفع (نفس المصدر ، ص ١٧ - ١٨) . وانظر أيضاً عبد المنعم الدسوقي الجميلى (المرجع السابق ، ص ١١ و ١٢) . وكان من معارضى مشروع الجامعة بعض الصحف الأجنبية ، ومن بينها التايمز (انظر سامية حسن إبراهيم ، المرجع سالف الذكر ، ص ٣٣ - ٣٤) . ولا يخلو من الدلالة أن لطفى السيد حرص على تهدئة الآراء المعادية للجامعة محتجاً بأن مشروع الجامعة ليس عملاً « ثورياً » أو مظاهرة وطنية تستهدف « الإغاضة » ، ويأن المشروع لا علاقة له بالسياسة . انظر مقالته « ما للسياسة والعلم ؟ » التى نشرت لأول مرة فى الجريدة ، ٢٥ مايو ١٩٠٧ وأعيد طبعها فى كتابه صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية فى مصر ، ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٥) انظر نص خطبة عبد الخالق ثروت كما نشر فى المقتطف ، المجلد ٢٤ (١٩٠٩) ، ص ١٢٨ - ١٤٠

فبعد أن ذكر الخطيب مستمعيه بالفترات المضيئة في تاريخ مصر في ظل الفراعنة والبطالسة والفاطميين ذكرهم أيضاً بانتقال الثقافة الإسلامية إلى بلدان البحر المتوسط وأوروبا . ورأى أن تحول أوروبا بالتدريج إلى مشرق النور والعلم والتمدن أمر طبيعي يتفق وحركة التاريخ ، وأن من طبيعة الأشياء أن تنتقل الحضارة من منطقة إلى أخرى وأن تنتقل القيادة من بلد إلى آخر - ولئن قدر لمصر أن تذبل وتذوى لقرون فإنها تدرك الآن أن عليها أن تنفض غبار الكسل والخمول وأن تطلب المعرفة في أوروبا حتى تستعيد مجدها السابق وتعيد العلوم إلى حظيرتها^(١) .

ومن الممكن أن يقال - بناءً على ذلك - إن أنصار الجامعة كانوا يفترضون أن استقلال مصر ونهضتها لا ينفصلان عن الاستعداد التلقى عن الغرب والرغبة في إقامة تبادل خصب مع أوروبا . وهكذا أريد للجامعة أن تكون نقطة التقاء لثقافات مختلفة ، كما أريد لها أن تكون ديمقراطية وعلمانية^(٢) .

ولقد كان تنفيذ المشروع مسئولية وطنية، فكان تمويله يأتي من تبرعات خاصة، ولقيت الحملة لجمع التبرعات استجابة واسعة النطاق بين الأهالي بما في ذلك تلاميذ المدارس^(٣) . ولما كانت الجامعة قد ولدت في جو مفعم بكبار الآمال فقد كان افتتاحها مناسبة حافلة بالفرح والبهجة . جاء في مقالة لكاتب أجنبي يبدو أنه شهد الاحتفال: " كان موكب الذين جاؤوا للاستماع إلى المحاضرات مشهداً لافتاً للنظر: باشوات تجاوزوا ربيع العمر تحملهم عربات فاخرة وشبان من موظفي الحكومة يرتدون حلاً أنيقة كأنهم إعلان عن « الحياة الراقية » ومستشارون عليهم سيماء الجد من المحاكم الوطنية ، وطلاب من الأزهر في ملابسهم الطويلة القضاة وعمائمهم

(١) انظر نص خطبة أحمد زكي بك كما نشر في نفس المصدر ، ص ١٤١ - ١٤٥

(٢) جاء في نداء يدعو إلى إنشاء الجامعة أصدرته لجنة تحضيرية منتخبة أن المقصود من الجامعة هو أن تكون « مدرسة علوم وأداب تفتح أبوابها لكل طالب علم مهما كان جنسه ودينه » وأن « ليس لهذه الجامعة صبغة سياسية ولا علاقة لها برجال السياسة .. » نقلاً عن سامية حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٧ وما يليها .

البيضاء الناصعة ؛ وأكثر من أولئك وهؤلاء تفكراً وتمهلاً شبان أوروبيون شارِدو الأذهان لا تفارق الابتسامة وجوههم فى بلاد لا تكاد تعرف المطر»^(١) .

إلا أن الجامعة الوليدة كانت متواضعة الحجم محدودة النطاق : فلم تكن إلا نواة لكلية آداب . وبدأت الدراسة على هيئة محاضرات تلقى بداية من الرابعة والنصف بعد الظهر حتى السبعة والنصف مساءً ، وذلك فى الأيام التى تقررها الجامعة بإعلانات خصوصية^(٢) . ثم تقرر بعد فترة تقديم محاضرتين يومياً^(٣) . ودار نقاش فى اللجنة الدائمة للجامعة - التى كان يرأسها الأمير أحمد فؤاد - حول المواد التى ينبغى البدء بتدريسها . فكان من رأى البعض أن تبدأ الدراسة بالآداب، ورأى البعض الآخر ضرورة البدء بالعلوم ، وكان هناك فريق ثالث يرى أن الجامعة ينبغى أن تبدأ بالموضوعات ذات الصلة بالحياة العملية . وانتقل النقاش إلى الصحافة: فكان من رأى الهلال إعطاء الأولوية للعلوم الطبيعية، بينما رأت الجريدة تقديم دراسة التاريخ والفنون والآداب . وأخيراً استقر الرأى على البدء بدراسة العلوم الأدبية^(٤) .

وقد برر هذا الاختيار الذى أملته فى الواقع أسباب عملية ترجع إلى الاحتياجات الإنسانية التى يمكن لهذه العلوم أن تلبيها . وفى هذا الصدد قال الأمير أحمد فؤاد: « إننا جعلنا التاريخ والآداب فاتحة أعمال الجامعة لفائدتهما ولذتهما : فالتاريخ سيرقى عند الذين يتعلمونه فى الجامعة ملكة التفكير والمقارنة والحكم على الرجال والأشياء . أما الآداب فستعلم الذين يتلقونها فى الجامعة أحسن ما جاءت به الأفكار الإنسانية »^(٥) . ولا يسع المرء إلا أن يستنتج أن قرار إعطاء الأولوية للآداب كان يحظى بموافقة أغلبية المؤيدين لمشروع الجامعة أو على الأقل بموافقة أقوى

(١) Germain Martin, 'L'Universite Egyptienne', *Revue du Monde Muslman*, X (1911) pp. 11-19 .

١٩٠١-١٩٠٢ م لاحظ أن هذا التقرير يؤيد رواية طه حسين : « .. كانت الجامعة فى أول عهد المصريين عيداً متصلأ يحيونه إذا أقبل المساء من كل يوم ، حين يزدهمون على غرفات الدرس على اختلاف منازلهم من الفقر والفنى ، وعلى اختلاف حظوظهم من الثقافة ، وعلى اختلاف أزيائهم أيضاً » ، الأيام ، فى م ك ، ص ٤٣٩ .

(٢) سامية حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٣) عبد المنعم الدسوقي الجميى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧ .

(٥) نقلأ عن نفس المصدر .

العناصر بينهم وأنه كان يلبي رغبات محمد عبده وأتباعه. فقد كان من رأى الأستاذ الإمام ولطفى السيد أن الأولوية ينبغي أن تعطى للآداب بصفة خاصة لمقاومة الطابع النفعى السائد فى نظام التعليم . وكان لطفى السيد يفترض أن تعليم الآداب ضرورى لتربية نخبة من الكتاب والفلاسفة والقادة السياسيين . وكان أنصار هذا الرأى يفكرون فى الآداب بصفة خاصة عندما يتحدثون عن ضرورة تدريس العلوم النظرية، ويبدو أن وجود علوم طبيعية نظرية لم يحظ بكبير اهتمام . ورغم أن أحداً ما كان لينكر قيمة العلوم الطبيعية وتطبيقاتها فإن الرأى السائد كان هو أن الدراسات الأدبية والتاريخية والاجتماعية أقدر على خدمة المصالح الوطنية المباشرة.^(١) وليس بوسعنا هنا أن نحاول تقديم تفسير واف لهذا الانحياز، ولكن يبدو أنه كان يستجيب لانشغال عميق الجذور راود الأذهان منذ بداية حركة النهضة فيما يتعلق بمشكلة الذاتية فى مواجهة الغرب ؛ ومن ثم كانت الرغبة السائدة فى طلب المعرفة لذاتها تعد تابعة أو مرادفة للدافع الأعمق والأقوى من أجل فهم تدهور الحضارة الإسلامية وما قابله من صعود الأمم الأوروبية. ولمثل هذه الأسباب قال أحمد زكى إن الجامعة رأت « الابتداء بالابتداء فقررت تدريس الحضارات الإسلامية والقديمة وأضافت إليهما أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب باعتبار علاقتها بأوروبا »^(٢) . ويبدو أن أحمد زكى كان يعبر بذلك عن وجهة النظر السائدة .

وفى هذا السياق ذاته يمكننا أن نفهم تماماً غلبة الطابع التاريخى على المنهج الدراسى فى الجامعة الناشئة : فبعد البدء بمقرر عن تاريخ الأدب سرعان ما وسع نطاق المنهج لى يشمل المواد التالية^(٣) : الحضارة الإسلامية (ويدرسها أحمد زكى)^(٤) ؛ والحضارة القديمة فى مصر والشرق حتى ظهور الإسلام

(١) للاطلاع على نقد لهذا التحيز « الأدبى » انظر شبلى شميل ، كتاب فلسفة النشوء والارتقاء ، فى مجموعة الدكتور شبلى شميل (القاهرة ١٩١٠) ، المجلد ١ ، ص ٤٠ .

(٢) من خطبة أحمد زكى التى ألقاها فى حفل الافتتاح ونشرت فى المقتطف ، ص ١٤٥ .

(٣) ترد هذه القائمة مع بعض الاختلافات فى عبد المنعم الدسوقي الجميى ، المرجع السابق ، ص ٢٦ وسامية حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٨٣ - ٨٤ .

(٤) عن هذا المقرر اقرأ طه حسين ، الأيام ، فى م ك ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(ويدرسها أحمد كمال)^(١)؛ والعلوم التاريخية والجغرافية واللغوية (ويدرسها المستشرق الإيطالي إغناسيو جويدي)^(٢)؛ وتاريخ الأدب الفرنسي وتاريخ الأدب الإنجليزي (ويدرسهما على التوالي مسيو بوفيليه ومستر ميلر). واعتباراً من السنة الدراسية ١٩١٠ - ١٩١١ وسع المنهج مرة أخرى ونظم بعد خلوه من التنظيم. وهكذا أنشئت رسمياً كلية للآداب والفلسفة وصمم المنهج بحيث يشمل ثمانى مواد كما يلي^(٣) : الأدب العربى (حفنى ناصف)؛ وتاريخ الأدب العربى (المستشرق الإيطالى كارلو ألفونسو نالينو)^(٤)؛ وعلم مقارنة اللغات السامية (المستشرق الألمانى إنولتمان)^(٥)؛ وتاريخ المذاهب الفلسفية (المستشرق الإيطالى دافيد سانتلانا)^(٦)؛ والجغرافيا والإثنولوجيا (اسماعيل رأفت)^(٧)؛ وتاريخ الشرق القديم (المستشرق الإيطالى جيراردو ميلونى)^(٨)؛ وتاريخ الشعوب الإسلامية (محمد الخضرى)^(٩)؛ والفلسفة العربية والأخلاق (سلطان محمد)^(١٠).

(١) انظر نفس المصدر ، ص ٤٤٤ - ٤٤٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ . فى محاضرة عن المستشرقين الإيطاليين الذين علموا فى مصر قال طه حسين إن مقرر جويدي كان يتكون من أربعين درساً خصصت للعلاقات بين أوروبا والشرق فى العصور الوسطى وتناول جويدي فيها الكتابات الجغرافية والتاريخية العربية . وقد ألقى طه حسين تلك المحاضرة بالفرنسية (القاهرة ، ١١ فبراير ١٩٤٨) ولكن لم ينشر منها إلا نص مختصر بالإيطالية . انظر طه حسين ، « محاضرة » ، ص ٢٠٥ - ٢١٥ . وترد ملاحظات طه حسين على مقرر جويدي فى هذا المصدر ، ص ٢٠٦ . وقد نشرت دروس جويدي بعنوان محاضرات فى أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب فى مجلة الجامعة المصرية (القاهرة بدون تاريخ) .

(٣) ترد هذه القائمة فى سامية حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٩٦ ، الحاشية ٥٢ وفى G. Martin المرجع السابق ، ص ١٦ . وإلى جانب هذه المواد الرئيسية كان هناك مقرران اختياريان هما : الأدب الإنجليزي ، والأدب الفرنسى .

(٤) كان المقصود هو أن يكمل المقرران الخاصان بالأدب العربى أحدهما الآخر بحيث تركز دراسة الأدب العربى على تحليل النصوص وفقاً للنهج القديم بينما يتناول تاريخ الأدب العربى ظواهر هذا الأدب وفقاً للمنهج التاريخى الحديث . فيما يتعلق بحفنى ناصف انظر طه حسين ، الأيام ، فى م ك ، المجلد ١ ص ٤٥٥ و ٥٦ و ٥٧ . وفيما يتعلق بمغزى الجمع بين المادتين سألقتى الذكر انظر نفس المؤلف ، فى الأدب الجاهلى فى م ك ، المجلد ١٠ (١٩٧٣) ، ص ١٠ - ١١ و ١٩ .

(٥) انظر نفس المؤلف ، المرجع السابق ، ص ٤٤٦ وانظر أيضاً نفس المؤلف ، « إنولتمان » (تأبين لتمان) ، المجلة ، ديسمبر ١٩٥٨ ، ص ١١ - ١٤ .

(٦) طه حسين ، الأيام ، فى م ك ، ص ٤٦٦ ، انظر أيضاً نفس المؤلف ، « محاضرة » ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٧) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٤٤٦ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٤٥٧ .

(١٠) نفس المصدر ، ص ٤٦٠ - ٤٦١ .

ولعل هذا التركيز على التاريخ كان صدى لبعض الاتجاهات التي كانت سائدة عند منعطف القرن العشرين في الأوساط الجامعية الأوروبية ودوائر المستشرقين . ولكن هذا لا يعنى أن التركيز على التاريخ لم يكن أيضاً وعلى نحو أهم استجابة لدوافع محلية . وذلك أن المستشرقين ومفكرى النهضة كان يجمعهم اهتمام مشترك بتقلبات التاريخ الإسلامى ويازدهار القوة الإسلامية وتدهورها، وكان ازدهار النزعة التاريخية فى جانب يقابله وعى تاريخى حاد فى الجانب الآخر.

وكان لعلمانية الجامعة وديمقراطيتها وانفتاحها على تقاليد ثقافية شتى مظاهر متعددة . ومن ذلك أنه تقرر السماح لطلاب الأزهر ودار العلوم بطلب الالتحاق بالجامعة . يضاف إلى ذلك أن بعض الأساتذة كانوا مصريين بينما كان البعض الآخر من الأوروبيين ؛ فقد دعى عدد من كبار المستشرقين للمحاضرة باللغة العربية فى المواد التى لم يتوافر لها أساتذة مصريون.^(١) وكان إغناسيو جويدي أول من وفد من المستشرقين؛ وقد حاضر لسنة دراسية واحدة (١٩٠٨ - ١٩٠٩)، وتلاه بعد عام كارلو ألفونسو نالينو؛ فبدأ بالمحاضرة فى تاريخ الفلك عند العرب (١٩٠٩ - ١٩١٠) ثم حاضر لسنتين دراسيتين أخريين (١٩١٠ - ١٩١١ و ١٩١١ - ١٩١٢) فى تاريخ الأدب العربى. وبعد نالينو جاء دافيد سانتلانا الذى حاضر لسنة دراسية واحدة (١٩١٠ - ١٩١١) وجيراردو ميلونى^(٢) وإتولتمان ولويس ماسينيون^(٣) وجاستون فييت^(٤) .

(١) عمدت الجامعة منذ البداية (١٩٠٨) إلى إرسال طلاب مصريين إلى الخارج (إنجلترا وفرنسا بصفة خاصة) لكى يتأهلوا للتعليم فيها . (انظر عبد المنعم الدسوقي الجمعى ، المرجع السابق ، الفصل الثالث ؛ وسامية حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، الفصل الخامس) . بيد أن قرار الاستعانة بأساتذة أجانب لم يكن إجراء مؤقتاً ، وإنما كان إجراء سياسياً يعبر عن رغبة مصر فى إقامة علاقات ثقافية وثيقة بأوروبا ، وكانت هذه السياسة تحظى بالتأييد الكامل من الأمير أحمد فؤاد . انظر طه حسين « محاضرة » ، ص ٢٠٥ .

(٢) حاضر ميلونى طيلة ١٩١٠ - ١٩١١ ثم عاد فى السنة التالية إلى القاهرة حيث توفى فى فبراير ١٩١٢ . انظر Maria Nallino ، " Taha Hussein e 'L'Italia " in Taha Hussein, omaggio degli arabisti Italiani a Taha Hussein in occasione del settantacinquesimo compleanno , L'Istituto Universitario Orientale (Naples 1964) , pp. 53 - 65 , p. 54.

(٣) جاء فى عبد الرحمن بدوى موسوعة المستشرقين (بيروت ١٩٨٤) ، ص ٢٦٦ أن الدعوة إلى التدريس فى الجامعة وجهت فى الأصل إلى جولدتسيهر واستوك مورخونيه ، فاعتذرا وأوصيا بدعوة لويس ماسينيون .

(٤) يبدو أن فييت جاء إلى الجامعة فى سنة ١٩١٢ ليخلف نالينو فى تدريس تاريخ الأدب العربى ، انظر طه حسين ، فى الألب الجاهلى ، ص ١٠ .

ولا ينبغي أن ندهش - على ضوء رغبة الجامعة في فتح الباب على مصراعيه بحيث تتسع للقديم والجديد ولما هو شرقي وما هو غربي - لأن الحياة في الجامعة الجديدة كانت كما قال طه حسين عيداً متصلاً. غير أنه وهو الفتى الأزهرى كان لديه "عيد" خاص به في وسط الجيشان العام. فقد كان كل ما يتصل بهذه "البيئة" المعرفية الجديدة مصدراً للدهشة وتأكيداً لفكاكه من الأزهر. كان أساتذته الجدد سواء مصريين أو أوروبيين يتناولون موضوع البحث مباشرة وعلى نحو واضح مستقيم فلا متن هنالك ولا حاجة إلى تفسير على طريقة الأزهر^(١) وكان من الرائع أيضاً الاستماع إلى الأساتذة الأوروبيين وهم يحاضرون بالفصحى في موضوعات عربية وإسلامية.^(٢) وبدا للفتى أنه وجد نفسه أخيراً - في ملتقى الثقافات والتقاليد والحضارات - غير بعيد عما أسماه لطفى السيد "المزاج المعتدل". ويروى مؤلف الأيام كيف أن طائفة من أساتذته المصريين "جددوا علمه بالحياة وشعوره بها وفهمه لقديمها وجديدها معاً ، وغيروا نظرتهم إلى مستقبل أيامه، وأتاحوا لشخصيته العربية أن تقوى وتتثبت أمام هذا العلم الكثير الذى يأتى به المستشرقون..."^(٣).

بيد أن أروع وأهم ما كان وأشدّه مساساً بوجود الفتى ذاته كان دراسة التاريخ . يقول مؤلف الأيام: "وبهت الفتى حين سمع ذكر هذين الاسمين : أى رمسيس وأخناتون . وحين سمع ذكر هذا النوع من التاريخ . واعتقد أن الله قد كتب عليه حياة ضائعة لا غناء فيها . ولكنه يرى نفسه ذات ليلة فى غرفة من غرفات الجامعة يسمع الأستاذ أحمد كمال ... يتحدث عن الحضارة المصرية ويذكر رمسيس وأخناتون وغيرهما من الفراعنة، ويحاول أن يشرح للطلاب مذهبهم فى الصلة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية ومنها اللغة العربية... والفتى دهش ذاهل حين يسمع كل ذلك العلم ؛ وهو أعظم دهشة وأشدّ ذهولاً حين يلاحظ أنه يفهمه ويسيفه فى غير مشقة ولا جهد"^(٤).

(١) طه حسين ، الأيام ، فى م ك ، المجلد ١ ، ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المؤلف ، تقديم كتاب نالينو تاريخ آداب اللغة من الجاهلية حتى عصر بنى أمية (القاهرة ١٩٧٠) ، ص ٨ .

(٣) نفس المؤلف ، المرجع السابق ، ص ٤٥٢ .

(٤) نفس المصدر ، ٤٤٤ - ٤٤٥ .

والواقع أن "اكتشاف" التاريخ كان أعظم إنجاز لطفه في تلك الفترة . فأما فيما يتعلق بطبيعة التاريخ المكتشف فيمكننا أن نقول على الفور إنه كان واسع النطاق ينحو نحو العالمية ومقارناً : أى أنه كان يعقد الصلات والمقارنات بين الحضارات واللغات المختلفة . وبفضل هذا الموضوع الذى وصفناه حتى الآن وصفاً عاماً وجد الفتى الأزهرى خلاصه . وقد يحسن بغية معرفة المزيد عن هذا الموضوع الحيوى أن نبدأ بالنظر فى بعض عناصر التعليم التاريخى كما قدمه ثلاثة من أساتذة طه الأوروبيين وهم : نالينو ، وسانتلانا ، وماسينيون .

كارلو ألفونسو نالينو (١٨٧٢ - ١٩٣٨)

لم يكن لأى من المستشرقين الذين علموا طه فى هذه الفترة تأثير يعدل تأثير نالينو على تطوره : فبعد أن بدأ نالينو بتدريس مقرر عن علم الفلك عند العرب^(١) ، قدم على مدى سنتين دراسيتين مقررأ عن تاريخ الأدب العربى^(٢) . وكان هذا المقرر فيما رأى طه حسين نقطة تحول كبرى فى تاريخ الفكر والثقافة فى مصر : فبفضل نالينو خاصة تعلم طه وعدد من شباب الدارسين المصريين المناهج الحديثة للبحث التاريخى كما تطبق فى دراسة الأدب العربى^(٣) . ولولا هذا التأثير المفيد لظل الموضوع محروماً من المنهج النقدى تماماً كما كان منذ ألف سنة^(٤) .

أما فى حالة طه على وجه التحديد فإن دروس نالينو جاءت لتكمل دروس شيخه الأزهرى سيد المرصفى ، فهو كما قال فيما بعد مدين لهذين الأستاذين

(١) نشرت محاضرات نالينو فى هذا الموضوع فى كتاب عنوانه علم الفلك تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى (روما ١٩١١) . وفيما يتعلق بجدة هذا الموضوع بالنسبة لطفه ، انظر طه حسين ، «محاضرة» ، ص ٢٠٧ .

(٢) نشر نص هذه المحاضرات التى ألفت بالعربية فى صورة كتاب هو تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية ، الطبعة ٢ (القاهرة ١٩٧٠) .

(٣) انظر تقديم طه حسين لكتاب نالينو تاريخ الآداب العربية ، ص ٩ وما يليها ، وانظر أيضاً طه حسين ، «فى درس الأدب وتاريخه» ، الألب ، أبريل ١٩٥٩ ، ص ١٢ - ١٣ ، وعن بعض الطلاب الذين درسوا على نالينو وصار لهم شأن فى حياة الفكر فى مصر . انظر لنفس المؤلف «محاضرة» ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٤) من خطبة ألقاها طه حسين بالفرنسية عن «ما هو الأدب العربى الكلاسيكى ؟» (روما ، ١٧ مايو ١٩٥٠) ونشر لها ملخص : "Visita a Rome di Taha Husein Bey" in *Oriente Moderno* , XXX (1950), p. 100

بالأسس التي أقيم عليها كل ما أتيح له بعدهما من الدرس والتحصيل .^(١) وسوف نلقى المزيد من الضوء على هذه الفكرة فيما يلي ، ولكننا نسارع فنقول إن دروس نالينو بما أنها جاءت تكملة لدروس المرصفي كان لها بلا ريب دور حاسم في تحديد المصير الأدبي للشاب طه : فالتاريخ الذي ملك عليه لبه منذ ذلك الحين وإلى الأبد كان هو تاريخ الأدب - مفهوماً بوصفه جمعاً بين تحليل النصوص على طريقة المرصفي وبين المنهج التاريخي النقدي وفقاً لنالينو .

كان نالينو - فيما رأى طه حسين - هو أول من درس له ولزملائه الأدب العربي القديم درساً منظماً . ومعنى هذا - كما يوضح طه حسين - أن نالينو كان أول من ألقى في روع طلابه الحقائق التالية :

أن الشعر العربي لا يختلف باختلاف فنونه التقليدية مدحاً ورتاء ووصفاً وهجاءً ونسيباً وتشبيهاً فحسب ؛ وإنما يختلف باختلاف موضوعاته التي قيل فيها وظروفه التي أحاطت به حين قيل والمؤثرات التي أثرت في قائله وفي سامعيه أيضاً .

أن للسياسة أثراً دقيقاً عميقاً في نشأة فنون مختلفة، ومن ذلك أن طلاب نالينو ألقى في روعهم لأول مرة الفرق بين النسيب التقليدي القديم والغزل الذي استحدثه النظام الاجتماعي الإسلامي في الحجاز، وبين الغزل المحقق الذي نشأ في حواضر الحجاز والغزل العذري الذي نشأ في البادية العربية في الحجاز ونجد والعراق .

أن من الممكن دراسة الأدب العربي على أساس من الموازنة بينه وبين الآداب القديمة الكبرى، وأن الحياة الإنسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف ظروفها .

أن الأدب مرآة لحياة العصر الذي ينتج فيه ؛ لأنه إما أن يكون صدى من أصدائها، وإما أن يكون دافعا من دوافعها^(٢) .

(١) انظر لنفس المؤلف تقديمه لكتاب نالينو تاريخ الآداب العربية ، ص ٨ - ٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٩ - ١٠ .

وبعد هذا العرض الذى يتناول العناصر الأساسية فى إسهام نالينو يجدر أن نعرض لبعض الجوانب التى من شأنها أن تبرز الطابع التاريخى لتعاليم الأستاذ الإيطالى . فلقد أشاد نالينو بدراسة التاريخ وأكد على أهميتها للتقدم . ومما زاد من فعالية أقواله فى هذا الصدد أنها كانت تمس الاهتمامات المباشرة لمستمعيه، وهم أصحاب الميول الأدبية . فقد قال لهم مثلاً إن الاعتناء بأداب لغة ما وتاريخها أمر ضرورى لنهضة الأمة المعنية وتقدمها ووحدتها، ورب أمة نزلت بها الهزيمة فى الحرب، ولكنها سلمت من الفناء لتمسكها بحفظ آداب لغتها والعناية بتخليد ذكر مآثر قدمائها العلمية والأدبية.^(١) مثل هذه الملاحظات لابد أنها وقعت على أذان صاغية؛ فقد كانت تحمل رسالة من العزاء والأمل .

كما تجلى إدراك نالينو الثاقب لاهتمامات مستمعيه وهو يؤكد ضرورة اتباع نهج نقدى فى دراسة التاريخ . فمن الضرورى فيما قال امتحان آراء السلف واختبار جميع ما يسعنا من تجاربهم ومعارفهم بدقة التمييز والنظر. بل لقد ذهب إلى أن مراجعة تواريخ الأمم الشرقية تدل على أن انحطاط علومهم وسياستهم إنما ابتدأ لما انصرف حكماؤهم عن سبيل الاجتهاد المستقل واقتنعوا فى المباحث النظرية بالتقليد، وبدلاً من أن يؤلفوا الكتب المبدعة المطولة قنعوا بالاختصار والتلخيص وتصنيف الحواشى والشرح والتقارير.^(٢)

وفى مقابل هذا التصور التقليدى - أو الأزهرى على وجه التحديد - للمعرفة قدم نالينو إلى مستمعيه مفهوماً مختلفاً عن عملية البحث بوصفها سعيًا لا ينتهى لفهم حقائق الأمور واستكناه أسرار الكون الجلية. ونظرا لقلة الطبيعة البشرية بالنسبة إلى جلاله أسرار الكون وعظم المخلوقات فإن الباحث قد لا يطمع إلا فى أن يقدم إضافة يسيرة إلى ما اكتشفه السابقون.^(٣)

ثم خطا نالينو خطوة أخرى جديدة كل الجدة عندما أخذ ينقد التراث التاريخى فى الثقافة العربية ، فهناك قدم أهم مساهمة نظرية له : إذ رأى أن من الضرورى للبحث

(١) كارلو نالينو ، المرجع السابق ، ص ١٨ - ١٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩ .

التاريخى أن يركز على حقائق الأمور التى هى الموضوع الأساسى لطلب المعرفة. فمناهج البحث التاريخى التى ثبت نفعها فى الغرب غير معروفة - فيما قال - لدى علماء العرب اللهم إلا فى نبذ وجيزة وأشياء قليلة وردت فى كتبهم مبعثرة دون أن يستقصوا فيها بدقة النظر والانتقاد . وسبب ذلك فى رأيه أن العرب - على خلاف اليونان والرومان والأوروبيين المحدثين - لم يتقنوا التاريخ بوصفه علماً وإنما اقتصر أكثرهم على ذكر الحوادث والوقائع سنة بسنة ولم يمدوا بصرهم إلى ما هو أسمى - أو لنقل ما هو أعمق - من الطوارئ الظاهرة، فلم يعنوا بالصلوات السببية بين الأحداث ، ولم يبحثوا عن أسبابها الباطنة الخفية فى حياة المجتمع^(١).

أما فيما يتعلق بتاريخ الآداب فإن علماء العرب قد قنعوا - فى رأى نالينو - بتأليف كتب التراجم المفردة المرتبة على حروف الهجاء أو على الطبقات دون التعمق فى البحث عن أصول الأجناس الأدبية وتطورها وتأثير الأدباء بعضهم فى بعض وأسباب تغير الأذواق والميول.^(٢) إن اللغة - فيما يقول نالينو - كائن حتى تقبل النمو والتجدد والفساد، والألفاظ كثيراً ما يطرأ عليها من التغير والانتقال من معنى إلى آخر حسبما يقتضيه تغير أحوال الأمة الاجتماعية والسياسية ومدى التقدم العقلى^(٣).

ولما كان نالينو قد حدد مستوى الحقائق العميقة التى تركز عليها النصوص الأدبية بأنه " الهيئة الاجتماعية "^(٤) أو الحياة الاجتماعية^(٥) لأمة ما ، فقد رأى - على سبيل المثال - أن الشعر فى أمة ما وثيقة قيمة تصور كالمرآة عواطف الأمة وميولها وأخلاقها وعاداتها.^(٦) بل إن مرآة الأدب فى بعض الحالات أفضل دلالة على الواقع التاريخى من المؤلفات التى تركز على المصادر الرسمية أو الروايات الحزبية^(٧).

(١) نفس المصدر ، ص ٥٦ - ٥٧ ، انظر أيضاً ص ٢٢٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٦١ .

(٥) نفس المصدر ، ٢٢٩ .

(٦) يبدى نالينو هذا الرأى بالنسبة للشعر السياسى أولاً (انظر نفس المصدر ص ٢٢٩ و ٢٥٩) ثم يعمم الفكرة بحيث تشمل الشعر بصفة عامة (ص ٢٦٣) .

(٧) نفس المصدر ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

غير أننا ينبغي أن نلاحظ أن نالينو لم يكن لديه عن الواقع التاريخي تصور ذو بنية واضحة المعالم . فالوقائع الأساسية التي ينبغي للتفسير التاريخي أن يرجع إليها يمكن أن تكون سياسية و دينية و فكرية و/ أو اجتماعية بالمعنى الدقيق للكلمة. ولتوضيح موقف نالينو يمكننا أن ننظر في تفسيره لظهور وازدهار نوع جديد من التشبيب بالنساء، هو الغزل في مكة والمدينة في ظل الأمويين.^(١) ففي أواخر خلافة علي بن أبي طالب - فيما يقول نالينو - ترك جزيرة العرب أكثر رجال السياسة والحرب فبقى فيها أهل التقى والعبادة والنسك من المهاجرين والأنصار. فكان الاهتمام بشئون الدنيا قد آل إلى الشام بينما آل الاهتمام بشئون الدين إلى أهل المدينة، وفي الوقت نفسه شهدت مكة والمدينة ازدهاراً اقتصادياً نتيجة لزيادة الحجاج وتوسع العلاقات التجارية، وبزيادة الثروة والنعمة واتساع العيش زاد نزوع النفوس إلى الملاذ والتنعيم بأنواع الترف، وفسدت أخلاق الشبان من البيوتات الكبيرة إذ لم يكن لهم في الحجاز مجال واسع للاعتناء بأمور السياسة ولا بالعلوم العقلية التي لم تكن نمت بعد؛ فاشتد ميلهم إلى التطرف والتغزل وسماع الغناء وحضور الملاحى . وقد شجع على هذا النوع من تزجية أوقات الفراغ وفود القينات المغنيات بالرومية والفارسية، ثم ظهر الغناء بالعربية^(٢).

ومن هذا التفسير الذى صيغ صياغة فضفاضة يمكننا أن نرى أن نالينو يعزو الظاهرة الأدبية موضوع الاهتمام إلى مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالمعنى الدقيق للكلمة دون أن يحللها أو ينظمها وفقاً لآى ترتيب على

(١) على خلاف النسب الذى كان يؤلف على سنة شعراء الجاهلية كمقدمة للقصيد التى تتناول أى غرض من أغراض الشعر (نفس المصدر ، ص ١٢٠ و ١٤٢ وما يليها) ، فإن الغزل - سواء أكان إباحياً كما كان شائعاً فى مدن الحجاز (نفس المصدر ، ص ١٢١ وما يليها) أو عفيفاً كما كان شائعاً بين أهل البادية (نفس المصدر ، ص ١٥٢ وما يليها) - كانت تفرد له القصائد كغرض قائم بذاته ويتفرغ له شعراء لا يتعاطون سواه.

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٣ . شرح طه حسين فيما بعد هذا التطور فأوضح كيف حظر خلفاء بنو أمية الذين اتخذوا دمشق مقراً لهم على أبناء المهاجرين والأنصار الاشتغال بالسياسة . انظر حديث الأربعة ، الجزء الأول ، م ك المجلد ٢ ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ . وانظر أيضاً لنفس المؤلف مقالة «نهضة الشعر فى العراق فى القرن الثانى للهجرة» فى طه حسين ، من الشاطئ الآخر (١٩٩٧) ، ص ١٠٣ - ١١٢ ، ص ١٠٥ .

مستويات.^(١) ويبدو أنه كان يفترض أن التفسير التاريخي يرجع في نهاية المطاف إلى عدد من العوامل التي تندرج وتتشابك في حياة اجتماعية فضفاضة، أو أنه كان يفترض - على خلاف وجهة النظر الماركسية - أن العوامل المذكورة لا تندرج في إطار بنية ترتكز على قاعدة اقتصادية. ففي رأيه أن الأحوال السياسية والأمور التي تتعلق بالسيكولوجيا الجماعية مثل الأنواق والميول ، والآداب الاجتماعية ، والشئون الفكرية والدينية لا تقل أهمية - إن لم تزد - عن العوامل الاقتصادية .

وصحيح أن هناك ما يذكرنا بوجهة النظر الماركسية عندما ننظر في الإطار الذي يضع فيه نالينو تاريخ الأدب بأسره، وأعنى بذلك ما هناك من تفرقة وتفاعل بين طريقتين في الحياة هما حياة الوبر (البداوة) وحياة المدر (الحضر) . فلقد يقال إن نالينو في هذا الموضع من تفكيره يفترض وجود طريقتين في الحياة تقتربان بنمطين مختلفين من علاقة الإنسان بالطبيعة أو العمل أو نمطين من الحياة الاقتصادية . بيد أن نالينو لا يمضى بالتحليل إلى ذلك الحد مفضلاً - فيما يبدو - أن يحتفظ بالفارق المذكور أنفاً على حالته الظاهرة أو على مستواه كما استقاه من ابن خلدون.^(٢) فقد افترض أن الانتقال من طريقة الحياة البدائية إلى طريقة الحياة الأرقى لم يقترب بتحول اقتصادي فحسب وإنما اقترن أيضاً بتغيرات لا تقل عن ذلك أهمية في موازين القيم والاهتمامات والمعتقدات والآداب الاجتماعية . ولم يكن ما يعنيه في المقام الأول هو نوع النشاط الاقتصادي الممارس بل زيادة الثروة وما يقترب بذلك من فراغ وإقبال على الترف وطلب للذة والتأنق في الآداب والحديث .

وبما أن نالينو قد افترض أن وراء حوادث التاريخ "الظاهرة" والنصوص الأدبية مستوى عميقاً من الوقائع الاجتماعية، فقد استخلص من ذلك نتيجتين نقديتين رئيسيتين كان لهما أبعد الأثر في تفكير طه حسين . وكانت أولى النتيجتين تتعلق بتقسيم التاريخ إلى فترات . فقد كان نالينو يعتقد أن هذا التقسيم - سواء في حالة تاريخ الأدب أو في حالة التاريخ السياسي - لا بد أن يكون مصطنعاً ؛ فليس من

(١) انظر تعداد نالينو لتلك العوامل في المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٢) سنناقش علاقة نالينو بابن خلدون في خاتمة الكتاب .

الممكن تحديد الفترات بحدود فاصلة قاطعة نظراً لأن التغيرات الاجتماعية تقع ببطء وعلى نحو غير محسوس . فما يبدو لأول وهلة وكأنه انقلاب مفاجئ قد يتبين عند التدقيق أنه نتيجة لعدة أسباب مترابطة تعمل عملها منذ زمان طويل.^(١) يضاف إلى ذلك أن التغيرات الاجتماعية في أمة ما لا تجرى بالضرورة على نمط واحد في كل المناطق . يصدق هذا بصفة خاصة إذا كانت المناطق متباعدة ولم يساعد فن الطباعة على انتشار الأفكار بسرعة كما حدث في المملكة الإسلامية.^(٢) ومن الواضح أنه يترتب على ذلك أن على مؤرخ الآداب أن يبحث عن العوامل المفسرة فيما وراء الحوادث والتواريخ البارزة المحددة في الحياة الأدبية والسياسية وأن يراعى الاختلافات الإقليمية .

أما النتيجة الرئيسية الثانية فكانت تتعلق بصحة الشعر القديم، وخاصة الشعر الجاهلي. فبعد أن أثار نالينو عدة مشكلات حول هذا الشعر حدد المسائل الرئيسية في هذا المجال على النحو التالي : أكانت لغة الأشعار [الجاهلية] لغة واحدة؟ وكيف تكونت هذه اللغة؟ وعلى أي نحو وصلت أشعار الجاهلية إلينا؟ أيجوز لنا أن نثق بصحة رواياتها؟ وأن نعتمد على الحكايات المروية لشرح الأبيات القديمة؟^(٣) وقد كانت هذه مشكلة معروفة لدى علماء العرب القدامى، ولكنها ازدادت أهمية عندما بعثها نالينو . وذلك أن الشكوك القديمة كانت قد نسيت ووريت التراب منذ زمن بعيد وكان علماء العربية المحدثون على عهد نالينو يسلمون تسليمًا بأن الشعر القديم صحيح في مجمله . يضاف إلى ذلك أن المشكلة ازدادت إلحاحاً بالنظر إلى هذا المنهج الجديد الذي أتى به نالينو، والذي كان يقتضى الدراسة الفاحصة للتاريخ الاجتماعى والدينى واللغوى للعرب قبل ظهور الإسلام . فبناء على ذلك أثار نالينو الشك حول صحة بعض القصائد المنسوبة إلى لبيد لأنها تنم عن مفاهيم ومعتقدات إسلامية.^(٤) كما أنكر صحة كل الأشعار المنسوبة إلى التباينة . فرأى أن " عدم الموافقة بين أخبار الأشعار

(١) نفس المصدر ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٨ .

المنسوبة إلى التبابعة وبين أخبار الكتابات الحميرية الحقيقية أدل دليل على أن الأشعار مختلفة^(١) ووسع نالينو نطاق نقده ليشمل الرواة ويتناول الدوافع والعوامل العميقة من وراء حالات التزوير الأدبية . ورأى أن من أهم هذه الدوافع والعوامل ميل الناس إلى الأخبار العجيبة ، وما رجا الرواة من المكسب بها ، وحب كل شعب للافتخار بأجداده^(٢) . ولقد كان كل ذلك هو المادة التي صنع منها طه حسين - فيما بعد - نظريته المثيرة للجدل عن زيف الأكثرية المطلقة من الشعر الجاهلي . ولكن لنتتظر المزيد عن هذا الموضوع فيما بعد .

دافيد سانتلانا (١٨٥٥ - ١٩٣١)

اعتمد دافيد سانتلانا في محاضراته عن المذاهب اليونانية الفلسفية في العالم الإسلامي^(٣) على منهج تاريخي صريح . يبدو هذا على نحو واضح في دفاعه عن دراسة التاريخ، فهو يرد على المتشكك الذي يتساءل قائلاً : " ما الفائدة في كتبك هذه: التواريخ البالية، والرسوم الفانية . وإن هي في نفس الأمر إلا أساطير الأولين، وأوهام الأقدمين؟...^(٤) وهو يقدم من ثم إجابة متعددة الجوانب. فهو يرى - بصفة عامة - أنه ما من أمة أخذت في الترقى إلا وأقبلت على طلب أخبارها وإحياء ما درس من آثارها . أما فيما يتعلق بالفلسفة بصفة خاصة - وهو موضوع لا تختلف فيه المسائل الكبرى باختلاف الأجيال - فإن العلم بأفكار الأقدمين أمر لابد منه لفهم المذاهب الفلسفية ولا سيما المعاصرة منها . ويصدق هذا بصفة أخص في حالة الفلسفة الإسلامية، فلا يسع المصري أن يجهل مذاهب فلاسفة اليونان لأن "العلوم الإسلامية مؤسسة منذ البداية على علوم اليونان ، وأفكار اليونان ، بل وعلى أوهام اليونان...^(٥) .

(١) نفس المصدر ، ص ٣١١ ، لكن اقرأ « مختلفة » بدلاً من « مختلفة » التي ترد في النص الأصلي والتي هي خطأ طباعى واضح .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣١٣ .

(٣) نشرت هذه المحاضرات في صورة مختصرة في كتاب المذاهب اليونانية الفلسفية في العالم الإسلامي ، تحقيق محمد جلال شرف (بيروت ١٩٨١)

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤ .

(٥) نقص المصدر السابق ص ٢٧ .

والواقع أن هذه الإجابة التي تستند في تأييدها للتاريخ على دين الفلسفة الإسلامية للفكر اليوناني تحدد النغمة السائدة في الكتاب بأكمله. فعلى هذا الأساس يشرع المؤلف في إبراز العناصر اليونانية في الفكر الإسلامي . وهو يتبع في ذلك نهجاً انتقائياً لأنه يركز على العناصر اليونانية التي يفترض أن العرب كانوا يلمون بها على خير وجه . وهو يهمل من ثم تعاليم فلاسفة مثل امبدوقليس وفيثاغورث وسقراط، بينما يبرز ديمقريطس وأفلاطون وأرسطو والرواقيين والأفلاطونيين المحدثين .

غير أن ما نراه هنا من أوجه النقص التي كان يمكن قبولها بوصفها أموراً إجرائية يملئها المنهج المتبع أو طلب التيسير يقترن باتجاه اختزالي شديد الخطر . وذلك أن سانتلانا وقد اتبع نهجاً نقدياً صريحاً باسم الصرامة العلمية يسعى إلى إزالة التخليطات والالتباسات والزيادات الخرافية التي تعرضت لها الأفكار اليونانية على يدى مصنفى آراء الفلاسفة اليونانيين من العرب.^(١) ومن ذلك مثلاً سخريته من نسبة الفضائل القرآنية إلى أرسطو.^(٢) وفيما يتعلق بالحلم المشهور الذي ينسب إلى المأمون^(٣) واستخدامه في تفسير أمره بنقل مؤلفات فلاسفة اليونان إلى العربية ، فإن سانتلانا يرى أن كل تلك الروايات أشبه بالخرافات . وهو يقول عن وجه حق إن "... حياة الأمم وانتقالها من طور من التمدن إلى طور آخر لا تتعلق برؤيا رآها خليفة من الخلفاء على فرض صحتها."^(٤) وهو يرى أن مثل تلك التحولات ترجع إلى أسباب بعيدة ينبغي استنباطها على من يرغب الوقوف على حقيقة التاريخ^(٥) . بيد أن من المؤسف أن هذا النهج المتين يجنح إلى الشطط فينتهي في واقع الأمر إلى القضاء على موضوع البحث برمته . وذلك أن سانتلانا لا يكتفى بإزالة خرافات مصنفى الآراء الفلسفية وتحريفاتهم وأوهامهم، وإنما ينظر إلى الجهود الإسلامية في مجال الفلسفة

(١) نفس المصدر ، ص ٣٢ و ٣٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٣ .

(٣) يروى ابن النديم وابن أبي أصيبعة أن المأمون رأى أرسطو في منامه . انظر نفس المصدر ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ، هكذا أفسر النص على علته . فهو فاسد في هذا الموضع .

بوصفها... زيادات . فسعيه إلى استبانة العنصر اليونانى الأصل فى الفكر الإسلامى يتدهور إلى أن يصبح هو الرأى المشهور الذى يرجع فى الأصل إلى رينان والذى مؤداه أن الفلسفات الإسلامية ليست إلا صوراً واقتباسات وتحريفات متأخرة لأصول يونانية . وبذلك لم تزد جهود سانتلانا عن كونها محاولة لإمالة اللثام عن تلك الأصول التى يفترض أنها تتخفى وراء أسماء عربية أو قوالب إسلامية. ونقول بعبارة أخرى إن الهوس بالتأثيرات يتحول إلى سلاح مدمر ؛ لأنه يتجاهل السياق الاجتماعى والفكرى الذى وضعت فيه المذاهب الإسلامية كما يتجاهل اهتمامات ومطامح أصحابها . ومثال ذلك أن سانتلانا يدعى أن الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة حول تعين الماهية أو انفصالها عن الوجود هو عينه الخلاف بين أرسطو وأفلاطون فيما يتعلق بوضع الكليات.^(١) وهو إذن يتجاهل تماماً المشكلات الخاصة التى واجهتها الفرقتان الإسلاميتان فى إطار علم الكلام والطريقة التى استخدمتا بها العناصر اليونانية ، هذا إذا كانت قد استخدمتاها حقاً .

ولكن لا شك فى أن أفكار سانتلانا كان لها تأثير باق على طه وزملائه فى الجامعة المصرية . فلقد نبههم سانتلانا لأول مرة إلى الدين الثقيل الذى يدين به الفكر الإسلامى لليونان . فلم يكن أحد منهم يعرف - على سبيل المثال - أن ابن سينا قد "استعار" فلسفته من اليونانيين.^(٢) ويبدو من هذا ومن غيره من الشواهد أن آراء سانتلانا فى افتقار الفلسفة الإسلامية إلى الأصالة كان لها وقع قوى على طه إن لم تكن قد أقنعتة فعلاً.^(٣) ولكننا نستطيع على أى حال أن نكون على يقين من أن تأكيد سانتلانا على التأثير اليونانى قد أسهم فى آراء طه اللاحقة فى دور العناصر اليونانية فى الحياة الأدبية العربية فى ظل العباسيين وفى ثقافة البحر المتوسط . ويمكن أن

(١) يرى سانتلانا (نفس المصدر، ص ٦٧) أن الأشاعرة كانوا يعتقدون مثل أرسطو أن الشئ عين ماهيته بينما كان المعتزلة وفلاسفة الإسلام كانوا يتابعون أفلاطون ؛ لأنهم كانوا يفرقون بين الوجود والماهية وأثبتوا من ثم اسم "الوجود" لما يتصوره العقل ولما يمكن وجوده (دون أن يكون موجوداً بالفعل).

(٢) انظر طه حسين، "محاضرة"، ص ٢٠٨ .

(٣) يشير طه حسين فى تجديد فكرى أبى العلاء (فى م ك، المجلد ١، ١٩٧٣، ص ٨٦ ، الحاشية ١) إلى قصور الفلسفة الإسلامية بالمقارنة مع الفلسفة اليونانية، وهو يعزو هذا القصور إلى عدة أسباب منها أن فلاسفة المسلمين قد "قلدوا" فلاسفة اليونان وجاهلوا لغتهم . إلا أنه يسارع فيضيف أنه لن يعرض لقول رينان إن العقل السامى بفطرته غير مستعد للتعمق فى الفلسفة . وربما كان هذا التحفظ الأخير الذى صاغه طه فى عبارة غامضة يعنى أنه لا يوافق على التفسير العنصرى الذى يقدمه رينان لقصور الفلسفة الإسلامية .

يقال أيضاً إن موقف سانتلانا الصارم من الآراء الموروثة واستنكاره للطابع الخرافى لبعض روايات مصنفى الآراء الفلسفية لابد قد أسهمت فى تشكيل موقف طه كمؤرخ من حيث ميله إلى النقد وغلبة الشك عليه .

لويس ماسينيون (١٨٨٣ - ١٩٦٢)

على غرار سانتلانا يحدد ماسينيون موقفه التاريخى معارضاً بعض أعلام المؤرخين العرب : فهو يبدأ محاضراته فى تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية^(١) بنقد كتاب التراجم والمدافع عن الفلسفة مثل القفطى وابن النديم الذين استعرضوا سير الفلاسفة ومذاهبهم وفقاً للترتيب الزمنى والجغرافى.^(٢) ففى رأى ماسينيون أن هذا الأسلوب نافع بلا شك من الناحية الوثائقية، ولكنه معيب من وجهة النظر التعليمية . فهو جاف لا حياة فيه، والمادة التى يقدمها لا بد بناء على ذلك أن ترهق مستمعيه وتدفع الآخرين إلى موقف من الشك النابع من خيبة الآمال.^(٣) وهو يفضل نهجاً آخر يستند بمقتضاه إلى الألفاظ المجردة التى تعبر عن الأفكار العامة^(٤) بوصفها نقطة مرجعية ثابتة، فيتعقب ما طرأ على كل منها من تعاريف متتالية (أو تحولات مفهومية كما يقال بلغة هذا العصر) خلال تداولها.^(٥) غير أن هذا النهج المعجمى^(٦) فى ظاهره هو فى واقع الأمر تاريخ لمختلف "القيم" التى تحدد لـ "العملة الأساسية" فى مجال الفلسفة كما جرى تبادلها بين الشرق والغرب . ومثال ذلك ما يفعله ماسينيون عندما

(١) ألقى هذه المحاضرات التى يبلغ عددها الأربعين بداية من ٢٥ نوفمبر ١٩١٢ حتى ٢٤ أبريل ١٩١٣ ، ونشرت فى صورة كتاب هو محاضرات . كما نشر نص أوفى من المحاضرة الأولى فى السلسلة، مع مقدمة بالفرنسية، انظر "L'Histoire"

(٢) نفس المصدر، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) نفس المصدر، ١٥٢ .

(٤) نفس المصدر. انظر أيضاً لويس ماسينيون محاضرات، ص ٤ حيث يتحدث ماسينيون عن "المقولات والأسماء الكلية والمعانى العامة".

(٥) لويس ماسينيون، المرجع السابق ، ص ٢٥١.

(٦) المهمة المباشرة لـ ماسينيون - كما يحددها هو نفسه - هو تأسيس قاموس عربى للاصطلاحات الفلسفية. انظر نفس المصدر ، ص ١٥٢ - ١٥٤ ومحاضرات ، ص ٤ .

يبدأ بالنظر في كلمة "علة" وفقاً لمعناها الأصلية في اللغة العربية العادية (القديمة) وتعريفها وفقاً للنحاة العرب؛ ثم يشرح المعاني الفنية التي اكتسبتها الكلمة أولاً نتيجة لتأثير الفكر اليوناني (ومن ثم كان مفهوم *aitia*) وبعد ذلك عندما انتقلت إلى أوروبا وطوعها الفلاسفة الأوروبيون في العصور الوسطى والحديثة.^(١) وعلى هذا النحو نفسه يتناول ماسينيون الألفاظ الفلسفية الأخرى وفقاً لنهج منظم : فيبدأ بما هو أكثر تجريداً لينتهي بأعلى الموجودات؛ إذ تأتي أولاً الألفاظ التي تدخل في باب المنطق بوصفه أداة لكل تفكير (الأسماء الكلية والمقولات والقضايا والأقيسة واللوجسطيقا)، ويلى ذلك الألفاظ المتعلقة بالعدد والمادة والحياة والمجتمع والله.^(٢)

وقد يقال إذن إن "القاموس" الذي يقترحه ماسينيون يصدر عن رؤية أكثر حيوية وتوازناً للفكر الإسلامي . فهو على خلاف سانتلانا يتصور العلاقات بين أوروبا والإسلام كنوع من "الحركة" في الاتجاهين أو "التجارة" : ففي رأيه أن الفلسفة الإسلامية – وقد تشكلت تحت تأثير الفكر اليوناني من مواد أصلية أولية وإن كانت خسبة – نقلت فيما بعد كمنتج مطبوع بطابع يوناني إلى أوروبا حيث مدت جذورها وكان لها تفرعات شتى^(٣) .

إن رأى ماسينيون الثاقب أن الفكر الإسلامي نشأ عن اللغة العربية كلغة غنية بالإمكانات وافترضه بصفة أعم أن المفاهيم الفلسفية الراقية ثمرة لتنقيحات أدخلت على مواد أصلية في اللغة العادية يتسمان بالبراءة ، ولابد أن يروقا لا للمسلمين فحسب بل ولأرسطو والفارابي^(٤) وفلاسفة اللغة العادية المعاصرين أيضاً . ومن المؤسف إذن أن تبحر ماسينيون يتعارض على نحو ما مع مطامحه التاريخية. فكثيراً ما تقتصر مناقشته للمصطلحات على مجرد حصر لتعريفاتها كما حددتها مختلف الفلسفات أو المدارس الفكرية : ففي حالة مفهوم "الروح" مثلاً يكتفى ماسينيون بأن

(١) p. 154 " Histoire" : محاضرات ، ص ٥ - ٦ .

(٢) p. 155 " L'Histoire " : محاضرات ، ص ٧ - ٨ .

(٣) p. 154 " L'Histoire " : محاضرات ، ص ٥ - ٦ .

(٤) يحاول الفارابي في كتابيه الألفاظ المستخدمة في المنطقة وكتاب الحروف -الذين حققهما محسن مهدي (بيروت ، ١٩٦٨ و ١٩٧٠ على التوالي)- أن يثبت أن المفاهيم الأساسية في منطق أرسطو وميتافيزيقاه يمكن أن تستمد - مع إدخال التعديلات اللازمة - من مواد عربية عادية وتعريف النحاة .

يبين كيف أن اللفظ قد اكتسب معاني شتى على أيدي الفقهاء والمتكلمين والمتصوفة بداية من نقطة انطلاق في لغة الكلام العادية (الريح أو النفس).^(١) وفي حدود ذلك الاستعراض ليس ثم إشارة إلى العضلات والمجاذلات التي أثارها الموضوع ولا إلى الضغوط المتضاربة التي مورست من أجل إعطاء اللفظ المعنى وظائفه الجديدة المختلفة .

ولا تتكشف محاضرات ماسينيون عن رؤيته العميقة إلا قرب نهايتها، فهو في المحاضرة الحادية والثلاثين يناقش ويرفض آراء رينان العنصرية في اللغات السامية. وقد يبدو إذن أن معجم ماسينيون هو في الواقع محاولة مسهبة لتفنيد آراء رينان عن طريق التدليل على أن لغة سامية بعينها، أي العربية ، كانت من غنى الموارد بحيث تفي باحتياجات الفكر العقلاني عبر القرون. وفي المحاضرة السادسة والثلاثين تتأكد هذه النظرة إذ يناصر ماسينيون قضية الفصحى ضد الداعين إلى استخدام اللغة الدارجة وإذ يحذر من أخطار الشعبوية التي تتهدد وحدة الأمة.^(٢) وفي المحاضرة الأخيرة إلا واحدة يصبح كل شيء واضحاً عندما يتناول ماسينيون أدوار اللغة العربية في الماضي والحاضر والمستقبل بوصفها أداة للفكر والعمل.^(٣) وعندئذ يتبين أن للعربية رسالة ما فتئت تضطلع بها في نطاق الثقافة العالمية. فكما أنها كانت في الماضي نقطة التقاء لثقافات شتى، فإن بإمكانها مرة أخرى أن تفي بدورها الدولي إذا ما بذلت في سبيل ذلك جهود جديدة . بل إن ماسينيون يستطيع أن يرى في الأفق من العلامات ما يبشر بنهضة قادمة.^(٤) ومن الواضح أنه ما من شيء يمكن أن يطابق أحلام مفكرى النهضة ومناصرى الجامعة المصرية أكثر مما يطابقها هذا التصور الرفيع للغة العربية كما عرضه المستشرق الفرنسي .

(١) " L'Histoire " p. 152 ؛ محاضرات ؛ ص ٤ و ١٠٣ و ١٠٤ .

(٢) محاضرات ، ص ١٨٨ و ١٨٩ .

(٣) لكن لاحظ أن ماسينيون يعلن في المحاضرة الأولى (وخاصة في نصها الفرنسي) التي يعرض فيها تخطيطه لمحاضراته عن اعتزامه تناول هذا الموضوع . انظر " L'Histoire " p. 155

(٤) انظر المحاضرة الثامنة والثلاثين .

أما وقد لخصنا بعض آراء الأساتذة المستشرقين الذين حاضروا في الجامعة المصرية ، فإننا ينبغي أن نؤكد في الختام أن هذه الآراء على جدتها كانت تتطابق مع بعض الافتراضات والتوقعات والاتجاهات التي كانت فعالة في البيئة المصرية . وقد رأينا في هذا الفصل كيف أن هذه الأفكار كانت قد تقدمتها وأكدتها بطرق شتى أفكار لطفي السيد وغيره من المثقفين والمصلحين المصريين . وكان طه مهيئاً ، بل وكانت مصر بأكملها مهيئة، لتلقى رسالة المستشرقين . وقد لقيت الدعوة إلى نوع جديد من التاريخ تربة خصبة في مصر نظراً لوجود وعي تاريخي حاد وحاجة عميقة إلى إعادة النظر في الماضي وتحديد هوية مصر ودورها في المنطقة وفي العالم . ولذلك كانت آراء ماسينيون عن التبادل الثقافي بين الشرق والغرب وأفكار سانتلانا عن التأثير اليوناني على الفكر الإسلامي شديدة الصلة بواقع الحال .

ومن الواضح أن هؤلاء الأساتذة الغربيين كانوا على وعي بالاحتياجات والاهتمامات المحلية، وأنهم بذلوا جهداً خاصاً لتبليتها . ومثال ذلك أنهم كانوا مطلعين على المصادر القديمة للثقافة العربية، وهي المصادر التي كان الأزهر قد أهملها منذ زمن بعيد ويعتز بها زعماء النهضة . ولابد أن طه - بوصفه تلميذاً للمرصفي - قد أبهجه أن يرى معلميه الأوروبيين يبعثون تلك الكتب الموقرة ويستخلصون منها المواد اللازمة لتاريخهم ، تماماً كما أثار إعجابه تمسكهم بالعربية الفصحى في زمن ساد الانحطاط اللغوي ^(١) . ولابد أنه وجد من الرائع مشهد ماسينيون وهو يدافع عن الفصحى ضد شعوبية اللهجات الدارجة أو مشهد نالينو وهو يبذل قصاره لمناصرة العربية في نقائها القديم ضد ما أسماه "إفراط التأثير الإفرنجي" . يقول عن هذا الإفراط إنه "ربما أبعد الناس عن شدة العناية بلغتهم وأدخل في تأليف بعض المحدثين وفي بعض المجالات والجرائد العجمة المستقبحة والتراكيب الشائنة السقيمة..." ^(٢) .

(١) انظر تقديم طه حسين لكتاب نالينو تاريخ الآداب العربية ، ص ٨ ، حيث يعقد مقارنة لافتة للنظر بين شيوخ الأزهر الذين كانوا لايعربون إلا حين يقرءون في الكتب، فإذا تكلموا غرقوا وأغرقوا طلابهم في اللغة العامية إلى أذنانهم أو إلى آذانهم، وبين الأساتذة الأوروبيين الذين كانوا يعربون في جميع الأغراض .

(٢) نالينو، تاريخ الآداب العربية، ص ٦٠ .

وهناك عدة دلائل توحى بأن هؤلاء العلماء كانوا على وعى بالمطامح السياسية والثقافية المصرية ويتعاطفون معها . فلقد عرضنا فيما تقدم لأراء ماسينيون في دور العربية المستمر في الثقافة العالمية . وقد ينبغي أن نضيف هنا أن نالينو كان ينحو نحو مزيد من التحديد والتأكيد في هذا الصدد : فلقد أشار إلى أن بلاده كان لها مع مصر دائما علاقات ودية سلمية وأنه لم يحدث قط أن وصل مركب إيطالي إلى المرافئ المصرية في عمل عدواني^(١) ، وأعرب عن اغتباطه لأن بعض الإيطاليين قد دعى إلى "الاشتراك في هذه النهضة العلمية"^(٢) . كما استنكر ما تتعرض له اللغة الفصحى من تدهور واضمحلال في الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي^(٣) .

وينبغي في النهاية أن نلاحظ كياسة هؤلاء المستشرقين حيال مضيفيهم وإدراكهم لحدود اختصاصهم . وعلى هذا النحو حرص نالينو على أن يحيى عددا غير قليل من العلماء الاعتباريين قدماء كانوا أم معاصرين شرقيين أم غربيين ممن تعرض لهم بالنقد^(٤) وعلى تحديد صلاحياته كأجنبي يدرس الأدب العربي لجمهور عربي . فما كان له - فيما رأى - أن يناقش الوطنيين في معرفة اللغة . فمهمته تقتصر على أن يطبق على الآداب العربية أساليب البحث التاريخي التي ثبت نفعها في دراسة الآداب الأوروبية^(٥) .

كذلك يمكننا أن ننظر كيف أن ماسينيون - بعد أن رأى أن للعربية مثلها مثل سائر اللغات طابعها الخاص الفريد - يسارع فيضيف أنه ليس من حقه وهو الأجنبي أن يحدد ذلك الطابع للذين يمتلكون تلك "الموهبة الخلاقة" بحكم مولدهم^(٦) . فدوره - كما قال - هو دور حامل الفانوس: يتقدم الغير ليضيئ الطريق الذي ينبغي أن يسيروا فيه، وليس له - كما قال دانتى - أن يسير في النور. كلا وليس له أن يلج الجنة . ويكفيه أنه أضاء الطريق ليلاً حتى الباب^(٧) .

(١) نفس المصدر، ص ١٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر ، ٦٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٩ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٥٧ .

(٦) " L'Histoire " p. 152- 153 .

(٧) نفس المصدر . انظر أيضا محاضرات ، ص ٤ .

ولا يمكننا دون مراعاة هذه الاعتبارات أن نفهم لماذا رأى طه فى هؤلاء المستشرقين رجالاً من ذوى النزاهة والدوافع النقية^(١) ولماذا تقبل بسهولة تأثيرهم . ولقد كان حريصاً على أن يعقد معهم صلات من الصداقة والتعاون دائمة مدى الحياة . فكلهم - فيما قال - قد عرفه وأدناه من نفسه ودعاه إلى أن يزوره فى فندقه وأحب أن يقول له ويسمع عنه.^(٢) وكان طه يزور جويدي كل أسبوع فى مسكنه ويهديه نسخاً من كتاباته المنشورة.^(٣) ومن الحوادث التى لا تنسى بالنسبة لصاحب الأيام موعد ضربه لأستاذه سانتلانا ليحضر معه درسا من دروس الأزهر.^(٤) كما كان طه يذهب بصحبة نالينو للبحث عن الوثائق والمخطوطات فى الأحياء القديمة بالقاهرة^(٥).

وليس هناك من شك فى أن الفتى الأزهرى الموهوب رغم أفته قد أثار إعجاب أساتذته الأوروبيين.^(٦) وبداية من سنة ١٩١٥ - وهى السنة التى نشر فيها رسالته عن أبى العلاء - لم تسنح له فرصة إلا وانتهازها للإشادة بهم.^(٧) ومن المهم أن نؤكد على هذه العلاقات "الخاصة"؛ فبفضلها أتبع لطفه مصدر غنى بالمعرفة خارج نطاق الدراسة النظامية . يضاف إلى ذلك أن هذه العلاقات بين هؤلاء المستشرقين والفتى الأزهرى المتمرد تصلح مثلاً ممتازاً لتوضيح اللقاء بين الشرق والغرب بكل ما ينطوى عليه اللقاء من تعقيد والتباس . فلننصرف مؤقتاً عن الدروس التى يمكن استخلاصها من التفكير فى هذا المثال إلى دراسة الكتابات المبكرة لطفه. وهى الكتابات التى حاول فيها أن يستوعب تعاليم أساتذته الأجانب وأن يكون لنفسه رأياً فى التاريخ . فذلك هو موضوع الفصل التالى .

(١) رأى طه حسين أن أساتذته الإيطاليين كان يدفعهم « حبه للفتى ولبلادنا وعطفهم الذى لا يكل على شباب [مصرى] مولع بالمعرفة » انظر « محاضرة » ، ص ٢٠١ ، الحاشية ١١ .

(٢) الأيام فى م ك ، ص ٤٤٧ .

(٣) طه حسين، المرجع السابق، ص ٢٠٦ .

(٤) اقرأ القصة فى الأيام، فى م ك، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

(٥) طه حسين، « محاضرة » ، ص ٢١٢ .

(٦) يكفى كمثال واحد أن نذكر موقف لتمان الأبوى كما وصفه طه حسين فى الأيام، ص ٤٨٦ - ٤٨٧ وفى مقاله « إنو لتمان »، المجلة، ديسمبر ١٩٥٨، ص ١١ - ١٤ ، ص ١٣ .

(٧) انظر طه حسين، تجديد ذكرى أبى العلاء، ص ١١ - ١٢ .

الفصل الرابع

الكتابات المبكرة

نستطيع الآن بعد أن درسنا تعليم طه حسين فى الجامعة المصرية الناشئة أن نتناول كتاباته المبكرة ؛ فهى فى واقع الأمر قد تزامنت مع هذه المرحلة التعليمية وكانت انعكاساً لها إلى حد بعيد. وقد رأينا فى الفصل السابق أن طه بدأ حياته ككاتب فى سنة ١٩٠٨ وذلك فى الجريدة التى كان يرأس تحريرها لطفى السيد. وبعد ذلك بقليل أخذ طه ينشر قصائد^(١) ومقالات تتناول موضوعات شتى بما فى ذلك الأحداث الجارية والإصلاح الاجتماعى والتعليمى وقضايا الأخلاق والدين والنقد الأدبى وتاريخ الأدب. ولا شك أن هذا الإنتاج المتنوع الغزير الذى بلغ ذروته فى رسالة طه عن أبى العلاء (١٩١٤) قد حفز إليه اتصال طه بعالم المعارف المدنية بفضل لطفى السيد والجامعة المصرية فى أول عهدها. ولما كان طه قد بدأ نشاطه المبكر ككاتب وهو لما يزل طالباً فى كل من الأزهر والجامعة فإن كتاباته المبكرة كانت - إلى حد بعيد - استجابة مباشرة لحالة الفوران والاختمار الفكرى الناشئة عن التقاء هاتين الثقافتين. وعندما بلغت هذه الكتابات ذروتها - وكان ذلك على وجه التحديد عند اختتام طه لدراسته العليا بتلك الرسالة - كان قد حقق نوعاً من التوفيق بين الجانبين .

وقد تلقى طه تدريبه ككاتب على يدى رجلين هما أحمد لطفى السيد وعبد العزيز جاويش (١٨٧٦ - ١٩٢٩). وكان أولهما - فيما روى طه - يقرأ مقالات الفتى فيصلح

(١) يبدو أن أول عمل ينشر لطه كان قصيدة ظهرت فى الجريدة فى ١ يناير ١٩٠٨ . انظر محمد سيد كيلاى، طه حسين الشاعر الكاتب (القاهرة ١٩٦٣) ، ص ١٧ .

ما يحتاج منها إلى الإصلاح قبل أن يأتى بنشرها.^(١) وقد استمر هذا الدور الإشرافى بشكل أو آخر طيلة الفترة موضوع الدراسة. وكان الأستاذ يحث تلميذه على "القصد فى الألفاظ والأناة فى التفكير"^(٢). وقد يعنى هذا أن الأستاذ كان يؤكد لتلميذه ضرورة تحاشى الإطناب والزخارف اللفظية والحذقة الأزهرية بالإضافة إلى ضرورة مقاومة التسرع والأفكار الفجة. ومن الواضح أن هذا الحث على الاعتدال كان متمشياً مع مزاج لطفى وتعليمه القانونى وميوله الفلسفية، ولكنه كان أيضاً استجابة ضرورية لظهور منافس خطير هو الشيخ عبدالعزيز جاويش : إذ لم يمض وقت طويل بعد الدفعة الأولى التى تلقاها طه من لطفى حتى وجد هذا الأخير أن عليه أن يتبارى مع قوة الجذب التى كان يمارسها عبدالعزيز جاويش ليشد الفتى فى الاتجاه المضاد .

كان عبدالعزيز جاويش على طرف نقيض من لطفى : فقد كان بوصفه تابعاً متحمساً لمصطفى كامل وزعيماً فى حد ذاته من زعماء الحزب الوطنى يعارض الاحتلال البريطانى بلا هوادة ويدعو إلى الاستقلال فوراً فى نطاق وحدة إسلامية (تحكمها الخلافة العثمانية) . كما كان مدافعاً غيوراً عن الإسلام على غرار محمد عبده^(٣) ومناضلاً شعبياً ملتزماً بالعمل المباشر على مستوى القواعد الشعبية^(٤) وداعية محرضاً^(٥) ومجادلاً لامعاً وخطيباً نارياً ، وكان رجلاً ذا صوت عذب وحديث لين رقيق، ولكنه يتفجر غضباً ويهاجم بعنف شيوخ الأزهر وخصومه السياسيين^(٦) .

(١) طه حسين ، « المرحوم الأستاذ لطفى السيد » ، مجلة مجمع اللغة العربية ، المجلد ١٨ (١٩٦٥) ، ص ١١٣ - ١١٤ ، ص ١١٤ .

(٢) طه حسين ، الأيام ، فى م ك ، المجلد ١ (١٩٨٠) ، ص ٤١٦ .

(٣) انظر عبد العزيز جاويش ، الإسلام بين الفطرة والحريّة (القاهرة ١٩٦٣) .

(٤) أنور الجندى ، عبد العزيز جاويش ، من رواد التربية والصحافة والاجتماع (القاهرة ١٩٦٥) ، ص ٦٤ .

(٥) أنظر P.J. Vatikiotis, *The History of modern Egypt from Muhammad Ali to Mubarak* (London 1991) pp. 208-209

(٦) طه حسين ، الأيام ، فى م ك ، ص ٤١٧ .

وكان عبدالعزيز جاويش هو الذى حرص طه على كتابة سلسلة من المقالات فى نقد المنفلوطى نقدا انزلق إلى طول اللسان والشتم^(١) ، وذلك بعد أن كان طه معجباً به بل ومقلداً له^(٢) وكانت مقالات طه التى لم ينقطع فيما بعد ضيقه بها وخجله منها مناقضة لكل ما كان لطفى يحرص عليه^(٣) : كانت مقذعة مفرطة فى الطول حافلة بالمحسنات ولا تتضمن من النقد إلا ما كان لفظياً .

وكان موقف الفتى من أستاذه الذين لا توفيق بينهما موقفاً يتسم بالمكر الجامع للنقيضين : فكان ينشر فى الجريدة مقالاته التى يذهب فيها مذهب القصد والاعتدال بينما ينشر فى صحف الحزب الوطنى المقالات التى يغلو فيها ويسرف^(٤) ولا شك أنه كان مدفوعاً فى هذا بالطموح والتعطش للشهرة^(٥) . ولكن لا شك أيضاً فى أن كاريزما عبدالعزيز جاويش كانت تتجاوب مع بعض الميول العميقة فى نفس طه . فقد كانت شخصيته من التعقيد بحيث لا يمكن أن يقنع بأستاذ واحد أو أن يستوعبه اتجاه شامل واحد .

(١) نفس المصدر، ص ٤١٨ - ٤١٩ . كتب طه مقالاته تحت عنوان "نظرات فى النظرات"، وخصصها لنقد مجموعة مقالات المنفلوطى التى عنوانها النظرات. وبدأ طه ينشر سلسلة مقالاته فى مصر الفتاة، ٢ أغسطس ١٩١٠ ثم استأنفها فى الشعب، ٢٠ أبريل ١٩١٠ .

(٢) للاطلاع على نماذج من تقليد طه حسين للمنفلوطى انظر محمد سيد كيلانى ، المرجع السابق، ص ٨٢ وما يليها .

(٣) أبدى لطفى استياءه من مقالات طه فى نقد المنفلوطى بامتناعه عن الحديث عنها. انظر طه حسين، المرجع السابق ، ص ٤٢٠ .

(٤) نفس المصدر، ص ٢٩٨ و ٤٢٧ . لاحظ أن بعض هذه الصحف، مثل العلم والهداية ، كان يرأس تحريرها عبد العزيز جاويش .

(٥) يروى سامى الكيالى فى كتابه مع طه حسين، الجزء ٢ (القاهرة ١٩٦٨)، ص ٧٥ أن طه حسين قد اعترف بعد أربعين سنة من حملته على المنفلوطى بأنه كان مدفوعاً فى نقده لهذا الأخير برغبته كشاب "عنيف المزاج" فى تحقيق الشهرة على حساب كاتب كبير معروف. ولاحظ أيضاً أن الفتى دأب على نقد المرموقين من معاصريه. ومن ثم كان نقده لحافظ إبراهيم وعبدالرحمن شكرى ورشيد رضا وعثمان مهدى ، وكما سنرى بعد قليل، جرجى زيدان. انظر بشأن هذه المعارك محمد سيد كيلانى ، المرجع السابق، ص ٩٩ وما يليها؛ وعبدالحى دياب، التراث النقدى قبل مدرسة الجيل الجديد (القاهرة ١٩٦٨)، ص ٧٨ وما يليها ؛ ومحمد أبو الأنوار، الحوار الأدبى حول الشعر، الطبعة ٢ (القاهرة ١٩٨٧)، ص ١٠٠ وما يليها؛ وأنور الجندي، "صفحات مطوية من حياة طه حسين، ١٩٠٨ - ١٩١٦"، فى طه حسين كما يعرفه كتاب عصره (القاهرة، بدون تاريخ)، ص ٤٣ - ٦٢، ص ٥٠ وما يليها؛ وعبدالعليم القبانى، طه حسين فى الضحى من شبابه، ١٩٠٨ - ١٩٣١ (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٢٦ وما يليها؛ وأحمد على ، طه حسين، رجل وفكر وعصر (بيروت ١٩٨٥)، ص ٢٨٥ وما يليها .

ونقول - بمزيد من التحديد - إن كثيراً من آرائه ومواقفه كانت تتماشى مع آراء ومواقف عبدالعزيز جاویش ، فلا بد أن هذا الأخير كان يمثل بالنسبة له نزعة الإصلاح الإسلامى كما استنتها محمد عبده .^(١) ولنا أن نفترض أن هذا الاتجاه كان ما زال مسيطراً على فكر طه حسين ، وأنه لم يتحول إلى نزعات لطفى السيد التجديدية والمدنية والليبرالية ودعوته إلى الاعتدال السياسى إلا ببطء وبالتدريج . والواقع أن تحوله هذا قد استغرق ثلاث أو أربع سنوات ، وأنه لم يكن بالتحول الكامل حتى عندما تحقق : إذ يبدو أن شيئاً من تأثير عبدالعزيز جاویش قد بقى بعد ذلك. ولقد يبدو أنه بوصفه صحفياً وخطيباً قد ساعد طه على اكتشاف إمكانيات اللغة الفصحى كأداة للاتصال المباشر.^(٢) ويخيل إلى أن دراسة أسلوب طه فى مرحلة نضجه دراسة متعمقة من شأنها أن تبين أنه يدين لأسلوب عبدالعزيز جاویش فى حيويته وحماسه وتدفقه أكثر مما يدين لنثر لطفى السيد الذى كثيراً ما جاء باهتا وعلى وتيرة واحدة. وصحيح أن طه تعلم بمرور الوقت أن يتحاشى النقد المهين ولكنه لم يفقد قط كلفه بالجدل والسخرية اللاذعة والغزارة - وهى الصفات التى كان يشارك فيها عبدالعزيز جاویش وكانت تستند فى الحالتين إلى تراث أزهرى عميق الجذور^(٣) .

ولأغراض هذه الدراسة سنستخدم عبارة الكتابات المبكرة لتدل على كل ما ألف طه من أعمال قبل سفره إلى فرنسا، بما فى ذلك إذن رسالة الدكتوراه التى أعدها عن أبى العلاء . غير أن هذه الكتابات - باستثناء الرسالة التى كانت أول ما ألف على شكل كتاب والتى تعد أول عمل "ناضج" له - لم تلق بعد الاهتمام الذى تستحقه. فلما كان مؤلفها قد أعرض عن جمعها ، ونظراً لأنها مازالت مبعثرة فى صحف ومجلات توقفت عن الصدور وصارت نادرة يصعب الوصول إليها ، فإنها مازالت مجهولة إلى

(١) وعلى هذا الأساس قد ينبغى لنا أن نفهم عنف عبدالعزيز جاویش فى هجومه على النزعة المحافظة لدى سلطات الأزهر. أما فيما يتعلق بصلات عبدالعزيز جاویش بمحمد عبده فانظر أنور الجندى ، عبد العزيز جاویش، من رواد التربية والصحافة والاجتماع ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) كان عبدالعزيز جاویش هو الذى درب طه على العمل الصحفى بالمعنى الدقيق للكلمة وعلى مخاطبة الجمهور وتدريس الأدب. انظر طه حسين، المرجع السابق الذكر، ص ٤٢٥ وما يليها .

(٣) درس عبدالعزيز جاویش فى الأزهر لفترة قصيرة ثم انتقل إلى دار العلوم التى تخرج منها فى سنة ١٨٩٧ . انظر أنور الجندى ، المرجع السابق ، ص ٤١ - ٤٢ .

حد بعيد أو مهمة إهمالاً يكاد يكون تاماً. أما الكتاب الذين تعرضوا لهذا الإنتاج المبكر لطله حسين فقد ركزوا حتى الآن على الكتابات التي تقل فيها أصالته مثل شعره^(١) أو آرائه بشأن القضايا الاجتماعية والسياسية^(٢) أو على الطرف والنوادر المتعلقة بمعاركه مع معاصريه من الكتاب. وفي مقابل ذلك لم يوجه إلا اهتمام ضئيل إلى مجموعة أخرى من الكتابات المبكرة التي وجد طه فيها وسطه الطبيعي. فهو يتناول فيها المسائل النقدية والتاريخية بالمعنى الدقيق للكلمة. فهذه الكتابات تكاد لا تكون موجودة في نظر بعض الكتاب^(٣). وهناك من الدارسين من يعلمون بوجودها ويدركون أهميتها ولكنهم يقنعون بالاعتطاف منها أو استنساخها أو تلخيصها. ولم تبذل حتى الآن أى محاولة جادة لتحليل هذه النصوص ووضعها في مكانها من تطور مؤلفها^(٤).

وهكذا أبعدت مقالات طه حسين النقدية المبكرة بمباركة منه إلى ما يمكن أن يوصف بما قبل تاريخه. ولمقاومة هذا الاتجاه اخترنا مجموعة من هذه المقالات لتكون موضوعاً للفحص الدقيق في هذا الكتاب. وصحيح أنها تفتقر إلى الصقل وسلاسة

(١) ظل طه ينظم الشعر حتى سنة ١٩١٣. فيما يتعلق بهذا الجانب من إنتاجه المبكر انظر محمد سيد كيلاني، المرجع السابق؛ وعبدالعليم القباني، المرجع السابق؛ وسامى الكيالى، المرجع السابق، ص ٢٤ وما بعدها؛ وأحمد علبى، المرجع السابق، ص ٢٧٣ وما يليها.

(٢) فيما يتعلق بهذه الآراء التي لم يكن طه فيها إلا تابعاً لقاسم أمين وأحمد لطفى السيد انظر محمد سيد كيلاني، المرجع السابق، ص ١٣٤ وما يليها و ١٥٦ - ١٥٧. إلا أن كتابات طه عن الشؤون الاجتماعية والسياسية ينبغي أن تكون على قدر من الأهمية التاريخية في الدراسة الوافية لتطوره من موقفه التقليدي المحافظ إلى وجهة النظر التجديدية.

(٣) يصدق هذا على بير كاكيا *Taha Husayn: his place in the Egyptian renaissance* (London 1956) (وجابر عصفور، المرایا المتجاوزة. دراسة في نقد طه حسين (القاهرة ١٩٨٣)؛ فهما يفترضان أن حياة طه كناقذ ومؤرخ للأدب تبدأ بدراسته عن أبى العلاء. وقد أفصح مفتاح طاهر عن هذا الافتراض عندما حصر كل كتابات طه النقدية السابقة على الدراسة المذكورة في نطاق المساجلات الهجائية الشهيرة المشار إليها آنفاً ورأى أنها خلو من أى قيمة أدبية. انظر *Miftah Tahar. Taha Husayn, sa critique littéraire et ses sources françaises* (Tunis 1976), p. 45 et loc. cit., note 1.

(٤) للاطلاع على محاولات أولية في هذا الاتجاه انظر محمد أبو الأنوار، المرجع السابق ص ١٠٥ وما يليها؛ وعبدالعزیز الدسوقي، تطور النقد العربى الحديث في مصر (القاهرة ١٩٧٧)، ص ٢٥٢ وما يليها؛ وأحمد بوحسن، الخطاب النقدي عند طه حسين (بيروت ١٩٨٥)، ص ٣٢ وما يليها.

الإيقاع المألوفين في أعماله الناضجة ، وأنها كثيراً ما تتسم بطابع التجريب ولا تنتهي إلى نتيجة حاسمة ، وأنها في بعض الأحيان مجزأة أو غير مكتملة. ومن الواضح أن مؤلفها مازال يتلمس طريقه ويبدو أحياناً وكأن الإعياء قد أصابه أو أن الأمر قد استغلق عليه أو أنه لم تكتمل لديه الأدوات اللازمة لمواجهة المهام التي حددها لنفسه. ولكن هذه هي على وجه التحديد الأسباب التي تضيف على هذه الكتابات أهمية قصوى : فهي ترينا تفكير طه حسين وهو مازال في مرحلة التكوين، وذلك في لحظة بالغة الخطورة في حياته الفكرية إذ يجاهد لكي يستوعب أشكال المعرفة الحديثة التي تلقاها بصفة رئيسية عن لطفى السيد وأساتذته الأوروبيين في الجامعة المصرية. وترينا هذه الكتابات طه وهو في بداية سعيه إلى التحرر من النهج اللغوي الكلاسيكي الجديد لدى المرصفي ومن مذهب محمد عبده في الإصلاح الإسلامى لكي يعتنق نمطاً حديثاً من التجديد يقوم بصفة رئيسية على إدخال الدراسة العلمية لتاريخ الأدب وبصفة عامة المنهج الحديث في البحث التاريخي . ولما كنا لا نستطيع في الوضع المعرفي الراهن أن نضطلع بدراسة شاملة لكتابات طه المبكرة ، فليس من الممكن أن نحدد على وجه الدقة متى شرع طه في تنفيذ برنامجه التجديدي . ولكن يجوز لنا على ضوء الكتابات التي اخترناها للدراسة أن نفترض طلباً ليسر أن التحول إلى التجديد وقع في سنة ١٩١١ . فقد ظل طه لفترة قبل هذا التاريخ ينزع نزعة محافظة بصفة عامة، وذلك رغم تزايد تأثير لطفى السيد وتأثير الأساتذة الأوروبيين في الجامعة . وتبدو هذه النزعة المحافظة واضحة في نقده للمنفلوطي، وهو النقد الذي كان صورة منحنية من النقد اللغوي على طريقة المرصفي ، وهي واضحة أيضاً في آرائه بشأن موضوعات أخرى مثل الزواج من الأجنيات^(١) والفلسفة^(٢).

(١) في سنة ١٩١١ نشر طه في الهداية (في ١ يناير و ٢ مارس) سلسلة من المقالات عن المرأة يحظر فيها زواج المسلم من الكتابيات الأوروبيات لما قد يكون لذلك من آثار ضارة على أبنائه وبناته. انظر محمد سيد كيلاني ، المرجع السابق الذكر، ص ١٣٤ - ١٥٣ ، ص ١٥٣ .

(٢) في سنة ١٩٠٩ عَنَّف طه فريقاً من الناس وصفهم بأنهم "الجاحدون لأمر ربهم" وبأنهم "... مفرودون يتبعون أئمة من شياطين الإنس، ينهجون بهم مناهج الغي، فقد ضربوا في الفلسفة حتى خرجوا منها أصفار الأكف ، خفاف العياب." انظر طه حسين، "ويلي من غدى"، مصر الفتاة، ١٥ سبتمبر ١٩٠٩ . نقلاً عن محمد سيد كيلاني ، المرجع السابق، ص ٣١ .

وقد يبدو من إعجاب طه بمحمد عبده ومن علاقته بعبدالعزیز جاویش أنه فی فترة المحافظة كان يتعاطف أيضاً مع مذهب الإمام فی الإصلاح. فهل كان طه فی تلك الفترة يتابع محمد عبده تماماً؟ ذلك سؤال لا نستطیع أن نجیب عنه علی وجه الیقین . وذلك لأننا لا نعرف کتابات طه المبكرة معرفة كاملة. غیر أن من المؤكد أن مذهب طه فی التجديد لا یمکن أن يفهم إلا علی خلفية من تعالیم المرصفی ومحمد عبده : أى بوصفه خروجاً علی النقد اللغوی والإصلاح الأصولی .

فی النقد

اخترنا للدراسة فیما یلی أربعاً من مقالات طه النقدية المبكرة ، وقد ألفت جميعها إلا واحدة علی شكل سلسلة . أما المقالة الأولى التي عنوانها "النقد: حقیقته. أثره فی الأمم ، شروطه ومضار الغلو فيه"^(١) فإنها لیست الأولى من حیث الترتیب الزمینی بین المجموعة التي اخترناها هنا، ولكنها تصلح مدخلاً عاماً لسائر المقالات. فهي تتناول موضوعات نظرية تتعلق بالنقد بصفة عامة فی مقابل المسائل الأخص المتصلة بتاريخ الأدب ، وهي تهیء الجو العام لمرحلة جديدة كاملة فی ممارسة طه للنقد - مرحلة ینصرف فیها عن النقد السجالی المهین لیفكر فی القواعد المنهجية التي تحكم النشاط النقدي .

غیر أن المقالة كما وصلتنا لا تفي إلا بجزء من البرنامج الذي أعلن عنه فی العنوان الطویل.^(٢) والواقع أنها لا تتضمن الشئ الكثير عن النقد الأدبی بالمعنی

(١) البیان، ١٩١١، ص ٢٧٧ - ٢٨٣ لیس من المعروف علی وجه الیقین تاریخ نشر المقالة فی غضون السنة المشار إليها. فهو ٢٤ أغسطس وفقاً لمحمد أبو الأنوار، المرجع السابق، ص ١٠٥، الحاشية ٢. وهو ١ سبتمبر وفقاً لمدی السکوت ومارسدن جونز، أعلام الأدب المعاصر فی مصر، ١، طه حسین، الطبعة الثانية (القاهرة - بیروت ١٩٨٢)، ص ١٢٤ . وقد فحصت مجلد سنة ١٩١١ من البیان فی دار الكتب، فلم أتمكن من تحديد تاریخ نشر المقالة بمزید من الدقة .

(٢) فی نهاية النص الذي وصف بأنه لیس سوى كلمة مجملة عن "النقد فی نفسه" يعد المؤلف بنشر أجزاء أخرى عن النقد الأدبی والعلمی المتعلق بفنون الکلام، ویأن یمکن أن يكون الجزء الأول منها معنیاً بنقد الشعر. ویذكر مدی السکوت ومارسدن جونز (المرجع السابق، ص ١٢٤) أن حلقة ثانية من السلسلة قد نشرت فی البیان، ١ أكتوبر ١٩١١ . ولكن لا محمد أبو الأنوار (المرجع السابق، ص ٥، الحاشية ٣) ولا كاتب هذه السطور استطاع أن يجد هذه البقية .

الدقيق للكلمة لأنها مخصصة للمفهوم العام للنقد الذى لا يمثل النقد الأدبى إلا نوعاً منه . ومن هنا كان المؤلف يفترض أن النقد لا ينطبق على كل أنواع القول أو فنون البيان أو الكلام من شعر ونثر فحسب وإنما ينطبق أيضاً على كل ميادين المعرفة النظرية والعملية وعلى أفعال الإنسان . بل إن مفهوم النقد كما يستخدمه المؤلف يتسع ليشمل المجال الطبيعى ؛ وذلك لأن التمييز النقدي كما يمارس فى تقييم الأقوال والأفعال يشبه ويكمل أو يعين الطبيعة فى عملها النقدي ، أى عملية الانتخاب الطبيعى فى المجالات البيولوجية والمادية . فكما أن عمل الطبيعة فى تحليل المادة وتركيبها وتحويلها تستبقى الصحيح والنافع وتستبعد الفاسد والضار وغير الصالح للبقاء، فإن التفكير النقدي يعمل على تمييز الخبيث من الطيب والفث من السمين وإزهاق الباطل وإظهار الحق .

وقد يبدو من هذا أن طه إذ يحاول تعريف النقد يسير وفقاً للترتيب المنطقي الذى يرجع إلى أرسطو أصلاً ويقتضى الانتقال من العام إلى الخاص . ففي البدء يأتى النقد عامة - أو النقد فى نفسه كما يقول طه - من حيث هو عملية تمييزية تعمل عملها فى مجال الطبيعة أو المادة وفى مجال الإنسان أو مجال المعنويات ، ثم يحدث ثانياً التركيز - فى نطاق هذا المجال الأخير - على النقد كما ينطبق على كل أنواع الكلام سواء أكانت علمية أم أدبية^(١) (فى مقابل النقد كما ينطبق على سائر أعمال الإنسان) . وفى المقام الثالث والأخير يضيق النطاق مرة أخرى ليقصر على النقد الأدبى على وجه التحديد : أى نقد الأقوال الأدبية سواء أكانت نظماً أم نثراً .

وسوف نرى فيما يلى أن هذا النهج الأرسطى الذى يبدو - بلا شك - أن طه تعلمه فى الأزهر ثم تأكد لديه نتيجة لاتصاله بلطفى السيد كان سمة مميزة لتفكير طه النقدي . ولم يكن من قبيل المصادفة اتباع طه لهذا النهج فى المقالة موضوع الحديث . فهى بأسرها تبدو كما لو كانت محاولة للتهدة بهدف استمالة الأستاذ . من هنا كان

(١) يدرك طه وجود فئة ثالثة من الأقوال هى الأقوال الفلسفية، ولكن هذه الإضافة لا تدخل أى تعديل أساسى على التصنيف الذى يقدمه؛ فهو فى هذه المرحلة من تطوره لا يفرق تفرقة واضحة بين العلم والفلسفة .

المؤلف يبذل قصاراه ليمتلك أفكار لطفى أو يحاكيها ، وليستبق اعتراضاته. يتضح هذا عندما ينظر طه فى النقد فى المجال الإنسانى فيصفه بأنه نشاط عقلى يستهدف « تمييز الخبيث من الطيب والغث من السمين ، واستخلاص الحق من الباطل والصواب من الخطأ وفك العقول من إسار التقليد وعقال الجمود وإعانة الطبيعة على إحياء النافع وتخليد المفيد. » كما يعد النقد - من حيث هو عمل من أعمال العقل - أساسياً فى تربية الأفراد والجماعات؛ ويرى أنه أضمن الطرق لإحراز التقدم فى مصر.

ومن ذلك أيضاً أن طه يردد - فيما يبدو - بعض آراء لطفى النخبوية عندما يفرد للناقد مكاناً بمعزل عن سواد الناس ، وهو يرى أن عمل العقل لابد أن يواجه مقاومة عاتية من السواد الأعظم من الناس لأنهم أسرى العادات والتقاليد ، والأفراد الأفذاذ الذين يتجاسرون على تمحيص الآراء الموروثة أو العادات المستقرة يخاطرون بأن يتهموا بالكفر والإلحاد والخيانة والمروق ويعرضون حياتهم لبطش القوة .

ويسعى طه - فى محاولة يبدو أنها ترمى إلى استرضاء لطفى بعد حادثة المنفلوطى وما شابها - إلى تقييد دور العامل الذاتى فى النقد الأدبى ؛ وذلك بإخضاع هذه العملية لقواعد تحكمها . ونراه من ثم يقول إن النقد نوع من أنواع المناظرة فيما بين الكاتب والناقد ، وأنه يخضع لنفس الشروط التى تحكم الجدل ؛ ولما كان الغرض فى الحالتين هو إظهار الحق فلا مجال فى النقد للشتم والتقريع ، وليس من الممكن بلوغ الحق إلا بالبحث الهادئ المعتدل الذى يبرأ من الاستجابة للعواطف ويصدر عن العلم بالشئ موضوع البحث .

أما وقد سلم طه بكل ذلك، فإنه يحاول مع ذلك أن يصل إلى حل وسط مشرف؛ فنراه يؤكد على ضرورة بعض جوانب النقد اللغوى كما يمارسه . فالناقد الجيد - فيما يقول - ينبغى أن يتحاشى الشتم ، ولكن أليس من الصحيح أيضاً أنه لا ينبغى أن يتملق أو يتزلف؟ كذلك يرد طه على رأى البعض أنه لا ينبغى نقد الأخطاء اللغوية إذا كان الكتاب المنقود مؤلفاً فى الفلسفة الإلهية، على سبيل المثال ؛ فيقول : "...لم يقل أحد إننا نريد الرقى فى موضوع دون موضوع ، وإنما نريد أن نرقى فى ألفاظنا كما نريد أن نرقى فى أفكارنا." ثم يقول طه فيما يشبه الالتماس الأخير: "...لو أننا

شايعناهم - أى الذين يرون رأى المذكور- فى هذا الرأى وما لأناهم عليه لانعقدت ألسنتنا ، وتحطمت أقلامنا ، وغلت أيدينا بإزاء ذلك الكاتب الذى يؤلف كتابه فى الطب أو المنطق بلغة العامة ودهماء الناس . "

وفى القسم الأخير من المقالة يحدد طه مجموعة من شروط النقد التى يمكن صياغتها مع شىء من الترتيب كما يلى. لما كان النقد نشاطاً عقلانياً يستهدف إظهار الحق ، فإنه ينبغى - فى المقام الأول - أن يصدر عن العلم بموضوع البحث . وبالإضافة إلى هذا الشرط الأساسى ، ينبغى للنقد أن يكون (أ) منصفاً معتدلاً هادئاً بعيداً عن الشتم والتقريع و (ب) بريئاً من الاستجابة للعواطف والأهواء مثل الحب والبغض ؛ وهى العواطف والأهواء التى تنحرف بالحكم عن الجادة و (ج) مقتصداً فى الثناء أو الهجاء .

نقد جرجى زيدان

من الملاحظ أن بعض الأفكار التى عبر عنها طه فى مقالته عن النقد، وخاصة فيما يتعلق بما أسماه "النقد الصحيح"، قد سبق له أن سجلها فى عمل آخر نشرت بعض أجزائه قبل المقالة المذكورة ؛ وأعنى بذلك سلسلة من المقالات عنوانها "نقد صاحب الهلال"^(١) ، ولكن هذه الأقوال التى صدرت عن طه فى وقت سابق ليست إلا من قبيل التلميحات التى غطت عليها لهجة المساجلة السائدة فى نقد طه لزيدان . وينبغى أن نلاحظ أيضاً أن سلسلة المقالات المذكورة لا تتعلق بالنقد بالمعنى الدقيق للكلمة بقدر ما تتعلق بتاريخ الأدب. ولا يظهر فيها تأثير لطفى السيد ، بقدر ما يظهر فيها تأثير أساتذة طه الأوروبيين فى الجامعة المصرية ، ولا سيما نالينو .

(١) تتألف السلسلة من ثلاث مقالات رئيسية نشرت فى الهداية فى يونيه - يوليه وأغسطس - سبتمبر وأكتوبر- نوفمبر ١٩١١ على التوالى وخصصت جميعها لمراجعة وتقنين مفصلين للمجلد الأول من كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان صاحب ورئيس تحرير الهلال. وقد رد هذا الأخير على طه فى مقالة عنوانها "رد على انتقاد" نشرت فى عدد أغسطس - سبتمبر من الهداية. وردّ طه على رد زيدان فى مقالة عنوانها "رد على رد" نشرت بدورها فى نفس العدد المذكور .

ومن المؤسف أن الباحثين الذين تعرضوا لهذه المقالات قد انخدعوا بطابعها السجالي الواضح ، فبدا لهم أنها ليست إلا مثالا آخر لعراك طه حسين الأدبي^(١) ، وغفلوا من ثم عن المساهمة الإيجابية التي تنطوي عليها ؛ إذ ترمى إلى وضع الأمور في نصابها فيما يتعلق بمسائل نظرية مثل نشأة العلم موضوع البحث ؛ أي تاريخ الأدب العربي ، وتعريفه وطبيعة التفسير المستخدم فيه. ولنا إذن أن نميز أولاً اعتراضاً يبدیه طه حسين على ادعاء زيدان أنه أول من ألف في تاريخ الأدب العربي وأول من أطلق على الموضوع اسمه العربي^(٢) وبينما يوافق طه جرجي زيدان على أن العرب القدامى بذلوا جهوداً رائدة في هذا الميدان، فصنفوا المصادر الكبرى لذلك التاريخ^(٣) ، فإنه يرى أن المستشرقين من الفرنج سبقوا إلى ترتيب المبحث وفقاً للمنهج التاريخي^(٤) ، وهو يرى أن العرب المحدثين ليسوا في هذا الجانب إلا تبعاً لهم، وأنه لا يحق لأي مؤلف عربي معاصر أن يدعى في هذا الباب فكرة حقيقية أو اختراعاً جديداً^(٥) وهو يرفض ما ادعى زيدان بشأن إسهامه ، ويرى أن أقصى ما يستطيع هذا الأخير أن يدعى في هذا الصدد هو أنه أول من ترجم اسم المبحث عن اللغات الغربية ؛ وإن كان هذا بدوره موضع نزاع^(٦).

وبعد أن وضع طه الأمور في نصابها فيما يتعلق بنشأة تاريخ الأدب العربي، ينتقل إلى إثارة عدد من الاعتراضات النظرية على تعريف زيدان للموضوع ،

(١) انظر على سبيل المثال أنور الجندي ، المرجع السابق، ص ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ .

(٢) بالنسبة لهذا الادعاء انظر جرجي زيدان، تاريخ أداب اللغة العربية، طبعة جديدة من تحقيق شوقي ضيف (القاهرة، بدون تاريخ)، الجزء ١، ص ٨ .

(٣) لكن لاحظ أن اتفاق طه مع زيدان ليس إلا اتفاقاً جزئياً لأنه يرفض رأى هذا الأخير في الكتب التي يمكن أن تعد مصادر كبرى لتاريخ الأدب العربي . انظر "نقد صاحب الهلال"، ١، الهداية، يونيه - يوليه ١٩١١، ص ٤٥٤ وما يليها .

(٤) نفس المصدر، ص ٤٥٣ .

(٥) انظر طه حسين ، "رد على رد" الهداية، أغسطس - سبتمبر ١٩١١، ص ٦٣٧ .

(٦) طه حسين ، المرجع السابق، ص ٤٥٣ . لاحظ أن إنكار طه لادعاءات جرجي زيدان في هذا الصدد يرجع لاشك إلى إدراكه أن هناك من سبقه إلى ارتياد الموضوع ؛ وأعني بذلك حسن توفيق العدل الذي درس الموضوع في ألمانيا ودرسه في دار العلوم .

وذلك أن وصف هذا الأخير للموضوع بأنه تاريخ العلوم والآداب فى اللغة العربية أو بأنه - بعبارة أخرى - تاريخ ثمار عقول أبنائها ونتائج قرائحهم^(١) وصف معيب فى رأى طه من جوانب شتى ؛ فهو أولاً يغفل تاريخ العربية فى نفسها أو دراسة التغير الذى طرأ على اللغة فى جوهرها - فى مقابل الأعمال العلمية والأدبية التى ألفت بالعربية. وبداية من هنا يفرق طه بين قسمين رئيسيين فى نطاق تاريخ الأدب : فهناك من ناحية دراسة اللغة دراسة لغوية أو فيلولوجية صرفاً تتناول جوهرها أو مادتها ، وهناك من ناحية أخرى دراسة العلوم والآداب التى أنتجت فى هذه اللغة .^(٢)

يضاف إلى ذلك ثانياً أن تعريف زيدان لتاريخ الأدب العربى يخلط - فى رأى طه - بين تاريخ العلوم وتاريخ الآداب،^(٣) بينما يقتضى الأمر التفرقة بين هذين النوعين من الدراسة. فبينما يتناول النوع الأول تطور الفكر العلمى عبر العصور وفى الأمم المختلفة، فإن النوع الثانى لما كان مقتصرأ على دراسة لغة بعينها فى فترة بعينها أو فى أمة معينة لا يعرض لتاريخ العلوم - إذا عرض له - إلا لماماً وبإيجاز أو بالإشارة إلى مسائل محددة ،^(٤) ويفترض طه أن دراسة تاريخ الآداب تنصب على فنون الأدب أو ما يسميه "فنون القول" أو "فنون البيان" شعراً ونثراً .

بيد أن الاعتراض الأساسى بين الاعتراضات النظرية التى يثيرها طه ضد زيدان ينصب على تصور هذا الأخير للعوامل التفسيرية فى تاريخ الأدب ، فهو فى رأى طه ملتزم بالرأى الذى مفاده أن "الأحداث السياسية والاجتماعية" هى الأسباب النهائية فى التاريخ الأدبى نظراً لأنه يقسم هذا التاريخ إلى أعصر سياسية تحددتها أحداث

(١) جرجى زيدان ، المرجع السابق، ص ٩ .

(٢) بعد إقامة التفرقة ضمناً فى "نقد صاحب الهلال"، ١، الهداية، يونيه - يوليه ١٩١١، ص ٤٥٤ وما يليها ينص عليها صراحة فى "نقد صاحب الهلال"، ٢، الهداية، أغسطس - سبتمبر ١٩١١، ص ٦٠٢ - ٦٠٤. ولاحظ أن طه فى تلك الفترة كان يدرك أن دراسة اللغة فى نفسها أو فى جوهرها أو مادتها تعنى من بين ما تعنى دراسة تاريخ اللغة العربية بالمقارنة مع اللغات السامية الأخرى، أو دراسة فيلولوجية مقارنة. انظر قوله "علم مقابلة اللغات" فى نفس المصدر، ص ٦٠٩ .

(٣) نفس المصدر، ص ٦٠٢ و ٦٠٣ .

(٤) من هذه المسائل دخول الألفاظ والمعانى الجديدة فى اللغة العربية نتيجة لترجمة الكتب اليونانية والهندية فى علم الفلك. نفس المصدر، ص ٦٠٤ .

سياسية كبرى وانقلابات اجتماعية مثل تعاقب الملوك والدول والأسر الحاكمة ؛ وهو رأى لا يقبله طه لأنه يرى أن الأحداث المذكورة هي ذاتها نتائج لتغيرات أعمق في نطاق الأمة المعنية .

فما هي هذه التغيرات ؟ هنا يصبح حديث طه ملتبساً ومضللاً ؛ فهو يعتقد أن التغيرات المعنية تتعلق بالآداب ، وأن الأسباب النهائية للتفسير في التاريخ الأدبي ينبغي أن تلتبس في هذا المجال . يقول في هذا الصدد: "...إن مما لا شك فيه أن الحوادث السياسية والاجتماعية ليست إلا نتيجة لتغيرات في أفكار الأمة وشئونها؛ وتلك التغيرات نتيجة لتغير الأحوال الأدبية ، فيجب أن تقسم عصور الآداب تقسيماً خاصاً غير التقسيم السياسى بمعنى أن ينظر إلى الآداب من حيث هي منتجة للحوادث السياسية لا من حيث هي نتيجة لها".^(١) ، ولما كان مفهوم الآداب في العربية مركب بالغ التركيب،^(٢) ، بحيث يشمل من بين ما يشمل : (١) الأدب بالمعنى الفنى أو ما يمكن وصفه بالظواهر (الأعمال والحوادث) الأدبية بالمعنى الدقيق للكلمة (٢) الاتجاهات والعادات والآداب الاجتماعية (الأخلاق والأعراف)، فلقد يبدو لأول وهلة أن طه عندما يقول إن الحوادث السياسية نتائج وليست أسباباً للآداب إنما يقصد المعنى الثانى للمفهوم، وأنه يعنى من ثم أن الحوادث المذكورة ، التى هى أبعد ما تكون عن المرجع النهائى فى التفسير المستخدم فى تاريخ الأدب ، ينبغى أن تفسر هى ذاتها بالرجوع إلى الاتجاهات والعادات والأخلاق الاجتماعية. ومما يؤيد هذا التفسير المثل الذى يضربه طه لتوضيح ما يعنى ، وهو مثل يستمد من ابن خلدون ويرجع فيه إلى الحوادث السياسية فى صدر الإسلام ، وذلك أن سقوط الخلافة الراشدة وقيام دولة الأمويين لم يكونا فى رأى طه سبباً لما حدث للأمة الإسلامية، وإنما كانا نتيجة لما أحدثته الحضارة الطارئة على العرب من التغير فى أخلاقهم

(١) نقد صاحب الهلال، ١، ص ٤٥٨ . التأكيد من عملى .

(٢) انظر كارلو نالينو، تاريخ آداب اللغة العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية، الطبعة ٢ (القاهرة ١٩٧٠)، ص ٢١ وما يليها؛ و"Adab" Gabrieli, Ef²

البدوية الصرف ، "فبعد أن كانوا فى جاهليتهم أولى شظف فى العيش ... وبعد أن كانوا أولى استقلال فى رأى وجنوح إلى الشورى وبعدما أحدثه الدين فى نفوسهم من السماحة واللين حتى ... رغبوا عن نعيم الحياة إلى نعيم الآخرة ... ورثوا ملك الفرس والروم وهم أولو حضارة ونعيم وأصحاب خفض ولين ... فقويت فيهم الأطماع واشترأبت أعناق كبارهم إلى الملك وسمت نفوس صغارهم إلى الإمارة والرياسة وعادوا إلى ما كانوا فيه من العصبية فكان ما كان من قيام الملكية وسقوط الجمهورية ، يؤخذ ذلك من أشعارهم وخطبهم ... وأخبارهم ...»^(١)

بيد أن إمعان النظر فى أقوال طه يبين أن المعنى الأول من معنى "الأداب" (الأدب بالمعنى الفنى) لم يكن غائباً تماماً عن فكره ؛ فهو يذكر مع الموافقة قول جرجى زيدان أن أهل التمدن الحديث يجعلون البحث فى آداب اللغة من أهم الوسائل لتفهم تاريخها السياسى ويقسمون ذلك التاريخ إلى أطوار على مقتضى ما تطلب عليها من الأحوال الأدبية ؛ فهم على سبيل المثال يقولون إن هذه الأمة هى الآن فى طور الحماسة الشعرية ، ولا تلبث أن تنتقل إلى العصر الأدبى ثم العلمى فالفلسفى إلخ ،^(٢) ومن الواضح أن عبارة "الأحوال الأدبية" كما هى مستخدمة فى هذا السياق تحتفظ بالمعنى الفنى الضيق لكلمة "الأداب" بحيث نكاد نفسرها على أنها تعنى "أحوال فنون الأدب".

غير أنه من الواضح أيضاً أن هذا التفسير بما أنه أحادى المعنى لا يعبر تعبيراً كاملاً عن وجهة نظر طه ؛ لأنه حتى فى هذا السياق مازال يتأرجح بين معنى "الأداب". ويتعبير آخر نقول إنه يفترض - فيما يبدو - أن "الأحوال الأدبية" لا تدل فقط على الظواهر والحوادث الأدبية، وإنما تدل أيضاً على الأوضاع الأخلاقية . ومثال ذلك أن طور "الحماسة الشعرية" فى مجتمع ما لا يعنى بالنسبة لـ طه سيادة نوع

(١) طه حسين ، المرجع السابق، ص ٤٥٩ .

(٢) "نقد صاحب الهلال"، ٢، الهداية، أغسطس- سبتمبر ١٩١١، ص ٦٠٦ .

شعري فحسب، وإنما يعنى أيضاً طائفة كاملة من العواطف والاتجاهات الأخلاقية . كما يعنى تصوراً كاملاً للعالم وطريقة فى الحياة . وهو يعتقد على أية حال أن الحوادث السياسية، مهما كان بروزها واجتذابها للأنظار. تنتمى دون شك إلى البنية الفوقية للمجتمع ، فى حين أن الظواهر الأدبية تمثل فى الواقع خيطاً لا ينفك من نسيج المجتمع الأساسى ؛ فهى أقرب إلى أخلاق المجتمع المعنى وأدل عليها .

إلا أن شرح آراء طه فيما يتعلق بالعوامل التفسيرية النهائية فى تاريخ الأدب مع مراعاة استخدامه لمفهوم "الآداب" بكل ما يحمله من دلالات لا يزيل جميع الصعوبات التى ينطوى عليها موقفه ، وذلك أن آراءه فى هذا الأمر تتضمن عنصراً آخر يتعلق بـ "أفكار" الأمة وحياتها العقلية . ومن هذا المنطلق يقول إن "... هذا التاريخ [أى تاريخ الآداب] هو الذى يقفنا على حقيقة أفكار الأمة وطبائعها وتركيبها النفسى الذى نستطيع أن نفهم منه حقيقة ما يعرض للأمة من الأطوار والشئون " (١) ، ومن نفس المنطلق يحاول طه أن يثبت أن دراسة تاريخ الأدب، بالنظر إلى قدرتها تلك على كشف الأسباب النفسية النهائية للحوادث، ضرورة لفهم التاريخ العام للأمة . (٢)

ويبدو أن هذا الجانب العقلى من الحجاج يمكن أن يقيم صلة من نوع ما بين المعنيين الرئيسيين اللذين فرقنا بينهما فى نطاق مفهوم "الآداب" ؛ أى أن من الممكن أن يقال إن الشئون الأدبية (الفنية) والشئون الأخلاقية فى مجتمع ما يرجعان إلى حياة المجتمع العقلية ويرتبطان من خلالها فيما بينهما . غير أن طه لا يستغل هذه الإمكانية لكى يدخل شيئاً من النظام فى مفهومه عن المجتمع ، وعن بنية المجتمع ، بل إن موقفه يزداد تعقيداً نظراً لأنه يضيف ، فيما يشبه الاستدراك، عوامل أخرى اجتماعية وبيئية يفترض أنها تؤدى دوراً فى التفسير. ومن ذلك مثلاً ما يقوله من أن الشعر فى مجتمع ما يتأثر بطبيعة الإقليم (أو البيئة) والدين والأخلاق والعادات ونحو ذلك. (٣)

(١) نفس المصدر، ص ٦٠٥ .

(٢) نفس المصدر.

(٣) نقد صاحب الهلال، ١، الهداية، يونيه - يوليه ١٩١١، ص ٤٦٠ - ٤٦١ .

والواقع أن آراء طه عن العوامل التفسيرية فى تاريخ الأدب ومفهومه عن الواقع الاجتماعى بصفة عامة تليفقية وغير محكمة؛ وهو فى هذا يشبه نالينو ويعتمد عليه اعتماداً كبيراً^(١)؛ فبعد القول بأن الحوادث السياسية الكبرى ليست هى الأسباب الأساسية فى تاريخ الأدب وإنما هى ذاتها نتائج لعوامل أعمق يعجز الأستاذ وتلميذه عن أن يحددا بدقة طبيعة هذه العوامل ، كما يعجزان عن تقديم تصور مفصل واضح البنية للمجتمع. وهما يرجعان إلى الأحوال الأخلاقية والفكرية والمادية جميعاً فى التعليل دون أن يخضعها لأى نظام واضح شامل .

ولنتقل الآن إلى آخر مجموعة من الاعتراضات التى يثيرها طه ضد جرجى زيدان ؛ وهى اعتراضات يوجهها إلى طريقة زيدان فى تناول تاريخ العرب فى الجاهلية؛ ويرمى بها إلى أن يكون فى الموضوع رأياً أكثر توخياً للنقد . ففى حين يميل زيدان إلى تمجيد عرب الجاهلية وتضخيم نصيبهم من الحضارة وضم (منجزات) الأجناس الأخرى مثل الحميريين والهامورابيين إليهم ، يحاول طه أن يضع العرب على حدة من حيث الجنس واللغة والدين وأن يصورهم كأمة بدوية وحشية مختلة النظام الاجتماعى فاسدة السياسة قليلة الحظ من العلوم والحكمة^(٢). ونحن - وإن كنا فى غير حاجة إلى الخوض فى تفاصيل حجج طه التى استقاها من محاضرات لتمان (بالنسبة للفيولوجيا المقارنة) وميلونى (بالنسبة لتاريخ الشرق القديم)^(٣) - نلاحظ كيف يحاول أن يثبت أن المنجزات الأدبية لعرب الجاهلية لا تستدعى أى تعديل فى آرائه عن الطابع البدائى لثقافتهم ، فهم - فيما يرى - لا يحق لهم ادعاء الحضارة بفضل امتياز معلقاتهم ؛ وذلك أن أصحاب هذه القصائد كانوا من المترفين الأغنياء ، أو تعرضوا لمؤثرات أجنبية^(٤) . كلا ولا يمكن أن يعزى لهم الفضل فى رقى لغة القرآن التى لا شك فيها، وذلك أن إعجاز القرآن يدل على أنه كان معجزاً للعرب فيما تفوقوا فيه . يضاف إلى ذلك أن القرآن نفسه يقدم الدليل الواضح على بداوة العرب^(٥).

(١) للاطلاع على تقييم لآراء نالينو انظر أعلاه الفصل الثالث .

(٢) "نقد صاحب الهلال" ٢، الهداية، أغسطس - سبتمبر ١٩١١، ص ٦٢١ وما يليها .

(٣) انظر نفس المصدر، ص ٦١٢ حيث يستشهد طه صراحة بهذين الأستاذين الأوروبيين .

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر، ص ٦٢٢ .

وينبغي أيضاً أن ننبه إلى أن طه يخطو هنا أولى خطواته على الدرب الذي سينتهي به فيما بعد إلى الشك المتطرف في صحة الشعر الجاهلي . فهو يلاحظ بدهشة أوجه الخلاف التي توجد بين لغة الشعر الفصحى وبين النقوش الحميرية والصفوية والثمودية التي كانت قد اكتشفت منذ قليل . وهو يستغرب أن المستشرقين الذين اكتشفوا هذه النقوش لاحظوا أن أكثرها قلماً يشتمل على غير الدعاء للآلهة ورسائل التحيات وأخبار العمارة والتقريب . والأغرب من ذلك - فيما يقول طه - أن شيئاً من تلك الآثار ليس مكتوباً بالعربية الفصحى "التي نبحث عن أداها" (١) ، ولقد كانت هذه الملاحظات التي أبداها طه في سنة ١٩١١ بكثير من الدهشة هي البنود الأولى لنظريته التي تبلورت في سنة ١٩٢٦ عن انتحال الكثرة المطلقة من الشعر الجاهلي . ولكن لنتظر المزيد عن هذا الموضوع فيما بعد .

ومن الجوانب الأخرى ذات الأهمية في الحجج التي يسوقها طه ضد جرجي زيدان حول شئون التاريخ أن هذه الحجج تمثل علامة راسخة يهتدى بها في تقصى تطور معتقداته الدينية . فلنا أن نكون على يقين من أن آراءه في الدين عندما كتب المقالات موضوع الحديث كانت على وفاق تام مع السنة الإسلامية . نرى هذا في أقواله عن إعجاز القرآن ، ويزداد الأمر وضوحاً إذ نراه يدين زيدان لأنه رأى - نقلاً عن بعض نقاد الكتاب المقدس الألمان - أن شريعة موسى كما صيغت في التوراة قد استمدت بعض أحكامها من شريعة حامورابي (٢) ويرى طه أن آراء زيدان في هذا الصدد تنطوي على إنكار الوحي والنبوة ، وتسعى إلى المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، وإن كانت توقع أكبر الضرر بغير المسلمين (٣) ، هذا بالإضافة إلى بطلانها من الناحية المنطقية ، وذلك أن سبق شريعة حامورابي لشريعة موسى ، واشتمال الثانية لشيء من الأولى ليس دليلاً على أن هذه مأخوذة من تلك ، فكأن زيدان يعتقد خطأ أن

(١) نفس المصدر، ص ٦٠٩ . عرف طه بأخبار النقوش السامية التي كانت قد اكتشفت مؤخراً وبأوجه الخلاف بين لغتها وبين العربية عن طريق نالينو (انظر أعلاه، الفصل الثالث، ص ٨٣ - ٨٤) ومن المحتمل جداً عن طريق لتمان أيضاً .

(٢) نقد صاحب الهلال ٣، الهداية، أكتوبر-نوفمبر ١٩١١، ص ٨٢٦ .

(٣) يرى طه أنه ليس أصدق من المسلم يقيناً أو أمتن إيماناً في حين أن الأغرار من شبان غير المسلمين يميلون إلى تقليد الفرنج في كل شيء حتى في حب الإلحاد. انظر نفس المصدر، ص ٨٢٦ - ٨٢٧ .

الشرعية لا تكون إلهية حتى تكون كلها جديدة ولا تحتوى قديماً ، وحقيقة الأمر أنه لا يقدح فى مجيء الكتاب من عند الله أن يشتمل على بعض أحكام البشر لأن القانون لا يكون عادلاً حتى يؤخذ من سيرة الناس وعاداتهم وأخلاقهم.^(١)

ويجب إذن أن نكون على يقين من أن طه حسين ظل حتى خريف سنة ١٩١١ يؤمن أن بعض النصوص، أى الكتب المقدسة فى الأديان السماوية الثلاث، ليست من تأليف البشر أو لم تنتج عن عقل الإنسان. وسوف نرى كيف تطور موقف طه بشأن هذه الموضوعات بعد ذلك بقليل .

اللغة العربية ومجدها القديم

قبل اختتام سلسلة المقالات الموجهة ضد زيدان نشر طه مقالة أخرى عنوانها "هل تسترد اللغة مجدها القديم؟"، وكانت على نحو ما تكملة منطقية لتلك المقالات ؛ فهي تتضمن استعراضاً واسع النطاق لتاريخ اللغة العربية بداية من عصر ما قبل التاريخ حتى الفترة المعاصرة، وتتقصى - كما يدل العنوان - رقى اللغة وانحطاطها عبر العصور، وتطبق على نحو منظم بدرجة أو أخرى التصور الجديد الذى قدم فى سلسلة المقالات المشار إليها أعلاه عن التفسير التاريخى بالرجوع إلى العوامل الاجتماعية النفسية .

يفترض طه أن اللغة العربية - التى يدعى أنها أقدم لغة سامية - قد نشأت إبان طفولة الإنسان.^(٢) ، وأنها ظلت لعصور طويلة تنمو بمعزل عن الناس محتجة تتكلمها أمة بادية ليس لها من إسهام فى تاريخ العالم.^(٣) ، واللغة العربية التى نعرفها هى إذن اللغة التى ظهرت للتاريخ بعد احتجاج طويل قبل ظهور الإسلام بقرن ونصف؛ وكانت عندئذ لغة مكتملة غنية ذات قدرة ضخمة على التعبير، وكان الشعر الجاهلى بفخامة معانيه ومتانة أساليبه هو إذن بداية العربية كما عرفها التاريخ.^(٤) ولما تعززت

(١) نفس المصدر، ٨٢٨ .

(٢) نفس المصدر، ص ٧٦٣ . لكن لاحظ أن أقدم لغة سامية هى الأكادية وليست العربية .

(٣) نفس المصدر، ص ٧٦٧ - ٧٦٨ .

(٤) نفس المصدر، ص ٧٦٨ .

اللغة وترسخت بعد ذلك بقليل بفضل القرآن المعجز وقوة الإسلام شرعت في تقدمها الذي لا يردّ ، وبقيت بعد فناء أخواتها الساميات^(١) ودحرت لغات أخرى غير سامية مثل اليونانية واللاتينية والفارسية.^(٢)

ورغم أن طه يسلم برقى الشعر الجاهلى ، فإنه يرى أن العرب الجاهليين أنفسهم كانوا أمة بادية لم يؤدبهم معلم ، ولم يتقفهم كتاب. وكان القرآن هو الذى أحدث فيهم ثورة شاملة على صعيد اللغة والفكر والتشريع والنهوض الخلقى والقوة السياسية؛ وكان القرآن هو الذى نقلهم من البداوة إلى الحضارة.^(٣) ، وبناءً على ذلك يرى طه أن من الخطأ أن يقال - كما قال ابن خلدون وتابعه في ذلك كافة المؤلفين في أداب اللغة المحدثين - إن الآداب العربية ، ولاسيما الشعر، قد وقفت أيام النبی والخلفاء الراشدين لأن العرب قد شغلوا عنها بالدين والفتح وتأسيس الملك.^(٤)

وعلى عكس ذلك يقترب طه من ابن خلدون عندما يتحدث عن الانتقال من "الجمهورية" في عهد الخلفاء الراشدين إلى "الملكية" في ظل الأمويين،^(٥) أو عندما يصف النتائج الاجتماعية والأدبية التي ترتبت على تراكم الثروة وازدياد الترف أيام بنى أمية. فقد أثرت الحضارة الجديدة - فيما يرى - على عقول العرب وألسنتهم فرقّت الألفاظ والمعاني ورشقت الأساليب ؛ وأعرب القوم عن أهواء نفوسهم وعواطف قلوبهم بالغناء ، ونشأت منهم طبقة من الشعراء لم تحسن إلا ذكر النساء والتشبيب بهن ، وطبقة أخرى لم تجد إلا وصف الخمر والإشادة بمحاسنها.^(٦)

ثم بلغ الفيض ذروته مع مجيء بنى العباس ، وكان العرب عندئذ في أوج قوتهم؛ ولكنهم كانوا قد سنموا الغزو فمالوا إلى خفض العيش والدعة واطمأنوا إلى

(١) نفس المصدر، ٧٦٤ .

(٢) نفس المصدر، ص ٧٨٤ .

(٣) نفس المصدر، ص ٧٧٧-٧٧٨ .

(٤) نفس المصدر، ص ٧٧٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٧٨١ - ٧٨٢ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٧٨٣ - ٧٨٤ .

الترف والنعيم . وفى تلك الفترة ذاتها كان العقل العربى قد نضج وصار مستعداً للاهتمام بالمباحث النظرية . أما الأحزاب السياسية التى نشأت أيام بنى أمية فقد تحولت إلى أحزاب دينية خالصة وتركت السيف والسنان ولجأت إلى القلم واللسان واعتمدت على الجدل؛ ومن ثم كان المتكلمون والمدارس الكلامية.^(١) وبلغت الخطابة درجة لم يسبق لها مثيل من الرقى والامتيان ، بينما رقى الشعر وازداد حسناً ولطفاً وتصرف فى أنواع القول وتعددت مذاهبه ومناحيه.^(٢) ويصفة عامة بلغت العربية أسعد عصورها فى ظل العباسيين ؛ فقد أصبحت تعبر عن شتى الملكات الإنسانية.^(٣)

ووفقاً لهذا المخطط التاريخى جاءت نقطة التدهور فى بداية القرن الرابع الهجرى عندما أخذت العربية تفقد قوتها وحيويتها ، وبدأت تستسلم لهوس متزايد بالمحسنات اللفظية والبديعية . وكان آخر شاعر مجيد هو الشريف الرضى ، فأما المتنبى وأبو العلاء فإنهما فى رأى طه يتبعان إلى فترة التدهور. كانا فيما يقول يعنيان بالمعانى أكثر مما يعنيان بالألفاظ؛ فإذا حاولا الإجابة اللفظية وقعا فى التكلف الممقوت، وهما على أية حال يدينان بمنزلتهما لا لامتيان أشعارهما ولكن للحكمة والفلسفة.^(٤)

ويرى طه أن فترة الانحطاط التى امتدت حتى القرن التاسع عشر قد شهدت تراجع القوة العربية وانحسار نفوذ اللغة العربية، فكأنما دار الزمان دورته؛ وذلك أن العجم وقد صارت لهم الغلبة أشهروا حرباً شاملة على اللغة والدين والجنسية العربية، واضطرت اللغة العربية إلى التقهقر ، وإلى الاحتفاء بالمساجد حيث اقتصر دورها على الأغراض الدينية، بينما أصابها الفساد والتحريف فى العالم الخارجى على لسان العامة.^(٥)

(١) نفس المصدر، ص ٧٨٦ - ٧٨٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ٧٨٨ - ٧٨٩ .

(٣) نفس المصدر، ص ٧٩١ .

(٤) نفس المصدر، ص ٧٩٢ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٧٩٤ - ٧٩٥ .

إلا أن الأحوال تغيرت تغيراً غير قليل في العصور الأخيرة . و بفضل الجهود الإحيائية التي بذلها الطهطاوى ومحمد عبده طراً على اللغة العربية شعراً ونثراً شىء من التغير نحو الأفضل .^(١) ولكن هذه النهضة الواعدة التي بدأت في القرن التاسع عشر يبدو - في رأى طه - أنها توقفت في الفترة المعاصرة . وهنا تتسم أحكام طه بقسوة بالغة . يقول في هذا الصدد: "أما الآن فقد أصبحت نهضة اللغة فوضى ليس لها من زعيم. ولذلك كثرت التخليط في الألفاظ والأساليب؛ فالشعراء والكتاب يسترسلون في التعبير عن ضمائرهم غير جارين على قاعدة، ولا معتمدين على قياس في كثير من الأحيان."^(٢) أما حالة العربية في الأزهر - وهو الذي كان المعقل المنيع والحصن الحصين الحامى للغة - فهي بدورها سيئة؛ ومن المؤكد أنها متخلفة بالمقارنة مع مستواها في المدارس الحديثة . بيد أن هذه المدارس ذاتها لا يمكن أن يعتمد عليها في إصلاح اللغة.^(٣) والطريقة الوحيدة المضمونة لتحقيق هذا الإصلاح هي أن يوفر للطلاب تدريب متين في اللغة السليمة مع دراسة مادة اللغة وأساليبها واستظهار الكثير الجيد من آداب القدماء .^(٤)

وفيما يتعلق بالشعر المعاصر يرى طه أنه أرقى بلا شك من الشعر في القرن التاسع عشر. ولكنه لا يزال منحطاً بالقياس إلى الشعر القديم ، وإلى رقى الإنسانية في هذا العصر . ويقيم طه مقابلة صارخة بين الشعر الجاهلى بحيويته وفحولته ، وبين أغاني الحب المعاصرة بما فيها من ضعف وغثاثة .^(٥) وأسوأ من ذلك طريقة طه في معاملة الشعراء الثلاثة الكبار في عصره ؛ أى أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبرى . فهو يرفضهم دون تريث ودون حق مدعياً أنهم ليسوا في الحقيقة شعراء مصر ، وإنما هم بين رجلين : رجل نهج منهج الفرنج ؛ فهو يعبر عن

(١) نفس المصدر، ص ٧٩٦ - ٧٩٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ٧٩٧ .

(٣) نفس المصدر، ص ٧٩٨ - ٧٩٩ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر، ص ٧٦٨ وما يليها .

أذواقهم وأخلاقهم ، وعلى مناهجهم وأساليبهم، وهذا لا ينبغي أن يحسب على مصر ، وإنما ينبغي أن يلحق بأوربا ، ورجل نهج مناهج العرب القدماء ؛ فهو يكرر ما قالوه ويردد ما نطقوا به مع قليل من التغيير فى اللفظ ... وهذا لا ينبغي أن يكون من شعراء مصر ، وإنما ينبغي أن يكون مع شعراء القبور.^(١)

فإذا طرحنا على طه السؤال الذى ورد فى عنوان المقالة عما إذا كان يمكن للعربية أن تستعيد مجدها القديم، فإنه حرى بأن يجيب بالإيجاب - مع إضافة بعض الشروط. فهو يعتقد - فيما يبدو - أن النهضة الحقيقية ممكنة شريطة أن يتابع الإصلاح اللغوى وفقاً للأساليب الإحيائية التى أدخلها رواد الإصلاح مثل محمد عبده؛ وهى إحياء التراث العربى القديم ، وترجمة المؤلفات الغربية النافعة ، وتأليف جماعة من أولى العلم باللغة العربية لإدخال الإصلاحات اللغوية وتعزيز الفصحى، بالإضافة إلى توفير تدريب لغوى على نحو ما وصف أعلاه .

ورغم أن استعراض تاريخ الأدب العربى كما ورد فى "هل تسترد اللغة مجدها القديم؟" مختصر ومبسط، فإنه لا يخلو من الأهمية على الأقل لاتساع نطاقه ؛ ففى هذا ما يدل على أن طه يحاول أن يطبق منهج نالينو على نحو يتجاوز الحدود التى توقف عندها هذا الأخير فى تأريخه للأدب العربى.^(٢) وفى هذا الصدد لا شك أن توسيع نطاق التفسير الاجتماعى النفسى بحيث يشمل العصر العباسى - وهو تطبيق بداهة نالينو على نحو ما^(٣) - أمر ذو أهمية خاصة بالنسبة لتطور طه لأنه سيكون من الآن فصاعداً أحد اهتماماته الكبرى كمؤرخ للأدب . وهناك أيضاً ما يشبه بداية لتقدير جديد للشعراء العباسيين لنزوعهم إلى التجديد وقدرتهم على الابتكار، وإن كان طه مازال مقيداً بنوق المرصفى المحافظ وبكراهيته للمتنبى وأبى العلاء بسبب ميولهما اليونانية والفلسفية بصفة خاصة.^(٤)

(١) نفس المصدر، ص ٧٧٨ .

(٢) يتوقف نالينو فى كتابه تاريخ الآداب العربية عند العصر الأموى .

(٣) انظر نفس المصدر، ص ٣٦ - ٣٧ حيث يطرق نالينو معتمداً على ابن خلدون موضوع ازدياد الثروة والترف والرفه والنعيم فى ظل العباسيين .

(٤) كان المرصفى يرى - وفقاً لشرح طه حسين - أن المتنبى وأبى العلاء وغيرهما من شعراء العصر العباسى " تعمقوا " فى درس مذاهب الفلاسفة، ولم يخل كلامهم من يونانية تباعد بينهم وبين مذاهب العرب البادين... انظر تجديد نكرى أبى العلاء ، فى م ك ، المجلد ١٠ ، ١٩٧٤ ، ص ١٠ .

ومن الممكن كذلك أن نرى تأثير المصطفى في الانتقادات التي يوجهها طه إلى الذوق المعاصر إذا ما قورن بحيوية الجاهلية وفحولتها . وكان لابد أن يمضى بعض الوقت قبل أن يتمتع طه بما يتيح المنهج التاريخي الجديد من قدرة على الحركة الحرة بين عصور الأدب ومذاهبه المختلفة ، معطياً كلاً منها حقه بإنصاف وسعة صدر .

حياة الآداب

والآن نأتى إلى المثال الأخير من بين الكتابات المبكرة لطه حسين ؛ وهو سلسلة من المقالات عنوانها " حياة الآداب" ^(١) . وفى هذا العمل البالغ الأهمية - وإن كان مجهولاً تماماً - يعود طه إلى مهمة البحث النظرى فى تعريف نطاق وطبيعة المبحث الذى يعنى بتاريخ الأدب العربى . وهو هنا يستخدم بعض المواد التى وردت فى كتاباته السابقة ، ولكنه يعيد صياغتها مع تنقيحها على نحو منظم . ومن المفروض - وفقاً للتخطيط المبدئى كما وضعه طه - أن يبسط ذلك التعريف فى سلسلة من "المقدمات" التى يمكن صياغتها كما يلى . فبعد مقدمة أولية ^(٢) (ألف) فى قصور المعرفة التاريخية الراهنة، تأتى أربع مقدمات منها ثلاث وصفت بأنها لازمة بينما وصفت الرابعة بأنها غير لازمة . فأما المقدمات الثلاث اللازمة فهى : (باء) فى الفصل بين الآداب وتاريخها، و (جيم) فى الفصل بين تاريخ الآداب وتاريخ العلوم، و(دال) فى نقد تصور علمائنا الأولين للنقد وتاريخ الآداب وطريقتهم فى التأليف الأدبى . وأما المقدمة الخامسة التى وصفت بأنها غير لازمة فهى (هاء) تقديم نموذج من النقد الأدبى لموضوعه الشاعر أبو نواس. ^(٣)

بيد أن طه لا يلتزم فى واقع الأمر بهذه الخطة الأولية ، فالدراسة المقترحة عن أبى نواس (المقدمة هاء) لا أثر لها، وإن كانت الإشارة إلى العصر العباسى تتردد فى

(١) نشرت السلسلة فى الجريدة فيما بين ١٥ يناير و ٨ مارس ١٩١٤ ؛ وكان المفروض أن تتضمن تسع مقالات، ولكن من الغريب أن الجريدة تخلو من المقالة السادسة ، ويبدو أنها لم تنشر قط رغم أن حمدى السكوت ومارسدن جونز (انظر المرجع السابق ، ص ١٢٧) يحددان تاريخ نشرها بـ ٥ فبراير ١٩١٤ .

(٢) وصفت هذه المقدمة الأولى بأنها "لازمة"، ولكن قيل عنها أيضاً أنها "لا تكفى"؛ ولذلك نقول بغية الوضوح إنها "أولية" لتمييزها عن مقدمات تالية وصفت بدورها بأنها لازمة .

(٣) نفس المصدر.

السلسلة بأكملها . يضاف إلى ذلك أن نقد تصور العلماء الأولين للمعرفة التاريخية - وهو النقد الذى وعد المؤلف بأن يعالجه وحده فى مقدمة خاصة به (دال) - فقد صار جزءاً من المقدمة (باء) . ومن الملاحظ أخيراً أن الفصلين اللذين رثى معالجتهم فى المقدمتين (باء) و(جيم) على التوالى لا يرميان فى حقيقة الأمر إلى الفصل بين الطرفين المعنيين بقدر ما يقرران أن الطرفين مرتبطان ؛ لأن أحدهما ضرورى للآخر . ومن هذا يبدو أن المؤلف لم يدرك فى بداية الأمر مدى صعوبة المهمة التى يزعم الاضطلاع بها ، وما إن يتقدم فى العمل قليلاً حتى تظهر عليه علامات الإعياء ، ويبدو أن المهمة أكبر من طاقته فيضطر إلى الارتجال أو إلى البحث عن حل لكل مشكلة على حدة ، و "حياة الآداب" إذن عمل فضفاض لدرجة التفكك والتجزؤ ، وقد تركه مؤلفه ناقصاً لم يكتمل مهلهلاً لم تجمع أطرافه . ومع ذلك فإن هذا العمل رغم كل عيوبه يحتل مكانة حاسمة فريدة بين الكتابات المبكرة لطفه حسين ، إن لم يكن فى إنتاجه بأكمله؛ وذلك لأنه يتضمن أكثر محاولاته تصميمياً حتى ذلك التاريخ للتمكن من أسس العلم الجديد ، وإرساء القواعد لأعماله الناضجة بداية من رسالة الدكتوراه التى أعدها عن أبى العلاء . ولما كان كل ذلك سيزداد وضوحاً فيما يلى، فإن بإمكاننا الآن أن ننظر بشئ من التفصيل فى المقدمات المقترحة التى يتضح الآن أنها تنحصر فى ثلاث؛ وهى المقدمة الأولية (ألف) تتلوها المقدمتان اللازمتان (باء) ، و(جيم) .

(ألف) فى قصور المعرفة التاريخية الراهنة بالأدب العربى

تحت هذا العنوان يعود طه إلى موضوع تناوله من قبل فى "هل تسترد اللغة مجدها القديم؟"، وهو موضوع الركود النسبى فى الحياة الأدبية فى مصر المعاصرة بالمقارنة مع ما كان قبل ذلك بخمس سنوات.^(١) وهو يعزو هذه الحالة المؤسفة التى تشمل الأدب الإبداعى والنقد الأدبى على حد سواء إلى عاملين ؛ فهناك أولاً ما يصفه بشئ من الإبهام "القوة القاهرة"؛ وهى قوة ذات آثار مدمرة فى المجالات السياسية والأدبية والفكرية.^(٢) ، وقد يبدو من بعض الإشارات المتفرقة التى توحى

(١) حياة الآداب ١، الجريدة، ١٥ يناير ١٩١٤ .

(٢) نفس المصدر .

بأن القوة المذكورة سياسية فى المقام الأول^(١) أن طه إنما يقصد القيود التى فرضتها عندئذ سلطات الاحتلال البريطانى . إلا أنه يصف القوة القاهرة فى مقالة أخرى تالية عن شعراء مصر وشعر الرثاء بأنها ظاهرة خلقية صرف (أو "علة أدبية خالصة" على حد تعبيره) أضعفت ملكات الشعراء وفلّت حدهم^(٢) أما العامل الثانى فهو - فيما يرى طه - قصور المعرفة الراهنة بتراث الأدب العربى ؛ فهذا التراث الضخم الذى شيد على مدى أكثر من خمسة عشر قرناً لا يكاد يكون معروفاً للعرب المحدثين؛ فهم لا يستطيعون الوصول إليه لأن بينهم وبينه ستر صفيق من أنقاض التاريخ ، وهم لم يبدأوا اكتشاف هذا الماضى إلا منذ قليل . ولكن اللوم الأكبر على هذا الجهل ينبغى أن يوجه إلى من يدعواهم طه "أساتذتنا ومؤلفونا فى الآداب وتاريخها"^(٣) ، أو ما يسميه بصفة أعم "مدرسة الآداب"^(٤).

وهو يعنى بهذه التسمية تياراً فكرياً وتعليمياً عريضاً يشمل - بالإضافة إلى جرجى زيدان - بعض مؤرخى الأدب فى الجامعة مثل حسن توفيق العدل وأتباعه.^(٥) ويفضل أنصار هذا الاتجاه - الذين تأثروا بالاستشراق الألمانى - دخل الحياة الأدبية ونظام التعليم فى مصر^(٦) موضوع تاريخ الأدب باعتباره دراسة للشعر والنثر

(١) انظر مثلاً شكواه من "أن السياسة قد أخمدت جذوة الآداب".

(٢) طه حسين، "شعراؤنا والرثاء"، الجريدة، ١٠ فبراير ١٩١٤ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) رغم أن الأساتذة والمؤلفين المشار إليهم يفترض أنهم يدرسون الأدب وتاريخ الأدب على حد سواء، فإن العبارة المستخدمة للدلالة عليهم تنحو نحو التقييد. وربما كان المقصود بذلك الإيحاء بما يريد طه أن يثبته فعلاً ؛ وهو أن هؤلاء الأساتذة والمؤلفين ليسوا إلا دارسين للآداب بدلاً من أن يكونوا مؤرخين حقيقيين لها، وذلك نظراً لسطحية مفهومهم عن التاريخ .

(٥) فيما يتعلق بحسن توفيق العدل انظر أحمد الشايب، أدب اللغة العربية بمصر فى النصف الأول من القرن العشرين، الطبعة ٢ (القاهرة ١٩٦٦) ، ص ٦ و ٧ و ٨. وانظر أيضاً كامل سعبان، أمين الخولى فى مناهج تجديده (القاهرة ١٩٨٢)، ص ٦٨ - ٦٩ و ١٨٨ - ١٨٩ و حمدى السكوت ومارسدن جونز، المرجع السابق، ص ٢٧ - ٢٨. وفى مقالة عنوانها "فى درس الأدب وتاريخه"، الألب، أبريل ١٩٥٩، ص ١٢ - ١٤، ص ١٢، يحدد طه حسين العدل (دون أن يسميه) وجرجى زيدان بوصفهما الممثلين الرئيسيين للتيار المذكور.

(٦) انظر نالينو، المرجع السابق، ص ١٠٣ - ١٠٤ حيث يشير إلى مؤلفات حديثة النشر فى مصر عن تاريخ الآداب العربية وبنوه بطابعها التعليمى إذ يصفها بأنها "متداولة فى المدارس المصرية". بيد أن طه حسين كان أول من اتخذ من هذا التيار الفكرى والتعليمى هدفاً للنقد باسم (ما اعتقد أنه) المنهج التاريخى والعلمى الصحيح .

فى فترات متعاقبة ^(١) تتطابق وتسلسل الأسر المالكة ونظم الحكم بصفة عامة وتتوقف سببياً على هذا التتالى . ^(٢) وهؤلاء الأخصائيون فى دراسة الأدب وتاريخه هم من يتهمهم طه بأنهم يقنعون بما يجنون من معرفة هزيلة سطحية عن طريق قراءة الكتب القديمة ، واستظهار نماذج من الشعر والنثر ، ويحملهم الجانب الأكبر من المسئولية عن حالة الركود العام فى المشهد الأدبى المعاصر. ^(٣)

وفى مقابل هذه المدرسة يقترح طه ما يرى أنه منهجية أسلم لدراسة الأدب العربى، منهجية يصفها فى هذه المرحلة الأولية بأنها اجتماعية نفسية وبيئية ؛ فهو يرى أن آداب أمة من الأمم لا يمكن أن تدرس دون التعمق فى دراسة سيكولوجية هذه الأمة ، وإجراء تحليل عميق لمزاجها. ^(٤) كما يرى أن هذه الدراسة تتطلب البحث عن الآداب فى مواطنها الخاصة التى نشأت فيها وتأثرت بمؤثراتها وخضعت لقوانينها. ^(٥) وهو يستطرد فى شرح ما يعنيه ، فيرى أن مثل هذه الدراسة تتطلب بحثاً مستقصياً عما أثر فى الآداب المعنية من المؤثرات سواء أكانت قريبة ، أى صادرة عن موطنها الخاص ، أو بعيدة ، أى صادرة عن الأمم المجاورة . وفى هذه الحالة الأخيرة يعد التقليد من أعظم المؤثرات فى حياة الآداب. ^(٦) ، وهو يفترض أن هذه المنهجية الجديدة تجد أفضل مثال يوضحها فى الأدب فى العراق فى ظل العباسيين. فهذا الأدب على خلاف الأدب الجاهلى أو الأدب فى صدر الإسلام كان

(١) انظر السطور الأولى من « حياة الآداب » ٤ ، الجريدة ، ٢٦ يناير ١٩١٤ ، حيث يقول طه حسين إن رجال مدرسة الآداب لا يفهمون من التاريخ إلا رواية الحوادث وتسجيلها .

(٢) انظر « حياة الآداب » ١ ، الجريدة ، ١٥ يناير ١٩١٤ ، حيث يشير طه حسين إلى أن الأساتذة والمؤلفين الذين يعينهم قد قيدوا أنفسهم بملاحظة الحال السياسية للخلافة الإسلامية . وانظر أيضاً « حياة الآداب » ٧ ، الجريدة ، ٧ فبراير ١٩١٤ ، حيث يوحى طه حسين بأن أتباع هذه المدرسة لا يأخذون فى الاعتبار إلا العوامل السياسية .

(٣) انظر طه حسين ، المرجع السابق ، حيث يقول إننا لم نكد نلتفت إلى التراث القديم حتى غرنا ظاهره فاكفى أحدهنا بأن يعرف عنه النزر اليسير وينتهى منه إلى القشور الظاهرة ليدعو نفسه أديبا أو عالما بتاريخ الآداب ، وحيث يرى أن المعرفة السطحية بالآداب القديم تؤدي بالضرورة إلى الجهل بالآداب الحديث وذلك لأن الأدبين متصلان .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر .

(٦) « حياة الآداب » ٢ ، الجريدة ، ١٩ يناير ١٩١٤ .

مزيجاً شديداً التعقيد؛ وينبغي لدراسته دراسة سليمة تعاون الأخصائيين من مباحث مختلفة، مع مراعاة المؤثرات المتعددة: فارسية ، وسريانية ، ويونانية ، وهندية . ومن الظلم للعلم أن يزعم زاعم أن الأدب العباسي في بغداد للعرب خاصة أو للفرس وحدهم أو للفرس والعرب معاً ؛ فإن العرب والفرس جميعاً قرأوا علوم اليونان وتأثروا بها ^(١) .

ويتهم طه أنصار مدرسة الآداب بأنه لا يكاد يوجد بينهم من يعرف لغة أجنبية. ^(٢) ، وسوف يضيف إلى ذلك أنهم إنما اقتصروا على دراسة اللغة العربية "من وجه عام" ^(٣) ، وهو ما يعنى أنهم يدرسون الأدب بمعزل عن سيكولوجية الأمة العربية وبيئتها وتفاعلها مع غيرها من الأمم .

(باء) فى الفصل بين الأدب وتاريخه

على عكس ما يبدو لأول وهلة فإن هذه المقدمة لا تستهدف فصل الأدب عن تاريخ الأدب بقدر ما تستهدف ربط الأول بالثانى ؛ فالأعمال والظواهر الأدبية وفقاً لطه تاريخية بالضرورة ، ولا يمكن للدراسة التى تعنى بهذه الأعمال والظواهر أن تجرى على نحو سليم دون أن تراعى تاريخها . وتطور الأدب فى أية أمة يخضع - فيما يقول طه - خضوعاً تاماً للأحوال الاقتصادية والسياسية والفكرية والاجتماعية السائدة؛ وكل هذه المؤثرات التى تعمل فى تكوين الآداب هى فى الوقت نفسه موضوع علم التاريخ ^(٤) . وهو يوضح الفكرة بأمثلة يستقيها من نالينو أساساً ليبين كيف خضع ازدهار الشعر السياسى وشعر الغزل فى ظل بنى أمية لمثل تلك الأحوال .

كما تتردد أصدااء من نالينو فى الانتقادات التى يوجهها طه إلى علم العرب بالتاريخ ؛ فهو يشير إلى أن العرب إن كانوا قد أنتجوا أدباً شديداً الرقى قبل ظهور الإسلام وبعده فإنهم لم يستطيعوا أن يسهموا إسهاماً ذا شأن فى دراسة التاريخ . فقد اقتصرت الدراسة العلمية للأدب عند العرب القدامى على جوانبه اللغوية من نحوية

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر. وهى تهمة ظالمة فيما يتعلق بجرجى زيدان وحسن توفيق العدل .

(٣) حياة الآداب ١، الجريدة، ١٥ يناير ١٩١٤ .

(٤) "حياة الآداب" ٢، الجريدة، ٢١ يناير ١٩١٤ .

وبيانية.^(١) ، ويعزوه هذا القصور اللافت للنظر إلى قصور من نوع أعم ، وهو ضعف العلوم التاريخية وانحطاطها بصفة عامة عند العرب.^(٢) ، فهم كغيرهم من الأمم الشرقية (المصريين القدماء والبابليين والفينيقيين والعبرانيين والساميين عامة) ، وعلى خلاف اليونان والرومان والغربيين المحدثين ، قد اقتصروا فى اهتمامهم بالتاريخ على رواية أخبار الملوك وتسجيل الحوادث مثل الكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة دون أن يبحثوا عن تفسير لها . وفيما عدا هذا الشكل الأولى من التاريخ، لم يعرف العرب - فيما يقول طه - التاريخ كصناعة تهب صاحبها ملكة النقد والتعليل.^(٣)

بيد أنه يخرج عن نطاق نالينو عندما ينتقد أداء كبار المؤرخين العرب مثل الطبرى والمسعودى وابن الأثير وابن خلدون ؛ فهم فى رأيه لم تعوزهم ملكة نقد الحوادث وتعليلها فحسب ، وإنما يظهر قصورهم حتى على المستوى الأدنى من التاريخ، إذ تعوزهم أيضاً ملكة تدوين التاريخ . وذلك أنهم قد اعتمدوا على الروايات الشفهية ، وأهملوا دراسة الأوراق الحكومية وسجلات الدواوين ، أو عجزوا عن الوصول إليها.^(٤) ، وفى مقابل ذلك يؤكد طه أن التاريخ قد صار صناعة ذات قواعد وأصول أشبه بصناعة المنطق وغيره من الفنون النظرية.^(٥)

وطه إذ يثير هذه الانتقادات يصوغ فى الوقت نفسه وبمعزل عن نالينو بعض القواعد المنهجية التى يرى أنها ضرورية للبحث التاريخى الصحيح . فهو يفترض أننا بصدد التأريخ لحياة المأمون ، ويرى أنه لا يكفى فى هذه الحالة أن نقرأ ما كتب عنه المؤرخون . فمن اللازم أيضاً أن نمحص أية شواهد وثائقية متوافرة تمحيصاً نقدياً . ومثل هذا التمحيص يقتضى بدوره معرفة بعدد من العلوم الخاصة التى تتوقف عليها صحة التاريخ.^(٦) . ولا يقل عن ذلك أهمية دراسة الحياة الاجتماعية كما ترى فى

(١) نفس المصدر .

(٢) فيما يتعلق بانتقادات نالينو للتأريخ عند العرب القدماء انظر المرجع السابق ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٣) انظر "حياة الآداب" ٣ ، الجريدة، ٢١ يناير ١٩١٤ ؛ وقارن "حياة الآداب" ٤ ، الجريدة ، ٢٦ يناير ١٩١٤ ..

(٤) نفس المصدر. لكن لاحظ أن طه يعترف مع ذلك بأن كبار المؤرخين العرب قد أقتنوا نقد الرواية. انظر نفس المصدر.

(٥) "حياة الآداب" ٣ ، الجريدة، ٢١ يناير ١٩١٤ .

(٦) حياة الآداب" ٤ ، الجريدة، ٢٦ يناير ١٩١٤ . يرى طه أن النقد التاريخى يقتضى - بالإضافة إلى البحث فى صحة الوثائق - العلم بأنواع المداد والورق والأقلام وقواعد الخط وما أصابها من اختلاف على مر العصور ونقد الرواية. نفس المصدر.

الخرافات والأقاصيص والأشعار والخطب والأمثال والآثار المادية وشكل الحكومة ورأى الناس فيها ، كما تقتضى صحة التاريخ دراسة الحياة الاقتصادية.^(١)

ويلي ذلك قاعدتان منهجيتان على أعلى درجة من الأهمية نظراً لأنهما تمان مسائل ستثير ضجة شديدة فى فترة النضج من حياة طه حسين . وتنص القاعدة الأولى على أن من الضرورى نقد النصوص التاريخية القديمة وعرضها على العقل ليشذبها ويزيل عنها ما أضافت إليها أحوال الأزمان القديمة من الزيادات والمبالغات.^(٢) ويستشهد طه فى هذا الصدد بأمثلة من التاريخ الفرعونى والتاريخ الإسلامى؛ ويلاحظ بصفة خاصة أن هذا التاريخ الأخير مملوء بالمبالغات التى هى ألصق بالقصص الخيالية منها بكتب التاريخ . وليس من الغريب إذن - وفقاً لـ طه - أن الإسلام لم يكتب له تاريخ صحيح عربى حتى الآن . ثم يعيد طه طرح الفكرة مع الإشارة خاصة إلى تاريخ الأدب العربى حيث تكثر المبالغات والزيادات والانتحالات نتيجة لعدة دوافع.^(٣) وهو يتهم مدرسة الآداب بأنها تدعن لهذا كله من غير شك ولا تردد.^(٤)

أما القاعدة الثانية فإنها تنص على أن من الضرورى عند كتابة تاريخ أمة ما أن يؤخذ فى الاعتبار ما كتبت عنها الأمم المعاصرة لها سواء أكانت لها بها صلة أم لم تكن . ومثال ذلك أننا عند كتابة تاريخ الفتح الإسلامى فى ظل الخلفاء الراشدين لا ينبغى أن نقتصر على المصادر العربية دون غيرها ؛ وذلك أن عمل المؤرخ الحقيقى هو أن يوازن كلام الغالب والمغلوب مراعيًا أحوال كل منهما ثم يستخلص من ذلك كله ما يعتقد أنه الحق.^(٥)

وسوف نرى أن طه يضيف فى إطار المقدمة التالية مزيداً من الشروط اللازمة لكتابة التاريخ كتابة علمية . ولكن يجدر بنا أن نلاحظ على الفور كيف أن موقف طه

(١) نفس المصدر .

(٢) حياة الآداب ٥، الجريدة، ٢٩ يناير ١٩١٤ . لاحظ أنتى أقول "ليشذبها" بدلاً من عبارة "ليشتد بها" التى وردت فى الأصل والتى يبدو أنها تحريف ناتج عن خطأ مطبعى .

(٣) نفس المصدر. لاحظ أن هذه الفكرة التى ستصبح فيما بعد موضوعاً رئيسياً فى نقد طه لصحة الشعر الجاهلى قد أعرب عنها نالينو فى المرجع السابق ، ص ٦٩ و ٧٨ و ٣١٣

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر.

يزداد راديكالية وهجوماً على التقاليد . فهو إذ يوسع نطاق نقده بحيث يتجاوز مدرسة الآداب ليمتد إلى التراث التاريخ العربي يلمح - فيما يبدو - إلى أن أوجه الضعف الأساسية في التيار الفكري المعاصر ذات جذور عميقة في العقلية العربية.^(١) ومن ثم كان هذا النقد هداماً بمعنيين ؛ فهو إذ يفضح ما تدعيه مدرسة الآداب من حداثة يكشف في الوقت نفسه عن أسسها المزعزعة في التراث العربي .

(جيم) في الفصل بين تاريخ العلوم وتاريخ الآداب

يبدو أن موقف طه من هذا الموضوع قد تطور بعد هجومه على جرجي زيدان ؛ فقد كان اهتمامه عندئذ منصباً على وضع خط فاصل واضح بين المبحثين بناءً على أن العلم بالمبحث الأول ضروري للثاني من حين إلى آخر وعلى نحو عارض . أما الآن فإن الاهتمام منصب على إقامة صلة وثيقة بين الموضوعين بناءً على أن ثمة علماً بعينه هو علم النفس لا غنى عنه في كل دراسات تاريخ الأدب .

ولقد رأينا طه يقرر في نطاق المقدمة السابقة (باء) أن من الضروري للدراسة الأدبية أن تكون تاريخية ، وهو بعد أن خطا هذه الخطوة يحاول الآن أن يثبت أن الصبغة التاريخية لهذه الدراسة تقوم أساساً على طابعها السيكلوجي . ولما كانت هذه الفكرة قد طرحت بصورة مؤقتة في إطار المقدمة (ألف) ، فإن من الطبيعي أن نتوقع أن ينتقل طه الآن إلى إثباتها ووضعها على أساس متين . بيد أن الواقع هو أن تفكير طه في هذه المرحلة الحاسمة يعوزه الوضوح والحسم وينبغي لكي نفهمه أن نحله ونعيد صياغته شيئاً ما .

يلاحظ طه أولاً أن بين أنواع العلم على اختلافه صلة عامة علتها وجود الينبوع الذي نبعت منه، وأن هذا الينبوع هو نفس الإنسان.^(٢) ، وهو يفترض ضمناً أن الشاهد على هذه الصلة هو أن كل أنواع العلم تخضع للتغير والتحول وفقاً لنمط

(١) "إن مدرسة أدابنا القديمة تلك التي قامت على طائفة من الأوهام القديمة مثلها قد ملأت عقول الناس بأغلاط في الآداب قد أن لها أن تزول..." نفس المصدر .

(٢) « حياة الآداب » ٧ ، ٧ فبراير ١٩١٤ .

واحد.^(١) ثم يتلو ذلك ثانياً محاولة ترمى إلى إثبات أن الدراسة الأدبية قد اقتفت أثر الفلسفة: فكما انتهت هذه إلى تفسير المادة بالرجوع إلى الذرات، تطورت الدراسة الأدبية بحيث صارت تدرك أهمية العوامل النفسية في تفسير النصوص .

ومن المهم أن نلاحظ أن الفلسفة ، أو أن "النظر العقلى فى الفلسفة" هو النموذج المحتذى، أو لنقل بتعبير آخر إن "العلوم الفلسفية" هى التى تقدمت - فيما يرى طه - على نحو أصبح هو النمط الذى تحتذيه الدراسة الأدبية . فالتفسير الفلسفى للأجسام - كما عرفه القدماء من اليونان والعرب - بالرجوع إلى عنصرين يدعى أنهما أساسيان، هما المادة والصورة ، قد حل محله التصور الحديث للمادة الذى يرد الأجسام إلى ذراتها المكونة . فالعقل الإنسانى الذى كان يقنع فى الماضى بظواهر الأشياء قد تطور فلم يعد يقنعه إلا أن يصل من الشيء إلى لبه ، وينتهى إلى غايته ، ويقف على خفاياه . وقد وقع تطور مماثل فى المجال الأدبى ، فالتفسير القديم للأقوال (الأدبية) سواء أكانت شعراً أم نثراً بوصفها مركبات من مادة (هى الألفاظ من حيث هى "ممثلة للمعانى") وصورة (هى "النظام الجامع بين الألفاظ")^(٢) قد حل محله تصور بعيد المرمى يفسر الأقوال بالرجوع إلى أصولها ومصادرها فى النفس . فالنظر الأدبى لم يعد يكتفى بالحكم على جودة الصورة (الأسلوب) ونقاء المضمون (الألفاظ والمعانى) بل صار يريد أن يعرف أسباب الجودة فى كل من الحالتين . ومعنى ذلك أنه صار يسعى إلى تحليل الأقوال كما تحلل المادة فى الكيمياء - لولا أنه يتخذ لهذا التحليل كيمياء خاصة هى علم النفس.^(٣)

وقد ينبغى أن نوضح على الفور ما يعنيه طه بالتفسير "القديم" للأقوال، فنقول إنه ليس سوى النهج اللغوى المتبع فى دراسة النصوص الذى وضعه علماء العرب القدامى ومازال يمارسه بعض الإحيائيين مثل أستاذ طه فى الأزهر الشيخ سيد على المرصفى . وهو النهج الذى يقتصر على المكونات الداخلية للنص الأدبى ، أى جوانبه

(١) يعبر طه عن هذا الافتراض صراحة فى "حياة الآداب" ٩ ، ٨ مارس ١٩١٤ .

(٢) يذكر هذا التعبير بعبدالقاهر الجرجانى .

(٣) نفس المصدر .

الصورىة (النحوىة والىبىانىة) والمادىة (أو المضمون) . وهذى النهج هو الذى يقابل طه بىنه الآن وبن التصور الحدىث الذى ىرى أنه حل محله، أى تصور النص بوصفه نتاجاً لعوامل نفسىة .

غىر أن البرهان كما صىغ حتى الآن مازال غامضاً وغىر واف بالغرض، وهو إىبات ضرورة علم النفس لتارىخ الأدب . والواقع أن النقطة الأساسىة بسىطة وىمكن أن تصاغ على النحو التالى . إن الدراسة الحدىثة للأدب تقتضى الإشارة إلى العوامل النفسىة فى تفسىر الأقوال لأنها تحاكى - أو ىنبغى أن تحاكى - العلوم الطبىعىة فى اتباعها لنهج سببى فى التفسىر . والسبب الذى أذى إلى أن مؤلف "حىاة الأداب" لم ىوفق إلى تقرير هذى المعنى البسىط هو أنه لم ىستطع بعد أن ىفرق بىن الفلسفة والعلم الطبىعى . فهو مازال خاضعاً للإسكولانىة الأزهرىة ، وهو مازال ىرى أن الفلسفة هى العلم الشامل الذى ىحتوى كل المعارف البشرىة تماماً كما كانت فى العصور القدىمة والوسىطة . وهو لذىك مازال ىرى أن التطور الموصوف أعلاه قد وقع فى نطاق الفلسفة ذاتها، وأنه استتبع الاستعاضة عن تحلیل سطحى بالرجوع إلى المكونات الظاهرة أو القربىة بتحلیل أدق وأعمق ىتقصى المكونات الخفىة البعىة . وبعبارة أخرى نقول إن طه ىحاول أن ىثبت فكرة لم ىمتلك بعد أنواتها المفاهىمىة اللازمة. فالتطور الذى ىحاول أن ىصفه فلا ىستطىع هو ما وقع فى العصر الحدىث عندما استعاضت العلوم الطبىعىة عن التوضىح الفلسفى المفاهىمى الصرف لما هو الشىء المادى بتفسىر تجرىبى ىعلل لماذا وجد هذى الشىء بتحدىد العوامل التى سببته . وذىك هو التطور الذى أذى إلى الرجوع إلى الذرات فى تفسىر المادة . وىفضل تطور مماثل ىمكن تفسىر وتبرىر الرجوع إلى العوامل النفسىة فى المجال الأدبى .

وىحاول طه أحياناً أن ىثبت فكرته بأن ىقول إن البىت من الشعر مثلاً ننتىجة لمؤثرات مادیة ومعنوىة.^(١) . إلا أن إىخال النوع الأول من المؤثرات لا ىخل بالمكانة الرئىسىة التى ىحتلها النوع الثانى . فالعمل الأدبى فى رأى طه ننتىجة مباسرة

(١) حىاة الأداب" ٧، الجرىة، ٧ فبرایر ١٩١٤ .

ومرآة لنفس مؤلفه أو هو نتاج لجهود بذله المؤلف ، واشتركت فيه كل قوى النفس وملكاتهما . ولكن هذه القوى والملكات ترتد في نهاية المطاف إلى مؤثرات كثيرة بعضها ذاتي وبعضها موضوعي . فالبيت الشعري نتيجة وصورة ناطقة لـ "لون نفسي" أو "مزاج" معين لنفس الشاعر. بيد أن هذا اللون أو المزاج هو بدوره محصلة لعوامل مادية ونفسية . ومن وراء العمل الأدبي ثمة جهد يرجع مباشرة إلى نفس الفنان ، ولكنه في التحليل النهائي ثمرة لتعاون بين الفنان وبيئته أو بين الفنان و "زمانه" على حد تعبير طه . والآداب إذن مرآة للنفس وللحياة .^(١)

ثم يظهر جانب آخر من جوانب التعقيد عندما يعمم طه ضرورة علم النفس . فهو بعد أن قررها بالنسبة لتاريخ الأدب يوسع نطاقها بحيث تشمل حوادث التاريخ نفسه . فالتاريخ - فيما يدعى طه - لا يمكن أن يكتفى بتسجيل الحوادث وروايتها؛ ولا بد أن يتبع منهاجاً تحليلياً بحيث ترد هذه الحوادث إلى مصدرها في نفس الإنسان . فليس التاريخ - فيما يؤكد طه الآن - إلا مظهرًا من مظاهر النفس الاجتماعية.^(٢) ولعلنا نذكر أن هذا التعميم البريء فيما يبدو قد سبق التلميح إليه في نقد جرجي زيدان^(٣) . ولكنه يتكشف الآن عن بعد نقدي جديد يتمشى مع تزايد نزوع طه إلى الراديكالية ؛ فهو يضيف الآن بنداً جديداً إلى قائمة الشروط التي يرى لزومها للبحث التاريخي؛ إذ يرى أنه لا يكفي في كتاب عن حياة الإسلام سرد الحوادث ورواية الأخبار أو استقاء العبر والعظات منها؛ بل ولا يكفي نقد الرواية وحذف فضولها وفقاً لنهج المحققين من المؤرخين القدماء ؛ فلو أننا التزمنا كل هذه الشروط لظل هناك شيء غامض ، ولا بد من إيضاحه وتجليته، وهو الصلة بين التاريخ وبين نفس الإنسان أو نفوس المسلمين على وجه التحديد . غير أن استيفاء هذا الشرط مرادف - في رأي طه - لمحو عنصر العجب من كثير من الحوادث في التاريخ الإسلامي ؛ فعندئذ - وعندئذ فقط - يمكن أن يقال إن تلك الأحداث قد فهمت أو عرفت . ويعود طه إلى

(١) نفس المصدر.

(٢) "حياة الآداب" ٨ ، الجريدة، ٢٨ فبراير ١٩١٤ .

(٣) انظر أعلاه ص ١٠٧ حيث يتحدث طه عن "التركيب النفسي" الخاص بكل أمة .

تأكيد هذا المعنى عندما يقرر أن المعجزات وخوارق العادات أمور لا يعرفها المنطق ولا التاريخ ، وإنما هي خليقة أن توضع موضعها من علوم الدين . ويستطرد قائلاً: ولولا أن نشير كثيراً من اللفظ والجدل لعرضنا الصلة بين علم النفس وبين فهم الدين ولا سيما القرآن الكريم ومواقع آياته الشريفة في نفوس الناس على اختلاف الأيام والعصور. (١)

وبعد هذا الشرح لضرورة تاريخ العلوم للدراسة الأدبية بالإشارة خاصة إلى علم النفس، يحاول طه في المقالة التاسعة التي تختتم السلسلة على نحو فجائي (٢) أن يثبت هذه الضرورة بالإشارة إلى عدة علوم أخرى (٣) تحظى الفلسفة من بينها باهتمام خاص. فالحاجة تدعو إلى شيء من العلم بهذا الموضوع لسببين: أولهما أن الفلسفة بالمعنى الدقيق تتصل اتصالاً وثيقاً بعلم النفس (٤) ؛ وثانيهما أن الأدب يتعرض أحياناً لتأثير المباحث الفلسفية . وهنا يشير طه من جديد إلى العصر العباسي بوصفه مثلاً جيداً على ذلك . فلقد كان الأدب الجاهلي يستلهم تجارب العرب وعاداتهم في طورهم الذي كانوا فيه (٥) ، وكان الأدب في صدر الإسلام متأثراً بعلوم ومعارف استحدثت داخل المجتمع العربي أو وفدت من مجتمعات أخرى. (٦) أما الأدب العباسي الذي ظهر في أوج اتصال الأمة الإسلامية بالحضارات الأخرى، فإنه

(١) المرجع السابق .

(٢) في الفقرة الأخيرة من المقالة يعد المؤلف القارئ بمواصلة البحث في فصل تال من السلسلة؛ ولكن هذا الفصل لم ينشر قط .

(٣) يرى المؤلف أن العلم باللغات السامية واللغات والآداب الأوروبية الحديثة والفلسفة ضروري للدراسة الأدبية .

(٤) يفترض المؤلف أن علم النفس هو أحد العلوم الفلسفية. نفس المصدر .

(٥) انظر المقارنة التي يعقدها المؤلف بين شعر الحكمة لدى زهير بن أبي سلمى - وهو الشعر البدوي المطبوع- وشعر الحكمة لدى المتنبي الذي يستند إلى معارف فلسفية مكتوبة مترجمة إلى العربية ، ويتضمن عمليات والفاظاً منطقية دقيقة . نفس المصدر .

(٦) يرى المؤلف أن الآداب في صدر الإسلام أضافت إلى ما كانت تحفظ من عاداتها القديمة وتقاليدها الموروثة علوماً دينية ومقالات سياسية وأنواعاً مختلفة من الأساطير والتاريخ ومن النجوم والطب. وأن هذه المعارف لم تحصل إلا نتيجة الاختلاط بأمم أخرى. نفس المصدر .

تعرض لأقوى تأثير للعلوم الفلسفية، وخاصة عن طريق الترجمة . وكان الجو الثقافي لذلك العصر من التشبع بالأفكار الفلسفية بحيث ما كان يمكن لأديب أن يقف منها موقف اللامبالاة ، أو أن يفلت من تأثيرها . والواقع أن كثيراً من شعراء ذلك العصر قد حرصوا على دراسة الفلسفة وعبروا عن تلك الأفكار بصورة مثقلة بالدلالات الفلسفية . وليس من الممكن لمن يريد أن يدرس ذلك العصر دراسة جادة أن يصبو إلى فهم ذلك الأدب المعقد الراقى نون أن يكون على قدر من العلم بالفلسفة .

وبناءً على ذلك يوجه طه إلى أنصار مدرسة الآداب لكمة أخيرة، إذ يوبخهم لإهمالهم الفلسفة وعداوتهم الصريحة لها . فلو كان بمقدورهم على سبيل الجدل أن يعرضوا عن زندقة مطيع [بن إياس] وحماة [عجرد] وابن المقفع وبشار ، وعن أبي العتاهية ، وفلسفة المتنبي ، وحكمة أبي العلاء ، وعن أبيقورية أبي نواس والخلع ، واعتزال الجاحظ ، ورجعية السيد الحميري ، لما أمكنهم تحاشي دراسة الفلسفة . فالفلسفة في نهاية المطاف علم عربي كتب بالعربية ودرس في المساجد والمدارس الإسلامية ولا يزال له ظل في الأزهر . ولقد يفهم الإعراض عن الفلسفة في حالة رجال الدين ؛ فربما كانت لهم في ذلك معذرة . ولكن ليس هناك من عذر لأهل الأدب الذين يتصدون لدراسة تاريخ الآداب وتاريخ العلوم ، ويتجاهلون الفلسفة ، ويتباهون بذلك ويرون درسها فساداً للملكات وتشويهاً للألسنة .

ويجدر بالملاحظة أن هذا الدفاع عن الفلسفة يتباين تماماً مع موقف طه منها في سنة ١٩٠٩ وييشر بالعمل الأخير بين أعماله المبكرة ، وأعنى بذلك رسالته التي أعدها عن أبي العلاء ، وهو الممثل كأفضل ما يكون التمثيل للأدب العباسي والشاعر الفيلسوف بلا منازع .

اللقاء مع حكيم المعرة

في ٥ مايو سنة ١٩١٤ منح طه حسين درجة الدكتوراه عن الرسالة التي أعدها عن أبي العلاء المعري . وهذا العمل الذي نشر بعد ذلك بعام تحت عنوان فكري

أبى العلاء ^(١) جدير بأن يعدّ أولاً بمعان متعددة. فقد كان أول رسالة دكتوراه تقدم إلى الجامعة الناشئة وتجييزها؛ وكان أيضاً أول عمل يعترف طه بجدارته للنشر على شكل كتاب . وهو فى المقدمة ^(٢) التى كتبها للطبعة الأولى لا يدع للقارئ أى مجال للشك فيما يعلق من أهمية على دراسته عن أبى العلاء ؛ فهو يؤكد أنه أذن بنشر الكتاب لشدة أثرته وحبه أن يكون واضحاً لمعاصريه ولن يجيئون على أثره فى جميع ما اختلف على نفسه من الأطوار؛ وذلك أن الكتاب يمثل حياته العقلية فى الخامسة والعشرين . ^(٣)

ثم يخبرنا المؤلف - من منظور أوسع نطاقاً ولكن بنغمة الزهو ذاتها - أن كتابه يؤرخ الحركة الأدبية فى مصر ، لأنه أول عمل فى الآداب العربية يوضع وفقاً للمنهج التاريخى الحديث . وهو يقول إنه تشدد فى اتباع الخطة التى رسمها للكتاب حتى كاد الكتاب يكون نوعاً من المنطق ، أو هو بالفعل منطق تاريخى أدبى . ^(٤)

وقد نضيف إلى كل ذلك أن نشر ذكرى أبى العلاء كان بداية لاشتهار طه حسين على الصعيد الدولى . ^(٥)

وليس هناك شك إذن فى أن هذه الدراسة التى تتناول أبا العلاء تعد فتحاً جديداً فى إنتاج طه حسين ، غير أنها لا تدل على انقطاع تام عن المقالات المبكرة التى هى أقل من ذلك الكتاب صقلاً وحظاً . فالكتاب ليس إلا تنويعاً للجهد النظرى والمنهجى الذى بذله طه بداية من جدله ضد جرجى زيدان فى سنة ١٩١١ . فبينما أرسى طه فى الأعمال الأولى مبادئ المنهج الجديد وقواعده ، تقدم رسالته عن أبى العلاء مثلاً تطبيقياً أولاً ولكنه رئيسى بلا شك . وصحيح أن الرسالة تتصدرها مقدمة وتمهيد

(١) عدل العنوان فيما بعد، أى بداية من سنة ١٩٣٠ ، فصار تجديد ذكرى أبى العلاء .

(٢) أضيفت هذه المقدمة المؤرخة ٤١ ديسمبر ١٩١٤ إلى النص الأصيل عند إعداده للنشر .

(٣) تجديد ذكرى أبى العلاء فى م ك ، المجلد ١٠ ، ١٩٧٤ ، ص ١٦ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) انظر ثناء R. A. Nicholson على ذكرى أبى العلاء فى كتابه *Studies in Islamic Poetry*

(Cambridge 1969) ، ص ٥١ ، وانظر أيضاً إشارته إلى طه حسين فى نفس المصدر، ص ١٤٢ .

بسطة فيهما المقدمات النظرية والمنهجية للعمل بأكمله ، ولكن أقوال طه في هذا المجال ليست إلا صياغة نهائية للنتائج التي سبق له أن توصل إليها على نحو أو آخر في المقالات الأولى. وما الصقل والثقة في النفس اللذان يميزان أول عمل ناضج إلا مظهران من مظاهر الاستقرار الذي لم يتحقق لطفه إلا نتيجة لما احتوت عليه المقالات من تلمس وتجريب وارتجال ، وبفضل الكد الذي تضمنته تلك الكتابات الصغرى استطاع المؤلف أن يجنى أخيراً ثمرة جهوده المضيئة .

في "المقدمة" يستعرض طه المذاهب الأدبية المختلفة التي يعرفها ويصدر عليها حكماً نهائياً ؛ فيعطى كل ذي حق حقه ، ويحتفظ من كل مذهب بالعناصر التي يرى لها قيمة أو نفعاً . وعلى هذا النحو يوازن طه بين مزايا وعيوب النهج اللغوي كما يمثله في العصر الحديث شيخه المرصفي ، وبين مزايا وعيوب النهج التاريخي الحديث كما يدرسه أساتذته الأوروبيون في الجامعة الأهلية . ولئن كان طه قد عالج النهج اللغوي في السنوات السابقة ، وكأنه نهج بال على ضوء التطور العلمي الحديث ، فإنه يرى له الآن دوراً محدوداً ، وإن كان ضرورياً في الدراسة الأدبية . وهو يرى أن في هذا النهج عيبين أساسيين : أولهما أنه يتمسك تمسكاً شديداً بنموذج الجودة كما يتمثل في الشعراء الجاهليين من سكان البادية ، وكما يتمثل أيضاً - ولكن بدرجة أقل - في الشعراء الذين حاكوا الشعر الجاهلي في العصور المتأخرة . أما العيب الثاني فهو أن النهج المذكور يركز على الجوانب اللغوية ولا سيما البلاغية منها.^(١) وعلى نقيض ذلك يمتدح طه النهج التاريخي لانفتاحه على شتى التيارات واتساع نطاقه ؛ فهو يعامل على قدم المساواة كل أشكال التعبير الأدبي أيما ما كان عصرها وأياً ما كان مستوى جودتها . يضاف إلى ذلك أنه يشمل جوانب متعددة من موضوع الدراسة ، ويتطلب من ثم إلماماً بعلوم شتى : العلوم الفلسفية والدينية، التاريخ والجغرافيا، فقه اللغات المقارن، علم النفس الفردي والجماعي، اللغات الأوروبية الحديثة، فضلاً عن مناهج البحث الأوروبية وكتابات المستشرقين.^(٢)

(١) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٢) نفس المصدر، ص ١١ .

إلا أن هذه الموازنة التي ترجح فيها كفة المنهج التاريخي لا تلبث أن تواجه حركة مضادة تميل بها نحو مزيد من التوازن . ومن ذلك أن طه يعتقد أن النهج اللغوي لا غنى عنه لتدريب الطلاب في فن الإنشاء وتنمية قدرتهم على تذوق التراث العربي.^(١) ومن نفس المنطلق يعتقد طه أن المنهج التاريخي ينطوي على بعض القصور ؛ فهو يرى أن المصادر الأوروبية عن أبي العلاء إن كانت تفي بشروط التاريخ وروح النقد، فإنها دلائل لا يمكن الاطمئنان إليه في دراسة حياة أبي العلاء أو مذهب الأدبية والفلسفية. فالمستشرقون الذين درسوا أبا العلاء لم يستطيعوا - في رأى طه - أن يفهموا لغته حق فهمها لبعدهم عن أسلوبه الغريب ، وعميت عليهم فلسفة الرجل نظراً لغموض لغته ولغموض الكتب التي ألقت في الفلسفة الإسلامية.^(٢)

والنتيجة النهائية لتوزيع الثناء واللوم على هذا النحو المنصف هي أن الدراسة السليمة للأدب العربي ينبغي أن تجمع بين النهجين بحيث يكون النهج اللغوي جزءاً أساسياً في عملية فهم النص وتذوقه . ومعنى هذا بتعبير آخر أن الدراسة الأدبية المثالية يجب أن تركز على إستراتيجية من شعبتين؛ ففيها يقترن التفسير التاريخي بالرجوع إلى العوامل النفسية والبيئية بتحليل النص (على طريقة المرصفي).^(٣)

أما وقد وصل طه إلى هذه النتيجة فإنه أصبح في وضع يمكنه من أن يرفض باقتضاب وحسم مدرسة الآداب التي يصفها الآن بأنها "مذهب العامة من أساتذة الآداب في مدارس مصر" ، فمذهبها فيما يقول "مذهب مشوه مختلط ، ليس بالقديم ولا الجديد، وليس بالنافع في تكوين الملكات الأدبية، ولا بالمفيد في تعليم مناهج البحث".^(٤)

أما في "تمهيد" الكتاب موضوع البحث، فإن طه يكتفي بتعميم المنطق السببي الذي دلل في "حياة الآداب" على أنه بمثابة الأساس من وجهة النظر التاريخية .

(١) نفس المصدر، ص ١٢ .

(٢) نفس المصدر، ص ٣٢ و ٢٥٣ .

(٣) نفس المصدر، ص ١٢ و ١٣ .

(٤) نفس المصدر، ص ١٢ .

وهكذا تتحول الفكرة القائلة بأن الأعمال الأدبية نتاج ومرآة لمؤلفيها وبيئاتهم إلى تصور متسق للعالم بوصفه نسقاً حتمياً يفقد فيه المؤلفون استقلالهم؛ فهم ليسوا إلا أجزاء من الكل . يقول طه: " ليس الغرض من هذا الكتاب أن نصف حياة أبي العلاء وحده، وإنما نريد أن ندرس حياة النفس الإسلامية في عصره ... وإنما الرجل وما له من آثار وأطوار نتيجة لازمة، وثمره ناضجة لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه، وتصوير نفسه من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان." (١) ، ويرى طه أن من هذه العلل ما هو مادي ، ومنها ما هو معنوي، ومنها ما ليس للإنسان به صلة، وما بينه وبين الإنسان اتصال. (٢) . ومن الخطأ أن ننظر إلى الإنسان نظراً إلى الشيء المستقل لا يتصل بشيء مما حوله ، ولا يتأثر بشيء مما سبقه أو أحاط به ، فمثل هذا الكائن المستقل لا عهد له بهذا العالم ، إنما يأتلف هذا العالم من أشياء يتصل بعضها ببعض ويؤثر بعضها في بعض، وليس فيه مكان للمصادفة ، وليس في هذا العالم من شيء إلا وهو نتيجة لعلة سبقته ومقدمة لأثر يتلوه. (٣)

وطه إذ يسمى هذا المذهب "الجبر في التاريخ" يرى أنه يعني أن حركة التاريخ جبرية ليس للاختيار فيها مكان ، وأن الحوادث أياً كان خطرهما أو نوعها لا يمكن أن تعزى لأي شخص وحده مهما عظم أثره وجل شأنه ، وأنها ينبغي أن تعزى أيضاً - بل وفي المقام الأول - إلى الكل الذي هو جزء منه ، وإنما الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية والخطبة والرسالة نسيج من العلل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء. (٤)

والعمل الأدبي لا يمكن أن ينسب إلى مؤلفه وحده ، لأن هذا الأخير هو نفسه ثمرة من ثمار عصره. (٥) وبعبارة أكثر تفصيلاً يرى طه أن العوامل الأساسية التي تفسر شخصاً مثل أبي العلاء وأعماله هي نفس الأمة الإسلامية وزمن معين (فترة معينة)

(١) نفس المصدر، ص ٢٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر، ص ٢٠ - ٢١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤ .

(٥) نفس المصدر، ص ٢١ .

ومكان معين (بيئة مادية معينة).^(١) أو أنه يفترض أن أبا العلاء كان ثمرة لعصر معين ، وإقليم معين ، وأحوال سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية معينة.^(٢)

وتتقترن هذه الحتمية بما يمكن أن يسمى تصوراً وضعياً أو علموياً للمعرفة يعد التاريخ بمقتضاه علماً وصفيّاً (لا وضعياً) لا يختلف عن أى من العلوم النظرية والتجريبية ؛ فطه يعتقد أن عمل المؤرخ هو أن يدل على ما هو كائن من غير أن يخترع شيئاً^(٣) ، ودون أن يتضمن مدحاً للأشخاص أو ذمّاً^(٤) ، وهو لا يختلف عن عمل الفيلسوف أو الرياضي أو العالم الطبيعي ؛ فالحقائق فى كل هذه العلوم قديمة ثابتة واجبة ، وليس هناك من حادث عارض إلا علم الإنسان بها.^(٥)

ويجدر أن نلاحظ أن الأسلوب الذى كتبت به هذه الأفكار يتسم بالقطع ؛ فالعبارة مقتضبة مهيبة تكاد تشبه لغة الحكم والأمثال . وذلك عرض من أعراض الاستقرار الذى بلغه طه عن طريق تنقيح وتعميم آرائه المبكرة؛ فهو يشعر الآن أنه أتقن مبادئ المنهج التاريخي ، وأنه بعد أن قرر هذه المبادئ فى صورتها النهائية لم يبق أمامه إلا أن يحاول تطبيقها على الحالة التى هو بصدها ، أى أبى العلاء .

أما فيما يتعلق بسبب اختيار الموضوع، فإنه لا يفهم إلا على ضوء تطور طه فى المرحلة السابقة . فقد رأينا كيف أن طه فى "هل تسترد اللغة مجدها القديم؟" ما زال يعتقد أن القرن الرابع الهجرى كان بداية عصر الانحطاط فى تاريخ الإسلام، وأن الشعراء الذين جاءوا بعد ذلك مثل المتنبى وأبى العلاء كانوا من طبقة أدنى بسبب ميولهم اليونانية والفلسفية . غير أن هذه الآراء أخذت تتزعزع بالتدريج عندما بدأ طه

(١) نفس المصدر، ص ٢٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٦ وما يليها.

(٣) نفس المصدر، ص ٢١ ، لكن لاحظ أن وصف طه للتاريخ بأنه "وضعى" (أى أنه يقتصر على وصف ما هو كائن دون أن ينشئ شيئاً جديداً) يختلف عن استخدامنا لوصف "الوضعى" نسبة إلى المذهب الوضعى . ويبدو أن طه إذ يفرق بين ما هو وصفى وما هو وضعى متأثر بالفرقة التى يقيمها ابن خلدون مستنداً إلى علم أصول الفقه - بين الإخبار (عن الواقعات) والإنشاء (أو تكاليف الشرع الإنشائية). انظر مقدمة ابن خلدون، تحقيق على عبدالواحد وفى (القاهرة ١٩٧٩)، الجزء ١، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٥ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢١ .

يدرك النتائج الكاملة للمنهج التاريخي الجديد . فهو يرى الآن أن استبعاد عصر أو مذهب أدبي أمر مناف للروح التاريخي ، بل نراه يؤكد على نحو متزايد أهمية العصر العباسي نظراً لإنجازاته اللغوية والفكرية ، وتفاعله مع الحضارات الأخرى ، واهتمامه بالمباحث والفلسفية - على وجه التحديد - ولتجديده الشعري بصفة خاصة . يضاف إلى ذلك أنه ينكر توقف الظواهر الأدبية توقفاً تاماً على العوامل السياسية؛ فالرقى والانحطاط في عصر ما لا يقاسان بمعايير سياسية فقط . وقد أصبح يرى أن القرنين الرابع والخامس يمثلان ذروة الثقافة العباسية رغم التفكك السياسي المتفشى ، كما أصبح يعتقد أن الفلسفة بمثابة الذروة من الازدهار العقلي ، وأنها جزء لا يتجزأ من الثقافة العربية . ثم نلاحظ بصفة أخص أنه يرد للمتنبي شيئاً من الاعتبار لأنه يرى في شعره الفلسفي دليلاً على الرقى والتفنن (بالمقارنة مع حكمة زهير البدوية التقليدية)^(١).

والواقع أن الأسباب التي يسوقها طه تفسيراً لاختياره أبا العلاء موضوعاً للبحث من شأنها أن تضللنا عن الحقيقة؛ فهي لا تشير إلى الدور الحاسم للعوامل المتصلة بتطوره في الفترة المبكرة . وهو يخبرنا أنه في البداية بغض أبا العلاء ونفر منه ، وأنه عرض له أن يختار موضوعاً آخر^(٢) ، ولكنه انتهى إلى الكف بالبحث عنه ؛ وذلك لسببين رئيسيين : أولاً أنه كان يشعر أن بإمكانه أن يسهم إسهاماً هاماً في دراسة موضوع يثير اهتماماً واسع النطاق بين الدارسين في الشرق والغرب ؛ فبينما نشب الجدل بين الشرقيين فيما إذا كان مؤلف اللزوميات مؤمناً أم كافراً ، عنى الغربيون بترجمة أعماله إلى عدد من لغاتهم ، وأكثروا القول في فلسفته ونبوغه . وثانياً أنه رأى بينه وبين أبا العلاء تشابهاً في آفة العمى التي لحقت بكليهما في أول صباه فائتت في حياته أثراً غير قليل^(٣) . إلا أن هذين السببين ، سواء أخذنا فرادى أو معاً ، لا يرويان لنا القصة كاملة . فمن الناحية الأكاديمية الصرف لا يمكن أن يكون اهتمام طه بأبي العلاء قد أملاه فقط حرصه على الأصالة، ولا بد أن اختياره قد تحدد إلى

(١) "حياة الآداب" ٨، الجريدة، ٨ مارس ١٩١٤ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٤ و ١٥ .

(٣) نفس المصدر، ص ١٥ .

حد ما نتيجة لوعيه - ولو على نحو غامض فى البداية - بأن الموضوع يتيح له فرصة مثالية ؛ لكى يتحرر من الحدود الضيقة لكلاسيكية المرفى ، ولكى يدال على المنهج التاريخى فى رحابة نظرتة وميله إلى الإنصاف واهتمامه بالتفاعل والتثاقف . ومن الناحية الشخصية لا يمكن أن يكون تماهى طه مع موضوعه راجعا فقط إلى اشتراكهما فى تلك الآفة ، ولا بد أن طه كان يدرك قبل الإقدام على دراسة أبى العلاء بوقت طويل^(١) أن الشاعر الفيلسوف الذى واجهه نون تهيب كل النتائج المترتبة على شكوكه بإزاء المعتقدات الموروثة والإيمان التقليدى يمكن أن يرشده بشأن المشكلات الدينية والفلسفية التى بدأت تقض مضجعه . وبعبارة أخرى نقول إن قرار طه أن يدلى بدلوه فى الجدل الذى كان محتدماً عندئذ حول معتقدات أبى العلاء الدينية والفلسفية يعنى أنه أراد أن يواجه فقدان براءة إيمانه الموروث . ولم يكن أبو العلاء مجرد أديب كفيف مثله، وإنما كان بمثابة ذاته الأخرى من نواحي شتى؛ فقد كان لديه ما يقول عن الحالة الإنسانية ، وعن السلوك الذى ينبغى اتباعه (على ضوء تلك الحالة) .

كما ينبغى أن ندرج تأثير أحمد لطفى السيد فى عداد العوامل التى أدت إلى اختيار أبى العلاء ، فقد كان لطفى هو الذى أثار اهتمام الفتى بالموضوع^(٢) . ورغم أنه لم يقرأ رسالة طه إلا بعد أن تمت كتابتها^(٣) ، فإنها فيما يبدو لم تكتب إلا بتوجيه منه . والواقع أن الكتاب ينطوى بأكثر من معنى على تحية تقدير غير مباشرة لـ "أستاذ الجيل" . ومن ثم كان التأكيد مثلاً على اطلاع أبى العلاء على الفلسفة اليونانية ودينه لها . يضاف إلى ذلك أنه فى رأى طه فيلسوف فى المقام الأول^(٤) ومؤسس للشعر الفلسفى^(٥) . بل إن طه يبسط تعاليم أبى العلاء بطريقة منظمة كأنها تعاليم فيلسوف من المشائين^(٦) ، وهو يعد أبا العلاء فيلسوفاً عقلانياً^(٧) وأرستطاليسياً يؤمن بقدوم

(١) ترجع معرفة طه بأبى العلاء إلى فترة دراسته على المرفى فى الأزهر. انظر نفس المصدر، ص ١٠ .

(٢) طه حسين ، "المرحوم الأستاذ أحمد لطفى السيد" ، ص ١١٥ .

(٣) نفس المصدر. وانظر أيضاً الأيام ، فى م ك، المجلد ١ ، ١٩٨٠ ، ص ٤٣٢ .

(٤) تجديد لكرى أبى العلاء، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٥) نفس المصدر، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٦) نفس المصدر، ص ٢٦٧ وما يليها .

(٧) نفس المصدر، ص ٢٦٢ وما يليها .

المكان والزمان والمادة^(١) وأبيقورياً في مذهبه الأخلاقي^(٢) وناقداً للنظام الملكي^(٣) .
 وصحيح أن رسالة طه تنطوي على تأثيرات أخرى ، لاسيما تأثير أساتذته الأوروبيين
 في الجامعة الأهلية، ولكن هذا لا يقلل من أهمية إسهام لطفي في هذه المرحلة من
 تطور طه، وذلك لأن اتباع هذا الأخير للمنهج التاريخي بكل ما ينطوي عليه من
 تفريعات نقدية ووضعية وعلموية كان متسقاً مع اتجاهات لطفي الحداثية وتعاليمه
 الصريحة. وإن إقدام طه في حد ذاته على دراسة أبي العلاء بتلك الطريقة المنهجية
 المنظمة، ودون أن يتهرب من المسائل الشائكة فيما يتعلق بالعقيدة^(٤) ، ودون أن يكلف
 نفسه غناء استرضاء الحساسيات الدينية^(٥)، ليتمكن أن يعد بمثابة صيحة حرب أخرى
 في الكفاح من أجل الحداثة .

فإذا نظرنا الآن في دراسة طه لأبي العلاء كما يجريها بالفعل، فإننا قد نلاحظ
 أولاً تلك الرحلة الطويلة المسرفة في الطول التي يقوم بها طه قبل أن يتناول موضوع
 الدراسة الحقيقي . فهو بعد "التمهيد" الذي يبسط فيه تصوره للعالم كنسق حتمي
 يورد خمسة فصول رئيسية (يسمونها "مقالات") : الأول وعنوانه "زمان أبي العلاء
 ومكانه" يتناول فيه بيئة الشاعر كما تحددها أمته أو شعبه أو جنسه^(٦) وعصره وبلده .
 ويتناول الفصل الثاني حياة أبي العلاء فيصف بإسهاب قبيلته وأسرته ونشأته وتطوره
 التالي . بينما تتناول الفصول الثالث والرابع والخامس أعماله الأدبية والعلمية

(١) نفس المصدر، ص ٢٦٨ وما يليها و ص ٢٧٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ٢٠٩ - ٢١٠ . كان لطفي هو أول من نبه طه إلى أن أبا العلاء استعار فلسفته
 النظرية والعملية من أبيقور. انظر طه حسين، "الأستاذ المرحوم أحمد لطفي السيد"، ص ١١٥ .

(٣) تجديد ذكرى أبي العلاء، ٣١٠ - ٣١١ . كان لطفي أيضاً هو أول من نبه طه إلى آراء أبي العلاء في نقد
 الملوك. انظر طه حسين، المرجع السابق، ص ١١٥ .

(٤) يصور طه أبا العلاء بوصفه فيلسوفاً مؤلفاً يؤمن بوجود الله (نفس المصدر، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ كمحرك
 لا يتحرك) (نفس المصدر، ص ٢٨٠) ، ولكنه ينكر النبوات (نفس المصدر، ص ٢٩٥ وما يليها).

(٥) انظر نفس المصدر ، ص ٣١ - ٣٢ حيث ينتقد طه حسين محمد حلمي طمارة لأنه يحاول في كتابه تاريخ
 أبي العلاء أن يزوج بالرجل بين المسلمين تطلقاً لرجال الدين والأزهر .

(٦) يتحدث طه حسين (نفس المصدر، ص ٣٨ - ٣٩) عن الأمة الإسلامية و "شعب" أبي العلاء ، كما يشير إلى
 "الجنس العربي" ، ولكنه يرى أن العرب في الشام في القرن الرابع كانوا قد فقدوا نقاسم الجنس ، وهو
 يتحدث أيضاً عن "جيل" أبي العلاء، وهو لفظ من الواضح أنه يستعيده من ابن خلدون .

والفلسفية على التوالي . وواضح أن هذه الخطة تتفق مع اهتمامات المؤلف العلمية؛ فهو إذ يبدأ بالعوامل البيئية ويتبعها بالعوامل النفسية (تجربة أبى العلاء فى الحياة وسيكولوجيته) ليتناول بعد ذلك مؤلفاته، إنما يرجو أن يثبت أن الرجل وأعماله ثمرة ضرورية ، ومراة صادقة للوسط المحيط به ولتكوينه النفسى . وهو يفترض أننا إذا أخذنا فى الاعتبار حياة المجتمع الإسلامى أو النفس الإسلامية فى المكان والزمان المعينين، إذن لتوافرت لدينا كل العوامل التى أدت لا محالة إلى تلك النتيجة .

والكتاب بتصميمه هذا يفتقر إلى التناسب . من هنا شكنا أحد النقاد من ضخامة المساحة المخصصة للأمور المتعلقة بالتاريخ وحياة أبى العلاء على حساب أعماله.(١) زد على ذلك أننا قد نصاب بخيبة الأمل عندما نصل - بعد الخوض فى كل تلك التفاصيل - إلى هذا الجزء الذى هو آخر أجزاء الدراسة وأهمها . إذ ليس هناك أولاً ما يدعو إلى الاقتناع بأن الحتمية التى يؤمن بها المؤلف قد ثبتت بالدليل القاطع؛ فكل ما يجوز له أن يدعيه هو أنه وضع أعمال أبى العلاء فى سياقها التاريخى .(٢) يضاف إلى ذلك ثانياً أن مناقشة طه حسين لهذه المؤلفات لا تخرج عن نطاق تقاليد النقد القديم فى تصنيفها لشعر أبى العلاء بحسب الأغراض من مدح وفخر ووصف ورثاء ونسيب، وفى طابعها البلاغى الغالب.(٣)

وقد اعترض ناقد آخر على الطابع الفلسفى الطاغى على الكتاب؛ فهو يعرض أبا العلاء وكأنه فيلسوف منظم نو أفكار محددة نهائية بدلاً من أن يعرضه كشاعر ذى تجربة بشرية خاصة.(٤)

غير أن هذه الانتقادات الصائبة لا تراعى أن انعدام التوازن فى توزيع المؤلف لانتباهه يخفى نوعاً من الوحدة البنيوية العميقة التى لا تخلو من دلالة . فمن الغريب اللافت للنظر أن تصميم الكتاب ليس سوى صورة معكوسة لمشهد العالم المتسع أبداً

(١) Miftah Tahar، المرجع السابق، ص ٥٤ .

(٢) نفس المصدر، ص ٥٣ .

(٣) نفس المصدر. وقارن محمد مندور، فى الميزان الجديد (القاهرة ١٩٧٧)، ص ١٣٠ .

(٤) محمد مندور، نفس المصدر، ص ١٣٠ - ١٣١ .

كما مر بنا فى سيرة طه حسين الذاتية التى رواها فى الأيام^(١) . فبدلاً من تقدم بطل الأيام فى العالم الرحب نرى الآن أبا العلاء يتحرك فى الاتجاه المضاد ، ونرى دائرة العالم تضيق شيئاً فشيئاً حتى مركزها لأنه يتراجع حتى يصل إلى عزلته الأخيرة التى فرضها على نفسه . ولئن كانت هذه البنية الكامنة تتفق مع منطق التفسير المتبع ومع مسار أبى العلاء فى حياته، فإنها تنم أيضاً عن اهتمامات لا تمت بصلة وثيقة للمنطق ولا للعلم . ومثال ذلك أن صورة أبى العلاء وهو يقف فى مركز تلك الدائرة تتضمن - فيما يبدو - بعض جوانب النزعة الإنسانية لدى طه حسين . ويزداد هذا المعنى الضمنى وضوحاً عندما ننتقل من البعد الكونى إلى الإطار التاريخى أو الثقافى حيث يحاول المؤلف أن يحدد الإحداثيات الأساسية لموضوعه، أى شعب أبى العلاء فى ذلك المكان بعينه ، وذلك الزمان المحدد . عندئذ نلاحظ كيف يصل طه أبا العلاء بالإنسانية جمعاء عن طريق سلسلة من التعريفات التى تتسع نطاقاً على نحو مطرد . فهو أولاً يجد عبارة "الأمة العربية" أو "الجنس العربى" من الضيق بحيث لا تصلح وصفاً لشعب أبى العلاء ، ويلى ذلك ثانياً أنه يرى أن عبارة "الأمة الإسلامية" التى فضلها لأول وهلة ضيقة بدورها ويحل محلها "الأمم الإسلامية"، بل إنه يرفض ثالثاً هذا الوصف الفضيض ، ويعيد تعريفه بحيث يشمل جميع الذين دانوا لحكم المسلمين أو سكنوا أرضهم أو اشتدت بين المسلمين وبينهم الصلة^(٢) وذلك - فيما يقول طه - لأن أبا العلاء عرض لغير المسلمين من أصحاب الملل والديانات ، بل لقد درس فلسفة اليونان الذين لم يكن بينه وبينهم عهد ولا جامعة زمانية لبعده الأمد وطول المدة . ولابد إذن من بسط البحث ومد أطرافه من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ، ومن عدة قرون قبل ميلاد المسيح إلى العصر الحديث^(٣) . ويحق لأبى العلاء إذن - بفضل غزارة معارفه وشمول اهتماماته واستمرار أهميته - أن يدرس فى أوسع إطار مرجعى ممكن .

(١) انظر الفصل الأول أعلاه .

(٢) طه حسين، تجديد ذكرى أبى العلاء، ص ٢٢ - ٢٣ و ٢٨ وما يليها . نجد فى كتاب نالينو علم الفلك فى القرون الوسطى (روما ١٩١١) ، ص ١٦ - ١٧ عملية مماثلة لإعادة تعريف لفظة "العرب" مرة بعد أخرى إلى أن تشمل جميع الأمم والشعوب التى تسكن الأراضى الإسلامية (ما دامت تستخدم العربية لغة للكتابة فى المسائل العلمية) .

(٣) طه حسين، المرجع السابق، ص ٢٣ .

ويفترض طه أنه علم عالمي يقف في ملتقى أشد الثقافات والتقاليد تنوعاً ، وهو يريد منا أن نرى ذلك وقد انكمشت الدائرة إلى أضيق حدودها حيث نجد أبا العلاء حبيس بيته في معرة النعمان.^(١) فقد اعتزل الناس بعد رحلة وخيمة العاقبة إلى بغداد، وقضى الخمسين سنة الأخيرة من حياته متوحداً أشبه بالنساك^(٢) ، « رهين المحبسين» كما قال^(٣) ، عاكفاً على تأليف أعماله، ومن بينها رائعته الكبرى اللزوميات التي تناول فيها كل ما يتصل بحالة الإنسان .

وعند تلك النقطة ذاتها نلاحظ أن هذا الكتاب الذي يدعى مؤلفه أنه التزم فيه بنزعة علمية صارمة يتكشف عن طابعه الشخصي العميق . وهذا الطابع الذي ينم عنه التشابه البنيوي مع كتاب الأيام يصبح واضحاً كل الوضوح عندما يتوقف الأسلوب العلمي والتاريخي فجأة ليفسح المجال لطريقة ذاتية غنائية في الكتابة.^(٤) هنا يقف المؤلف بباب أبي العلاء في معرة النعمان: "قف بنا الآن على دار بمعرة النعمان لم يصفها التاريخ..."^(٥) فإذا بلغ المؤلف عقر الدار وجد نفسه وجهاً لوجه مع موضوع دراسته متفكراً يطيل التفكير في أمر الحياة ومصير الإنسان.^(٦) وواضح أن دعوة طه لقارئه أن يقف بالدار التي نسيها التاريخ تذكر بتلك العادة الشعرية العريقة التي ترجع إلى العصر الجاهلي ، عادة البكاء على الأطلال في مقدمة القصيدة حيث يطلب الشاعر إلى صاحبه (أو صاحبه) أن يقف (أو يقفوا) إلى جانبه ، وأن يعينه (أو يعينوه) بإزاء مشهد الخراب الذي لا يطاق .

(١) مسقط رأس أبي العلاء؛ وهي بلدة تقع جنوبي حلب.

(٢) لم يكن يبرح بيته ولكنه كان يستقبل الطلاب والزوار.

(٣) أراد بذلك محبس العمى ومحبس العزلة التي فرضها على نفسه . كما وصف نفسه في اللزوميات بأنه في ثلاثة من السجون ثالثها "كون النفس في الجسد الخبيث" .

(٤) أنا مدين هنا لجابر عصفور، المرجع السابق، ص ٢٥٥ وما يليها.

(٥) طه حسين، المرجع السابق، ص ١٧٠ .

(٦) نفس المصدر، ص ١٧٠ - ١٧١ .

والواقع أن هذا التحول الدرامى الذى يرمز بوضوح إلى تماهى المؤلف مع موضوعه ليس أمراً عارضاً فى فكر طه حسين ؛ فهو بالإضافة إلى كونه جزءاً لا يتجزأ من تصميم الكتاب الذى نحن بصددده^(١) سيكون سمة من سمات العمل الرئيسى الثانى الذى يؤلفه طه حسين عن أبى العلاء بعنوان **مع أبى العلاء فى سجنه (١٩٣٩)**. ففى هذا الكتاب الذى ألف بعد الرسالة المبكرة بربع قرن، يدير طه ظهره صراحة للبحث التاريخى ليتبع بدلاً منه نهجاً يقوم على العطف والرحمة.^(٢) وفى منتصف الكتاب تقريباً يتوقف مرة أخرى على نحو مفاجئ ليزور أبا العلاء من جديد. وهو يروى قائلاً: "وأدخلت على الشيخ فى حجرة واسعة بعيدة الأرجاء قد جلس فى صدرها على حصير لعله أن يكون أقرب إلى البلى منه إلى الجدة، وبين يديه نفر يكتبون، وفى الحجرة قوم آخرون كثيرون يسمعون ويعجبون..."^(٣)

إن هذا التحول المفهوم فى الكتاب المتأخر الذى يتبع نهجاً انطباعياً صريحاً لابد أن يكون مستغرباً فى الرسالة المبكرة التى تلتزم بما يسمى بالنقد الموضوعى أو العلمى.^(٤) ولكن هذه المفارقة - ومفارقات أخرى كثيرة - ينبغى تقبلها كجزء لا يتجزأ من فكر طه؛ فالكتاب المبكر بدعاواه العلمية والتاريخية يتضمن بذور انطباعيته المتأخرة . بل لقد يمكن أن يقال إن ذلك التحول إلى موقف أكثر ذاتية كان لا مفر منه بالنسبة لشخص اعتنق نهج المرصى فى النقد.^(٥)

(١) لاحظ كيف أن التحول - بما فى ذلك من عودته إلى أبى العلاء وزيارته له - يسبقه ما يبشر به فى **مستهل الفصل الأول**، حيث يؤكد طه بلغة غنائية ضرورة العودة من باب الأمانة والوفاء إلى عصر أبى العلاء مثله مثل الربوع الدارسة التى لها حق على أأفها الأولين وسكانها الأقدمين إن مروا بها أن يعوجوا عليها.

(٢) طه حسين، **مع أبى العلاء فى سجنه**، فى م ك، المجلد ١ ، ١٩٧٤، ص ١٢٣ وما يليها.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٧٩ .

(٤) انظر Cachia، المرجع السابق، ص ١٤٢ و ١٤٤ .

(٥) انظر **الفصل الثانى** أعلاه حيث بينا أن نهج المرصى كان يتضمن إلى جانب تحليل النصوص عنصراً آخر هو تنويع هذه النصوص لما فيها من خواص أدبية .

وينبغي أن يكون من الواضح في نهاية هذا الاستعراض لكتابات طه حسين المبكرة أن تجديد ذكرى أبي العلاء لم يكن - كما هو شائع - بداية حياته كناقد ومؤرخ للأدب . فالكتاب - وإن كان يعد بحق باكورة نضجه - لا يمكن أن يفهم إلا بوصفه تنويراً للبحث الاستكشافى التأسيسى الذى أجراه فى مقالاته السابقة بشأن قضايا المنهج .

ورغم أن صاحب هذه المقالات قد أدرجها طى النسيان، فإنه ظل يلجأ إليها فيما بعد كمستودع (خفى) للأفكار والنظرات الثاقبة الخصبة . وهكذا كان للتأكيد على أهمية العصر العباسى نتائج ظهرت فيما بعد على عدة أنحاء . ومن ذلك أن طه اختار أبا العلاء الشاعر العباسى المتأخر موضوعاً لكتابه الأول . ومن ذلك أيضاً أن طه فى أوائل العشرينيات بدأ دراساته الكبرى فى الأدب العربى بمؤلف خصصه بأكمله لذلك العصر، وكان البطل فيه أبا نواس، وأبا نواس بوصفه ممثلاً لذلك العصر.^(١) والأمر نفسه يصدق على شكوك طه فى صحة الشعر الجاهلى وعلى نهجه التاريخى فى النظر إلى المعجزات وإلى القرآن؛ فقد كانت لأرائه فى هذه المجالات آثار بعيدة المدى فى مؤلفاته اللاحقة . ويمكن أن يقال بصفة عامة إن وضعية طه كما تقررت فى مقالاته المبكرة ظلت منذ ذلك الوقت تشغله طيلة حياته .

(١) انظر "القدماء والمحدثون: أبو نواس" فى حديث الأربعاء، الجزء ٢، فى م ك، المجلد ٢ ، ١٩٧٤ . نشرت المقالة للمرة الأولى فى السياسة، ٢٣ يناير ١٩٢٣ .

الفصل الخامس

الرجوع إلى المصادر الفرنسية

كوفىء طه بعد فوزه بدرجة الدكتوراه عن الرسالة التى أعدها عن أبى العلاء باختياره لبعثة للدراسة فى فرنسا، حيث كان عليه أن يقضى خمس سنوات بداية من نوفمبر ١٩١٤ حتى أكتوبر ١٩١٩ . ولكن من المناسب قبل أن نتناول هذه المرحلة الأخيرة من تعليمه النظامى أن ننظر بمزيد من العناية فى المرحلة السابقة من تعليمه فى الجامعة المصرية (١٩٠٨ - ١٩١٤) لتبين إلى أى حد كان عندئذ ملماً وملتزماً فعلاً بطرق التفكير الفرنسية .

هذا موضوع لم يلق حتى اليوم اهتماماً كافياً من الباحثين ، بما فى ذلك الذين درسوا بصفة خاصة تأثير الفكر الفرنسى على طه^(١) والذين اكتشفوا تأثير هيبوليت تين على الرسالة المذكورة أعلاه .

ومن الدارسين من يكتب دون عناية بحيث يخيل للقارئ أن ذلك التأثير لم يقع قط ، أو لم يقع على أى نحو جدير بالاهتمام قبل سفر طه إلى فرنسا . ومن ذلك أن أحد الباحثين يصور تطور طه فى إطار قسمين متقابلين هما : تعليمه التقليدى فى الأزهر من ناحية ، واكتشافه فى باريس للعلوم والعقلانية والنزعة الإنسانية الغربية من ناحية

(١) انظر مثلاً كمال قلته ، طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى ألبه (القاهرة ١٩٧٣) ، ص ١٩٤ وما يليها ؛
Maïfah Tahar, Tàhà Husayn, sa critique littéraire et ses sources françaises (Tunis 1976) ,
p. 45 et sqq.

Anouar Louca, " Taha Hussein et L'occident " , Cultures, II (1975) p. 118 - 142.

أخرى.^(١) بل ان باحثاً آخر يكتب بمزيد من التأكيد فيقول إن عقل (كذا!) طه الأوروبي ، ورأيه في الثقافة الأوروبية قد تشكلا أثناء سنى دراسته في باريس.^(٢)

وحقيقة الأمر أن التقصير في دراسة هذا الموضوع بمزيد من التعمق والميل إلى التسليم دون تردد بأن اتجاهات طه الأوروبية قد تشكلت في فرنسا يرجعان إلى مصدر واحد مشترك ، وهو قلة الاهتمام بتعليم طه في الجامعة المصرية ، وبكتاباته المبكرة التي ظهرت في غضون الفترة الانتقالية المتوسطة بين دراسته في الأزهر ودراسته في باريس.^(٣)

والواقع أن التقاء طه بالثقافة الفرنسية وانجذابه إلى فرنسا بصفة خاصة لابد أنه قد بدأ في سنة ١٩٠٧ عندما أخذ وهو لما يزل طالباً في الأزهر يتردد على حلقة لطفى السيد ؛ فقد كان لطفى يعرف الفرنسية بحكم تعليمه وكان من ثم محباً للثقافة الفرنسية . وقد يصدق هذا أيضاً على كبار الأعضاء في حلقاته؛ فقد تخرجوا مثله من مدرسة الحقوق الفرنسية في القاهرة، وكان يدعوهم إلى إلقاء المحاضرات في "مدرسة" الجريدة .^(٤) وخارج نطاق هذه الدائرة كان هناك جاويش بطبيعة الحال، ولكنه كان بدوره من أنصار الثقافة الفرنسية - رغم تعليمه في إنجلترا - وكان جاويش هو الذي ألقى في روع طه فكرة السفر إلى فرنسا.^(٥)

ويذكر طه حسين كيف استقرت الفكرة في نفسه وأصبحت جزءاً من حياته، وكيف جعل ينظر إليها لا على أنها حلم يداعبه نائماً أو يقظان، بل على أنها حقيقة

(١) Anouar Louca, "Taha Hussein et la continuité de deux rives ", *Qantara*, Juillet-aout 1992 , dossier spécial , p . vi-viii.

(٢) أحمد علي ، طه حسين، قصة مكافح عنيد (بيروت ١٩٩٠)، ص ١٠٧ .

(٣) أوضح مثال على ذلك هو أحمد علي؛ فهو يقدم في كتابه طه حسين، رجل وفكر وعصر (بيروت ١٩٨٥) دراسة لعلها أكثر الدراسات تفصيلاً للفترة موضوع الاهتمام، ولكنه يعتمد في ذلك على مواد ثانوية .

(٤) للاطلاع على قائمة بأسمائهم انظر محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية (القاهرة ١٩٩٠)، المجلد ١، ص ٣٢ .

(٥) طه حسين، الأيام، في م ل ه، المجلد ١ (بيروت - ١٩٨٠)، ص ٤٧٣ .

يجب أن تكون . ولا ينبغي أن ندمش لذلك لأن كثيراً من العلامات والدلائل كانت تشير في هذا الاتجاه ؛ فقد كان للثقافة الفرنسية نفوذ كبير في مصر بداية من القرن التاسع عشر ؛ وعندما كان طه يدرس في الجامعة المصرية خيراً بين دراسة الفرنسية أو الإنجليزية ، فاختار الأولى ؛ وعندما وجد مشقة في دراسة هذه اللغة قرر أن يتلقى دروساً خصوصية فيها ؛ وما إن حقق فيها شيئاً من الكفاءة حتى تقدم بطلب للحصول على بعثة للدراسة في فرنسا .

وقد رأينا في الفصل السابق أن اللقاء والصدام والتفاعل بين تعليم طه التقليدي في الأزهر وبين الثقافة الغربية الحديثة بلغ أوجه عندما التحق بالجامعة المصرية في عام ١٩٠٨ ؛ فقد ظل خلال العامين التاليين يواظب على حضور بعض دروس الأزهر مع اختلافه في الوقت نفسه إلى الدروس التي يقدمها في الجامعة أساتذة مصريون وأوروبيون في مجالات المعرفة الحديثة وفقاً لأساليب عصرية في التدريس، وهناك انتشى طه ، كما لم يحدث من قبل أو من بعد، بالاختمار الناجم عن تفاعل الثقافتين.

وبعد سنوات ثلاث من ذلك التاريخ اتضحت معالم التحول نحو الغرب، وبدأت الكتابات النقدية في الظهور، وكانت تعنى - كما رأينا - بالشروط اللازمة لكي تكون دراسة الأدب العربي علمية أو تاريخية أو حديثة، وفي الصفحات التالية سنبدأ بتحليل الاستعراض السابق لتلك الكتابات لكي نبرهن على أن التحول في اتجاه الغرب كان نحو فرنسا على وجه التحديد .

نحن أنن معنيون بتطور طه خلال الفترة الممتدة من ١٩٠٧ - ١٩٠٨ - عندما التقى لأول مرة بأحمد لطفى السيد وما تلا ذلك من التحاقه بالجامعة المصرية - إلى ١٩١٤ عندما أكمل تحرير رسالته عن أبى العلاء . ففي غضون تلك الفترة تعرض طه لأول مرة - وعلى نحو مكثف - لأشكال من المعرفة والفكر الحديثين . وخلال الفترة ذاتها نشر طه كتاباته النقدية التي بدأ فيها مشروعه الذى شغله طيلة حياته ، ألا وهو استحداث الدراسة العلمية أو التاريخية للأدب العربى .

ويبدو - بحسب ما نعرف - أن هذه المبادرة قد وقعت في أواسط الفترة موضوع الدراسة ، أى في سنة ١٩١١ عندما نشر طه سلسلة مقالاته في نقد جرجى زيدان . فقد كان حينذاك غير راض عن طريقته في النقد اللفظي، ذلك النقد الذى كان شكلاً منحطاً من النهج اللغوى الكلاسيكى الجديد الذى اتبعه المرصفى في نقد النصوص الأدبية . وعندئذ أخذ طه يبحث عن مذهب نقدى يخضع للقواعد، إلا أن هذا البحث المبدئى عن قواعد "النقد الصحيح" سرعان ما أفسح المجال لاهتمام متزايد بتاريخ الأدب . وفى هذا المجال شرع طه منذ ذلك الحين فى بحثه عن قواعد المنهج . وهكذا كان تفنيده لأراء جرجى زيدان فى تاريخ الأدب العربى بداية لمحاولة مستمرة لتقديم الموضوع فى صورة أحدث أو أقرب إلى المنهج التاريخى الصحيح .

ويترتب على ذلك أن المرحلة التى نحن بصددتها تنقسم على نحو طبيعى إلى مرحلتين رئيسيتين . فقد كانت هناك فترة أولية تمتد من ١٩٠٧ - ١٩٠٨ حتى ذلك التاريخ من سنة ١٩١١ الذى بدأ فيه طه نشر مقالاته النقدية ، ولعلنا نستطيع أن نصف تلك الفترة الأولى بأنها كانت فترة من التلقى السلبي نسبياً ، لأن طه كان خلالها يتمثل الأفكار الدنيوية والعصرية الجديدة كما كان يتلقاها من لطفى السيد ، ومن معلميه فى الجامعة المصرية ، بما فى ذلك عدد من المستشرقين المبرزين. وفى تلك الفترة ذاتها كان طه مازال يتبع مذهباً كلاسيكياً جديداً فى مجال الأدب ، وينزع نزعة إصلاحية فى مجال الدين ، وذلك بفضل تأثير المرصفى وعبدالعزیز جاویش .

أما المقالات النقدية التى نشرت فى سنة ١٩١١ ووضعت حداً لمرحلة التلقى السلبي والنزعات المحافظة فقد نشرت خلال فترة وجيزة، وهو ما يوحى بأنها نجمت عن دفقة قوية من النشاط الإبداعى ، ويشير إلى نقطة تحول ضخمة فى حياة طه. فهناك استهل مساره الحدائى الذى استمر طيلة حياته فأخذ يرفض بالتدريج كل الاتجاهات غير التاريخية فى دراسة الأدب العربى . فلئن بدا له أن موقف جرجى زيدان كان تاريخياً ساذجاً أو قاصراً، فإن النهج العربى التقليدى فى دراسة النصوص الأدبية دراسة لغوية صرفاً كان يفتقر إلى البعد التاريخى تماماً . وعلى هذا النحو كان مذهب محمد عبده الإصلاحى معيباً ، لأنه كان مذهباً إحيائياً فى جوهره

يتوخى أساساً البرهنة على استقلال النصوص الأصلية فى الإسلام ، وعدم خضوعها لظروف المكان والزمان . وفى مقابل كل هذه المواقف رأى طه أن تاريخ الأدب العربى علم قائم بذاته له منطق خاص به لم يعرفه العرب ، ولا يرتد إلى طرقهم فى التفكير ويستوجب نقد تراثهم الثقافى نقداً تاريخياً .

أما المرحلة الرئيسية الثانية التى شملت السنوات ١٩١١ - ١٩١٤ وشهدت نشر المقالات النقدية المبكرة ، فقد كانت بناء على ذلك تتسم بطابع الحداثة والنزعة النقدية . إلا أن تطور طه فى هذه المرحلة لم يجر بسلاسة ؛ وذلك أن تفكيره فى سنة ١٩١٤ تعرض لتحول آخر ملحوظ فانتقل إلى تصور صارم لتاريخ الأدب ، وإلى نقد راديكالى للتراث العربى . وفى أوائل هذه السنة نشر طه سلسلة المقالات التى كان عنوانها "حياة الآداب"؛ ولنا أن نفترض أنه كان عندئذ قد قطع شوطاً طويلاً فى كتابة رسالته، وكانت هناك إذن مجموعة أخرى من الكتابات التى تشير إلى تحول كبير ثان فى تفكيره المبكر .

وبناءً على ذلك يمكننا أن نميز مرحلتين فرعيتين فى نطاق تلك الفترة النقدية تمثل كلا منهما مجموعة من الكتابات ؛ ففي المرحلة الفرعية الأولى انتقل طه من موقف التلقى السلبي إلى موقف من التمثيل الإيجابى ، وهى عملية حاول طه من خلالها أن يشرح الدراسة العلمية للأدب العربى عن طريق تحليل ومواعدة وإعادة صياغة آراء أساتذته ، وخاصة آراء كارلو ألفونسو نالينو . وفى هذه المرحلة تجلت أصالته فى التركيز على المسألة الأساسية للمنهج - وهى المسألة التى لم يطرحها أساتذته إلا على نحو ضمنى أو مجزئ - وفى بحثه عن تطبيقات جديدة للمنهج الجديد. بيد أن الإجابة التى قدمها بشأن هذه المسألة بقيت فى نطاق الحدود المفاهيمية التى وضعها نالينو .

وذلك أن طه حسين فى سنة ١٩١١ يكتب كتاب لأستاذه الإيطالى ؛ فيشرح دراسة الأدب شرحاً فضفاضاً غير محكم . فهو عندما رفض رأى زيدان فى ضرورة تفسير الظواهر الأدبية بالرجوع إلى المستوى السياسى للأشياء ، واقترح أن يلتمس التفسير على مستوى أعمق ، لم يكن يعرف على وجه التحديد طبيعة هذا المستوى البديل للتفسير . وكان استخدامه فى هذا السياق لفكرة "الآداب" دليلاً واضحاً على أنه

لم يكن لديه آراء محددة قاطعة في الموضوع ، فقد كانت الفكرة تنطوى على التباس وكانت تشمل - من ثم - أنواعاً شتى من العوامل التفسيرية المحتملة (ففضلاً عن الأدب بمعنى فنون القول كانت هناك الأخلاق والآداب والعادات والأفكار السائدة). يضاف إلى ذلك أن الفكرة المذكورة تركت الباب مفتوحاً لإضافة تأثيرات مادية . وطالما بقي طه ملتزماً بهذه الأنواع المختلفة من العوامل التي لا يشملها أى ترتيب أو نظام ، فقد ظل متمسكاً بما يمكن أن نسميه مذهب نالينو الموضوعى الفضاخ .

وبإمكاننا أن نقول شيئاً مماثلاً عن الانتقادات التي وجهها طه في هذه المرحلة إلى التراث الثقافى العربى ؛ فقد كانت مثل نظيراتها لدى نالينو معتدلة مخففة .

لقد لاحظ طه بداية من أول مقالة فى نقد زيدان أن علماء العرب الأول قد صنفوا المصادر الضرورية لدراسة الأدب العربى دراسة علمية، بينما يرجع الفضل فى تنظيم الموضوع وفقاً للمبادئ التاريخية إلى المستشرقين . ولكن هذه الملاحظة التي تظهر نقص المنهجية التاريخية فى التراث العربى لم تؤد إلى أى انتقادات قاسية ، بل العكس هو الصحيح ؛ فقد انطوت - فيما يبدو - على اعتراف ضمنى بإسهام العرب بوصفه رغم كل شئ جهداً ريادياً فى مشروع مشترك أو مسعى تعاونى . والواقع أن طه فى هذه المرحلة لا يكاد يدرك أن الإسهام العربى يختلف من حيث الكيف ، أو يقل مرتبة عن الإسهام العربى . من هنا كان قوله إن العرب كانوا هم أول من كتب فى تاريخ الأدب^(١) وثنأؤه على كتاب الأغانى بوصفه المصدر الحقيقى والمرجع الصحيح فى تاريخ الآداب العربية الخالصة.^(٢)

وقد أعرب فى "هل تسترد اللغة مجدها القديم؟" عن أسفه لأن أئمة اللغة الذين كانوا فى عصر يمكنهم من أن يبحثوا عن الأصل السامى للغة العربية قد عكفوا على جمع اللغة وتدوينها ، وتركوا للمستشرقين أو لأخصائى علم اللغة المقارن منهم مهمة البحث فى الجانب اللغوى من تاريخ الأدب العربى.^(٣) وقد اشتدت اللهجة شيئاً

(١) "نقد صاحب الهلال" الهداية، يونيو- يوليو ١٩١١، ص ٤٥٣ .

(٢) نفس المصدر . يعنى طه حسين بذلك فنون الأدب بمعزل عن العلوم .

(٣) "هل تسترد اللغة مجدها القديم؟"، الهداية، أكتوبر- نوفمبر ١٩١١، ص ٧٦٦ - ٧٦٧ .

ما عندما ويخ طه الباحثين العرب - المتأخرين فيما يبدو - ساخرًا منهم لأنهم بددوا كثيراً من الجهد فى بحوث عقيم عن استخدام السريانية فى الحياة الأخرى.^(١) ولكن انتقادات طه للعلماء العرب السابقين بقيت معتدلة رغم لهجة الأسف أو السخرية .

وصحيح أنه أثار انتقادات أخطر من ذلك عند تطبيق المنهج التاريخى على الأدب العربى، ولكن هذه الانتقادات اقتصررت على عرب الجاهلية لبدائية ثقافتهم ، وكان هناك ما يقابلها من تقييم إيجابى لإنجازات العصر الإسلامى، بما فى ذلك الدور الحضارى للقرآن ، ومظاهر الروعة فى العصر العباسى .

كما كانت تلك الانتقادات تجد ما يوازنها فى الثناء العاطر على الشعر الجاهلى. وفى هذه المرحلة لم يحدث قط أن وضعت صحة هذا التراث موضع الشك . صحيح أن طه كان يدرك عندئذ أن هناك اختلافات من حيث اللغة والمضمون الدينى بين الشعر الجاهلى وبين النقوش الحميرية أساساً التى اكتشفت فى اليمن وحضرموت، ولكنه لم يستخلص من هذه الاختلافات التى لاحظها بشيء من الدهشة إلا أن الشعراء الجاهليين المعروفين كانوا عدنانيين (شماليين).^(٢) ورغم أن نالينو كان مسئولاً إلى حد ما عن توجيه انتباه طه إلى تلك الاختلافات، فإن طه لم يشارك أستاذه الإيطالى شكوكه المحدودة فى صحة الشعر المنسوب إلى التبابعة .

وقد كان ذلك إذن هو موقف طه إلى أن ظهرت فى سنة ١٩١٤ المجموعة الثانية من الكتابات التى كانت إيذاناً بوقوع تحول ملحوظ أدى إلى تجاوز نالينو ، واتباع تصور أكثر صرامة لدراسة الأدب العربى دراسة علمية ، وإلى نقد راديكالى للثقافة العربية.

فهنا أصبحت آراء طه عن طبيعة المنهج التاريخى أكثر تفصيلاً وصرامة، وقد صار يدرك أكثر من أى وقت مضى أن المبحث الجديد يقوم على منطق خاص به ، وهو المنطق الذى حاول أن يبسطه فى سلسلة من المقدمات وفى عدد من الإجراءات النقدية. ونظراً لأنه لم يعد يقنع بتعداد مختلف العوامل التفسيرية المؤثرة فى تاريخ

(١) نفس المصدر.

(٢) 'نقد صاحب الهلال'، الهداية، أغسطس- سبتمبر ١٩١١، ص ٦٠٩ و ٦٢٣

الأدب، فإنه أصبح يسعى إلى أن يجيب عن السؤال الأساسى فيما يتعلق بطبيعة التفسير المعنى . من هنا رأى أن تاريخ الأدب ينبغى أن يفسر حدوث الأقوال الأدبية بالرجوع إلى عللها الفاعلة، وذلك على خلاف التحليل الكلاسيكى، اليونانى والعربى، الذى يرد الأقوال إلى مكوناتها سواء أكانت مادية أم صورية .

وقد أوضح طه عند إقامة هذه التفرقة أن تاريخ الأدب علم على غرار العلوم الطبيعية ، مع اتخاذ الكيمياء خاصة كحالة نموذجية . كما كان لعلم النفس دور مركزى يؤديه، ولكن طه تصور هذا الدور وفقاً للنموذج الكيميائى؛ فالعلم المذكور هو كيمياء النفس على حد تعبيره، والبحث النفسى - على غرار التحليل الكيميائى - يتقصى الأسباب العميقة الخفية لموضوعاته . وكان طه يرى أن عملية التفسير لا تقتصر على تقصى ما وراء العمل الأدبى من أسباب خفية فى نفس المؤلف ؛ وهى القوى والملكات التى اشتركت فى إبداعه . بل ينبغى أن تمعن فى التعمق حتى تنتهى إلى ما وراء ذات المؤلف الفرد من علل بعيدة تسبب هذه القوى والملكات وتسبب بالتالى العمل الأدبى ذاته وتفسره فى نهاية المطاف .

ومن المهم أن نؤكد جدة البعد النفسى كما قدمه طه على هذا النحو . فهو قد أبدى فى سنة ١٩١١ شيئاً من الاهتمام بالمسائل النفسية عندما تحدث عن الأفكار والعواطف والمشاعر الخاصة بالأمة من الأمم بوصفها عوامل تفسيرية فى تاريخ الأدب، ولكنه اكتفى بتعداد هذه العوامل النفسية بين أنواع أخرى من العوامل دون أن يميزها بوصفها فئة قائمة بذاتها، ناهيك عن أن تكون فئة متميزة . كما تحدث عن "التركيب النفسى" للأمة، ولكنه لم يحاول على الإطلاق أن يستخدم هذه الفكرة كمبدأ تنظيمى . أما فى الكتابات التى ظهرت فى سنة ١٩١٤ فإن طه أصبح يفترض أن البعد النفسى هو بمثابة اللب أو النقطة المحورية فى النسق الذى تسوده السببية المزدوجة كما وصفناه أعلاه . وذلك أن النسق بأكمله أصبح الآن منظماً بناءً على مفهوم العقل الجمعى الخاص بالأمة المعنية . وبعبارة أخرى نقول إن طه - وقد قسم عوامل التفسير النهائية التى ذكرناها آنفاً قسمة قاطعة إلى عوامل مادية وأخرى معنوية - أصبح يفترض أنها تدور جميعاً حول نفس الأمة المعنية أو عقلها، بحيث

يكون هذا العقل هو الذات الحقيقية للتاريخ، وبهذا المعنى رأى طه أن أيًا من أعمال أبي العلاء لا يمكن أن يعزى إلى الشاعر الفيلسوف نفسه ، لأنه هو وجميع أعماله نتاج للأمة الإسلامية . ومن ثم رأى أن كل أحداث التاريخ الإسلامى ما هى إلا مظاهر للنفس الإسلامية .

وعلى هذا النحو تجاوز طه الموضوعية المفتحة أو الفضفاضة لدى نالينو إلى ما يمكن وصفه بالموضوعية على شكل نسق محكم أو مغلق أو لنقل الموضوعية النسقية ، وهو تصور علموى صريح لتاريخ الأدب العربى كنسق حتمى يتمحور حول عقل جمعى خاص بالأمة الإسلامية .

وقد اقترن هذا التحول بانتقادات راديكالية بعيدة المدى للثقافة العربية . وذلك أن اعتراضات طه لم تعد تقتصر على جرجى زيدان، وإنما امتدت إلى مدرسة الآداب وعلماء اللغة والمؤرخين العرب القدامى ، بل وإلى العرب عامة بوصفهم شرقيين وساميين . وقد أصبح يرى أن الروح التاريخى الحقيقى يكاد يكون وقفًا على الغربيين، وأن إسهام العرب بالمقارنة فى دراسة تاريخ الأدب والتاريخ ذاته إسهام ضئيل : فالمؤرخون العرب فى أفضل الحالات ، أو عندما يبلغون الطبقة العليا من المحققين اقتصروا - وفقًا لهذا الرأى - على الأخبار الشفوية ، ولم يكونوا على علم بقيمة الوثائق المكتوبة بالنسبة لدراسة التاريخ دراسة علمية .

وينبغى للنقطة الأخيرة أن تحظى بانتباه خاص ، لأنها تعنى أن طه كان عندئذ يعلم أن البحث التاريخى الحديث يتميز عن التأريخ العربى التقليدى بأنه يقوم على نقد الوثائق المكتوبة، كما كان يعرف - ولو بصورة أولية - أن البحث التاريخى الحديث يطبق على الوثائق سلسلة من الإجراءات الفنية أو النقدية التى تقدمها علوم مساعدة (للتاريخ) أو "خاصة" على حد تعبيره .

كما وجه طه انتقادات أخرى إلى التراث العربى عندما أخضعه للتمحيص على ضوء المنهج التاريخى وفقًا لتعريفه على ذلك النحو المتشدد . وذلك أن هذا التراث - وقد أصبح موضوعًا للتمحيص - لم يعد ينظر إليه بوصفه مجموعة من النصوص التى تتمتع بالاستقلال وتضمن صحتها بذاتها، بل أصبح ينظر إليه ويحكم عليه بوصفه نتاجًا لظروف تاريخية تحكمها الضرورة الصارمة . وهكذا بدأ طه يثير شكوكا

شديدة بشأن صحة الشعر الجاهلى ، وأخذ يطور آراء نالينو فى شتى الدوافع التى أدت إلى انتحال الشعر ، ويعدد الأمثلة التى تدلل على هذه الفكرة، وأصبح يرى أن حالات الانتحال شائعة متعددة فى المصادر الأدبية العربية .^(١)

ومن الواضح أن موقف طه بهذا الشأن قد تطور بحيث تجاوز شكوك نالينو المحدودة . ويزداد هذا الاتجاه إثارة للانتباه إذا نحن لاحظنا أن هذه الشكوك الجديدة كانت واسعة النطاق ، فلم تنج منها المصادر العربية القديمة للشعر الجاهلى أو التاريخ الإسلامى الذى أصبح طه يرى أنه مملوء بمبالغات هى ألصق بالقصص الخيالية منها بكتب التاريخ، كلا ولم ينج من هذا الشك ما ورد من أخبار عن المعجزات بما فى ذلك المعجزات التى تنسب إلى النبى .^(٢)

وهو ما ينتهى بنا إلى أكثر السمات راديكالية فى تفكير طه كما عبر عنه فى سنة ١٩١٤ ، وأعنى بذلك موقفه من الظواهر الخارقة . فهو فى سنة ١٩١١ قد عالج الموضوع على نحو مطابق تماماً للتقاليد الإسلامية عندما رفض رأى جرجى زيدان أن شريعة موسى مستمدة من قوانين هامورابى البابلية، وأكد المصدر الإلهى للشرائع الدينية والكتب المنزلة . ولكن طه فى سنة ١٩١٤ لم يكن بوسعها أن يحافظ على هذا الموقف الخالى من التعقيد ، وذلك نظراً لأنه أصبح الآن يعتقد أن التاريخ ليس إلا مظهرًا للنفس الاجتماعية، وقد أصبح بناءً على ذلك يصر على أن من الضرورى توضيح العلاقة بين المعجزات التى تروى فى التاريخ الإسلامى وبين عقول المسلمين. ورغم أنه لم يكن صريحاً فيما يتعلق بطبيعة هذا التوضيح، فليس هناك من شك فى أن الشرح قد انتهى إلى نتيجتين مخالفتين للتقاليد الإسلامية المألوفة بشأن المعجزات والقرآن الكريم على التوالى .

ففيما يتعلق بالمعجزات، أدى التوضيح إلى إزالة العجب من حقيقتها.^(٣) وقد استشهد طه فى هذا الصدد بالانتصارات المذهلة التى أحرزها المسلمون الأول على

(١) « حياة الآداب » ، هـ ، الجريدة ، ٢٩ يناير ١٩١٤ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) « حياة الآداب » ٨ ، الجريدة ، ٢٨ فبراير ١٩١٤

قوى تفوقهم عدة وعدداً ، أى قوى المشركين فى مكة وقوى الفرس والروم. وجاء رأيه مناقضاً لابن خلدون الذى لابد أنه كان يفكر فيه،^(١) فذهب إلى أنه لا تكفى الإشارة إلى قوة إيمان المسلمين أو التدهور السياسى السائد فى الإمبراطوريتين القديمتين، وذلك أن عملية التوضيح ينبغى - فى رأى طه - أن تتجاوز هذا الحد، وليس من الواضح ماذا كان يعنى بذلك، ولكن من الواضح - على أية حال - أنه كان يرفض قولاً آخر مما قد يحتج به ابن خلدون، وأعنى بذلك أن المسلمين الأول كانوا يحظون بالعون الإلهى .

يقول ابن خلدون إن "... أمر الدين والإسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه، واستماتة الناس بونه؛ وذلك من أجل الأحوال التى كانوا يشاهدونها فى حضور الملائكة لنصرهم، وتردد خبر السماء بينهم، وتجدد خطاب الله فى كل حادثة تتلى عليهم، فلم يحتج إلى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والإذعان ، وما يستفرضهم من تتابع المعجزات الخارقة ، والأحوال الإلهية الواقعة، والملائكة المترددة..."^(٢) غير أن طه لا يقبل شيئاً من ذلك؛ وهو يرد على محدثه بون أن يسميه فيقول : "لا تحدثنى بالمعجزات وخوارق العادات ؛ فتلك أمور لا يعرفها المنطق ولا التاريخ."^(٣)

وهكذا انتهى توضيح العلاقة بين المعجزات وبين النفس الاجتماعية إلى استبعاد تلك الحوادث من مجال التاريخ . أما فيما يتعلق بالقرآن فإن طه انتهى إلى نتيجة غير مألوفة وإن كانت تتجه فى الاتجاه المضاد ، وذلك أن توضيح الصلة بين الكتاب الكريم وبين نفوس المسلمين كان يعنى دراسة مواقع آياته فى نفوس الناس على اختلاف الأيام والعصور. ولم يبد طه أى استعداد لقول المزيد لأن الموضوع فيما رأى شائك وجدير بأن يثير كثيراً من اللغط والجدل. ولكن ما قصده يبدو واضحاً ، وهو أن

(١) للاطلاع على آراء ابن خلدون فى الموضوع انظر مقدمة ابن خلدون، تحقيق على عبدالواحد وافي (القاهرة ١٩٧٩)، الجزء ٢، ص ٥٢٧ و ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(٢) نفس المصدر، ص ٦١٦ .

(٣) طه حسين، المرجع السابق .

القرآن ينبغي أن يدرس في التاريخ أو في بيئته التاريخية أو في سياقه التاريخي .
ويجدر أن نذكر هنا أن هذه النتيجة مع الملاحظة التي تتعلق بأوجه الاختلاف بين
الشعر الجاهلي والنقوش العربية القديمة تتضمنان بذرة شك طه المعم في صحة
الشعر الجاهلي كما أعرب عنه في أواخر العشرينيات .^(١)

بعد هذا التلخيص لتطور طه في السنوات ١٩٠٨/١٩٠٧ - ١٩١٤ يمكننا أن
نتبين بصفة عامة اتجاهات فكره النقدي ومصادره . فهو عندما بدأ في سنة ١٩١١
استحدثت الدراسة التاريخية للأدب العربي كان يفترض أن المستشرقين هم الذين
أرسوا المبادئ التي نظم الموضوع وفقاً لها تاريخياً . وقد أخذ بناء على ذلك يلتمس
هذه المبادئ في دروس أساتذته الأوروبيين، ولاسيما نالينو . وفي هذه المرحلة شرح
تاريخ الأدب العربي وفقاً لموضوعية نالينو المفتوحة، أي الرأي الذي مفاده أن الأحداث
والظواهر في ذلك التاريخ يجب أن تفسر لا بالرجوع إلى المستوى السياسي (تتابع
نظم الحكم) ولكن بالرجوع إلى مستوى عميق من الواقع يشمل - على نحو فضفاض
لا يخضع لبنية محددة - الآداب الاجتماعية والأخلاق والعادات والأفكار السائدة،
وذلك بالإضافة إلى الظروف البيئية . وطالما بقيت أفكار طه مصاغة بهذه العبارات
العامة، فإن نقده للتراث العربي - بدعوى افتقاره إلى المبادئ التاريخية السالف
ذكرها أو نتيجة لتطبيق هذه المبادئ في دراسته - ظل محدوداً ومعتدلاً، ونحن وإن
كنا لا ننوي بحث المصادر الأصلية لموضوعية نالينو الفضفاضة ، فقد ينبغي أن نشير
بصفة مؤقتة^(٢) إلى أن هذا المذهب مستمد من مصادر شتى بعضها فرنسي على وجه
اليقين. وذلك أن نالينو إذ ينحاز إلى جانب التاريخ المعنى بالعادات والآداب

(١) كانت هذه الأفكار بعد تطويرها من بين العوامل التي أدت إلى ما رآه طه حسين في كتاب في الشعر
الجاهلي (١٩٢٦) من أن القرآن هو أول وثيقة صحيحة في التاريخ العربي ، وأنه قدم صورة صادقة
للأوضاع اللغوية والدينية السائدة في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام. كما رأى بعد ذلك في سنة
١٩٢٨ أن القرآن هو النص الصحيح الوحيد في النثر العربي في العصر الأول للإسلام. انظر
استخدام ضمير الغائب في القرآن كاسم إشارة، في طه حسين، من الشاطئ الآخر (القاهرة
١٩٩٧)، ص ١٦٧ - ٢٠٢ ، ص ١٦٩ .

(٢) سنقول المزيد عن هذا الموضوع في الخاتمة .

الاجتماعية والأفكار بدلاً من التاريخ السياسى يدخل طرفاً فى نقاش حمى وطيسه فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وأحدث انقساماً فى صفوف المؤرخين فى ألمانيا وفرنسا أدى إلى وجود معسكرين: أنصار التاريخ السياسى، وأنصار التاريخ العام للحضارة.^(١) ومن الممكن فيما يتعلق بفرنسا أن نرجع بهذا النقاش إلى فولتير، فلعله كان أول من أدان التاريخ السياسى أو "تاريخ المعارك" كما وصفه ساخراً وفضل عليه نوعاً من التاريخ أوسع نطاقاً وأكمل ، يعنى بالحياة المعنوية الكاملة للفترة موضوع الدراسة، أو يعنى - بعبارة أخرى - بالحضارة.^(٢) ولهذا النوع من التاريخ رائد آخر أحدث عهداً، وهو سانت سيمون^(٣) . ولكن من الممكن أن نضيق النطاق إلى مدى أبعد ، فنربط بين مذهب نالينو وبين فريق من مؤرخى الحضارة الذين لم يكتفوا بدراسة العوامل السياسية فى إطار نظرة أشمل ، بل حاولوا أيضاً أن يفسروا هذه العوامل تفسيراً سببياً بالرجوع إلى أنواع أعمق من العوامل الاجتماعية . فإذا صح ذلك بدا لنا أن النموذج الأصيل لبرنامج نالينو هو على الأرجح فوستيل دى كولانج (١٨٢٠ - ١٨٨٩)؛ فهو وإن افترض أن العوامل السياسية يمكن أن تفسر

(١) لانجوا وسينوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية، فى النقد التاريخى، ترجمة عبدالرحمن بدوى، الطبعة الثالثة، (الكويت ١٩٧٧)، ص ١٨٧. وانظر أيضاً Ernst Cassirer, *The Problem of knowledge. Philosophy, science and history since Hegel* (New Haven - London 1969) p. 265 ff

(٢) فيما يتعلق بإسهام فولتير فى النقاش الذى دار حول التاريخ السياسى فى مقابل تاريخ الحضارة، انظر نفس المصدر، ص ٢٦٥ - ٢٦٦، وانظر ما يقوله فولتير فى كتابه *Essais sur les moers*، الفصل LXXXIV: «أنا أنظر فى مصير البشر بدلاً من ثورات العرش، ولقد كان ينبغى الانتباه فى التاريخ إلى الجنس البشرى؛ فهناك كان ينبغى على كل كاتب أن يقول: "أنا إنسان"، ولكن معظم المؤرخين لم يصفوا إلا معارك.» نقلاً عن : J.Erhard et G. Palmade, *L'Histoire*, (Paris 1946) p.44 .

(٣) يقول سانت سيمون: « ظل التاريخ حتى الآن يقسم تقسيماً سيئاً، فالأقسام المتتابعة المختلفة التى تعترف بها المدرسة تتفاوت طويلاً إلى حد بعيد، والفترات المختارة لتحديد هذه الأقسام لم تستند إلى التسلسل العام لتطور العقل البشرى . بل حددت بالرجوع إلى الأحداث الثانوية أو المحلية . وقد ركز المؤرخون انتباههم حتى الوقت الحاضر على الوقائع السياسية والدينية والعسكرية ، ولم ينظروا من موقع مرتفع بما فيه الكفاية .» Saint-Simon (Claude-Henri de), (*Œuvres*, Tome VI (Paris 1966) p. 147.

وانظر أيضاً الملاحظات السديدة التى أبداها دور كايم فيما يتعلق بمفهوم سانت سيمون عن التاريخ Emile Durkheim, *Le socialisme* (Paris 1992) , p. 131 et 132

على النحو المذكور^(١) لم يلتزم بأى نسق أو تأليف ينتظم بإحكام كل العوامل التفسيرية. ومن هنا أشار كاسيرر إلى أن فوستيل دي كولانج كان يؤكد على أن المؤرخ لا يعترف إلا بالوقائع ولا شيء غير الوقائع، كما كان يحذر من "التعميمات الغامضة" والصيغ التأليفية المتسرفة. فالتاريخ بالنسبة له علم على وجه التأكيد، ولكنه علم يعنى بالوقائع أو علم يقوم على المشاهدة.^(٢) وخلاصة القول هى إن موضوعية نالينو الفضفاضة يمكن أن تصنف كنوع معتدل من الوضعية .

فإذا كان ذلك كذلك، ترتب عليه أن طه عندما اتبع هذا الرأى فى سنة ١٩١١ وقع تحت تأثير الفكر الفرنسى بداية من ذلك التاريخ، وإن كان قد تعرض لهذا التأثير عن طريق نالينو ، وفى حدود مذهب هذا الأخير .

ولكننا رأينا فيما تقدم أن طه تجاوز هذه الحدود فى سنة ١٩١٤، فقد تحول تصويره لتاريخ الأدب تحولاً ملحوظاً إلى الموضوعية النسقية ، أى الرأى القائل بأن التاريخ الأدبى يشكل نسقاً حتمياً يقوم على النفس الجماعية. كما تحول إلى نقد للتراث العربى نقداً راديكالياً يرتبط كما بينا بتلك الصورة المتشددة من الموضوعية . ومن الممكن أن نقول إن طه بتحوله على ذلك النحو قد اعتنق من الوضعية شكلاً صارماً أو قوياً نسب عن وجه حق إلى هيبوليت تين (١٨٢٨ - ١٨٩٣) . والواقع أن نالينو - وإن لم يذكر تين على الإطلاق فى محاضراته عن الأدب العربى - لابد أن يكون مديناً له إلى حد ما، وذلك أن نالينو افترض على غرار تين - الذى كان أول من طرح فكرة التاريخ (الأدبى) كعلم^(٣) - أن هذا المبحث يقوم على التفسير السببى.

(١) يحاول فوستيل دي كولانج فى كتابه *La Cité antique* (المدينة القديمة) أن يثبت أن الإيمان الدينى هو العامل الحاسم فى تفسير التكوين الاجتماعى والسياسى للمجتمع فى اليونان وروما فى العصر القديم، ولكنه يرفض تعميم هذا النموذج على كل المجتمعات فى مختلف العصور، فهو يرى أن المستوى الاجتماعى الأساسى فى كل فترات التاريخ ليس هو الدين بل هو الوجود الداخلى للإنسان . يقول فى هذا الصدد: "إذا كانت قوانين الاجتماع البشرى لم تعد كما كانت فى العصور القديمة، فمرجع ذلك أن فى الإنسان جزءاً متغيراً . والواقع أن جزءاً من وجودنا يتغير من قرن إلى قرن، وذلك هو عقلنا، فهو فى حركة دائمة، وهو يتقدم فى جميع الأحوال تقريباً؛ وبسببه تخضع نظمنا وقوانيننا للتغير".
Fustel de Coulanges, *La Cité antique* (Paris 1984) , p . 2 .

(١) إرنست كاسيرر، المرجع السابق، ص ٢٢٠ - ٢٢١ وانظر أيضاً ص ٣١٨ .

(٢) Gerad Delfau et Anne Roch, *Histoire / Littérature; Histoire et interprétation du fait littéraire* (٢) Paris 1977) , p. 51 ff.

غير أنه لم يشأ أن يلح على هذه الفكرة بحيث ينتهى إلى علموية تين (أى الفكرة القائلة بأن المبحث المذكور يجب أن يكون علماً على غرار العلوم الطبيعية)، كلا ولم يشأ نالينو أن يلزم نفسه بحتمية تين أو بسلوكولوجيته الجماعية. فإذا افترضنا - كما ينبغي فيما يبدو أن نفترض - أن نالينو وضع تين فى اعتباره عند تكوين مذهبه الموضوعى الفضايف، فإن علينا أن نراعى أن نالينو حرص أيضاً على أن يتلافى الآراء المتطرفة فى مذهب تين .

بيد أن هذه الآراء المتطرفة على وجه التحديد هى التى اعتنقها طه دون تحفظ فى سنة ١٩١٤؛ وذلك أن مؤلف "حياة الآداب" و ذكرى أبى العلاء لم يقنع بوضعية نالينو المعتدلة ، وتخطى حدود المستشرق الإيطالى ليعتنق المذهب المتشدد فى نسخته الفرنسية .

ومن الممكن أن يقال شىء مماثل عن معرفة طه فى هذه المرحلة بأطراف من المنهجية المقعدة للبحث والنقد التاريخى بالمعنى الحديث ، وهى المعرفة التى تجاوزت بدورها دروس نالينو ، ويبدو أنها ترجع بجنورها إلى مصادر فرنسية .

فلنحاول الآن أن نبحث بشىء من التفصيل كيف أتيح لطه أن يعقد صلات مباشرة مع فرنسا فى تلك المرحلة المبكرة . ويتضمن هذا البحث الذى نحاول إجراءه لأول مرة مهمتين : أولاهما أن نبين بمزيد من الوضوح العناصر الوضعية التى ساهمت فى تكوين موضوعية طه النسقية ، وأن نحدد بقدر الإمكان القناة أو القنوات المحتملة التى نقلت إليه هذه العناصر ؛ أما المهمة الثانية فهى أن نفحص بشىء من التفصيل المصادر الفرنسية التى أمدت طه بمعرفته المبكرة بمناهج التاريخ الوضعى ، وأن نحدد مرة أخرى القناة أو القنوات التى نقلت إليه هذه المعرفة .

ولنلاحظ على الفور أن التساؤل بشأن هذه القنوات لابد أن يبدأ ما إن نعترف بأن هذه المعرفة لم تبلغ طه عن طريق نالينو ، وذلك أن معرفة طه بالفرنسية لم تكن تكفى للاطلاع على المصادر الفرنسية فى لغتها الأصلية . بل إن طه لم تتح له ترجمات أو عروض وافية للمذاهب المعنية فى أى من الحالتين .

غير أن أداء أى من المهمتين خلى بأن يواجه صعوبات جمة ؛ وذلك أن معرفتنا بالفترة موضوع الدراسة تتضمن ثغرات كثيرة . يضاف إلى ذلك أن القارئ لا يجد لدى طه ما يساعده على استبانة المصادر التى اعتمد عليها . فهو إذا أشار إلى مصادره على الإطلاق لا يستخدم فى ذلك إلا عبارات عامة شديدة العموم ، وقد تكون مضللة . ومثال ذلك أنه يعترف بالفضل لنالينو دون قيد ولا شرط، وهو ما حدا بالباحثين حتى الآن إلى أن يفترضوا أن الآراء التى أبداها طه فى المرحلة المبكرة بشأن تاريخ الأدب إنما استقاها إلى حد كبير - إن لم يكن تماماً - من نالينو ، وأنها تتطابق مع آراء هذا الأخير. فإذا نظرنا من ناحية أخرى إلى إشارات طه الضمنية وجدنا أنها إما عابرة مراوغة بحيث تمر على القارئ فلا يلتفت إليها ، أو بارزة على نحو غير متناسب بحيث تبالغ فى تقدير أهمية الدين . ولهذه الأسباب يتعين علينا أن نقرأ نصوص طه بأقصى قدر من العناية؛ فالجهد المطلوب جدير بتحمل المشقة لأنه يكشف عن فصل جديد فى حياة طه وفى تاريخ مصر الحديث .

* * *

أول التأثيرات التى يمكن استبانتها فى موضوعية طه النسقية يتعلق بالبعد العلمى الذى يتضمنه هذا المذهب والذى يمكن إرجاعه - ولو إلى حد ما - إلى قانون الأطوار الثلاثة الذى قرره أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) . وذلك فى الواقع أحد التأثيرات التى يسهل أن تفلت من الملاحظة لأن طه يبسط هذا القانون ويعدله فى "حياة الآداب".

وينص هذا القانون الذى أراد به كونت أن يصف تطور العقل البشرى فى المقام الأول على أن جميع أشكال المعرفة لابد أن تمر بمراحل ثلاث حتى تبلغ النضج الكامل :

(١) طور لاهوتى يطمح فيه العقل البشرى إلى الوصول إلى كنه الكائنات وإلى عللها الأولى والغائية فيصورها كنتاج لعوامل غيبية .

(٢) طور ميتافيزيقى تحل فيه محل هذه العوامل قوى مجردة أو كائنات حقيقية أو مجردات مجسمة باطنة فى مختلف الكائنات الموجودة فى العالم .

(٣) طور وضعى فيه "يدرك العقل البشرى أن من المستحيل بلوغ الحقيقة المطلقة فيتخلى عن البحث عن أصل الكون وعلة الخفية وعن معرفة العلة الغائية للظواهر؛ فهو لا يسعى الآن إلا إلى اكتشاف ... القوانين الفعلية للظواهر، أى ما يوجد بينها من علاقات التعاقب والتشابه الثابتة".^(١)

ويرى كونت - فيما يعتقد أنه تكملة لازمة للقانون الأساسى - أن العلوم لا تصل إلى الطور الوضعى معاً، إذ لا يتحقق لها ذلك إلا تبعاً لاختلاف طبيعة الظواهر التى تدرسها أو طبقاً لترتيبها من حيث درجة عموميتها وبساطتها، واعتماد الظواهر بعضها على البعض الآخر. ومثال ذلك أن علم الفلك كان أول علم يبلغ مرحلة النضج الوضعى لأن موضوعه هو أعم الظواهر وأبسطها وأكثرها استقلالاً، وتلاه على التعاقب - ولأسباب مماثلة - الفيزياء والكيمياء والفسيولوجيا.^(٢) وفى نهاية السلسلة يحدد كونت مكاناً آخر يشغله علم جديد هو "الفيزياء الاجتماعية" حسب تعبيره أو علم الاجتماع؛ فلما كان هذا العلم معنياً بأخص الظواهر وأكثرها تعقيداً وأقلها استقلالاً فإنه آخر علم يصل إلى الوضعية.^(٣)

وقد أعاد مؤلف "حياة الآداب" كتابة قانون كونت وتكملته؛ فهو يحذو حذو كونت عندما يقرر لكل أشكال المعرفة مساراً واحداً نظراً لأنها تصدر جميعاً عن عقل الإنسان. وهو يرى بناء على ذلك أن الدراسة الأدبية قد تطورت على نحو مشابه تماماً لتطور الدراسة الفلسفية للمادة. ففي العصور القديمة كانت الأجسام تفسر بالرجوع إلى عناصرها الباطنة من صورة ومادة، أما فى العصر الحديث فإن عقل الإنسان لم يعد يقنع إلا بتفسير هذه الأجسام بالرجوع إلى أسبابها العميقة. وعلى نفس النحو تطورت دراسة الأقوال الأدبية سواء أكانت شعراً أم نثراً من الطريقة القديمة فى التفسير على أساس المكونات المادية والصورية إلى الطريقة الحديثة فى التعليل التى ترمى إلى اكتشاف أسباب هذه الأقوال فى عقول المؤلفين ومحيطهم.

(١) Auguste Comte, *Philosophie première, cours de philosophie positive, leçons 1 à 45 Pairs* (١٩٧٥)، p. 21 - 22.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

وتتطوى أقوال طه على صورة من قانون كونت، وإن كانت صورة مبسطة معدلة لا تخلو من تشويه ؛ فهو بالإضافة إلى إسقاط الطور اللاهوتي تماماً ، وإحلال الدراسة الأدبية محل علم الاجتماع بوصفها أصغر علم يبلغ النضج الوضعي، يسىء وصف الانتقال من الطور الميتافيزيقي (اقرأ الفلسفي) إلى الطور الوضعي (اقرأ العلمي) بالرجوع إلى العوامل والقوانين السببية . ويرجع سوء الوصف هنا إلى أن مؤلف "حياة الآداب" لم يكن قد استوعب بعد ما هنالك من اختلاف نوعي بين الفلسفة التقليدية وبين العلم الطبيعي الحديث . فكونت ينظر إلى التقدم نحو الوضعية كعملية يتخلل فيها العقل عن مطامحه اللاهوتية والميتافيزيقية ، ويقتصر على مهمة أكثر تواضعاً وإن كانت أجدى، وهي دراسة القوانين السببية التي تحكم الظواهر التي تخضع للمشاهدة . أما طه فإنه يقصد تقدماً من نوع من أنواع التحليل الفلسفي يقتصر على المكونات القريبة إلى نوع آخر من التحليل الفلسفي ينشد المكونات البعيدة أو الأساسية، ولكن ليس هناك أدنى شك في أن طه يتخذ من قانون كونت نموذجاً لكي يثبت أن الدراسة الأدبية هي آخر فرع علمي ينضم إلى أسرة العلوم الحديثة، وخاصة الكيمياء .

ومن حسن الحظ أن من السهل الإجابة عن التساؤل بشأن الطريقة التي حصل بها طه على معلوماته عن كونت ؛ فلقد كانت الأفكار الوضعية شائعة في مصر في تلك الفترة ،^(١) وكان قانون كونت على وجه التحديد معروفاً لدى لطفى السيد.^(٢) يضاف إلى ذلك أن ماسينيون تناول هذا القانون في دروسه بالجامعة المصرية في ١٩١٢-١٩١٣ (أى قبل نشر "حياة الآداب" بفترة طويلة نسبياً).^(٣)

أما تأثير تين على طه فإنه يواجه الباحث الذي يريد أن يتبين مداه على وجه الدقة ويحدد قنوات انتقاله بمشكلة رهيبة . فرغم أن طه لا يذكر تين بالاسم على

(١) Albert Hourani, *Arabic thought in the liberal age , 1989 - 1939* (Cambridge 1984) p. 138 ff. (٢) Jamal Mohammed Ahmad, *The Intellectual origins of Egyptian nationalism* (Oxford 1986) p. 102 .

(٣) ماسينيون، محاضرات، ص ١٢٥ . لاحظ أيضاً أن ماسينيون (نفس المصدر، ص ١٦٧) يتناول تصنيف كونت للعلوم .

الإطلاق في أي من كتاباته المبكرة التي وصلت إلينا ، فإن مؤلف "حياة الآداب" وذكرى أبي العلاء يحرص على ترديد أفكار تين في مقدمته لكتابه عن تاريخ الأدب الإنجليزي ، وفي كتابه عن فلسفة الفن على نحو بين بحيث يقترب أحياناً من إعادة الصياغة أو الاستشهاد .

يفترض طه مثله مثل تين أن التاريخ علم يقوم على المشاهدة والتفسير: فقول الأول إن ".... المنهج الحديث الذي أحاول اتباعه...قوامه النظر إلى الأعمال الإنسانية، والأعمال الفنية بصفة خاصة، باعتبارها وقائع ومنتجات ينبغي مشاهدة خواصها والبحث عن أسبابها لا أكثر ولا أقل . والعلم بهذا المعنى لا يحظر ولا يغفر ، بل يلاحظ ويفسر"^(١) ، يجد ما يقابله في قول الثاني إن "...عمله [أي عمل المؤرخ] في الحقيقة وصفي لا وضعي: أي أنه يدل على شيء قد كان من غير أن يخترع شيئاً لم يكن."^(٢) ولتعريف تين للروح التاريخي بأنه "تعاطف مع كل أشكال الفن وكل المدارس"^(٣) ما يقابله لدى طه عندما يقرر أن "... دارس الأدب لنفسه ينبغي أن يدرس جيده ورديته، وأن يتقن غثه وسمينه على السواء من غير تفاوت ولا تفريق."^(٤)

وهناك شيء من الاختلاف بينهما فيما يتعلق بالسؤال عما هو العلم الطبيعي الذي ينبغي أن يكون نموذجاً أولياً لتاريخ الأدب؛ وذلك أن تين - وهو الذي كان مطلعاً على التقدم الذي أحرزته العلوم البيولوجية في عصره ، ولعله كان يراعى أن الفسيولوجيا كانت هي آخر علم يبلغ النضج الوضعي وفقاً لكونت - كان يرى أن التاريخ (الأدبي) يحاكي علم الحيوان وعلم التشريح النباتي في المقام الأول.^(٥) أما طه فإنه كان يحاكي الكيمياء . غير أن هذا الاختلاف يترك مجالاً لقدر من الاتفاق؛ وذلك أن تين

(١) (Taine, Philosophie de l'art (Paris 1985) p. 19.

(٢) طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء في م ك، المجلد ١٠ (بيروت ١٩٧٤) ، ص ٢١ .

(٣) تين ، المرجع السابق، ص ١٩ .

(٤) طه حسين، المرجع السابق، ص ١١ .

(٥) (Taine, Histoire de la littérature anglaise (Paris 1911) , p. v. وانظر لنفس المؤلف Philos-ophie de l'art, p. 16 - 17.

يستعين أحياناً ببعض التشبيهات الكيميائية . من هنا كان رأيه أن الصفات الأخلاقية مثل "الرذيلة والفضيلة [ما هي إلا] منتجات مثلها مثل الزاج والسكر" (١) وأن كل ظاهرة مركبة تنشأ عن التقاء ظواهر أخرى أبسط منها وتعتمد عليها، يتردد صداها في قول طه "إنما الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية والخطبة يجيدها الخطيب ، والرسالة ينمقها الكاتب الأديب، كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء." (٢) ومن ذلك أيضاً أن قول تين: "إن الوقائع - سواء أكانت مادية أم معنوية - لها جميعها علل [تسببها] " (٣) ينعكس على قول طه: "... وإنما كل أثر مادي أو معنوي، ظاهرة اجتماعية أو كونية، ينبغى أن ترد إلى أصولها، وتعاد إلى مصادرها... وهي جماعة العلل [التي أحدثتها] " (٤) .

ويعارض كلا المؤلفين نسبة الحوادث إلى الأفراد على سبيل الحصر ؛ لأنهما يفترضان كلاهما أن الأسباب النهائية للحوادث أقوى تتجاوز الأفراد. يقول تين: "العمل الفني ليس مجرد لعبة من لعب الخيال أو نزوة عارضة من نزوات رأس محمومة ، بل هو نسخة من الأخلاق المعاصرة ، وعلامة على حالة عقلية." (٥) ولكن هذه القاعدة بعد أن أعاد طه صياغتها تنص على ما يلي: "لا نعتقد انفراد الأشخاص بالحوادث، وإنما نعتقد أن الحوادث أثر لطائفة من المؤثرات [التي تتجاوز الأشخاص] " (٦) .

أما الاختلاف بين تين وطه حول طبيعة الأسباب النهائية للحوادث ("الأخلاق المعاصرة" حسب تين في مقابل "طائفة من المؤثرات" حسب طه) فهو قليل الأهمية أو عديمها لأنه يرجع إلى اختلاف في الصياغة ليس إلا، وذلك أن كليهما يفترض أن هذه الأسباب جزء لا يتجزأ من نسق حتمى يتمحور حول عقل جمعى .

(١) تين، المرجع السابق، ص ١٥ .

(٢) طه حسين، المرجع السابق، ص ٢٤ . انظر أيضاً نفس المؤلف، "حياة الآداب" ٧، الجريدة، ٧ فبراير ١٩١٤

(٣) Taine, *Histoire de la littérature anglaise*, p. xv.

(٤) طه حسين، تجديد نكرى أبي العلاء، ص ٢٤ .

(٥) تين، المرجع السابق، ص ٧٠ .

(٦) طه حسين، المرجع السابق، ص ٢٤ .

وهو ما ينتهى بنا إلى أعجب وجه من وجوه التطابق بين تين وطه ؛ وذلك أن تصور الأول للتاريخ بوصفه نسقاً يحكمه الثالوث الشهير : العنصر والوسط واللحظة ، يقابله تصور طه للتاريخ الإسلامى كنسق يتمحور حول الأمة الإسلامية ، أو شعب أبى العلاء فى "مكان" أو "إقليم" بعينه وفى "زمان" بعينه . ولكن المشكلات تبدأ فى الظهور عند هذه النقطة بالتحديد فيما يتعلق بالدور الحقيقى الذى أداه تين فى تشكيل آراء طه . ففى هذا الموضع حيث يبدو التطابق بين المؤلفين كاملاً يمكن أن نرى أن ثمة قوى ومؤثرات أخرى قد عملت عملها ، وهو ما يزيد الموقف تشابكاً . وطه نفسه يسترعى انتباهنا إلى أن حتميته التاريخية ، أو ما يسميه "الجبر فى التاريخ" ، مركب هجين يتضمن عدة عناصر . وهو يقول عند تقديمه لهذا المذهب إنه إنما يوافق فيه كثيراً من فلاسفة أوروبا وفلاسفة المسلمين^(١) . كما يقول إن للمذهب مصدرين : أولهما فلسفى (أو علمى - فلسفى إذا شئنا الدقة)^(٢) وثانيهما دينى . فالاختيار وفقاً للمصدر الأول لا يتفق مع القول بأن العالم نسق خاضع للسببية الشاملة ، فى حين أن الاختيار وفقاً للمصدر الثانى لا يتفق والإيمان بشمول القدرة والعلم الإلهيين^(٣) .

والواقع أن كلا من هذين "المصدرين" تيار كبير له روافد عدة . فعلى الجانب الدينى ، وهو إسلامى صرف ، لابد أن نأخذ فى الاعتبار إسهام أبى العلاء نفسه^(٤) ، وهو الإسهام الذى يفترض بدوره تراثاً ضخماً من الجدل حول الجبر والاختيار يرجع فى الأصل إلى المتكلمين . وغنى عن الذكر أن هذا الموضوع كان مألوفاً لدى طه حسين ، وذلك على الأقل بسبب دراسته للتوحيد فى الأزهر . وهو عندما يقول إن الإنسان لا يستطيع أن "يمتلك" العلل والأسباب [التى تؤثر فى الحياة الاجتماعية] ولا يستطيع لها دفعاً ولا اكتساباً ، فإنه يفكر كجبرى متشدد رافض حتى لمذهب الأشاعرة فى "الكسب" ، وهو الحل الوسط الذى أريد به إعطاء الإنسان ما يشبه

(١) نفس المصدر ، ص ٢٤ ، الحاشية ١ .

(٢) أنا مدين بهذا التحديد لفتاح طاهر ، المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٣) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٢٨٨ .

(٤) انظر عرض طه حسين لآراء أبى العلاء فى الجبر ، نفس المصدر ، ص ٢٨٦ وما يليها .

القدرة على الفعل والمسئولية الخلقية عن طريق القول بأنه يستطيع اكتساب أفعاله ، وإن كانت من خلق الله .

أما فيما يتعلق بالمصدر العلمي - الفلسفي فهو مزيج من المؤثرات الإسلامية والغربية التي لعلها تشمل، إلى جانب تين، عنصراً رواقياً بلغ طه عن طريق سانتلانا^(١) ؛ كما تشمل عنصراً إسلامياً يمكن أن يرد إلى ابن خلدون^(٢) وإلى مذهب من يسميهم "الحكماء" [أي المشاعون من فلاسفة المسلمين] في الإيجاب الذاتي أو السببية الذاتية الضرورية.^(٣)

وعلى ضوء هذا التعقيد لا مفر من طرح السؤال عن نور تين على وجه التحديد . ومادام هذا الدور يندرج في إطار التيار العلمي الفلسفي من التفكير الحتمي، فإنه يتمثل - فيما يبدو - في إدخال البعد التاريخي أو التاريخي الأدبي إذا شئنا الدقة.^(٤) وذلك أن تين من بين كل الحتميين الذين ذكرناهم حتى الآن هو أول من طبق الحتمية على تفسير الظواهر الأدبية بصفة خاصة . ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن الدور المذكور يتمثل أيضاً في إرساء هذه الحتمية الخاصة على أساس افتراض عقل جمعي . وبعبارة أخرى نقول إن مذهب طه في الجبر في التاريخ يدين لتين خاصة ، أي على خلاف أي مصدر إسلامي أو غربي آخر، بطابعه التاريخي الأدبي ، وكذلك بنزعه السيكولوجية الجمعية .

(١) انظر دافيد سانتلانا، المذاهب اليونانية الفلسفية في العالم الإسلامي، تحقيق محمد جلال شرف (بيروت ١٩٨١)، ص ٨٢، حيث يشرح مذهب الرواقيين فيقول: "والكل راجع إلى علة العلل... فالعالم كله علة ومعلول لا مجال فيه للمصادفة والاتفاق... إذ القدر ليس إلا تتابع العلل وارتباطها ببعضها ببعض... فلا يقع شيء إلا ما كان واجب الوقوع في الماضي، ولا يقع شيء في المستقبل إلا وأسبابه حاضرة الآن ."

(٢) "اعلم... أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان..." مقدمة ابن خلدون، الجزء ١، ص ٤٠٤؛ وانظر أيضاً الجزء ٢، ص ١٠٦٩، حيث يعرض ابن خلدون رأيه في السببية الشاملة أي القول بأن الحوادث في عالم الكائنات لها أسباب متقدمة عليها ، وأن لكل سبب بدوره أسباباً أخرى ، وأن الأسباب لا تزال ترتقى حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب .

(٣) نفس المصدر، الجزء ٢، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

(٤) رأينا فيما تقدم أن ابن خلدون قال بالجبر التاريخي، وقد قرر طه حسين ذلك صراحة في رسالته الباريسية عن المؤرخ العربي . انظر طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص ٤٤، حيث يقول إن ابن خلدون سبق مونتسكيو إلى فكرة الجبر في التاريخ .

أما وقد حددنا على وجه الدقة ما فى جبرية طه من عناصر ترجع إلى تين دون سواه، فإننا ينبغى أن نلاحظ أيضاً أن تأثير تين على شيوعه ووضوحه ليس عميقاً فى تفكير طه. وقد كان مفتاح طاهر هو أول من نبه إلى أنه لا ينبغى أن نبالغ فى تأكيد التوافق بين تين وطه حسين.^(١) ونستطيع الآن أن نبين كيف يختلف الموقفان على المستوى الأساسى ؛ إذ يبدو لأول وهلة أن الموقفين على اتفاق كامل أحدهما مع الآخر لأن المفاهيم الأساسية الثلاثة لدى طه ("الامة"، "الإقليم"، "الزمان") تتطابق مع ثلاث تين ("الجنس"، "الوسط"، "اللحظة")، بيد أننا إذا أمعنا النظر تبين لنا أن التطابق ليس إلا تطابقاً لفظياً .

وحقيقة الأمر أن كل كلمة فى ثلاث تين مثقلة بالدلالة، وأن المجموعة بأكملها قد صممت بعناية بحيث تعطى وزناً لادعائه أن لكل شعب نفساً جمعية ذات تكوين محدد أو - كما يقول - حالة معنوية أولية^(٢) تتضمن ثلاث ملكات رئيسية . وهكذا تدل كلمة "العنصر" على الاستعدادات الباطنة أو الفطرية أو الموروثة . وهى أشكال روحية بدائية أو أصلية مغروسة فى طبيعة الشعب نتيجة للتطور عبر آلاف السنين.^(٣) أما كلمة "الوسط" فهى تدل على الاستعدادات المكتسبة أو العادات العقلية الراسخة - إذا جاز التعبير - التى فرضت على شعب ما تحت ضغط الظروف الخارجية لمدة طويلة.^(٤) بينما تدل كلمة "اللحظة" على سيطرة فكرة رئيسية أو نمط من أنماط التفكير أو مثل أعلى للإنسان لمدة طويلة فى المناخ الثقافى للشعب.^(٥)

ويفترض تين أن الملكات الثلاث التى تتكون منها البنية النفسية للشعب مستمدة من تجربته فى التاريخ أو تكونت خلالها، ولكنها متى تكونت - سواء كاستعدادات فطرية أو عادات فكرية مكتسبة أو أفكار رئيسية مهيمنة إبان "لحظة" ما - فإنها

(١) مفتاح طاهر ، المرجع السابق ، ٤٩ .

(٢) تين، المرجع السابق، ص ١٢ و ٢٢ و ٢٩ .

(٣) نفس المصدر، ص ٢٢-٢٢، هناك وفقاً لتين ثلاثة أجناس رئيسية: الآريون والصينيون والساميون . نفس المصدر، ص ١٩ و ٢٠ .

(٤) نفس المصدر، ص ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ .

(٥) نفس المصدر، ص ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ .

تصبح فى رأى تين قوى مكتفية بذاتها ، وتعمل مستقلة عن مصادرها الخارجية؛ وهى وحدها - وليست هذه المصادر- هى التى تسبب معا وتفسر كل الأعمال الفنية ، بل وكل الحوادث التى تقع فى تاريخ أى شعب أو ثقافة. وبهذا المعنى كان التاريخ فى نظر تين مشكلة سيكولوجية، تماماً كما كان الفلك فى عناصره مشكلة ميكانيكية والفسولوجيا فى عناصرها مشكلة كيميائية.^(١) والواقع أنه يرى أن هناك نوعاً من الميكانيكا السيكلوجية يشمل العوامل الثلاثة - "الينابيع الداخلية" و "الضغط الخارجى" و "الزخم المكتسب"- التى تسبب كل حركة فى التاريخ ، والتى لو انها كانت تقاس إذن لأمكن استنباط ما ستكون عليه الحضارة فى المستقبل كما لو كان يستنبط من معادلة.^(٢)

أما طه فليس لأى من مفاهيمه الأساسية مدلولات سيكولوجية. وهى إذا أخذت مجتمعة لا تدعم ما يدعيه من وجود عقل خاص أو نفس خاصة بالامة الإسلامية. ويظل هذا الادعاء لفظياً نظراً لأن طه لا يحاول على الإطلاق أن يثبت أن للنفس الإسلامية بنية محددة . وهو - كما رأينا فى الفصل السابق - لا يعتقد أن الامة الإسلامية جماعة جنسية متميزة؛ فهى بالأحرى كثرة من الجماعات الإثنية والدينية والثقافية التى لا تربطها إلا روابط مفككة، ولا تكفل وحدتها أية بنية عقلية أو استعدادات محددة ثابتة وأفكار مهيمنة . ومن هذا نرى أن البعد السيكلوجى الذى يتضمنه نسق تين كجزء لا يتجزأ منه يكاد يكون معدوماً فى نسق طه. وفى حالة طه لا تعدو دراسة الامة الإسلامية فى أماكن وأزمنة مختلفة أن تكون دراسة للجماعات السالف ذكرها فى محيطها الطبيعى والاجتماعى. وذلك فى واقع الأمر هو ما يفعله طه فى دراسته عن أبى العلاء .

وبعبارة أخرى نقول إن طه لم يأخذ من نسق تين إلا القشرة الخارجية. وما دمنا خلصنا إلى هذه النتيجة فيمكننا الآن أن ننظر فى الجزء الآخر من اللغز، وهو

(١) نفس المصدر، ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر، ص ٢٩ و ٣١ .

كيف استطاع طه أن يحصل على معرفته بتين. لقد كانت فرنسيته في ذلك الوقت قاصرة؛ ومن المستبعد أنه استقى معرفته من مصدر عربي سواء أكان ترجمة^(١) أم عرضاً من نوع أو آخر.^(٢)

لحل هذه المشكلة ذهب بعض الباحثين إلى أن طه عرف تين عن طريق أحاديث أجراها خارج نطاق الدروس مع نالينو.^(٣) ، والواقع أن هذا ما كان ليحدث إلا في الفترة ١٩١٠ - ١٩١٢، وهي الفترة التي قضاهما المستشرق الإيطالي في القاهرة محاضراً في تاريخ الأدب العربي ، ولئن كان هذا الفرض لا يمكن استبعاده تماماً، فإنه لا يستند إلى شواهد قوية، والشاهد الوحيد الذي يؤيده هو إشارة طه في ١٩١١ إلى فكرة "التركيب النفسى" للأمة^(٤)؛ وهي الفكرة التي تذكرنا تذكيراً شديداً بفكرة تين عن "التكوين المعنوى" [للشعب] . " غير أن هذا الشاهد ليس قاطعاً لسببين : أولهما أن الفكرة المذكورة التي لم ترد إلا مرة واحدة لم تبسط على نحو يكفى لإثبات أن ثمة تأثيراً لتين، والسبب الثانى هو أنه حتى لو أمكن إثبات ذلك التأثير، فإن ذلك فى حد ذاته لا يثبت أن نالينو كان هو ناقل التأثير . ونظراً لأن نالينو لم يذكر تين على الإطلاق ، ولأننا لا نعرف ما يكفى عن الفترة المبكرة من حياة طه حسين فإن المجال مفتوح لفروض أخرى . فلقد كان من الممكن للطفى السيد - وهو الذى كان على ألفة بالوضع فضلاً عن أنه أشرف بمعنى من المعانى على رسالة طه عن أبى العلاء -

(١) ينه مفتاح طاهر (المرجع السابق، ص ٥٠ ونفس الموضع، الحاشية ٢٢) إلى أنه لم يرد ذكر لى ترجمة تين فى كتاب جاك تاجر، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر (القاهرة، بدون تاريخ) ولا فى: J. E. Sarkis, *Dictionnaire encyclopédique de bibliographie arabe* (Le Caire 1930)

(٢) العرض الرئيسى، إن لم يكن الوحيد، الذى اكتشف حتى الآن هو ما ورد فى كتاب قسطاكي الحمصى، منهل الورد فى علم الانتقاد (القاهرة ١٩٠٧)، المجلد الأول، ص ٨٩ و ١٥١. فيما يتعلق بهذا الموضوع، انظر جابر عصفور، المرایا المتجاوزة، دراسة فى نقد طه حسين (القاهرة ١٩٨٢)، ص ٦٢ - ٦٣ الحاشية ٧٢. ولكن المعلومات التى أوردها الحمصى عن تين عامة وأولية بحيث لا تكفى لتكون مصدراً لمعرفة طه الدقيقة نسبياً بنص تين . ولاحظ أيضاً أن رشدى فكار الذى استقصى الدوريات العربية الصادرة فى القرن التاسع عشر لم يجد أية مساهمات عن تين، انظر Rouchdi Fakkar, *Aux origins des relations culturelles contemporaines entre La France et le monde arabe* (Paris 1973)

(٣) انظر أحمد بوحسن، الخطاب النقدي عند طه حسين (بيروت ١٩٨٥)، ص ٦١ .

(٤) انظر الفصل الرابع أعلاه ، ص 107 .

أن ينقل إليه المعلومات الضرورية عن تين . يضاف إلى ذلك - كما سأبين بعد قليل - أن ماسينيون كان في وضع يسمح له بأن يكون قناة لتلك المعلومات . لذلك كنت أرجح على سبيل الاحتياط أن تكون معرفة طه بتين وبالوضعية بصفة عامة قد بلغت مجزأة خلال فترة ممتدة من البحث ، وعن طريق قنوات عدة من بينها لطفى السيد على سبيل الاحتمال ، ونالينو في دور أصغر إذا كان له دور على الإطلاق ، وماسينيون بوصفه القناة الرئيسية .

لقد كان من المناسب تماماً أن يؤدي ماسينيون دوراً حاسماً في إطلاع طه على مذهب تين، إذ يضاف إلى كونه فرنسياً أن دروسه التي ألقاها في ١٩١٢ - ١٩١٣ كانت قريبة زمنياً من المجموعة الثانية من كتابات طه المبكرة (١٩١٤) . وقد رأينا فضلاً عن ذلك أن ماسينيون كان له دور في تعريف طه بقانون الأطوار الثلاثة لدى كونت . أما فيما يتعلق بتين، فإن ماسينيون لا يقول عنه الكثير، فهو لم يذكر الناقد الفرنسي إلا مرة واحدة بوصفه واحداً من بين أنصار الحتمية المادية الغربيين.^(١) ولكن مناقشة ماسينيون للحتمية ذاتها ولشتى تعريفاتها في الغرب والإسلام ، كان لها فيما يبدو تأثير حاسم على موضوعية طه النسقية ، وكانت سياقاً مثالياً لتقديم معلومات محددة عن تين .

ولابد أن ماسينيون كان له دور في الإحياء لطفه بتصوره الهجين للجبر في التاريخ . ومن المهم أن نلاحظ في هذا الصدد أن مصطلح "الجبر المادي" العربي الذي يستخدمه ماسينيون يدمج معاً فكرة "الجبر" الكلامية الإسلامية وفكرة الضرورة الطبيعية التي هي فكرة علمية فلسفية غربية (إلى حد ما) . وفي مقطع آخر مخصص للمعاني المختلفة لمصطلح "الإرادة" يطبق ماسينيون طريقته المعتادة في إبراز أوجه الشبه والتقارب بين التراث الغربي والتراث الإسلامي، فيستشهد في نفس الوقت وعلى قدم المساواة بمفهوم الاختيار عند المعتزلة والماتوريديين ، وبفكرة الكسب مع الاستطاعة عند الأشاعرة بالإضافة إلى فكرتي الجبر والضرورة.^(٢)

(١) ماسينيون ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٢) نفس المصدر، ص ٩٥ . فيما يتعلق برفض طه لأراء الأشاعرة في الكسب، انظر أعلاه، ص 161 .

وغنى عن الذكر أن ماسينيون لم يعرف طه بتلك المذاهب الإسلامية . ولكن ما فعله - دون شك - هو أنه بطريقته المذكورة نبه طه إلى ما لهذه المذاهب من أهمية مستمرة في سياق العصر الحديث، وخاصة فيما يتعلق بتصور التاريخ كنسق حتمى . ومثال ذلك عبارة لافتة للنظر يتحدث فيها ماسينيون عن العالم منظوراً إليه بعين العقل ، فيقول باقتضاب على نحو يذكر تذكيراً شديداً بمؤلف نكرى أبى العلاء: "إن سلسلة العلل متوالية والعالم دار مغلقة ومملكة الجبر يتسلط عليها مبدأ حفظ القوى".^(١) ويفترض ماسينيون ضمناً أن هذا الرأي يشبه من نواح المذهب الإسلامى فى الجبر، وهو يقابل بينه وبين قول ابن عربى (فى الفتوحات المكية): "إن الله لا يزال يخلق على الدوام" وفكرة برجسون عن الديمومة الخلاقة؛ وذلك - فيما يقول ماسينيون - لأن جملة الكون "إلى وقتنا هذا ناقصة ماثلة فى جهة المستقبل..."^(٢)

ومن ذلك أيضاً أن ماسينيون يوضح أن الحتمية الغربية تتنافى والمصادفات والمعجزات ؛ ففى مناقشة عن المعانى المختلفة لمصطلح "الطبيعة" فى الفكر الغربى يشير ماسينيون إلى التفرقة الأرسطاليسية بين physis (الطبيعة) التى تدل على مجموع الأشياء التى يحكمها القانون وبين tyché (القال أو المصادفة) التى تدل على ما لا يخضع لأى قانون، ويشير ماسينيون فى نفس السياق إلى أن الجبريين يعتقدون أن ما هو "طبيعى" مضاد لما هو "sumaturel" (أى مفارق للطبيعة أو غيبى) أو ما هو "خارق للعادة مثل المعجزات" - حسب تعبير ماسينيون.^(٣)

ولعل هذه الأفكار التى كان لها تأثير على موضوعية طه النسقية قد أتاحت لماسينيون فرصة مثالية لكى يقدم معلومات محددة عن تين، لولا أن هذه الأفكار لم تسجل لسبب أو آخر . وهناك فى هذا الصدد احتمالان : أولاً أن ماسينيون قدم هذه المعلومات فى قاعة المحاضرات ولكنها لم تدون . وينبغى أن نلاحظ هنا أن ماسينيون

(١) ماسينيون، المرجع السابق، ص ١٤٠ . عندما يتحدث ماسينيون عن مبدأ حفظ القوى فهو إنما يعنى - كما أضاف بالفرنسية - مبدأ حفظ الطاقة.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر، ص ٥٢ .

المحاضر لم يكن يقرأ من نص مكتوب، وأنه كان يفضل بدلاً من ذلك أن يرتجل على ضوء احتياجات طلابه واستجاباتهم . ويرى طه حسين في هذا الصدد أن ماسينيون كان يبذل جهداً مضمناً في تعريب مصطلحات الفلسفة الحديثة، وأنه كان يلقي حديثه دقائق ثم يتوقف ليسأل تلاميذه ليثق بأنهم قد فهموا عنه.^(١)

وفي تقرير كتبه ماسينيون عن بعثته في القاهرة - ولم ينشر من قبل - يقدم المستشرق الفرنسي مزيداً من التفاصيل عن أسلوبه في التدريس ؛ فواجبه كما حدده لنفسه هو التعرف على مستمعيه والاتصال بهم والتفاهم معهم باللغة العربية ؛ ولهذا الغرض كان ينبغي عليه أن يتخلى عن فكرة الدروس التي يكتبها المحاضر ويتمرن على إلقائها قبل إلقائها في قاعة المحاضرات ، وأن يستعاض عن ذلك بمحاضرات يقدمها بلغة الحديث دون أن يتحاشى توجيه التفاتة مفاجئة إلى أفضل التلاميذ حتى يوقظ انتباه الجميع . كما كان ماسينيون يحرص - فيما قال - على أن يتعلم مع تلاميذه التفكير معاً ؛ وبذلك يتيح لهم أن يروا فيما يعترى العبارة من تردد ونبو عن الصواب عمل الفكر في التوصل إلى الأفكار المنشودة والصياغة المناسبة.^(٢)

وإذا أخذنا في الاعتبار هذه الطريقة في التدريس بالإضافة إلى أن نص محاضرات ماسينيون كما وصل إلينا يستند إلى المذكرات التي سجلها طالب واحد (هو توفيق المرعشلى)، فقد يبدو أن بعض أقوال ماسينيون كان لابد أن تضعف فلا تقيد أصلاً أو تسجل في صورة مختزلة شديدة الاختزال .

أما الاحتمال الثاني فهو أن ماسينيون زود طه بالمعلومات اللازمة عن تين خارج نطاق المحاضرات . فنحن نعلم أنه جرت بين ماسينيون وطه مناقشات خارج الجامعة.

(١) طه حسين، "أستاذي وصديقي لويس ماسينيون"، في ذكرى: لويس ماسينيون (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٢٧ . ٣٠ ، ص ٢٧ .

(٢) انظر ماسينيون ، « تقرير » ، الملحق ، ص 297 .

وقد صادق كل أساتذته الأوروبيين تقريباً، ولكن يبدو أنه كان على صلة أوثق بماسينيون، ويبدو أنه نمت بين الأستاذ والتلميذ مودة خاصة . يروى طه حسين في هذا الصدد أن ماسينيون كان لسبب غامض يختاره لكي يلقي عليه الأسئلة قبل غيره، ولم تمض أيام قلائل بعد بداية الدروس حتى نشأ بينهما نوع غريب من الألفة ؛ فقد كان ماسينيون يستفسر طه عن حياته كلها ويدعوه إلى لقائه في معهد الآثار الفرنسي حيث كان يقيم . وهناك جرت بينهما أحاديث مستفيضة.^(١)

وبفضل تقرير ماسينيون الذي ذكرناه آنفاً صرنا الآن نعرف سر تلك الألفة ؛ فماسينيون كان بصفة عامة يشعر بشيء من القربى مع الأزهريين، فقد كان هو نفسه أزهرياً بمعنى من المعانى .^(٢) والأهم من ذلك أنه كان على اقتناع بأن الأزهريين بين طلابه أكثر تبشيراً بالخير من زملائهم من خريجي المدارس الحكومية ؛ فالأزهريون قد تعلموا أكثر مما تعلم طلاب الفئة الأخيرة كيف يفكرون بلغتهم الأصلية؛ وهم الذين يرجى أن يظهر من بينهم الكتاب والفلاسفة في المستقبل . يضاف إلى ذلك على وجه التحديد أن ماسينيون لم يفته بثاقب بصره أن يكتشف بين الجمع "الشيخ" طه - ذلك "الأعمى الثاقب البصيرة" - على حد تعبيره - بوصفه طالباً فذاً له عقل من أعلى مرتبة . ومما أثار إعجاب ماسينيون بصفة خاصة مقالات طه في *الجريدة* ، وأداؤه في الامتحان الشفوي في نهاية المقرر ؛ فهو على خلاف زملائه الذين حفظوا مذكراتهم كلمة بكلمة كما يفعل الشرقيون بسهولة تدعو إلى الإعجاب استطاع أن يشرح نقائص العقل الخالص لدى كانط^(٣) بعبارة منتقاة موفقة تماماً .

(١) طه حسين، المرجع السابق، ص ٢٧ .

(٢) حضر ماسينيون دروساً في المنطق في الأزهر سنة ١٩١٠ . C. Destrenau et J.Moncelon, *Massig-* non (Paris 1994) , P. 86-87. وكان يلقي الدروس الشيخ دسوقي - حسبما ورد في « تقرير » ماسينيون .

(٣) للاطلاع على معالجة ماسينيون لهذا الموضوع، انظر محاضرات، ص ٢٩ .

ولا بد أن المستشرق الفرنسي والطالب المصري قد تطرقا في أحاديثهما الخارجية إلى بعض الموضوعات التي نوقشت في المحاضرات ، وخاصة الموضوعات ذات الاهتمام المشترك مثل الحتمية وأشكالها المختلفة في الثقافتين . ولنا أن نفترض أن طه لا بد قد لعب الأحاديث في تلك دوراً نشطاً بفضل تعليمه الأزهرى ومهاراته الجدلية . ومن المحتمل تماماً أن يكون ماسينيون قد قدم في النقاش الناجم المعلومات اللازمة عن تين بالعربية مع ما يدعمها من إشارات إلى النص الأصلي .

إن تدليلنا على أن ماسينيون هو الذى عرّف طه بمذهب تين قد استند حتى الآن إلى حقيقة مؤكدة ، وهى أن المستشرق الفرنسى أسهم بدور أساسى فى تدعيم وتشكيل موضوعية طه النسقية . ومن الممكن الآن أن نقدم لهذا الفرض مزيداً من التأييد بناءً على حقيقة مهمة لا تقل عن ذلك أهمية ، ومن الممكن إثباتها بدورها ؛ وهى أن ماسينيون لعب دور الوسيط الذى استقى منه طه معرفته فى تلك الفترة المبكرة بجانب آخر من جوانب التراث الوضعى ، ألا وهو قواعد المنهج والنقد التاريخيين كما قننهما لانجلوا وسينوبوس . وذلك أننا - على نقيض الباحثين الذين يعتقدون أن هذا الجانب ظل مجهولاً بالنسبة لـ طه حتى ذهب إلى السوربون^(١) - نستطيع أن نثبت دون أدنى شك أن طه تعرف على هذا المجال وهو لما يزل طالباً فى مصر، وذلك عن طريق ماسينيون بصفة رئيسية.^(٢)

ولهذا الغرض ينبغى أن ننظر الآن فى مناقشة ماسينيون لموضوع أصول التاريخ أو المنهج التاريخى فى المحاضرة السادسة والعشرين ، وفى جزء من المحاضرة الختامية ؛ أى المحاضرة الأربعين . ويشمل الموضوع كما يتناوله ماسينيون المسائل المنهجية بالمعنى الدقيق للكلمة كما يشمل النظريات الفلسفية بشأن مجرى حوادث

(١) انظر عمر مقداد الجمنى، "ملاحم من الرؤية التاريخية عند طه حسين"، الحياة الثقافية (تونس)، العدد ٥٥، ١٩٩٠)، ص ٢٥ - ٣٢ ؛ فهو يرى أن طه لا يمكن أن يكون قد استمد مفهومه عن التاريخ كعلم من معلميه، سواء أكانوا مصريين أم أجانب، فى الجامعة المصرية، وأنه لم يكتسب هذا المفهوم إلا فيما بعد عندما ذهب إلى السوربون، وذلك بفضل سينوبوس وآخرين .

(٢) كان دور نالينو فى هذا المجال أقل أهمية من دور ماسينيون لأن نالينو على خلاف ماسينيون لم يتناول الموضوع صراحة.

التاريخ وغاياته.^(١) وعندما يستهل ماسينيون المناقشة بقوله إن التاريخ كان فرعاً من فروع الآداب ثم أخذ وجهاً جديداً وصار علماً خاصاً [قائماً بذاته] وله علم [خاص به] يسمى "فلسفة التاريخ"، فإنه يريد لهذا المصطلح الأخير أن يشمل - مثله مثل مصطلح "أصول التاريخ" - نفس المدلول الواسع النطاق .

وأول ما ينبغى أن نلاحظ هنا هو مدى الأهمية التي يعلقها ماسينيون على فلسفة التاريخ كما يتجلى في المساحة المخصصة لها ، وفي استخدام عبارة "أصول التاريخ"^(٢) كتسمية لها ، وفي التأكيد المنصب على الموضوع بوصفه نتيجة لازمة عن ظهور التاريخ كعلم . ويبدو أن أفراد هذه المكانة البارزة لفلسفة التاريخ كان له وقع قوى على طه؛ فقد أسهم في شحذ وعيه بأهمية الموضوع، وهو - فيما يبدو - متأثر بماسينيون عندما يدعى أن كتابه عن أبى العلاء بمثابة المنطق لتاريخ الأدب .^(٣)

كما استقى طه من ماسينيون الفكرة التي مؤداها أن البحث التاريخي الحديث هو في جوهره دراسة نقدية للوثائق المكتوبة، وأنه استحدث لهذا الغرض مجموعة من العلوم "الخاصة". فماسينيون يصنف هذه العلوم كما يلي: (أ) علم الآثار؛ و (ب) علم الكتابات [القديمة] الذي يشمل الكتابة على الحجر [النقوش] والكتابة على القرطاس [قراءة الخطوط القديمة] ؛ و (ج) علم الفرامين [دراسة المستندات التاريخية] وتصحيح الإسناد؛ و (د) علم الطقوس^(٤) (Comput) أو السنوات [الكرونولوجيا]؛ و (هـ) علم الجغرافيا التاريخية ، وعلم الأساطير المقارن.^(٥) ومن هذا التصنيف للعلوم

(١) انظر محاضرات، ص ١٣٢ و ١٣٤ و ١٣٥ .

(٢) وهي عبارة محملة بالدلالة؛ فهي لابد قد ذكرت طه بعلم أصول الفقه لأهميته الأساسية بوصفه نوعاً من المنطق بالنسبة للفقه . وجدير بالذكر أن طه حسين في "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية"، ص ٢٧، قد رأى أن ابن خلدون قد استلهم خطة إنشاء علم جديد لل عمران البشرى أو الاجتماع (كعلم خاص أو مساعد للتاريخ) من علم أصول الفقه، ومن الملاحظ أيضاً أن طه حسين يتحدث في تجديد نكرى أبى العلاء، ص ٢٣، عن "الفقه التاريخي" قاصداً بذلك على وجه التقريب الروح التاريخي الحقيقي أو النقد والتحقيق التاريخيين .

(٣) نفس المصدر، ص ١٦ .

(٤) تسمية ماسينيون للعلم المعنى بعلم "الطقوس" غريبة ولا أدعى أنى أفهمها .

(٥) ماسينيون، المرجع السابق، ص ١٣٢ .

التاريخية "الخاصة" - أو المساعدة للتاريخ كما تسمى عادة - استبقى طه في ذاكرته أن من بينها علما (واضح أنه علم الكتابة على القرطاس) "يعلمك أنواع المداد الذي كان يكتب به الناس في العصور المختلفة ، وكذلك أنواع الورق ومثلها أنواع الأقلام وليس بأقل من هذا كله خطراً العلم بقواعد الخط ، وما أصابها من الاختلاف على مر العصور". (١)

وربما كانت إشارة ماسينيون في نفس السياق إلى علم الفرامين هي المصدر الذي استقى منه طه رأيه في ضرورة الرجوع إلى أوراق الحكومات وسجلات الدواوين لصحة البحث التاريخي. (٢)

كما يورد طه عن المنهج التاريخي الحديث معلومات أخرى يبدو أنه استقاها من القسم ٢ من المحاضرة الختامية في مقرر ماسينيون (المحاضرة الأربعين) المخصصة لمناقشة مسألة التاريخ والشهود؛ وهي المسألة التي يرى ماسينيون أنها تشمل ثلاثة وجوه "أصولية" أو منهجية . ومما يثير الاهتمام في هذه المناقشة أن ماسينيون - فيما يبدو - يتصدى بالنقد فيها لتراث معين من الفكر التاريخي مثله في نهاية القرن التاسع عشر لانجلوا وسينوبوس وخاصة في المرجع الشهير الذي وضعاه في قواعد المنهج التاريخي وكان عنوانه المدخل إلى الدراسات التاريخية (*Introduction aux études historiques*) (١٨٩٨) . ولإبراز أهمية هذه المناقشة بالنسبة لطله، ينبغي أن ننظر في هذه المسائل بعد تصنيفها هنا وفقاً لترتيب مختلف للأولويات .

(١) شهادة الحديث وشهادة الكتابة أيهما له الفضل؟

تحت هذا العنوان ينتقد ماسينيون ما جرى عليه التاريخ الأوروبي الحديث منذ ثلاثة قرون من احترام مفرط لـ "المتون" [أي الوثائق] المكتوبة، وهو يحبذ تفضيل

(١) طه حسين، "حياة الآداب" ٤، الجريدة، ٢٦ يناير ١٩١٤ . قارن بذلك وصف ماسينيون (المرجع السابق، ص ١٣٢) علم قراء الخطوط القديمة بأنه يدرس الكتابات [القديمة] على "القرطاس"، وانظر أيضاً إشارته (نفس المصدر، ص ٢٠٨) إلى "انتقاد خاصيات القرطاس والخط والختم".

(٢) طه حسين المرجع السابق .

المسلمين لـ "الحديث" [الرواية الشفوية] فى جمع شواهد السنة النبوية، وذلك أن ماسينيون يرى أن الاعتماد على هذا النوع من التقارير مع انتقاد "خاصيات" [أى شخصية] المحدث [الراوى] أصبح من الاعتماد على الوثائق المكتوبة حتى لو اقترن بنقد "خاصيات القرطاس والخط والختم" [بمساعدة علم الكتابات القديمة] . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن ماسينيون يعارض التحيز الغربى لنقد الشهادات المكتوبة بالاستعانة بالعلوم المساعدة ، ويفضل النقد الإسلامى الصميم للروايات الشفهية وفقاً لمنهج الجرح والتعديل.

(٢) شهادة العامة وشهادة الخاصة أيهما أولى بالتصديق ؟

يعبر ماسينيون عن تفضيله للنوع الأول من الشهادات لأن الأميين - فيما يرى - يعربون عما يحسون بدون إخفاء وبدون قصد، فى حين أن المتعلمين يضعون النظريات والأفكار فى مقام أرفع من الأمور العملية والأفعال.^(١)

ثم يضرب ماسينيون مثلاً على ذلك بموضوع المعجزات الذى ينقسم المؤرخون بشأنه إلى حزبين: حزب يسلم بوقوع الحوادث التاريخية التى تسمى "معجزات" فى روايات كثيرة مسندة فى كل أمة وكل عصر؛ وحزب آخر ينكر إمكان وقوع هذه الحوادث أصلاً ، ويشكك فى كل ما ورد عنها من روايات ويقطع ذكرها عنها [يستبعدا] بدون سبب علمى بمقتضى نظريتهم . ولكن هذا - فيما يرى - ماسينيون "نقصان" [عيب منهجى] ؛ فالمؤرخ الجيد ينبغى أن يقبل كل ما روى عن الحوادث التاريخية بإسناد صحيح حتى ولو كانت الرواية مخالفة مناقضة لأرائه الشخصية.^(٢)

(٣) الشاهد سراً والشاهد جهراً أيهما الأصدق ؟

يشير ماسينيون إلى أن أغلب العلماء يرى أن التقارير التاريخية تتضمن ما يسمى بالكذب الرسمى . ومن الأمثلة التى يضربها على ذلك أن "كتابات ملوك

(١) ماسينيون، المرجع السابق، ص ٢٠٨ .

(٢) نفس المصدر.

الأشوريين... فيها كثير من الكذب الرسمي... وكذلك "إعلانات نابليون إلى جنده".^(١) ويعلق ماسينيون على ذلك قائلاً إن الأصح للمؤرخ أن يقارن الشهادات السرية بالجهرية .

وتوضيحاً لهذه النقطة ينصح ماسينيون مستمعيه ألا يقبلوا اعتراضات متكلمي الأشاعرة على أعدائهم من المعتزلة بدون تصحيح ، أى بدون مقارنة "مع ما حققوا في اليمن (إلخ) من تأليفات أهل الاعتزال".^(٢) . ومن الواضح أن عربية ماسينيون في هذا الموضوع تفتقر إلى السلاسة والوضوح . وليس من المستبعد أن النص هنا قد تعرض لشيء من التحريف . ولكن قد يكون من الممكن مع شيء من التخمين استخلاص النقطة الأساسية في رأيه وصياغتها كما يلي: لا ينبغي أن يوثق أبداً بما يقوله الأشعرية رسمياً في تصويرهم لخصومهم المعتزلة دون أن يوضع في الاعتبار كتابات هذا الفريق المهزوم الذي حظرت مؤلفاته في اليمن وغيره من البلدان بحيث كادت أن تكون سرية .

ولكى نقدر مناقشة هذه المسائل المنهجية الثلاث حق التقدير لابد لنا أن نلاحظ كيف تنم عن اهتمامات ماسينيون في تلك الفترة ، فقد كان عندئذٍ منهمكاً فيما أصبح بعد ذلك التزامه طيلة العمر بقضية الحلاج . ولابد أنه كان قد قرر أن يطبق في رسالته عن عذاب الحلاج^(٣) منهج النقد الإسلامي للروايات الشفهية كما نقلت عن طريق الشهادات غير الرسمية التي أدلى بها أتباع الصوفى المضطهدون ، ومن خلال الأساطير الشعبية؛ فذلك هو السياق الذي ينبغي أن نقرأ فيه اعتراضات ماسينيون على ما كان يعدّه تحيزاً غربياً صميماً للمصادر المكتوبة، لاسيما الرسمي منها، وللآراء العلمية .

(١) نفس المصدر، ص ٢٠٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) بدأ ماسينيون هذا العمل في القاهرة سنة ١٩٠٧ . انظر *Massignon, La passion de Hallàl martyr* و *بين ماسينيون (نفس المصدر ، Tome I, p. 17, n. 2) (Paris 1975) et mystique de l'Islam* (ص ١٦ - ١٧) أن المحاضرات التي ألقاها في القاهرة سنة ١٩١٢ - ١٩١٣ أتاحت له أن يقطع شوطاً طويلاً في دراسته لنشأة الاصطلاحات الفنية لدى الحلاج .

ويستدل من مناقشته لهذه المسائل باستخدام مفاهيم مثل "الشاهد" و "الشهادة" أن انتقاداته كانت موجهة إلى فريق من المنظرين المنهجيين الذين أضفوا على النقد التاريخي مؤخراً طابعاً قانونياً، فأصبحوا ينظرون إلى الوثائق بوصفها شهادات ، وإلى مؤلفيها بوصفهم شهوداً ، وقد بدأ هذا الاتجاه الأب دى سميت (Père de Smedt) فى كتابه مبادئ النقد التاريخي (*Principes de la critique historique*) (١٨٨٢) ، ثم تابعه فى ذلك باحثون آخرون وخاصة شارل سينوبوس؛ فقد قبل وجهة النظر القانونية - وإن أخضعها لبعض التحفظات والمعايير العلمية^(١) . فإذا نظرنا من هذه الزاوية إلى تعليقات ماسينيون بدأت تبوح بأسرارها بعد أن كانت مقتضبة مستغلقة.

ففيما يتعلق بالمسألة (١) يبدو أن الهدف الرئيسى - إن لم يكن الهدف الوحيد - للنقد هو لانجلوا وسينوبوس، فمن المعروف أنهما كرسا اتجاه البحث التاريخي فى الغرب إلى وضع الثقة فى الكلمة المكتوبة دون غيرها. وقد رأيا أنه لا مناص للمؤرخ من أن يتخذ من الوثائق مادته؛ فحيث لا توجد وثائق لا يوجد تاريخ.^(٢) وهما لا يبديان أى استعداد لتعديل هذا الرأى حتى عندما يضعان فى الاعتبار "مجاميع الروايات العربية القديمة [التى] تعطى أسانيد الرواية".^(٣) ويرجع ذلك - دون شك - إلى أن لانجلوا وسينوبوس يعتقدان أن الكتابة تقيد المنقول وتجعل نقله أميناً،^(٤) فى حين أن النقل الشفوى ينطوى بحكم طبيعته على تحريف مستمر ينتهى لا محالة إلى شكل الأسطورة^(٥) ويستحيل استخلاص المعلومات الصحيحة منها بأية طريقة.^(٦)

وفيما يتعلق بالمسألة (٢)، يبدو أن ماسينيون لا يقصد بانتقاداته لانجلوا وسينوبوس وحدهما، صحيح أن الهجوم يشملهما نظراً لأنهما كانا يناصران وجهة

(١) Ch. Seignobos , *La méthode historique appliquée aux sciences sociales* (Paris 1901) , p. 83
انظر أيضاً لانجلوا وسينوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية ، ص ١٢٢ وما يليها .

(٢) نفس المصدر، ص ٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٩ .

(٤) نفس المصدر، ص ١٤٠ .

(٥) نفس المصدر، ١٤١ .

(٦) نفس المصدر، ص ١٤٢ .

نظر النخبة المتعلمة، وهم فى هذه الحالة العلماء فى مقابل جمهور العوام غير المتعلمين ، إذ يرى الباحثان - كما رأينا منذ قليل - أن الأسطورة ترتبط ارتباطاً لا فكاك منه بالتراث الشفهى ؛ فهى فيما يقولان "...تنشأ فى جماعات الناس التى لا وسيلة عندهم للنقل غير الكلام، كالجماعات المتبربرة أو الطبقات القليلة الثقافة كالفلاحين والجنود".^(١)

أما فيما يتعلق بالمعجزات، فإن المؤلفين المذكورين يدخلان مرة أخرى فى نطاق انتقادات ماسينيون ؛ فهما - وإن كانا يدركان أن الشهادات التى تتعلق بالمعجزات قد ملأت الوثائق عند الشعوب كلها تقريباً^(٢) وأن هذه الوقائع يمكن إثباتها بالتحقيق التاريخى - يرفضانها أو يريان أنها غير محتملة مادامت تتناقض ونتائج العلم.^(٣) غير أنهما لا يقولان باستحالة المعجزات (بل ولا يقولان بإمكانها)^(٤)؛ كلا ولا يريان أن المعجزات ينبغى أن ترفض قبل التمهيص النقدي . وهما إلى هذا الحد لا يصلحان هدفاً رئيسياً لانتقادات ماسينيون، ولعله كان يقصد كاتباً آخر (أو كاتباً آخرين) يتخذ (أو يتخذون) فى الموضوع موقفاً أكثر تطرفاً .

وفىما يتعلق بالمسألة (٣) فإن انتقادات ماسينيون - إذا كانت له انتقادات فى هذا الصدد - لا يمكن أن تستهدف إلا شخصاً أو فريقاً يدعو إلى الاعتماد تماماً - أو بصفة رئيسية - على الشهادات الجهرية؛ فهذه هى الحالة الوحيدة التى تستدعى تعقيب ماسينيون فيما يتعلق بضرورة مقابلة هذه الشهادات مع الشهادات السرية . فإذا كان ذلك كذلك كان المقصود بهذا النقد هو على أرجح تقدير الأب دى سميت (وليس لانجلوا وسينوبوس) لأنه ينصح المؤرخ الناقد بتوخى الحذر عند استخدام المذكرات (الخاصة) والتقارير السرية.^(٥)

(١) نفس المصدر، ص ١٤١ .

(٢) نفس المصدر، ص ١٦٢ .

(٣) نفس المصدر، ص ١٦١ وما يليها .

(٤) "إن عدم الاحتمال ليس فكرة علمية"، نفس المصدر، ص ١٦٢ .

(٥) P.de Smedt, S.J., *Principes de la critique historiques* (Liège- Paris 1883) , p. 120 .

ولكن الأمر الذى لا شك فيه على أية حال هو أن مناقشة ماسينيون للمسائل المنهجية كان لها تأثير على طه ، وإن لم يعمل التأثير عمله دائماً وفقاً لمقاصد ماسينيون . ففيما يتعلق بالمسألتين الأوليين من المسائل الثلاث التى تناولها ، نستطيع أن نثبت أن طه اتبع الموقف "الوضعى" الذى كان ماسينيون يهاجمه . فبالنسبة للمسألة (١) رأينا فيما تقدم كيف أخذ طه على المحققين من المؤرخين العرب القدامى - بما فيهم ابن خلدون - اعتمادهم على الرواية الشفهية ، وتقصيرهم فى إدراك أهمية الوثائق المكتوبة من الناحية العلمية . أما فيما يتعلق بالمسألة (٢) ، فإن ادعاء طه أن المعجزات ليس لها مكان فى التاريخ أو المنطق يقترب اقتراباً شديداً من رأى المتطرف الذى انتقده ماسينيون ؛ والذى مؤداه أن التقارير المتصلة بالمعجزات ينبغى أن تستبعد دون تمحيص .

أما فيما يتعلق بالمسألة (٣) ، فإن طه يميل بصفة عامة إلى الاتفاق مع ماسينيون . ومثال ذلك أنه يطور ويبسط ملاحظات ماسينيون عن الأكاذيب الرسمية التى روج لها ملوك الآشوريين ، فيستتكر ما كتب فراعنة مصر وملوك الآشوريين على آثارهم من أخبار تحفل بالمبالغة والإغراق والادعاءات التى لا نصيب لها من الصحة لا لغرض إلا لتمجيد الملك بل وتأليهه^(١) ومن ذلك أيضاً أن تحذير ماسينيون من الاعتماد الكامل على وجهة النظر الرسمية ربما كان له تأثير على طه عندما رأى أن من يريد التأريخ للفتوح الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين لا يكفيه أن يقرأ ما كتب العرب وحدهم عن هذا الموضوع ، ولا بد له أن يقرأ ما كتب أهل الأمم المغلوبة^(٢).

ويبدو إذن أن تأثير ماسينيون على كتابات طه فى سنة ١٩١٤ كان حاسماً . ورغم أننا لا نستطيع أن نثبت على نحو قاطع أنه زود طه بالمعلومات اللازمة عن تين ، فإن مما يعزز رجحان هذا الافتراض تعزيزاً كبيراً أن المستشرق الفرنسى أمد طه بكثير من عناصر موضوعيته النسقية ، ومعرفته بالتأريخ الوضعى .

(١) طه حسين ، "حياة الآداب" ٥ و ٨ ، الجريدة ، ٧ و ٢٨ فبراير ١٩١٤ على التوالى . لكن لاحظ أن طه كان مديناً فى رأيه هذا لنالينو أيضاً ؛ فهو ينتقد الكتب العربية فى التاريخ لأنها لم تعتمد إلا على المصادر الرسمية أو رواية الفريق الغالب . انظر نالينو ، تاريخ آداب العرب ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) "حياة الآداب" ٥ و ٨ ، الجريدة ، ٧ و ٢٨ فبراير ١٩١٤ على التوالى .

أما وقد رأينا أن تأثير ماسينيون لم يعمل عمله دائماً وفقاً لمقاصده ، وأن جدله ضد الوضعية مكن طه من اكتشاف الخصم والانضمام إليه، فإن بإمكاننا الآن أن نقدر كيف جاءت تعاليم المستشرق الفرنسي في أوانها ، وكيف كانت مناسبة . وذلك أنه كان فريداً بين أساتذة طه الأوروبيين ، لأنه كان أقدر من أى منهم على إبراز العلاقات - سواء قامت على الوفاق أم الخصام - بين الثقافة الأوروبية الحديثة وبين التراث الإسلامى . ولم يكن ماسينيون يفعل ذلك من باب التبحر فى العلم أو الاهتمام المحايد بالدراسة المقارنة، بل كان فى الواقع يمارس ما أسماه "علم الرحمة"؛ وهو العلم الذى مهما كانت حدوده^(١) كان يرمى إلى إنصاف ذلك التراث عن طريق تسليط الضوء على أهميته المستمرة أو قيمته النسبية بالمقارنة مع الثقافة الغربية . ومن هذا المنطلق كان باستطاعة ماسينيون أن يرى للمذاهب الكلامية والصوفية فى الإسلام أهمية فى مناقشة الحتمية المادية الغربية ، وأن يضع الطريقة الإسلامية فى نقد الرواة فى مقابل النقد الغربى للوثائق المكتوبة ، وأن يفضل الجانب الإسلامى. ولقد كان هذا الأسلوب فى العرض أنسب ما يكون توقيتاً ومحتوى فى حالة طه؛ فقد كان ذلك بمعنى من المعانى كل ما يريد لكى يصل إلى موقفه الوضعى النهائى، فما كان لطفه الأزهرى الباحث عن الحداثة أن يجد ما هو أكثر تنشيطاً للذهن أو تنويراً له من ذلك النقاش كما أجراه ماسينيون وما كان عليه إلا أن يعكس حجاج ماسينيون بحيث يضعه فى صالح المعسكر الوضعى الحديث . وهكذا وجد علم الرحمة وفقاً لماسينيون ما يضاده فى سعى طه إلى الحداثة .

ولكننا ينبغى أن نقاوم ما قد يغرينا بنسبة الفضل كله إلى ماسينيون . فنظراً لأن آراء طه لم تكن قط مجرد ترديد لآراء المستشرق الفرنسى، فليس باستطاعتنا على الإطلاق أن نستبعد احتمال وجود تأثيرات أخرى . وتزداد الحاجة إلى توخى هذا الحذر على ضوء الثغرات العديدة فى معارفنا ؛ فليس لدينا مجموعة كاملة من كتابات

(١) انظر "Islam, the philological vocation and French culture : Renan and Massignon" E.Said, In Malcolm H. Kerr (ed) , *Islamic studies : a tradition and its problems* (California 1980), p. 53 - 72 .

طه حسين المبكرة ، ولا سجل كامل بالمحاضرات التي استمع لها في الجامعة المصرية ، ولا استقصاء شامل للدوريات التي نشرت في ذلك العصر ، ولا عرض من أى نوع لأحاديث طه خارج الجامعة مع أساتذته الأوروبيين ، ولا معلومات مفصلة عما كان يدور في حلقة لطفى السيد . وكل هذه الثغرات تفرض علينا قدرا من الحذر .

* * *

وخلاصة القول هي إن طه عندما أزمع السفر إلى فرنسا في نوفمبر من سنة ١٩١٤ كان قد أرسى مذهبه في الحداثة على أسس وضعية صارمة . وقد خطا أول خطوة في هذا الطريق في المقالات التي نشرت في سنة ١٩١١ والتي كتبت تحت تأثير نالينو بصفة رئيسية ، والتزمت - إلى حد بعيد - بحدود وضعيته الفضفاضة المعتدلة. ثم خطا طه خطوة ثانية وأخيرة في سنة ١٩١٤ فانتهى إلى موضوعية نسقية لعله استقى معلوماته عنها من ماسينيون ، ولكنها لم تطابق موقف أى المستشرقين، وبذلك أقام طه علاقات فكرية مباشرة مع فرنسا .

فلما ذهب طه بعد ذلك إلى السوربون، وكانت عندئذ تحت سيطرة الوضعيين، أتبع له أن يدرس على سينويوس وعلى غيره من أعلام الوضعية مثل دوركايم وليفى برول. ولقد كان ما تعلمه في السوربون جديداً من عدة جوانب، ولكنه كان أيضاً مألوفاً له ومهماً ، نظراً لأنه كان بالفعل وضعياً مقتنعاً بالوضعية فضلاً عن أنه كان قد بت في بعض الأمور التي كانت تشغل أساتذته، وقد وجد من ثم نفسه طرفاً وشريكاً في المجادلات التي كانت محتدمة عندئذ في نطاق المعسكر الوضعي. ولزيد من التحديد نقول إن وجود فرق مختلفة ومتصارعة أحياناً بين الوضعيين قد أدى إلى زعزعة إيمانه بالموضوعية النسقية، وبداية من تلك النقطة شرع في عملية لا تنقضى من محاولات التعديل والتنقيح . ولكن بعض المواقف التي بلغها في كتاباته المبكرة ظلت رغم محاولاته تتشبث بالحياة رغم الاحتضار .

الفصل السادس

أفول الوضعية

الصوت العذب

فى الرابع عشر من نوفمبر ١٩١٤ تحقق الحلم الذى طالما راود طه بأن يدرس فى فرنسا عندما غادر الإسكندرية على ظهر السفينة التى أقلته فى أول رحلة له خارج مصر ؛ فقد بعث مع نفر من زملائه إلى مونبلييه بدلاً من باريس لكى يدرسوا فيها بعيداً عن أخطار الحرب ، وكانت الرحلة تعنى بالنسبة لـ طه بداية حياة جديدة ، فما إن أصبح على ظهر السفينة حتى خلع لباس الأزهرية وارتدى حلة غربية.^(١)

ولما كان الغرض من رحلته هو الحصول على ليسانس فى الآداب - وفى التاريخ على وجه التحديد - فقد كان عليه أن يتقن الفرنسية واللاتينية ؛ ولذلك كانت دراسته فى مونبلييه تمهيدية تشمل الفرنسية والأدب الفرنسى والتاريخ^(٢) بالإضافة إلى دروس خصوصية فى الفرنسية .

غير أن إقامة طه فى مونبلييه لم تطل؛ فقد استدعى هو ورفاقه إلى القاهرة نتيجة لأزمة مالية حادة كانت الجامعة المصرية تتعرض لها . وهكذا عاد طه بعد أقل

(١) طه حسين ، الأيام ، فى م ك، المجلد ١ (١٩٨٠)، ص ٥٢٣ .

(٢) يقول عبدالرحمن بدوى (إشراف)، إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين (القاهرة ١٩٦٢) إن طه فى مونبلييه حضر أيضاً دروساً فى علم النفس .

من عام على رحيله محطم الأحلام ومكسور الفؤاد.^(١) فقد التقى في مونبلييه بسوزان بريسو، الفتاة البرجندية التي أصبحت فيما بعد قارنته قبل أن تصبح خطيبته فزوجته.^(٢)

وعندما التقيا لأول مرة ذات يوم لا ينسى من مايو سنة ١٩١٥ أصيبت الفتاة بوجل بسبب عماءه،^(٣) في حين خلب لبه صوتها وهو يصفى إليها تنشد بعض أشعار راسين.^(٤) وعندئذ شعر أن الأبواب المؤدية إلى لون جديد من السعادة تفتح له ، وكانت هي، [صاحبة] "الصوت العذب" كما سماها فيما بعد، هي التي تمسك بالمفتاح .

ورغم أن إقامة طه في القاهرة لم تكن خالية من النشاط،^(٥) فإن طه المدنف كان يعاني مرارة اليأس؛ فأخذ يجأ بالشكوى شعراً ونثراً.^(٦) ومن حسن حظه أن الجامعة سرعان ما استردت عافيتها المالية وأعادته إلى فرنسا في أواخر سنة ١٩١٥ ، إلا أنه كان عليه في هذه المرة أن يذهب إلى باريس ليدرس في السوربون ، وهناك أتيح له أن يرى محبوبته من جديد . ولكننا ينبغي قبل الاستطراد في رواية قصة حبه أن نتوقف قليلاً لننظر في بعض التطورات المتصلة بفترة مونبلييه .

خواطر عن الخنساء

قليلة هي المعلومات المتاحة عن حياة طه حسين في مونبلييه ؛ وذلك أن طه حسين يميل، ويميل معه المؤرخون لحياته، إلى المرور مر الكرام على تلك الفترة . فلقاءه الأول

(١) أقام طه في مونبلييه حوالي عشرة شهور من نوفمبر ١٩١٤ حتى سبتمبر ١٩١٥ .

(٢) انظر تقديم Philippe Cardinal للترجمة الفرنسية لقصة أديب لطله حسين : Taha Hussein, *Adib ou: l'aventure occidentale*, tr. Amina et Moénis Taha-Hussein (Paris 1988) , p . 11.

(٣) انظر المقابلة الصحفية التي أجرتها صحيفة البروجريه إيجبسيان مع سوزان طه حسين :

" Le Progrès écoute Suzanne Taha Hussein", 18 mai 1980

(٤) انظر طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٥٤١ .

(٥) في تلك الفترة أعد طه للنشر رسالته عن أبي العلاء ونشر عدة مقالات في السفر . نفس المصدر، ص ٥٥٣ .

(٦) نفس المصدر، ص ٥٢٢ .

بسوزان (موصوفاً على نحو يفتقر إلى الوضوح)، وقائمة الدروس التي حضرها في الجامعة، وما حقق من كفاءة في دراسة الفرنسية، وخطواته الأولى في دراسة اللاتينية - تلك هي تقريباً كل الحقائق التي نعرفها فيما يتعلق بتلك الفترة ، وكل ما عدا ذلك يكتنفه الغموض ؛ فليس لدينا حتى الآن أية معلومات عن المناخ الفكرى السائد في الجامعة ، ولا نكاد نعرف شيئاً عن أساتذته فيها .

ومن الممكن أن نزيل قدرأ من هذا الغموض إذا نظرنا في مقالتي كتبهما طه عن حياة الخنساء أثناء عودته القصيرة إلى القاهرة^(١) وإن كانتا تحملان أثراً واضحة لفترة الإقامة في موندلييه ؛ وذلك أن هاتين المقالتي اللتين نشرتا تحت عنوان "حياة الخنساء" وأهديتا إلى "الآنسة صبح"^(٢) وكانتا مهملتين إلى عهد قريب.^(٣) تلقيان ضوءاً جديداً على تطور طه خلال الفترة المذكورة ، بل وتبشران بالتطورات اللاحقة في الفترة الباريسية وفيما تلاها .

والرأى الرئيسى الذى يبدىه طه في "حياة الخنساء" هو أن الشاعرة - بل وجميع شعراء الجاهلية - ليست لهم شخصيات تاريخية أو أنهم ليسوا أشخاصاً تاريخيين. ويوضح المؤلف قائلاً إنه إذا كان يقصر حديثه على الخنساء فما ذلك إلا لأن الموضوع ذو أهمية خاصة بالنسبة للآنسة صبح؛ فهي ما كانت لتوافقه على رأيه في الشاعرة ، فضلاً عن أن لها هي نفسها دوراً تؤديه في الحياة الفكرية والأخلاقية للأمة .

(١) نشرتا في السفور، ١٢ و ١٩ نوفمبر على التوالي وسأشير إليهما فيما يلي بوصفهما : "حياة الخنساء" ١ و "حياة الخنساء" ٢ .

(٢) اسم مستعار يراد به فيما يبدو م. زيادة (١٨٨٦ - ١٩٤١) أو. الآنسة م. ، كما كانت تسمى . كان صالونها الأدبى في القاهرة ملتقى لأعلام الأدب والصحافة بما فيهم أحمد لطفى السيد وطه حسين. انظر هذا الأخير ، المرجع السابق ، ص ٤٢١ وما يليها . وكان طه حسين يرى فيها المثل الأعلى لما يتمنى من حياة عقلية لأوانس الشرق . انظر "الخنساء" ١ ، السفور ، ١٢ نوفمبر ١٩١٥ ، ٢ - ٣ ، ص ١ .

(٣) كان محمد أبو الأنوار هو أول من نبه إلى أهمية هذا العمل . انظر الحوار الأدبى حول الشعر ، الطبعة ٢ (القاهرة ١٩٨٧) ، ص ١١٢ - ١١٤ .

ولقد تذكر أن طه في سنة ١٩١٤ كان قد أعرب عن شكه في بعض ما ينسب إلى شعراء الجاهلية من أشعار ، إلا أن شكوكه الآن أصبحت تمتد إلى الوضع التاريخي لكل شعراء الجاهلية ؛ فهم في رأيه موضوع لما قبل التاريخ أو أنهم بعبارة أخرى أشخاص خرافيون (*personnes légendaires*)^(١) وقد توصل طه إلى هذا الرأي كنتيجة لمقدمتين أولاهما تنص على ضرورة الوثائق المكتوبة للتاريخ ضرورة مطلقة . ففي رأى طه أن "التاريخ وفقا لواضعي مناهج التاريخ من المحدثين" هو ما يمكن استخلاصه بطريقة نقدية من مصدر مكتوب؛ فإذا لم يوجد مثل هذا المصدر لم يوجد التاريخ.^(٢) ويحق لنا أن نرجع بهذا الرأي الذي ينسبه طه على النحو المبين إلى لانجلو وسينوبوس.^(٣)

أما المقدمة الثانية فهي ملاحظة مؤداها أن الخنساء وغيرها من شعراء الجاهلية قد عاشوا قبل بدء التاريخ في وقت لم تكن فيه معرفة الكتابة شائعة بين العرب .

ومن المؤكد أننا هنا بإزاء تطور جديد تماماً . لنلاحظ كيف تطور موقف طه عبر السنين ؛ فهو في سنة ١٩١١ كان يفترض أن ازدهار الشعر الجاهلي كان إيذاناً ببداية العربية كما عرفها التاريخ.^(٤) وبعد ذلك ، أي في سنة ١٩١٤ ، ربط طه بين ما قبل التاريخ وبين الجهل بالكتابة،^(٥) وهو ما يعنى ضمناً أن الشعر الجاهلي ينتمي إلى ما قبل تاريخ اللغة العربية . ولكن طه لم يستخلص هذه النتيجة صراحة ؛ كلا ولم ير عندئذ أن الأشخاص الذين ينتمون إلى عصر ما قبل التاريخ هم بالضرورة شخصيات خرافية . أما هذه النتيجة التي استخلصها صراحة وطبقها على الشعر الجاهلي في مونبلييه أو بعد إقامته فيها فيبدو أنها ثمرة لمعلومات حصل عليها في هذه المدينة :

(١) « حياة الخنساء » ١ ، ص ٢ . يورد طه حسين المرادف الفرنسي بصيغة المفرد . انظر أيضاً « حياة الخنساء » ٢ ، ص ٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر لانجلو وسينوبوس ، المدخل إلى الدراسات التاريخية ، في النقد التاريخي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، الطبعة ٢ ، (الكويت ١٩٧٧) ، الفصل الرابع .

(٤) انظر الفصل الرابع أعلاه ، ص 110 .

(٥) طه حسين « حياة الأداب » ١ ، الجريدة ، ١٥ يناير ١٩١٤ .

إما عن طريق الاطلاع على كتاب لانجلوا وسينووس مباشرة أو عن طريق مصادر ثانوية كالمحاضرات أو مواد القراءة المخصصة للطلاب .

غير أن وصف شاعر بأنه شخصية تنتمي إلى ما قبل التاريخ لا يعنى أن دراسة أعماله لا يمكن أن تكون مفيدة للأدب والتاريخ ؛ فمؤلف "حياة الخنساء" يرى أن من الممكن أن تفيدنا دراسة ملحمتي هوميروس فائدة كبيرة فى تحقيق الحياة الاجتماعية والمدنية لليونان أيام جاهليتهم ، بل الواقع أن ما يمكن أن نفيده عن تلك الفترة من قراءة هوميروس أكثر بكثير مما قد نفيده من قراءة شعر بندار الغنائى عن الحياة الاجتماعية فى عصره ، وذلك أن بندار - وهو الشاعر الذى عاش فى فترة شاعت فيها الكتابة - ليس هو المصدر الوحيد المتاح للمؤرخين ، وليس أجدر المصادر بالثقة^(١).

وليس لدى طه إلا تحفظان بشأن المعرفة التى يمكن أن نحصلها بدراسة شعراء ما قبل التاريخ ؛ أولاً - أن النصوص المعنية ينبغى أن تخضع للدراسة على "نحو" [نقدي] خاص ، و ثانياً - ينبغى أن يوضع فى الاعتبار أن البحث التاريخى لا يمكن أن ينتهى إلى "حق لا شك فيه" إلا إذا استند إلى مصدر مكتوب^(٢).

أما فيما يتعلق بالخنساء بصفة خاصة، فإن أخبارها وحوادث حياتها لم تدون إلا بعد أن مضى عليها أكثر من قرن ، وبناء على ذلك يرى طه أن من الجائز بل من الحق الذى لا شك فيه أن أخبارها وأثارها قد عبث بها النسيان^(٣) و/ أو أصابها ما أصابها من عبث النساخين والمصححين^(٤) والأدهى من ذلك فى رأى طه أن من غير الممكن أن نثق ثقة مطلقة فى أكبر مصدرين مكتوبين يتناولان الشاعرة، وهما : الشعر والشعراء لابن قتيبة، والأغانى لأبى الفرج الأصفهاني ، وذلك أن الأمر يقتضى البحث فى صحة نسب هذين الكتابين وظروف استنساخهما والأخطاء التى يمكن أن يكون نساخهما قد ارتكبوها . يضاف إلى ذلك أن حياة الكاتبين ونزاهتهما ليستا فيما

(١) "حياة الخنساء" ٢، ص ٢-٣.

(٢) "حياة الخنساء" ١، ص ٣.

(٣) نفس المصدر.

(٤) "حياة الخنساء" ٢، ص ٣.

يبدو فوق الشك ؛ فأولهما معروف من كتابه الإمامة والسياسة بتحيزه لآل علي،^(١) في حين أن ثانيهما معروف بأنه كان خليعاً ماجناً ، وفيما يتعلق بالنقطة الأخيرة يعترف طه بأنه يطبق المذهب الإسلامي في النقد عن طريق الجرح والتعديل مع تطويعه للأغراض الأدبية.^(٢) ، ولكن ينبغي أن يكون من الواضح الآن أن نقد طه للمصدرين العربيين عن الخنساء يحمل طابع لانجلوا وسينويوس لأنه يتبع بعض القواعد التي وضعها لما سميها نقد التصحيح .^(٣)

ومن الممكن أن نكتشف تأثيرات أخرى في أقوال طه عن هوميروس وبندار؛ فهي تدل على أنه كان واعياً على نحو ما بالمسألة الهوميروسية . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هذا الوعي لم يكتسب في مونبلييه ، وأن من الممكن تفسيره بالإشارة إلى تأثيرات عربية، وخاصة المقدمة التي كتبها سليمان البستاني لترجمته للإلياذة، وهي الترجمة التي نشرت في سنة ١٩٠٤ . أما أن مؤلف "حياة الخنساء" قد اطلع على العمل المذكور ، فواضح من أنه يرى على غرار البستاني شبهاً بين العصر اليوناني العتيق وبين الجاهلية ، وفيما بين الشعر اليوناني قبل العصر الكلاسيكي وبين الشعر العربي قبل ظهور الإسلام .^(٤)

إلا أن البستاني لا يورد أية إشارات مهمة إلى بندار؛ وهو على خلاف طه لا يبدى أية تحفظات بشأن قيمة الإلياذة من الناحية التاريخية.^(٥) ويبدو إذن أن طه قد حصل في مونبلييه على مزيد من المعلومات بشأن المسألة الهوميروسية . ولكن في أي مصدر أو مصادر استطاع طه أن يجد تلك المعلومات الإضافية؟ ذلك سؤال مثير

(١) "حياة الخنساء" ١، ص ٢ .، لكن لاحظ أن نسبة السياسة والإمامة إلى ابن قتيبة لم تعد أمراً مسلماً به ؛ فقد أصبح الكتاب مشكوكاً في صحته على ضوء البحوث الحديثة . انظر :

G.Lecomte , *Et "Ibn Kutayba"*.

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر لانجلو وسينويوس ، المرجع السابق ، ص ٥١ وما يليها .

(٤) سليمان البستاني إلياذة هوميروس (بيروت ، بدون تاريخ) ، المجلد ١ ، ص ١٢٠ وما يليها . انظر أيضاً
Albert Hourani, *Islam in European thought*, reprint (Cambridge 1993) , p . 180

(٥) يرى سليمان البستاني (المرجع السابق ، ص ٥٧-٥٨) أن هوميروس هو أول المؤرخين في قومه .

للاهتمام ولكن تصعب الإجابة عنه . فالرأى القائل بأن قصيدتى هوميروس والأساطير بصفة عامة يمكن وينبغي أن تدرس دراسة نقدية بهدف الكشف عن نواة الحقيقة الكامنة فيها يمكن أن يرد إلى كتاب الأخوين كروازيه المذكور أعلاه *Histoire de la littérature grecque* (١٨٨٧) ، ولكن من المستبعد أن يكون طه - وهو الذى كان مبتدئاً فى مونبلييه - قد استطاع أن يتصدى لهذا الكتاب الضخم (خمس مجلدات)؛ هذا فضلاً عن أن الرأى المذكور لم يكن فى ذلك الوقت وقفاً على الأخوين كروازيه (فهو رأى أبداه قبلهما عدة باحثين فرنسيين وألمان فى مجال الدراسات القديمة).^(١) وأقصى ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد إن طه حصل معرفته بهذا الموضوع من مصدر ثانوى يستند إلى الأخوين كروازيه و/ أو غير ذلك من المصادر الأولية .

وقد كنا حتى الآن معنيين بالجانب السلبي من "حياة الخنساء" . فلننظر الآن فى الجانب الإيجابى ، وهو الجانب الذى لا يقل إثارة للاهتمام ؛ وذلك أن طه بعد أن اعتنق مذهب تين تون أن يصرح بذلك فى ذكرى أبى العلاء نراه الآن لأول مرة يذكر الناقد الفرنسى بالاسم بل وينقده . فطه يريد أن يدرس الخنساء وفقاً لمنهج جديد كل الجدة ؛ إنه فيما يقول لن يسلك فى بحثه طريق الرواية وجمع الأخبار [وفقاً للمنهج الإسلامى التقليدى] ؛ كلا ولن يسلك طريق الفلسفة التاريخية التى لم تعتمد على قاعدة ثابتة أو أصل صحيح ، فهناك - فيما يبدو - طريق ثالث هو طريق تين (فى صورة منقحة) . يقول طه: "أرى رأى تين فى أن الخنساء ليست إلا ثمرة من ثمرات عصرها وأثراً من آثار بيئتها التى أنشأتها...على أنى لا أجعل حال العصر والبيئة كل شئ ولا أغلو غلو هذا الناقد الحكيم، بل أنا أقدر معهما الحال النفسية للفرد والجماعة قدرها".^(٢)

(١) فى فرنسا يعد رينان أكبر ممثل لهذا التيار الفكرى ، فقد رأى أن أعمالاً مثل قصيدتى هوميروس والمأثورات الجاهلية لدى العرب يمكن رغم أنها غير تاريخية أن تكون ذات فائدة كبيرة فى دراسة الحياة الاجتماعية السائدة وقت إنتاجها .

Ernst Renan, *Histoire du peuple d'Israël*, Œuvres complètes, ed. Henriette Psichari, vol. VI, p. 180.

انظر أيضاً لنفس المؤلف ، *La vie de J'ézus*, Œuvres complètes, vol. IV , p. 76 ,

(٢) " حياة الخنساء " ، ص ٢ .

ولعلنا نذكر أن طه قبل رحيله إلى فرنسا كان قد أقر بدور العوامل النفسية الفردية في عملية الإبداع الأدبي ، ولم يكن اعترافه بهذا الدور مناقضاً عندئذ للموضوعية كما اعتنقها متأثراً بتين ؛ وذلك لأنه رأى أن العوامل المذكورة ليست في نهاية المطاف إلا نتاجاً أو امتداداً لعوامل من خارج الذات ما بين مادية ومعنوية (تتصل بسلوكولوجية الجماعة).^(١) أما بعد الإقامة في مونبلييه ، فقد صار الوضع مختلفاً تماماً ، لأن طه يفترض الآن أن إدخال العوامل النفسية - وخاصة ما كان منها فردياً - ينطوي على تنقيح لموقف تين الذي أصبح يرى أنه لا يخلو من مغالاة . وهو محق في افتراضه هذا لأنه لم يعد يعتقد أن العوامل النفسية الفردية يمكن أن ترد إلى عوامل تتجاوز الذات . يقول في هذا الصدد : "...الحالة النفسية ، إنما أريد بها ما عسى أن يكون للشاعر من خاصة انبعثت عن نفسه ، وليس من وسيلة تاريخية أو علمية إلى تحقيق الصلة بينها وبين البيئة . فمن الحق أن للشاعر المجيد والكاتب النابغة شخصية تميزه من أهل عصره وبيئته ومن الحق أن شعر الشاعر وكتابه الكاتب مظهر هذه الشخصية".^(٢) غير أن هذا التنقيح لنسق تين لا يمكن أن يكون محض مصادفة؛ فهو يردد بأمانة آراء جوستاف لانسون في ضرورة الدور الذي تؤديه العوامل الذاتية في عملية الإبداع ، وفي استحالة رد هذا الدور إلى عوامل أخرى .

ولقد يبدو إذن أن "حياة الخنساء" التي كتبت تحت تأثير التجربة التي مر بها طه في مونبلييه عمل شديد الأهمية من أكثر من ناحية . فهي تنم أولاً عن تعرض طه لتأثيرات جديدة يمكن إرجاعها، بدرجات متفاوتة من اليقين، إلى علماء (سينوبوس ، وألفرد كروازيه ، ولانسون) درسوا لطفه فيما بعد في السوربون . ولما كان هؤلاء العلماء جميعاً ينتمون - على نحو أو آخر - إلى تراث الفكر الوضعي، فإن "حياة الخنساء"، مثلها مثل "حياة الآداب" قبلها ، تعد مثلاً آخر على سعي طه إلى الوصول إلى المصادر الأصلية للوضعية .

(١) انظر الفصل الخامس أعلاه ، ص 148

(٢) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٢ .

يضاف إلى ذلك ثانياً أن "حياة الخنساء" تضيف أسلحة جديدة إلى ترسانة طه الموجهة إلى الشك في الشعر الجاهلي ، وذلك أن طه بعد أن سوى بين ما هو غير مكتوب وما ينتمي إلى عصر ما قبل التاريخ وما هو أسطوري، وبعد أن طبق هذا المبدأ على الشعر الجاهلي قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من شكه الذي أعرب عنه في سنة ١٩٢٦ في صحة الغالبية العظمى من هذا الشعر . ومما يجدر ذكره أيضاً أن طه يستخدم في "حياة الخنساء" بعض الإجراءات النقدية التي يتبعها المؤرخون الوضعيون، كما يحاول أن يطوع الشكوك التقليدية بشأن وحدة أعمال هوميروس وصحة نسبها بحيث تنطبق على الشعر الجاهلي . ونلاحظ ثالثاً وأخيراً أن "حياة الخنساء" تؤذن باتباع طه فيما بعد رأى لانسون التوفيقى بين مختلف العوامل التي تسهم في إبداع الأعمال الأدبية .

قصة حب

ما إن وصل طه إلى باريس في أول يناير سنة ١٩١٦ حتى بادر بالاتصال بسوزان . وبعد أن قضى بضع ليال في أحد الفنادق انتقل إلى شقة الأسرة في شارع دانفير روشيرو^(١) غير بعيد من الحي اللاتيني ، ومنذ ذلك اليوم اتخذت حياته منحى جديداً من الناحية العاطفية والناحية العقلية على السواء .

وفي الجزء الثالث من الأيام الذي خصص معظمه للفترة الباريسية يقدم طه حسين معلومات وفيرة عن دراساته في السوربون، ولكنه لا يقول إلا القليل المحدد عن العاصمة الفرنسية كما خبرها لأول مرة . وإنه لمن الغريب في حالته أن يلزم الصمت على نحو يكاد يكون تاماً عن الوسط أو المكان الذي شهد قصة حبه ، والذي دأب فيما بعد على التغنى به . ثم نلاحظ نفس الغموض في رواية أديب التي تناولت نفس الفترة وإن كان طه قد اتخذ في هذه الحالة دور الشاهد و الراوى . وخلافاً لما قد نتوقعه

(١) أحمد الصاوى محمد، "الدكتور طه حسين في باريس" (مقابلة صحفية مع طه حسين عن حياته في باريس)، الهلال، ١٩٢٨، ص ١١٨١ - ١١٨٣، ص ١١٨٢ .

فإننا نجد في أديب مشاهد شديدة التأثير جميلة التصوير لموطن الكاتب الأصلي في صعيد مصر . والواقع أن الجزء الثالث من الأيام يخلو تماماً من تلك الأوصاف الدقيقة للعالم المادي والصور الحية للأفراد التي أضفت على الجزئين الأولين جمالهما وطابعهما الروائي . ولما كان الجزء الثالث والأخير قد نشر على هيئة مذكرات ،^(١) فإن القص فيه يتناول سلسلة من الذكريات والحكايات التي تتخللها بين حين وآخر دفعات من البوح الغنائي عن قصة الحب وارتباطاتها . وقد ترتب على ذلك أن البنية الأساسية التي يقوم عليها الجزآن الأولان - والتي تنم عن محاولة البطل الإفلات من عزله إلى العالم الرحب - لم يحتفظ بها في الجزء الثالث . ولكن الغريب في الأمر أن هذا الجزء يتضمن كل العناصر التي كان يمكن أن تؤلف رائعة من روائع الأدب لو أنها استغلت كما ينبغي . فقد عانى طه من العزلة في باريس ، ما في ذلك شك . وهو يروى كيف أنه كان يقضى اليوم بأكمله حبيس غرفته وحيداً قليل الحيلة إلا إذا جاءت سوزان لتراه فتقضى معه ساعة من نهار،^(٢) وكيف أنه عندما اعترف لها بحبه كان عليه أن يقضى شهراً بأكمله في باريس بينما كانت هي في مكان آخر تحاول أن تقرر ما تريد.^(٣) وفي ساعات أو أيام الانتظار تلك كان عليه أن يتصارع مع "صاحبه" القديم أبي العلاء إذ يحذره من الاعتماد على الغير^(٤) ويصور له العالم كمكان يخضع للنظام الذي سنه الله له وإن لم يمسه لطفه وهناك مقطع في العمل الذي نحن بصددده يصف فيه المؤلف كيف أنه كان يشعر بالغربة حتى لينكر وجود الطبيعة والناس بل وينكر نفسه ويشك في وجوده ذاته . وقد كان لحبيته الفضل في أنه استعاد ثقته في نفسه واستطاع الاتصال بالعالم الخارجي.^(٥)

فكيف نفسر عجز طه عن مواصلة قصته وفقاً لتصميمها الأصلي؟ ولماذا فقد حيويته أو "عنقوانه" - على حد تعبير جاك بيرك - عندما أن الأوان لكتابة الجزء

(١) في البداية نشر هذا العمل مسلسلاً في آخر ساعة (سنة ١٩٥٥)، ولكنه لم ينشر بوصفه الجزء الثالث من الأيام إلا في سنة ١٩٧٢ .

(٢) الأيام ، في م ل ه المجلد ١ (١٩٨٠)، ص ٥٧٥ - ٧٥٦ .

(٣) نفس المصدر، ص ٥٩٨ .

(٤) نفس المصدر، ص ٧٥٦ - ٥٧٧ .

(٥) نفس المصدر، ص ٥٩٤ .

الثالث من قصة حياته؟^(١) من المحتمل أن طه كان عندئذ منصرفاً إلى مشروعات وشواغل أخرى ينوء بها ، ولعله قرر ألا يكشف عن تفاصيل حياته في باريس بما في ذلك القسم المتعلق بقصة حبه.^(٢) وربما لم يرد للغير أن يتلقى عن المرأة التي أحب إلا فكرة مجردة^(٣) كعلامة على الإلهي وكمصدر للنور وصوت عذب .

وأياً ما كان الأمر، فإننا نعلم أن طه بعد شهر من الانتظار تلقى من جنوب فرنسا إشارة إيجابية تخطره بأنه يستطيع أن يلحق بسوزان وأهلها . غير أنه اكتشف عند وصوله أن الأسرة مازالت لديها مخاوف وتحفظات بشأنه: فقد كان أجنبياً، وكان كفيفاً، والأدهى من ذلك أنه كان مسلماً.^(٤) ولكن العقبات الأخيرة أمكن تذليلها بفضل خال سوزان الذي كان قسيساً . فبعد جولة مع الخاطب في الحقول عاد الخال القس ليقول لابنة اخته: "بوسعك أن تنفذي ما عزمت عليه... لا تخافي ؛ بصحبة هذا الرجل يستطيع المرء أن يخلق بالحوار ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، إنه سيتجاوزك باستمرار."^(٥)

أما فيما يتعلق بالجانب العقلي من القصة فإن هناك ما يكفي لتقديم صورة أوضح عنها ، فقد كانت حياة طه مع أسرة سوزان إحدى "المدارس" الأربع التي اختلف إليها في باريس ، في حين كانت المدارس الثلاث الأخريات هي : السوربون ، والكوليج دي فرانس ، ومكتبة سانت جنييفيف . فبعد العشاء من كل ليلة كانت الأسرة (التي كانت تتألف من سوزان وأمها وأختها بالإضافة إلى طه) تعقد جلسة مطالعة تقرأ فيها إحدى النساء رواية أو مسرحية أو قصة قصيرة على الآخرين ، وبذلك أتيح

(١) انظر تقديم بيرك لكتاب (يضم مختارات من أعمال طه حسين مترجمة إلى الفرنسية):

Taha Hussein, *Au delà du Nil* (Paris 1977) , p. 15.

(٢) (قارن) Arlette Tadié, " Le troisième Livre des Jours", *La Nouvelle Revue du Caire*, vol. 1 (1975) , p. 49 - 58 , p. 56 .

(٣) Leila Louca, " Le discours autobiographique de Tàhà Husayn selon la clôture du Livre des Jours " , *Arabica*, vol XXXIV (1992) , p. 246 - 357, p . 355 .

(٤) سوزان طه حسين ، معك (القاهرة ١٩٧٩) ، ص ١٦ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٧ .

لطه أن يتعرف على المسرح الفرنسى فى القرن التاسع عشر بالإضافة إلى بعض أعمال أناتول فرانس ويول بورجيه و [مارسيل] بريفو .^(١)

ولما كانت سوزان هى نفسها طالبة بكلية المعلمات فى سيفر، فإنها كانت مصدر عون كبير لطه فى دراسته ؛ فهى بالإضافة إلى اضطلاعها بدور القارئة أحيانا قد ساعدته على تحسين فرنسيته ودراسة اللاتينية، كما أنها - وهو الأهم - قد ساعدته فى كتابة الرسالة التى تقدم بها لنيل الدكتوراه . ولولا ما قدمته من دعم معنوى وفكرى لما استطاع طه أن يحقق إنجازاته، وقد كانت باهرة كما سنرى بعد قليل .

لقد بعث طه إلى فرنسا ليحصل على الليسانس فى التاريخ . وقد حصل على هذه الدرجة فى يولييه سنة ١٩١٧، أى فيما يقل عن ثلاث سنوات من تاريخ وصوله إلى مونتبلية . وإنا لنزداد تقديراً لنجاحه إذا تذكرنا أنه كان أول مصرى يحصل على تلك الدرجة . وفى نفس ذلك الشهر من تلك السنة أذن لطه بأن ينشر الرسالة التى أعدها عن ابن خلدون وقدمها لنيل دكتوراه الجامعة.^(٢) وبعد سنة من نجاحه فى الامتحان الشفوى الذى كان عليه أن يجتازه (فى ١٩١٨) لكى يحصل على هذه الدرجة،^(٣) منح دبلوماً عالياً، وهو ما اقتضى منه أن يكتب تحت إشراف جوستاف بلوك بحثاً عن القضايا التى أقيمت فى روما على حكام الأقاليم الذين أهانوا جلال الشعب الرومانى وغضبوا من شرفه كما صورها المؤرخ تاسيت.^(٤) ونحن إذن بإزاء قائمة من المنجزات مثيرة للإعجاب . فإذا قدرنا أن الوقت الذى أمضاه طه فى مونتبلية لم يكن إلا فترة تمهيدية، جاز لنا أن نقول إنه توصل إلى كل ذلك فى فترة قياسية لا تتجاوز أربع سنوات .

(١) أحمد الصاوى محمد ، المرجع السابق ، ص ١١٨٢ - ١١٨٣ .

(٢) طه حسين ، الأيام ، م ك ، ص ٦١١ . نشر هذا العمل بعنوان *Etude analytique et critique de la philosophie social d'Ibn-Khaldoun* (Paris 1917) وترجم العمل إلى العربية محمد عبد الله عنان وكان عنوانه فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .

(٣) كانت اللوائح المطبقة عند ذاك تقضى بأن منح الدكتوراه يتوقف على اجتياز امتحان شفوى فى موضوعين ، وكان الموضوعان اللذان حددا لطه هما : (١) علم الاجتماع كما يتصوره أوجست كونت و(٢) القضايا التى رفعت على حكام الأقاليم كما يصورها بليتيوس الشاب فى رسائله . انظر طه حسين ، الأيام ، فى م ك ، ص ٦٢١ - ٦٢٢ .

(٤) نفس المصدر ، ٦٢٨ .

السوريون الجديدة

موضوع تعليم طه وتطوره الفكرى فى باريس يفتح الباب لبحوث كثيرة ممكنة، ونحن لا نستطيع أن نوفيه حقه هنا ، ولا بد أن نتبع نهجاً انتقائياً راجين أن يكون لاختياراتنا ما يبررها . ولهذا الغرض يمكننا أن نسترشد فى بحثنا بمعيارين : أولهما النتائج التى توصلنا إليها فيما يتعلق بتعليم طه فى الجامعة المصرية وكتابات المبكرة فى مصر ؛ فهو عندما وصل إلى فرنسا لم يكن مراقباً محايداً أو مجرد طالب طموح يطمع فى مزيد من المعرفة والتفوق الأكاديمى ، بل كان وضعياً عن اقتناع، فضلاً عن أنه نشر أفكاره . أما المعيار الثانى فهو أن الوضعية - كما سنرى بعد قليل - كانت هى القوة الفكرية الكبرى فى الحياة الأكاديمية الفرنسية وفى السوريون بصفة خاصة . ويترب على ذلك أننا بدلا من أن نتابع العرف السائد فندرس الموضوع دراسة مجزأة ووفقاً للتأثير الذى مارسه كل مفكر أو أستاذ عرفه طه فى باريس، سنبحث هذه التأثيرات فى إطار عدد من الموضوعات أو المسائل التى إن لم تستغرق مجال البحث بأسره فإنها تبدو بالغة الأهمية على ضوء المعيارين المذكورين . وفيما يلى قائمة تكاد تكون شاملة للمقررات التى درسها طه ، والأساتذة الذين تعلم عليهم فى السوريون (١).

جوستاف جلودز

التاريخ اليونانى

ألفرد كروازيه (٢)

تاريخ الأدب اليونانى

جوستاف بلوك

التاريخ الرومانى

شارل ديل

تاريخ العصور الوسطى وبيزنطة

شارل سينويرس

التاريخ الحديث

(١) الاستثناء الوحيد هو اللاتينية . المعلومات فى القائمة مستقاة - إلا إذا نص على غير ذلك - من الجزء الثالث من الأيام .

(٢) انظر خطاب طه حسين إلى مفتاح طاهر فى طه حسين ، من الشاطئ الآخر (القاهرة ١٩٩٧) ، ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .

الثورة الفرنسية

علم الاجتماع

ألفونس أولار

إميل دوركايم وسليستان بوجليه

(بعد وفاة دور كايم فى سنة ١٩١٧)

الأدب الفرنسى

الجغرافيا

جوستاف لانسون

م . ألبرت ديمانجون

ليفى - برول

الفلسفة الديكارتية

وإلى جانب هذه المقررات ، درس طه علم النفس على بيير جانيه وتفسير القرآن على بول كازانوف فى الكوليج دى فرانس . ويجدر بالذكر أيضاً أن كازانوفاً ودوركايم أشرفا معاً على رسالة طه حسين عن ابن خلدون .

وكان كثير من هذه الموضوعات جديداً على طه ، وكان عليه أن يبذل جهوداً غير عادية كى يلحق بزملائه الفرنسيين . يضاف إلى ذلك أن تعليمه فى الأزهر وتعليمه فى الجامعة المصرية لم يهيئاه لدراسة التاريخ اليونانى والتاريخ الرومانى . أما الجغرافيا الطبيعية فواضح أنها كانت تواجهه بمشكلات خاصة نظراً لحالته . وقد تطلبت هذه الصعوبات كثيراً من العمل الشاق وقدرأ كبيراً من التكيف . ومع ذلك فإن السوربون الجديدة - وهو الاسم الذى أطلق على جامعة باريس حوالى سنة ١٩٠٢ - لابد قد راقته له من نواح عدة . فبفضل عدد من الإصلاحات التى أدخلت فى ظل الجمهورية الثالثة تحرر التعليم الجامعى فى فرنسا من الخضوع لاحتياجات التعليم العام والتدريب المهنى النفعى ، وأعيد توجيهه، وفقاً للنموذج الألمانى ، نحو البحث الذى لا يستهدف المنفعة . وكان النظام الجديد يستند إلى أيديولوجية جمهورية علمانية معادية للإكليروس والأرستقراطية، ومحابية لتكوين نخبة على أساس الجدارة.^(١) ورغم أن طه

(١) انظر- Fritz Ringer, *Fields of Knowledge : French academic Culture in comparative perspective* (Cambridge 1992) ,p. 212ff
T.N. Clark, *Prophets and Patrons : وقارن 1980 - 1920* (Cambridge 1992) ,p. 212ff
The French University and the emergence of the social sciences (Cambridge 1973)
and 172-173 p.28-39 , وانظر أيضاً

George Welsz, " *The republican ideology and the social sciences; the Durkheimians and the history of social economy at the Sorbonne* " in Philippe Besnard (ed.) *The Sociological domain . The Durkheimians and the founding of French sociology* (Cambridge 1983), p. 90-119, p. 90

وصل إلى السوربون بعد إدخال هذه الإصلاحات بسنوات عدة، فإن آثارها لا يمكن أن تكون قد غابت عنه ؛ نظراً لأن بعض أساتذته قد ساعد على تنفيذ الإصلاحات ، أو وفر لها مبرراتها الأيديولوجية . فإذا نحينا النزعة الجمهورية جانباً جاز لنا أن نقول إن هذه الإصلاحات والاتجاهات الأيديولوجية لا بد قد ذكرته بالمطامح الفكرية والاجتماعية التي أحاطت بتأسيس الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٨^(١) وبيعض تعاليم لطفى السيد فيما يتعلق بالتربية.^(٢)

ولا شك أن أكثر ما لاعمه من سمات السوربون الجديدة أن الوضعيين كانوا يحتلون مكانة رفيعة فيها، وذلك إلى حد ما بسبب تحالفهم مع الدولة . وكان جميع أساتذته تقريباً وضعيين إذا عرفت الوضعية تعريفاً فضفاضاً بما فيه الكفاية . ومن الممكن إذن أن نطلق على سينوبوس ودوركايم وبوجليه - الذى كان من أتباع دوركايم ومساعدته - وألفرد كروازيه وجلوتز وليفى - برول ولانسون وأولار صفة الوضعية بمعنى أو آخر . أما طه الذى كان هو نفسه وضعياً ملتزماً ، وكان يتشوق إلى الاطلاع على المذهب فى مصادره، فلا بد أنه ارتاح إلى مكانه فى تلك البيئة الفكرية ، ورأى أنها تحقق أعمق أمنياته . ويمكننا أن نقول - دون التقليل من أهمية الدور الذى أدته مواهب طه المؤكدة أو قيمة الدعم الذى قدمته سوزان - إن التواءم بينه وبين السوربون الجديدة كان أحد العوامل المساعدة على تحقيق إنجازاته الرائعة .

ولا بد أن المعارف الجديدة التى قدمتها السوربون قد لقيت قبولاً حسناً لديه إما لأنها أكدت قناعاته السابقة ، أو لأنها جاءت - فيما بدا له - تحسیناً لمسيرته نحو الحداثة . وسوف نرى فيما يلى أن تطور طه فى فرنسا وفيما بعدها ينم عن تأثير الوضعية كما وجدها فى تلك الفترة .

(١) انظر الفصل الثالث أعلاه ، ص 70 - 71 فيما يتعلق بإجماع أنصار الجامعة المصرية على معارضة الطابع النفعى للتعليم .

(٢) انظر أعلاه صفحة 69 فيما يتعلق بنزعات لطفى السيد النخبوية .

المجال الوضعي

فى تلك الفترة كانت الوضعىة قد تجاوزت فترة ازدهارها . ففى تاريخ سابق ولفتره تمتد من ثمانىنيات القرن التاسع عشر، مر المذهب بفره متأخرة من النشاط تميزت بصعود أتباعه إلى مكانة من الصدارة لم يسبق لها نظير فى كل من العالم الأكادىمى والحىاة العامة ، كما تميزت بميلاد عدة تخصصات اجتماعىة بوصفها موضوعات "علمىة" فى حد ذاتها، بما فى ذلك التاريخ وعلم الاجتماع وتاريخ الأدب . وبحلول سنة ١٩١٤ كان أبطال القصة الرئىسيون قد قدموا أفضل ما لديهم وكانوا يعانون من الضعف نتيجه لهجمات تشن عليهم من الخارج ونزاعات ناشبة فيما بينهم بالإضافة إلى اندلاع الحرب الكبرى ، ولكنهم كانوا مازالوا فى السوربون يرون قصتهم ، ويمثلون الفصول الأخيرة منها .

ويتفق الباحثون الذين كتبوا عن هذه الفترة (١٨٨٠ - ١٩١٤) على أن المناخ الفكرى فيها كان مشبعاً بالوضعىة بوصفها تقليداً متبعاً واسع الانتشار انبث فيه مذهب كونت عن طريق تبسيطات وأشكال شعبىة شتى^(١) بالإضافة إلى تنقيحات جادة مثمرة .

ولكن ماذا نعنى بالوضعىة ؟ لقد استخدمنا هذا المصطلح وسنستخدمه فيما يلى على نحو فضفاض وفقاً لأعراف مستقرة بحيث يشمل طائفة متنوعة من المفكرين الذين يربط بينهم إيمانهم بالمعرفة العلمىة كما تتمثل فى العلوم الطبيعىة؛ وهى معرفة أقل ما يقال عنها إنها تقوم على مشاهدة الوقائع أو التثبت منها كما تظهر للحواس . وبناءً على هذا التعريف الذى نقترحه مؤقتاً باعتباره أقل ما يقال نستطيع أن ندخل عليه بعض التحسينات ، ونقيم فى نطاقه عدداً من التفرقات . وإذا صرفنا النظر مؤقتاً عن أن عبارة "مشاهدة الوقائع أو التثبت منها" تنطوى على مصدر للخلاف بين الوضعيين، فإننا نستطيع أن نلاحظ أولاً أن التعريف المقترح لا يفى إلا بشرط واحد من شرطىن وضعهما كونت للمعرفة الوضعىة فى قانون الأطوار الثلاثة ، وذلك أن هذا

(١) انظر Ringer ، المرجع السابق ، ص ٢٠٧ و ٢١١ .

القانون ينص على أن المعرفة الوضعية ينبغي بعد أن تقام على المشاهدة أن تنتقل إلى صياغة قوانين سببية عامة .^(١)

بيد أن مفكرين مثل تين وفوستيل دي كولانج اللذين يمكن أن نصفهما بأنهما من الوضعيين الأول خالفا مؤسس المذهب كما اختلفا فيما بينهما ، وذلك أن تين يبدو لنا أقرب إلى كونت لأنه على خلاف فوستيل لم يكن يقنع بالتثبت من الوقائع مع إرجاء أو إسقاط مطلب الوصول إلى قوانين عامة . ولكن تين على خلاف كونت لم يكن يعتقد أن من الممكن في مجال التاريخ صياغة قوانين على غرار ما يحدث في حالة العلوم المستقرة ؛ فقد رأينا فيما تقدم أنه اقترح بدلاً من ذلك أن يفسر الوقائع التاريخية في إطار صيغة ثلاثية الأطراف (الجنس والوسط واللحظة) شبيهة بالقانون عن عقل كل أمة؛ وهو اقتراح يحمل طابع هيغل .^(٢)

فإذا عدنا إلى الفترة التي تعيننا هنا (أي ١٨٨٠ - ١٩١٤)، وهي فترة متأخرة في تاريخ المذهب، تبين لنا على ضوء ما حدث أن الانشقاق فيما بين الوضعيين الأول بشأن ما ينبغي أن يؤخذ وما ينبغي أن يترك من كونت كان نذيراً بما هو آت . فبالإضافة إلى الكونتيين التقليديين الذين كانوا يتمسكون بمذهب أستاذهم بما في ذلك قانون الأطوار الثلاثة، يمكننا أن نميز فريقين من الوضعيين المعدلين الذين رفضوا فلسفة كونت التاريخية كما يعبر عنه القانون المذكور أعلاه،^(٣) وأنشأوا فروعاً أو أشكالاً جديدة من المعرفة تدعى أنها وقائعية تماماً أو تطمح إلى وضع تعميمات شبيهة بالقوانين .

وكان أول من ظهر على الساحة وأرسى دعائم مبحثه الخاص كعلم قائم بذاته هو فريق من المؤرخين سنصفهم فيما يلي بأنهم "علميون" ، فقد رفضوا صراحة ثنائي

(١) انظر الفصل الخامس أعلاه ، ص 157 وقارن R.G. Collingwood, *The Idea of history* (Oxford 1994), p. 126 - 127 .

(٢) فيما يتعلق بهيجلية تين انظر Gerard Delfau et Anne Roche, *Histoire / Littérature . Histoire et interpretation du fait littéraire* (Paris 1977) , p. 59 - 60 .
حسين . انظر مقالته « الفيلسوف تين » ، الجهاد ، ١ مارس ١٩٣٥ ، ص ١٠ - ١١ ، ص ١٠ .

(٣) انظر . Guy Bourdieu et Hervé Martin , *Les écoles historiques* (Paris 1989), p. 205 - 206 .

الشرطين اللذين وضعهما كونت محتجين فى ذلك بأن التاريخ علم وصفى صرف يقتصر على التثبت من الوقائع عن طريق التمهيد النقدى للوثائق . وفى سنة ١٨٧٦ شرع المؤرخون العلميون الذين كانوا يتبعون فوستيل دى كولانج - بوصفه رائدهم القريب - فى تنفيذ برنامجهم بتأسيس مجلة تنطق باسمهم هي *Revue Historique* (مجلة التاريخ)^(١) وبلغوا الأوج قرب نهاية القرن عندما أتموا طبع مبحثهم بالصيغة المهنية والمؤسسية وإرساء القواعد له ، وكان يمثلهم عندئذ لانجلوا وسينويوس اللذان وضعاً منهجية التاريخ العلمى فى شكلها الأخير.^(٢)

أما الفريق الثانى من الوضعيين المعدلين الذين نبه شأنهم فكانوا علماء اجتماع ، وأعنى بذلك دوركايم بوصفه أباً لعلم الاجتماع - كعلم فى حد ذاته - وواضع قواعده المنهجية كما أعنى أتباعه . وقد شهد هؤلاء ساعة مجدهم عند تعيين قائدهم أستاذاً لكرسى "علم التربية" فى سنة ١٩٠٢ ، وارتفاع شأنه بعد ذلك كأستاذ عظيم وإدارى قوى^(٣) و "راع" (patron) على حد تعبير كلارك.^(٤) وقد أسسوا بدورهم مجلة تنطق باسمهم هي *L'Année Sociologique* (حولية علم الاجتماع) فى سنة ١٨٩٦ . وكان دوركايم - بالمقارنة مع لانجلوا وسينويوس - أقرب إلى كونت؛ فقد كان يفترض أن العلم الجديد الذى يدرس الاجتماع يمكنه أن يطمح إلى مرتبة العلوم الطبيعية فىفى بالشرطين اللذين اشترطهما كونت لبلوغ الوضعية . ومع ذلك فلم يكن دوركايم كونتياً تقليدياً لأنه كان - على الأقل - يرفض فلسفة التاريخ لدى كونت .

وإلى جانب هاتين الفئتين من الوضعيين المعدلين يمكننا أن نميز فئة ثالثة تقتصر على عضو واحد هو لانسون الذى أسس بمفرده تاريخ الأدب كموضوع مستقل ، ووضع لهذا الغرض منهجية توفيقية تجمع بين عدة فروع فكرية من مصادر مختلفة،

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٢ وما يليها .

(٢) *Delfau et Roche* ، المرجع السابق ، ص ٧١ - ٧٢ و ٧٧ .

(٣) فيما يتعلق بنفوذ دوركايم فى السوربون انظر (Steven Lukes, *Emile Durkheim . His life and work* (Harmondsworth 1975) , p . 368ff . and 372 ff .

(٤) *Clark* ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

بما فى ذلك تين والمؤرخون العلميون ودوركايم . ولم يكن لانسون كونتياً تقليدياً بدوره، وذلك على الأقل لأنه كان يعتقد أن فى تاريخ الأدب مكانا لعنصر ذاتى غير علمى .

غير أن بعض الكتاب قد شكك مؤخراً فى أن يكون إطلاق صفة "الوضعيين" على المؤرخين العلميين مناسباً، فهم فيما يقال لا تربطهم بكونت إلا صلة واهية؛ ومن الممكن أن يضاف إلى ذلك أنهم قد استندوا إلى مصادر أخرى فى التراث التاريخى الألمانى فى القرن التاسع عشر، وخاصة فون رانكه،^(١) أو إلى تقاليد نقدية فيلولوجية أو تاريخية أقدم عهداً إذ ترجع إلى أوائل القرن الثامن عشر^(٢) بل وإلى ما قبل ذلك.^(٣) وقد يصل الأمر ببعض الباحثين إلى القول بأن سينويوس لم يكن "وضعياً" أصلاً حتى عندما تعرف الوضعية تعريفاً فضفاضاً.^(٤) ولكنى إن كنت أسلم بجواز الاتفاق أو الاختلاف حول منشأ التاريخ العلمى وتطوره، فإنى أعتقد أن من الممكن الإبقاء على الأعراف القائمة بشأن استخدام مصطلح "الوضعية" على أن يشترط بطبيعة الحال إدخال مزيد من التنقيحات والتفرقات . فمن المفيد فى واقع الأمر إرجاع تلك المدارس المختلفة إلى كونت لأنها على الأقل تستغل - فيما يبدو - ذلك الحيز المفاهيمى الذى افتتحه ورسم حدوده ليستقبل علماً جديداً للإنسان يكون اجتماعى الطابع تاريخياً فى صميمه . وتدعو الحاجة إذن إلى أن ندرس أولئك المفكرين على اختلافهم بالإشارة إلى كونت سواء وافقوه أو عارضوه .

وذلك باختصار حال الفكر الوضعى كما بدت فى أواخر القرن التاسع عشر حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى . وعلى هذا الأساس يمكننا الآن أن ننظر فى بعض التأثيرات الرئيسية التى شكلت تطور طه بعد تلك الفترة . ولقد نذكر أن طه قبل

(١) Bourdé et Martin المرجع السابق ، ص ٢٠٧ ، وانظر أيضاً J. Erhard et G. Palmade, *L'Histoire* (Paris 1964) , p 69 - 70 .

(٢) Bourdé et Martin المرجع السابق ، ص ١٢٨ . وقارن Erhard et Palmade ، المرجع السابق ، ص ٢٩ و ٤٥ .

(٣) للاطلاع على موجز لتاريخ النقد التاريخى انظر Marc Bloch, *Apologie pour l'histoire, le métier d'historien* (Paris 1997) , p. 87 - 94 .

(٤) Ringer ، المرجع السابق ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

وصوله إلى فرنسا كان قد اعتنق صورة مبسطة شديدة التبسيط من قانون الأطوار الثلاث لدى كونت كما اعتنق صورة مبسطة من موضوعية تين النسقية . يضاف إلى ذلك أنه كان ملماً بأطراف أولية - وإن كانت مؤثرة - من التاريخ العلمى المقنن و ببعض الأفكار البسيطة عن دوركايم .^(١) وفى فرنسا أتيح له أن يزداد علماً بكونت وتين عن طريق دراستهما فى المصادر الأصلية ، ولكن أقوى التأثيرات التى تعرض لها ترجع إلى أساتذته المنقحين الثلاثة، سينوبوس ودوركايم ولانسون الذين كانوا يمثلون علوماً ثلاثة صاعدة هى : التاريخ العلمى ، وعلم الاجتماع ، وتاريخ الأدب، على التوالى . فبفضل هذه التأثيرات انتهى طه وهو لما يزل فى فرنسا إلى التخلّى عن فلسفة التاريخ لدى كونت وموضوعية تين ، وقد ظل تأثير هؤلاء الأساتذة الثلاثة معاً يسم تفكير طه بطابعه لسنوات عديدة بعد رحيله عن فرنسا .

وسنبداً بحث هذه التأثيرات بالنظر فيما كان ينحو منها نحو الاتفاق على بعض القضايا أو يتجه إلى بعض نقاط التجمع ، ويميل بصفة عامة إلى تأكيد وتنقيح قناعات طه كما تكونت فى الفترة السابقة .

النزعة الإصلاحية الوضعية

ذكرنا من قبل أن الأساتذة الثلاثة مع غيرهم من الوضعيين فى السوربون كانوا حلفاء للجمهورية الثالثة ؛ فقد أيدوا إصلاحاتها التعليمية بما فى ذلك تأسيس السوربون الجديدة ، وساعدوا على تنفيذها كما أسهموا فكرياً فى تكوين أيديولوجية الجمهورية ، وتمتعوا فى مقابل ذلك بالدعم السياسى اللازم لصعودهم إلى مكانة مرموقة.

وكانوا جميعاً إصلاحيين تقدميين عندما يعنى الإصلاح التوقف دون التغيير الثورى . وفى تلك الفترة كان المذهب الجمهورى يشمل - كما أشار جورج فايز -

(١) استقى طه هذه الأفكار من ماسينيون أساساً (انظر محاضرات ، ١١٥-١١٦ و ١١٩ - ١٢٠) ، وربما كان هناك إسهام من جانب لطفى السيد فى هذا المجال .

تشكيلة واسعة النطاق من الآراء السياسية بداية من النزعة الجمهورية المحافظة إلى النزعة الاشتراكية المعتدلة، وإن كان يستبعد الكاثوليكين الصاخبين في معارضة علمنة التعليم والاشتراكيين الثوريين والملكيين غير التائبين.^(١)

فإذا نحينا المذهب الجمهوري جانباً، جاز أن نقول إن كثيراً من عناصر الصورة كما عرضناها حتى الآن كانت تتفق مع القناعات السياسية والأيدولوجية لطله بوصفه تابعاً للطفى السيد ومتعاطفاً مع حزب الأمة . يصدق هذا بصفة خاصة على فكرة النخبة على أساس الجدارة والأهمية المعلقة على دور المثقفين . وكانت نزعة الإصلاح التقدمية التى يتبعها أساتذة طه، بما تبديه من حرص على الاستقرار والاعتدال والتغير التدريجى - تتجاوب مع عدد من أعمق ميوله، ولا بد أنها دعمت تطوره اللاحق فى نفس الاتجاه . فمن الصحيح أنه غير ولاءه أكثر من مرة خلال فترة طويلة من الانخراط فى غمار السياسة، ولكنه بقى طيلة حياته مخلصاً بعمق للديمقراطية الليبرالية . وقد حدث أحياناً - وخاصة فى أواخر الأربعينيات - أن تحدث كما يتحدث الراديكالى أو الاشتراكى، ولكنه كان يفترض دائماً أن الإصلاح الذى يدعو إليه ينبغى أن يتم بوسائل سلمية ، وأن يعزز الجانب الفكرى أو الروحى من الحياة .

يروى طه حسين قرب نهاية الجزء الثالث من الأيام كيف أنه - وهو فى طريق العودة إلى مصر بعد انتهاء بعثته فى فرنسا وفى فترة تحفل بالانقلابات والتحولات الكبرى - كان يحلم بدوره بإحداث ثورة فى مصر ، ولكن الثورة التى كان يعنيها ينبغى أن تتحقق سلمياً وتحت قيادة المثقفين ، وذلك وفقاً لتعاليم سان سيمون كما عرضها دوركايم.^(٢) وصحيح أن طه حسين كما يروى هو نفسه قد انتهى إلى الشك فى قدرة المثقفين على الارتفاع فوق مستوى السياسة،^(٣) ولكنه لم يتشكك قط فى أن بمقدورهم أو من واجبهم أداء دور قيادى فى المجتمع؛ كلا ولم يفقد إيمانه قط بالأفكار كقوة محركة فى التاريخ أو كعامل محدث للثورات.^(٤)

(١) George Weisz المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(٢) الأيام ، فى م ك ، ص ٦٧٨ - ٦٧٩ .

(٣) نفس المصدر ، ٦٨ .

(٤) انظر على سبيل المثال « من مشكلات أدبنا الحديث » فى خصام ونقد ، فى م ك ، المجلد ١١ ، ١٩٧٤ ، ص ٥٤٠ - ٥٥٢ ، ص ٥٥١ . نشرت المقالة لأول مرة فى الجمهورية ، ١١ ديسمبر ١٩٥٢ .

وبعد عودته إلى مصر بواحد وعشرين عاماً نراه يدافع عن سجل الجمهورية الثالثة - جمهورية الأساتذة والمعلمين كما كانت تسمى - ضد منتقديها.^(١)

إلا أن النزعة الإصلاحية وفقاً لأساتذة طه في السوربون تضمنت عنصراً كان جديداً بدرجة أو بأخرى على طه؛ وأعنى بذلك الحدود النظرية التي لا ينبغي للإصلاح أن يتخطاها أبداً . ففي باريس وبفضل أولئك الأساتذة حصل طه - لأول مرة فيما يبدو - العناصر الأساسية في معرفته بالماركسية ، وفي اعتراضاته عليها . فقد كان الوضعيون، المؤرخون العلميون منهم وعلماء الاجتماع على حد سواء ، يجمعون على إدانة الماركسية كتفسير للتاريخ . وهكذا انتقد سينوبوس التفسير الاقتصادي للتاريخ لدى ماركس والقول بمقتضاه بأن التنظيم الاقتصادي للمجتمع هو البنية التحتية للحياة الاجتماعية ككل.^(٢) ورأى سينوبوس أن هذا التفسير يقوم على فكرة غامضة هي أن الإنسان حيوان ، وأنه انتهى من ثم إلى افتراض سبب مادي لكل أعمال الإنسان سواء أكانت أعمالاً فردية أم جماعية ، ولتنظيم المجتمع بأسره وتطوره.^(٣)

كما انتقد سينوبوس التفسير المادي للتاريخ مستنداً في ذلك إلى الوقائع المشاهدة بشأن الدوافع النزيهة التي تحرك عظماء الرجال . ومن هذا المنطلق كتب يقول إن "الرسل والشهداء في كل الأديان وفي كل العلوم وكل الفلسفات وكل العقائد السياسية... قد تميزوا وما زالوا يتميزون بعدم اكتراثهم بالمتع المادية التي تتكون منها الحياة الاقتصادية ، فالبشر - والعظماء منهم خاصة - لا يأتون أعمالهم بهدف الحصول على المتع المادية دون غيرها".^(٤)

(١) « صرعى الحضارة » في فصول في الأدب والنقد في م ك ، المجلد ٥ ، ١٩٧٣ ، ص ٥٢٤ - ٥٥١ ، ص ٥٤٦ وما يليها . نشرت لأول مرة في ثلاث حلقات في الثقافة ، ٩ يولييه و ١٦ يولييه و ١٠ أغسطس ١٩٤٠ ، على التوالي .

(٢) Ch. Seignobos , *La méthode historique appliquée aux sciences sociales* (Paris 1901) p. 261 et sqq.

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٦٥ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

أما دوركايم فقد تناول بدوره المفهوم المادى للتاريخ بالنقد . وكان مما ارتآه فى هذا الصدد أن المفهوم المذكور مناقض للوقائع المشاهدة التى يتفق عليها علماء الاجتماع والمؤرخون . فقد كتب يقول: "إن علماء الاجتماع والمؤرخين يميلون بصفة متزايدة إلى الاتفاق على القول بأن الدين هو أسبق الظواهر الاجتماعية كافة، فعنه انبثقت سائر تجليات النشاط الجماعى، بما فى ذلك القانون والأخلاق والفن والعلم والأشكال السياسية وما إليها".^(١)

واقطفى بوجليه أثر دوركايم فانتقد فلسفة التاريخ المادية لأنها ترى فى الأسباب الاقتصادية التفسير الوحيد للتغير الاجتماعى، أو لأنها بعبارة أخرى تذهب إلى أن القانون والأخلاق والدين والفن إن هى إلا "بنى فوقية" أو ظواهر عرضية للاقتصاد.^(٢) وهو إن لم ينكر دور القوى الاقتصادية فى تسبيب التطورات الاجتماعية، فإنه يرى رغم ذلك أن الكلمة الأخيرة فى هذا المجال ترجع إلى الضمير؛ فهو قوة يمكن أن تتحدى بشجاعة أوضح مصالحنا الاقتصادية.^(٣)

أما بالنسبة لطله حسين، فقد كان موقفه من الماركسية يتسم بادئ ذى بدء بالمراوغة؛ فكلما قل الكلام كان أفضل . وعندما تصدى فى أوائل الخمسينيات لأنصار الواقعية الاشتراكية الصاعدين فى مصر تظاهر فى أول الأمر بأن آراءهم غير مفهومة أو "يونانى فلا يقرأ" على حد تعبيره.^(٤) ولكنه ما لبث بعد هذه المناورة الأولى أن اشتبك مع معارضيه فى صدام مباشر ، فأظهر أنه قد فهم تماماً موضوع النقاش، وإن كان فهمه يستند على وجه الإجمال إلى تعاليم أساتذته الوضعيين القدامى . فقد رأى أن معارضيه يفترضون أن الأدب ينبغى أن يصور البؤس والجوع وحاجة الناس إلى ما ييسر حياتهم . يقول فى هذا الصدد إن "الإنسان عند هؤلاء السادة وعند

(١) انظر عرض دور كايم لـ "Essais sur La conception materialiste de l'histoire," Antonio Labriola, *Revue philosophique*, XLIV (1897), p. 645 - 651, 650.

(٢) C. Bouglé, *Ou'est-ce que la sociologie* (Paris 1907) , p . 27 et sqq .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٩ .

(٤) طه حسين ، « يونانى فلا يقرأ » فى خصام ونقد فى م ك ، المجلد ١١ ، ١٩٧٤ ، ص ٥٨٧ - ٥٩٩ .

أساتذتهم أيضاً قد خلق ليأكل ويشرب ويحيا حياة ميسرة ، فجده وجهده وتفكيره وتدبره وتأمله وشعوره وعواطفه – كل هذا يجب أن يتجه إلى شىء واحد ليس غير وهو تيسير الحياة الاجتماعية وإرضاء حاجات الناس التى تتصل بأجسامهم وحدها. ^(١) وفى موضع آخر يحذر طه حسين من إن بعض المثقفين قد يفهم من الدعوة إلى أن يكون الأدب فى سبيل الحياة "أن الأدب يجب أن يسخر لمذهب بعينه من مذاهب الإنسانية الحديثة فى السياسة والفلسفة والاجتماع، وهو أن الأدب يجب أن يكون مسخراً لإقناع العامة وأشباههم بأن الحياة مادة ليس غير، وبأن الروح وما يتصل به من العقل والقلب والملكات المختلفة أساطير هام بها القدماء ولا تغنى عنهم شيئاً. ^(٢)

ويجدر أن نلاحظ أن موقف طه حسين كما عرضناه حتى الآن أقرب إلى سينوبوس منه إلى دوركايم . ففى حين قصر دوركايم وبوجليه انتقاداتهما على المادية الاقتصادية بوصفها الرأى القائل بأن الاقتصاد هو التفسير الأساسى لحياة المجتمع أو التاريخ، خطأ سينوبوس خطوة أبعد، وتلاه فى ذلك طه حسين، ففسرا نفس المذهب بوصفه شكلاً فجاً من المادية مؤداه أن الغاية القصوى للحياة هى إشباع الحاجات الدنيا للحيوان الاجتماعى. ^(٣)

إلا أن طه تآثر فيما يبدو بالاتفاق الظاهر بين الأساتذة الثلاثة على أولوية العوامل الفكرية والروحية ودوافع الإيثار التى تحرك عظماء الرجال . وقد ينبغى لنا بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة أن ننظر فى حجتين ترجعان إلى دوركايم ، وكان لهما تأثير بالغ على طه حسين لأنهما أسهمتتا فى تكوين آرائه الناضجة فيما يتعلق بمجموعة شتى من المشكلات التى تدور حول مكان الفنان فى المجتمع .

(١) نفس المصدر ، ص ٥٩٢ .

(٢) « الحياة فى سبيل الأدب » فى خصام وتقد ، ص ٦٠٠ – ٦١٣ ، ص ٦٠٧ .

(٣) ولكن لاحظ أن طه حسين يتخذ من الشيوعية أحياناً مواقف أكثر توازناً ، فهو فى ألوان (فى م ك ، المجلد ٦ ، ١٩٨١ ، ص ٦٣٠ – ٦٣١) يرى أن الدعوة الاشتراكية الشيوعية إلى تحقيق العدالة الاجتماعية لا تخلو من المشروعية ، ولكنها فيما يرى ينبغى أن توازن مع مطلب آخر مشروع ، هو مطلب الحرية.

يتساعل دوركايم فى الخطاب الذى ألقاه على طلاب "سانس": "أصحيح أن الرجل العظيم يأخذ دون مقابل أفضل ما فى الأمة؟" ويجيب قائلاً: "ذلك ما كان سيحدث بلا شك لو أن الرجل العبقري بعد تكوينه انفصل عن المجتمع وانغلق على نفسه فى وحدة الكبرياء، ولكنه لسوء الحظ مهما بلغت عظمتة وبلغ ترفعه لا يستطيع التنصل من إنسانيته ولا يستطيع أن يستغنى عن إخوته فى البشرية بسهولة؛ فهو يحتاج إلى تعاطف واحترام وإعجاب نفس الناس الذين يحتقر نقصهم... ولا بد له من أن يعود إلى عامة الناس الذين تخلفوا عنه؛ ولا بد له من أن يمد لهم يده حتى يتبعوه، أن يعلمهم حتى يفهموا عنه، وهو بذلك يسد أضعاف أضعاف ما أقرضوه." (١) وهذا يعنى فى الواقع أن الرجل العظيم إن كان يميل إلى العزلة والاكتفاء بنفسه والتمركز حول ذاته فإنه لابد له فى نهاية المطاف من أن يتضامن مع غيره من الناس لأنه ككائن اجتماعى يحتاج إليهم (بقدر ما يحتاجون إليه).

وطه حسين يأخذ بهذه الحجة التى تستند إلى الاحتياجات الاجتماعية لعظماء الرجال عندما يكتب قائلاً: "...الأديب عندما يكتب مخدوع عن نفسه دائماً، يزعم أنه لا يحفل بالناس ولا يفكر فيهم، ولا يكتب إلا ليرضى قلبه وعقله وذوقه... ولكنه لا يكاد يكتب... حتى يحس الحاجة الملحة إلى أن يقرأ الناس ما يكتب، فمن طبيعة نفسه أن يكتب، ومن طبيعة نفسه أن يتصل بالناس..." (٢)

بيد أن دوركايم يقدم عن السؤال الوارد أعلاه إجابة أخرى يحاول فيها أن يفسر الإيثار لدى عظماء الرجال (أو بعضهم على الأقل) بالإشارة إلى وظيفتهم الأخلاقية؛ فهم بحكم تكوينهم يجسدون المثل الأعلى. يقول دوركايم: "...إن البشرية لم تصنع لتتذوق الملذات السهلة الفجة إلى أبد الأبد، ومن الضروري إذن أن تتكون نخبة تدفع البشرية إلى احتقار هذه الحياة الوضيعة، وتنتزعها من هذه الراحة المميتة، وتحثها على السير إلى الأمام. ذلك هو الغرض الذى يعمل عظماء الرجال من أجله،

(١) Emile Durkheim, " Discours aux lycéens de Sance ", *Cahiers internationaux de la sociologie*, XLIII (1967), p. 25 - 32 , p. 30

(٢) خصام ونقد فى م ك ، ص ٦٦١

فهم لم يهيئوا فقط ليكونوا للكون تنويراً جليلاً بقدر ما هو عقيم . وإذا كان امتيازهم هو أنهم تجسيد للمثل الأعلى على الأرض ، فما ذلك إلا ليجعلوه مرئياً لكل الأبصار وليجعلوه مفهوماً ومحبوياً . وإذا كان من بينهم إذن نفر يربؤون بأنفسهم عن أن ينظروا إلى إخوانهم فى البشرية، ويعكفون تماماً على تأمل عظمتهم والاستمتاع بامتيازهم بمفردهم، فدعونا ندينهم دونما تردد . أما بالنسبة للآخرين - وهم الكثرة الغالبة - بالنسبة للذين يهبون أنفسهم تماماً للجماهير، بالنسبة للذين لا يشغلهم شاغل سوى أن يشركوا الناس فى عقولهم وقلوبهم، بالنسبة لهؤلاء أيأ كان العصر الذى عاشوا فيه... ، فإننا لا يسعنا إلا أن نحمل لهم كلمات الإعجاب والحب . دعونا ننادى بهم بكل احترام محسنين إلى الإنسانية.^(١)

وبمقتضى هذه الحجة يصبح المجتمع هو المصدر الذى ينبعث منه الدافع إلى الترفع عن الملذات المادية ، وهو الذى يربى بعض الأفراد على نحو يمكنهم من ارتياد الطريق إلى ما هو أسمى . ونحن نرى صورة من هذا البرهان فى رأى طه عن الأدب بوصفه مرآة صادقة ناصحة أو مرآة للضمير، وهو رأى يشرحه فى عدة أعمال.^(٢) فالأدب الجيد وفقاً لهذا الرأى يواجه بنى الإنسان بنقائصهم وعيوبهم، وهو إذ يصور الواقع على حقيقته - إذا صح التعبير - يعبر أيضاً عن المثل العليا للإنسانية . والكاتب إذ يصور ما هو واقع يهدى فى الوقت نفسه إلى ما ينبغى أن يكون ، ويناهض أيضاً إعراض المجتمع أو خموله أو عداءه الصريح . يقول طه حسين : « الأدب إذن اجتماعى بطبعه، وهو موجه بطبعه فى سبيل الحياة بأقوم معانيها وأبقاها وأرقاها... حياة العقول والقلوب التى لا تموت ولا يدركها البلى... »^(٣)

إلا أن طه حسين لم يقبل كل الحجة الثانية التى استند فيها دوركايم إلى الوظيفة الأخلاقية لعظماء الرجال؛ فالحجة رغم حضورها فى فكر طه قد عدلت وخففت ، وذلك لأن طه يميل إلى التغاضى عن تأكيد دوركايم على دور المجتمع

(١) دور كايم ، المرجع السابق ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) انظر مثلاً « مرآة الفريية » فى خصام ونقد فى م ك ، ص ٥٢٥ - ٥٢٩ وما يليها ، وانظر أيضاً جابر عصفور ، المرايا المتجاورة ، دراسة فى نقد طه حسين (القاهرة ١٩٨٢) ، ص ٨٢ وما يليها .

(٣) « الحياة فى سبيل الأدب » فى خصام ونقد ، ص ٦٠٦ .

كمصدر وقوة دفع للنزوع إلى ما هو أسمى ، وهو يفضل أن يقول إن الأدب يقوم بطبعه على الخير والإيثار ، وإن الفنان إذ يواجه الجميع بمرآة الضمير يفعل ذلك بمحض حرّيته ومن تلقاء نفسه . يقول في هذا الصدد: "...الأديب لا ينشئ أدبه ليحقق هذا الغرض أو ذاك... وإنما الأدب غاية نفسه والأديب يكتب لأنه لا يستطيع إلا أن يكتب... وليس معنى هذا أن الأدب بطبعه عقيم ، وأن الأديب أثر بطبعه ، ولكن معناه أن الإصلاح والتغيير وتحسين حال الشعوب... أشياء تصدر عن الأديب صدوراً طبيعياً كما يصدر الضوء عن الشمس ، وكما يصدر العبير عن الزهرة ."^(١)

وخلاصة القول هي إن دوركايم ينحو نحو التأكيد على دور التسبب الاجتماعي في السعي إلى ما هو أسمى بينما يميل طه إلى التأكيد على البعد الخاص بتلقائية الفرد وحرّيته .

الشك الديكارتي

كان المؤرخون العلميون وعلماء الاجتماع على طريقة دوركايم ومؤرخو الأدب على السواء معنيين بمشكلات المنهج ، وهو ما كان طبيعياً في فترة تميزت بالخصوبة الشديدة في الدراسات النظرية المخصصة لتأسيس علوم جديدة وتقنياتها . وللتدليل على هذه الوفرة في التفكير المنهجي يمكننا أن نذكر بعض الأعمال المهمة التي صدرت في تلك الفترة: دوركايم، قواعد المنهج الاجتماعي (١٨٩٥)؛ ولانجلوا وسينوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية (١٨٩٨)؛ وسينوبوس، المنهج الاجتماعي مطبقاً على العلوم الاجتماعية (١٩٠١)؛ وذلك بالإضافة إلى أقوال لانسون العديدة فيما يتصل بمسألة المنهج في تاريخ الأدب .

وما كان لطفه أن يغفل عن تلك الظاهرة أو أن يفوته أن يشعر بالرضى بسببها . فقد كان عليه أن يقرأ المؤلفات المذكورة إما ككتب تعليمية أو كأدوات لازمة لبحثه عن ابن خلدون ، فضلاً عن أنه كان هو نفسه معنياً بالمسائل المنهجية منذ سنة ١١٩١ .

(١) « الأدب والحياة أيضاً » في نفس المصدر ، ٥٦٤ - ٥٧٤ ، ص ٥٦٥ .

إلا أن البحث المنهجي الفرنسي كان له جانب سلبي شد انتباهه بصفة خاصة نظراً لأنه كان موضع اتفاق عام بين الوضعيين ، ولأنه كان يتجاوب مع استعداداته النقدية : وأعني بذلك اتفاق جميع الأطراف المعنية تقريباً على ضرورة الشك الديكارتي .

ومن ذلك أن لانجلو وسينووبوس يحذران مراراً وتكراراً من حب الإنسان بطبيعته للتساهل وميله الغريزي إلى تصديق الأقوال السماعية والوثائق المجهولة المصدر الخالية من الضمان . ومن رأيهما أن هذا الميل الطبيعي في العقل ينبغي أن يقاوم كخطوة أولى في البحث التاريخي . كتباً يقولان: " فهنا كما في كل علم ينبغي أن تكون نقطة الابتداء هي الشك المنهجي . فكل ما لم يثبت بعد ينبغي أن يظل مؤقتاً موضوعاً للشك . ولتوكيد قضية ما ينبغي تقديم الأسباب التي تبرر الاعتقاد بأنها صحيحة صادقة . فإذا طبق الشك المنهجي على أقوال الوثائق، أصبح ارتياباً منهجياً." (١) .

ولم يكن دوركايم أقل تأكيداً على أن منهجه في علم الاجتماع ديكارتي أساساً . فهو بعد أن قرر القاعدة الأولى في هذا المنهج - أي ضرورة النظر إلى الوقائع الاجتماعية على أنها "أشياء" - يشرح ما يرى أنه نتيجة لازمة عن القاعدة ، وهي أن على المرء أن يستبعد بصفة منظمة كل المفاهيم المسبقة . وهو يرى أن هذه القاعدة ليست في حاجة إلى برهان لأنها تترتب بالضرورة على ما سبقها، فضلاً عن أنها هي الأساس في أي منهج علمي . (٢)

ولما كانت ضرورة تطبيق الشك الديكارتي قد أكدها أيضاً فوستيل دي كولانج (٣) الذي يعد مصدراً رئيسياً للإلهام بالنسبة لكل المؤلفين المذكورين ، فلنا أن نستنتج أن

(١) لانجلو وسينووبوس ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ . التأكيد في الأصل .

(٢) 125 p. (Paris 1988) , Durkheim, *Les règles de la méthode sociologique* ويقول دوركايم في كتاب آخر : .. يجب البدء بتحرير عقولنا من كل الأفكار المسبقة ... ولا ينبغي أن نطلب إلى تحيزاتنا وإلى عواطفنا وإلى عاداتنا أن تقدم العناصر اللازمة لتحديد [الظاهرة موضوع البحث] . بل ينبغي أن نطلب ذلك إلى الحقيقة الواقعة التي نريد تحديدها . انظر Emile Durkheim, *Les formes élémentaires de la vie religieuses* (paris 1990) , p 32 .

(٣) فيما يتعلق بهذه النقطة انظر Jane Herrick, *The Historical thought of Fustel de Coulanges* (Washington D. C. 1954) , p. 20 ff .

فترة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد شهدت ظهور تيار كامل من الشك الذي ينتسب إلى ديكارت . وقد كان هذا التراث حاضراً في ذهن طه حسين عندما استهل في سنة ١٩٢٦ نظريته فيما يتعلق بانتحال الأكثرية المطلقة من الشعر الجاهلي بالعبارات التالية: "أريد أن أقول إنني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة ، أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت في أول هذا العصر الحديث . والناس جميعاً يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن"^(١). ومع ذلك فمن الغريب أن السؤال عما إذا كان شك طه حسين في صحة الشعر الجاهلي ديكارتيًا حقاً ما زال مثاراً لجدل مستمر منذ صدور كتابه المذكور أعلاه . وقد تشكك عدة كتاب في معرفة طه حسين بديكارت و/ أو في وجاهة تطبيق منهج ديكارت على البحوث التاريخية.^(٢) غير أن كل هذه الانتقادات مجاوزة في رأيي للصواب وذلك أن طه - كما ينبغي أن يكون واضحاً الآن - كان يستند إلى تراث راسخ من انتساب المؤرخين وعلماء الاجتماع إلى أبي الفلسفة الحديثة .

ولقد كان أساتذة طه في السوربون يدركون أن الشك الديكارتى لم يوضع في الأصل لدراسة الإنسان دراسة تجريبية، كما كانوا يدركون أن ديكارت كان قليل الثقة في إمكان التاريخ كعلم ، ولكنهم كانوا يفترضون رغم ذلك أن الشك الديكارتى يمكن - بل ويجب - أن يوسع أو يطوع لذلك النوع من الدراسة . ونقول بمزيد من الدقة إنهم كانوا يفترضون أن من الضروري في أي جهد يرمى إلى تأسيس علم جديد البدء

(١) في الشعر الجاهلي (القاهرة ١٩٢٦) ، ص ١١ .

(٢) أنظر على سبيل المثال محمد لطفى جمعة ، الشهاب الراصد (القاهرة ١٩٢٦) ، ص ١٧ وما يليها ؛ ومحمد أحمد الغمراوى ، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي (بيروت ١٩٨١) ، ص ١١٦ وما يليها ؛

Jacques Berque, "Une affaire Dreyfus de la philologie arabe" in Jacrque et Jean Chamay et al., *Normes et Valeurs dans l'Islam contemporain* (Paris 1966), p. 267 - 285, p. 278

لاحظ أن الطبعة الأولى من كتاب الغمراوى صدرت في ١٩٢٩ . وانظر أيضاً الهجوم الساخر الذي شنه طه حسين على ناقدين شككا في معرفته بديكارت ، في « ديكارت » في من بعيد في م ك ، المجلد ١٢ ، ١٩٧٤ ، ص ٢٠٩ - ٢٢٥ .

بمحو كل المفاهيم المسبقة عن الموضوع قيد البحث . وفى ذلك يرى دوركايم أن نظرية الأوثان التى نادى بها سيكون كان لها نفس المغزى الذى حملته الشك المنهجى الديكارتى^(١).

والواقع أن كلا من لانجلو وسينويوس من ناحية ودوركايم من ناحية أخرى قد توقعوا الاعتراضات على تطبيق الشك الديكارتى على موضوع كل منهم وردوا عليها . وهكذا يبدو أن مؤلفى المدخل إلى الدراسات التاريخية يريان أن ديكارت - وقد ظهر فى عصر لم يكن التاريخ فيه غير ترديد للأخبار السابقة - ينبغى أن يلتمس له العذر لتقصيره فى تطبيق الشك المنهجى على هذا الموضوع ولرفضه وضع التاريخ بين العلوم^(٢). و يبدو من ذلك أيضاً أن المؤلفين يريان ضمناً أن تطبيق الشك المنهجى على البحث التاريخى قد صار مناسباً من وجهة نظر ديكارتية بعد أن أصبح التاريخ علماً صارماً أو أصبح يوشك أن يكون كذلك .

أما دوركايم فقد كان أكثر دقة فى توضيح الطريقة التى يمكن بها تطوير منهج ديكارت لدراسة الاجتماع دراسة تجريبية ؛ فكما أن ديكارت قد قرر أن الحلقة الأولى لها الأولوية فى سلسلة الحقائق العلمية، رأى دوركايم أن يستهل دراسته لظاهرة الدين أو لآى ظاهرة إنسانية على الإطلاق بالرجوع إلى أقدم شكل من موضوع البحث^(٣). يقول فى هذا الصدد: "ومن المؤكد أن من المستبعد تماماً أن يقام علم الأديان على أساس فكرة صيغت بالطريقة الديكارتية ، أى على أساس مفهوم منطقى أو إمكانية خالصة كونها الفكر بمحض قوته. فهدفنا الذى يجب أن نعثر عليه واقع محدد لا تظهره لنا إلا المشاهدة التاريخية والإثنوجرافية"^(٤).

وقد كان طه على ألفة بكل ذلك وكان يفترضه ضمناً عندما أعلن انتسابه لديكارت فى سنة ١٩٢٦ . ولكننا لا ينبغى أن نستنتج من ذلك أن طه حسين - كما

(١). Durkheim , *Les règles de la méthode sociologique* (Paris 1988) , p. 125 .

(٢) لانجلو وسينويوس ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ ، الحاشية ١٠ .

(٣) Durkheim, *Les formes élémentaires de la vie religieuses* (Paris 1990).p. 4 .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥ .

رأى بعض الباحثين - قد استمد شكه في صحة الشعر الجاهلي من الشك المنهجي لدى ديكرت.^(١) فذلك ضرب من التفكير الفضفاض الذي لا يستند إلى أي معرفة دقيقة بتطور طه حسين . لقد رأينا فيما تقدم أن المصدر الرئيسي لشك طه حسين هو ما لاحظته - نقلاً عن ناليتو - من أن الشعر الجاهلي لا يطابق من حيث لغته أو محتواه الديني ما كان قد اكتشف مؤخراً في شبه الجزيرة العربية من نقوش بعضها حميري . وكانت هذه الملاحظة التي ردها طه في سنة ١٩١١ مع شعور بالدهشة هي النواة الأساسية لكل تفكيره في الموضوع . وفي سنة ١٩١٤ أي في "حياة الآداب" تحول الشعور بالدهشة إلى شك شديد في بعض عناصر التراث الذي يوصف بالشعر الجاهلي . وكان ذلك التحول الذي ورد في نطاق شكل عام من أشكال الارتباب في الروايات الماثورة يصحبه ويزيد من حدته وعي جديد بأطراف من المنهج والنقد التاريخيين الوضعيين . وفي سنة ١٩١٥ - أي بعد الفترة التي قضاها في مونبلييه - استأنف طه النظر في الموضوع وشكك في الشخصية التاريخية للشعراء الجاهليين وفي المصادر القديمة للموضوع سواء أكانت شفوية أم مكتوبة . وفي تلك المرحلة ظهر دور المعلومات الأدق التي حصلها طه في مونبلييه عن قواعد النقد التاريخي كما وضعها لانجلوا وسينوبوس.^(٢)

وقد حدث كل ذلك قبل أن يكون لطه أي علم بديكرت . وعندما كتب "حياة الخنساء" كانت قد توافرت لديه كل العناصر الرئيسية تقريباً لنظرية الشك المكتملة التي أذاعها في سنة ١٩٢٦ . وهو في هذه النظرية يطور وينقح شكوكه الأساسية المبكرة فيما يتعلق بالاختلافات المذكورة أعلاه بين الشعر الجاهلي وبين الأوضاع التي من المعروف أنها كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام . وقد استخدم في ذلك المنهج الذي وضعه لانجلوا وسينوبوس لنقد المصادر بعد أن أتقنه . وعندئذ فقط استشهد بالشك الديكرتي . ولكننا نستطيع الآن أن نرى أن هذا الشك

(١) كتب فرانثيسكو جابريلي في « طه حسين الناقد » في طه حسين كما يعرفه كتاب عصره (القاهرة ، بدون تاريخ) ص ١٦٢ - ١٨٠ ، ص ١٦٩ يقول إن المستشرقين الأوربيين يرون أن موضوع الشك في الشعر الجاهلي كما قدمه طه حسين كان أول ثمرة لمبادئ ديكرت التي تشبع بها أثناء إقامته في أوروبا .

(٢) انظر أعلاه ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

ليس له إلا دور ثانوى ولا يمكن أن يوصف بأنه مصدر شك طه حسين أو أنه حتى أحد مصادره ، وذلك أن طه لم يستعن به إلا على نحو غير مباشر : أى كما طوعه سينوبوس للأغراض التاريخية .

أما العنصر الرئيسى الذى تضمنته نظرية طه حسين الناضجة ولم يكن بعد متوافراً فى الكتابات المبكرة ولا فى "حياة الخنساء" فهو القول بأن القرآن - على خلاف الشعر الجاهلى - هو أول وثيقة صحيحة فى تاريخ العرب وأنه بهذه الصفة يتضمن أصدق صورة للأوضاع اللغوية والدينية والفكرية فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام .

ويبدو أن هذا الرأى الذى لم يعرب عنه طه حسين إلا فى سنة ١٩٢٦ - أى بعد سبع سنوات من عودته إلى مصر - كان مستمداً من عدة مصادر ، أولها أنه يقرّب على قبول مبدأ سينوبوس الذى ينص على أن الوثائق المكتوبة هى وحدها التاريخية. ولما كان القرآن هو أول نص عربى يدون فإنه هو أيضاً أول وثيقة تاريخية فى تاريخ العرب . ويبدو أن ثمة مصدراً آخر ممكناً للرأى المذكور . وأعنى بذلك بول كازانوفاً أستاذ طه فى الكوليج دى فرانس . فهو بالإضافة إلى اشتراكه فى الإشراف على رسالة طه عن ابن خلدون، قدم نوعين من الدروس حضر طه كليهما . وكان أولهما عن تفسير القرآن بينما كان الثانى موجهاً للجمهور.^(١) ولم ينشر أى من هذه الدروس. ولكننا نستطيع - بفضل شهادة طه - أن نكون فكرة عن طبيعة وأهمية النوع الأول من الدروس، وهو الذى يعنينا هنا ،

يرى كازانوفاً فى كتابه محمد ونهاية العالم أن عمله هذا مدخل لتفسير أوفى وأبعد مرمى يريد أن يقدمه بعد بضع سنوات . وكان من المقرر أن تكون نقطة الانطلاق فى التفسير المقترح هى الإيمان بأن جمع القرآن كما وصل إلى الأجيال التالية لم يكن إلا نقلاً غير أمين لفكر محمد . وقد اقترح كازانوفاً أن يضطلع - عن طريق تطبيق النقد الحديث تطبيقاً صارماً على أوسع نطاق وبأكبر قدر من الحرية -

(١) طه حسين ، « بول كازانوف » (وهى تأبين للمستشرق الفرنسى) ، السياسة الأسبوعية ، ٢٧ مارس ١٩٢٦ ، ص ٩ - ١٠ ، ص ٩ .

بتحقيق القرآن وترجمته وتفسيره على نحو مستقل قدر الإمكان عن التفسير الإسلامى التقليدى وما حاكاه من تفاسير غربية.^(١) ويبدو أن كازانوفاً كان يريد للتحقيق المقترح أن يثبت ما يعده النص الأسمى الصحيح للقرآن .

وتلك إذن هى طبيعة التفسير الذى كان كازانوفاً يمارسه عندما كان يلقى دروسه على طه وعلى غيره فى الكوليج دى فرانس بداية من سنة ١٩١٦ فما تلاها . وقد قدم طه حسين مزيداً من المعلومات عن طريقة أستاذه فى التفسير عندما وصف ما كان يتحلى به من تجرد علمى وموضوعية . فكانانوفاً - كما روى - كان شديد الإيمان بمسيحيته يذهب فيها إلى حد التصوف ، ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس .. نسى من المسيحية واليهودية والإسلام كل شىء سوى أن لها نصوصاً يجب أن تخضع للبحث اللغوى كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها فى معاملهم بما يشاءون من ألوان البحث والامتحان^(٢) . ويبين طه حسين فى موضع تال من المقالة أن بول كازانوفاً كان إذا عرض لنص من نصوص القرآن درس لفظه وكشف معناه ويبحث عن تاريخه ووصل بينه وبين قديم العرب وأهل الكتاب والتمس تأثيره فى المسلمين بعد أن تلى عليهم^(٣) .

ومن هذا نستخلص أن منهج كازانوفاً كان ديكرتياً نظراً لأنه كان يحرص على أن يطرح جانباً معتقداته الدينية والوطنية عند تناوله موضوع الدراسة^(٤) . والأهم من ذلك أننا نستطيع أن نرى أن هذا المنهج كان تاريخياً أو وضعياً لأنه كان يطبق على النص القرآنى قواعد النقد الداخلى والخارجى - كما قننها لانجلوا وسينوبوس - بهدف الكشف عن معناه وتحديد الظروف التاريخية التى ظهر فيها .

(١) (Paul Casanova, Mohammed et la fin du monde . Notes complémentaires I (Pairs 1913) , ١٦٢ p . وانظر أيضاً نفس المصدر ، الحاشية ٣ .

(٢) طه حسين ، المرجع السابق ، ص ٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٩ - ١٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٠ .

ولقد كان كازانوفاً هو الوحيد بين أساتذة طه سواء في مصر أو فرنسا الذي طبق المنهج التاريخي كما عرض هنا على القرآن . وبناءً على ذلك يبدو أننا لا نجاوز الصواب إذا خلصنا إلى أن تسوية سينوبوس بين ما هو مكتوب وبين ما هو تاريخي وطريقة كازانوفاً في تفسير القرآن - طبقاً لقواعد سينوبوس - كانا هما المصدران الرئيسيان اللذان استمد طه حسين منهما رأيه في أن القرآن - وليس الشعر الجاهلي - هو مرآة الحياة الجاهلية . ونظراً لأن هذا الشعر كان شفوياً وينتمي من ثم لما قبل التاريخ ولأن الشعراء الذين ينسب إليهم كانوا شخصيات أسطورية فلا سبيل وفقاً لهذا الرأي إلى التثبيت من الوقائع المتعلقة بتاريخ العرب قبل الإسلام إلا بدراسة القرآن دراسة نقدية .

والواقع أن كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي يدل على تأثير كازانوفاً من عدة جوانب . ومن ذلك مثلاً أن شكوك طه في صحة الشعر المنسوب إلى أمية بن أبي الصلت فيها صدى من آراء كازانوفاً إذ يكتب قائلاً: "إن كل جهود المفسرين المسلمين في تأييد آرائهم اللغوية المتعسفة بالاستشهاد بقصائد يدعى أنها معاصرة للقرآن تبعث على الارتياب . وربما كان بعض هذه الأبيات صحيحاً ولكن ليس لدينا أي معيار [لتحديد ها] . ولو أن هذا المعيار قد وجد فلا بد أنه الذي ينص على أن جميع الأبيات التي تحمل طابعاً قرآنياً لا بد قد حرفت أو اخترعت بكاملها . غير أن هذا الرأي ذاته لا يمكن إثباته"^(١).

الأزمة المنهجية

كان المؤرخون العلميون وعلماء الاجتماع من أتباع دوركايم يشتركون في عدائهم لفلسفة التاريخ؛ وهو موقف يرجع أصلاً إلى تأكيد كونت على ضرورة التمسك بالوقائع المدركة بالحواس وبمعزل عن أي نظريات لاهوتية أو ميتافيزيقية . ولكن

(١) Paul Casanova, *Mohammed et la fin du monde. Notes complémentaires II* (Paris 1924), p . 223.

قانون الأطوار الثلاثة لدى كونت كان يتضمن هو ذاته نظرية عامة عن تطور الإنسانية أو تقدم العقل البشرى . ولم يفت ورثة كونت فى كلا المدرستين أن يستنكروها بوصفها فلسفة نظرية للتاريخ . وهكذا قرّع لانجلوا وسينوبوس المفكرين الذين يتخيلون أنهم اكتشفوا "القوانين التى تحكم تطور الإنسانية" وأنهم بذلك "رفعوا التاريخ إلى مرتبة العلم الوضعى".^(١) وبعبارات مماثلة انتقد دوركايم قانون كونت لأنه أراد له أن ينطبق لا على المجتمعات بل على المجتمع البشرى فى حد ذاته . وكان طبيعيا بالنسبة للمفكرين الثلاثة، بوصفهم وضعيين حقيقيين، أن يعترضوا على تناول كونت للإنسانية أو للمجتمع البشرى عامة كما لو كانت أو كان واقعا متعينا، فى حين أنهما ليسا فى حقيقة الأمر إلا "مخلوقا من صنع العقل" على حد تعبير دوركايم^(٢).

ومن اللافت للنظر أن أخبار العداء الوضعى لفلسفة التاريخ قد بلغت طه وهو مازال واقدا حديث العهد فى مونتبلية وأنه ما إن سمعها حتى سارع إلى استنكار المنهج الذى استخدمه تين فى التفلسف بشأن التاريخ لأنه لا يقوم على أسس سليمة.^(٣) وصحيح أنه انتهى فيما بعد أثناء إقامته فى باريس إلى التخفيف من هذا الرأى ، ولكن موقفه بهذا الشأن بقى كما هو أساسا . فهو فى رسالته عن ابن خلدون لا يرى أن فلسفة التاريخ لم توجد قط أو أنه لا محل لوجودها، ولكنه يصر على ضرورة التمييز بينها وبين التاريخ كعلم.^(٤) وهو يرى أن ابن خلدون قد وضع عن التقدم الإنسانى بصفة عامة نظريات فلسفية ليس لها من الموضوعية ما يكفى لاعتبارها علمية . وكل ذلك بعيد أقصى البعد عن موقف طه السابق فى "حياة الآداب" حيث اتبع فلسفة التاريخ لدى كونت - وإن كان ذلك فى صورة مبسطة - وحيث لم يكن لديه بصفة عامه تفرقة واضحة بين العلم والفلسفة .

(١) Charles- Victor Langlois et Charles Seignobos, *Introduction aux études historiques* (Paris 1992), p. 17. يرد هذا النص فى تصدير كتبه المؤلفان للطبعة الأصلية ، وهو التصدير الذى حذفه عبد الرحمن بدوى فى ترجمته للكتاب .

(٢) Durkheim, "La sociologie en France au XIX siècle ", *Revue bleu* , Tome XIII (1900) , (٢) p. 609 - 613, p. 610 .

(٣) انظر أعلاه ، ص 189.

(٤) طه حسين ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص ٥٢ .

ولكن لنعد إلى ما لاحظناه من اتفاق بين المؤرخين والعلماء الاجتماع من أتباع دوركايم على ضرورة التمسك الدقيق بوقائع الخبرة وذلك طبقاً لما أمر به كونت . فبإمكاننا الآن أن نلاحظ أن هذا الاتفاق واه لا يصمد وأنه إذا وضع تحت المحك أفضى إلى اختلاف بالغ العمق بين الجانبين حول طبيعة الوقائع المعنية وإمكان معرفتها . وقد كنا قررنا فيما تقدم أن نرجى بحث هذا التباين عن طريق استخدام صيغة وسط بين الجانبين قلنا بمقتضاها إن المؤرخين وعلماء الاجتماع قد اتفقوا على ضرورة مشاهدة الوقائع أو التثبت منها . ولكن هذه الصيغة ذاتها لم تعد قادرة على إخفاء الاختلاف، وهو اختلاف كبير تعبر عنه كلمة "أو" . وقد أن الأوان إذن لكى نواجه أعمق خلاف داخل المعسكر الوضعى فيما بين تصور دوركايم الواقعى الكلى للوقائع الاجتماعية من ناحية وبين تصور لانجلوا وسينوبوس للوقائع التاريخية وفقاً لفرديتهما المنهجية من ناحية أخرى .

يرى دوركايم - وهو الذى يرفض كما رأينا مفهوم الإنسانية أو المجتمع بصفة عامة - أن الوقائع التاريخية الحقيقية هى القبائل والأمم والدول بعينها، وهى أيضاً - كما يمكن أن نضيف - سائر الظواهر الجمعية مثل الجماعات والنظم والتصورات الجماعية - *répresentations collectives* - حسب تعبير دوركايم.^(١) وبعبارة أخرى نقول إن دوركايم - وقد استبعد الإنسانية أو المجتمع البشرى كمخلوق من صنع العقل - يفترض أن الوقائع الأولية والأكثر واقعية بالنسبة للبحث الاجتماعى هى ظواهر جماعية أساسية لا ترتد إلى ما دونها . فالمجتمع فى رأيه ليس حاصل جمع أفراد . صحيح أنه لا يمكن أن يوجد مستقلاً عنهم بوصفهم "موضوعات" له وأنه ينشأ نتيجة لاجتماعهم ، غير أنه يشكل عند نشوئه نظاماً يمثل واقعاً بعينه له صفاته المميزة . وتنطبق هذه الفكرة - مع إجراء التعديلات اللازمة - على كل الظواهر الجماعية لأن كلا منها يتضمن أفراداً أو يرتبط بهم ولكنه لا يرد إلى خصائصهم^(٢) .

(١) فيما يتعلق بالتصورات الجمعية لدى دوركايم انظر Steven Lukes, *Emile Durkheim . His life and work* (Harmondsworth) , p. 6 . ff .

(٢) 196 - 197 p. *Durkheim , Les règles de méthode sociologique* (Paris 1988) وانظر أيضاً إميل دوركايم ، فى تقسيم العمل الاجتماعى ، ترجمة حافظ الجمالى (بيروت ١٩٨٢) ، ص ٢٩٦ ، الحاشية ١٦ . ولكن لاحظ أن المترجم قد ترجم مصطلح "Substratum" الذى يرد فى النص الأسمى بكلمة « مقوم » . وهى ترجمة غير سليمة .

ويبدو من استخدام دوركايم لمصطلح "الموضوع" أو «المحل» (substratum) في وصف الأفراد أنه يتصور العلاقة بين المجتمع والأفراد على أساس التفرقة التي يقيمها أرسطو بين الصورة والمادة حيث يؤدي الطرف الأول فيها دور العلة المحددة (بكسر الدال الأولى) للطرف الثاني ويفوقه من ثم واقعية . ويتأكد هذا الانطباع عندما نرى دوركايم يقول إن " شكل الكل [الاجتماعي] ... هو الذي يحدد شكل الأجزاء . إن المجتمع لا يجد القواعد التي يستند إليها جاهزة في الوجدانات [الفردية] ، بل إنه يصنعها لنفسه»^(١) والمجتمع وفقاً لدوركايم ليس له فقط وجوده في حد ذاته ، بل إنه ينتج الفرد أيضاً . فهذا الأخير فيما يرى دوركايم نتاج للمجتمع وليس سبباً له .

ولا يكتفى دوركايم بخفض مرتبة الأفراد أونطولوجيا ، بل يسعى أيضاً إلى أن يضمن للوقائع الاجتماعية أن تعرف بمعزل عن الأفراد . وهو يرى من ثم أن الوقائع الاجتماعية ظواهر طبيعية تخضع بطبيعتها للمشاهدة . فهي فيما يقول دوركايم "أشياء" ، وهو ما يعنى أنها تقع خارج الأفراد وتضع قيوداً عليهم . وفي رأيه أن أسباب التصورات الاجتماعية ليست حالات شعورية بعينها في الأفراد ولا يمكن أن تفسر على أساس هذه الحالات . فالتصورات الاجتماعية تجد أسبابها في الأحوال التي يوجد فيها الكيان الاجتماعي ككل ولا تفسر إلا بالرجوع إلى هذه الأحوال^(٢) .

والواقع أن ستيفن لوكس محق عندما يرى أن دوركايم قد غالى في الدفاع عن وجهة نظره ضد الفرديين المنهجيين، فهو يدعى أن الوقائع الاجتماعية لا تفسر إلا بالرجوع إلى وقائع اجتماعية بينما كان يكفيه أن يقول إن الوقائع المذكورة لا يمكن أن تفسر تفسيراً كاملاً بالرجوع إلى وقائع فردية^(٣) . ولكن ينبغي أن نذكر أن الفرديين المنهجيين - مثل لانجلوا وسينوبوس - لم يكونوا أقل شدة في حريهم على الظواهر الجمعية .

(١) نفس المصدر ، ص ٣٩٦ . لكن اقرأ « صورة » (بالمعنى الأرسطي) حيث يقول المترجم « شكل » وانظر أيضاً دور كايم ، المرجع السابق ، ص ١٩٨ ، حيث يتحدث عن الطبائع الفردية بوصفها مادة غير محددة لا يحددها ويحولها إلا العامل الاجتماعي .

(٢) دور كايم ، نفس المصدر ، ص ١٩٨ .

(٣) Steven Lukes المرجع السابق ، ص ٢٠ .

فلقد اعترف لانجلوا وسينوبوس بأن الوقائع التاريخية تتبدى على درجات مختلفة من العموم بداية من الوقائع العامة غاية العموم التي يشترك فيها شعب بأسره وتستمر لقرون (مثل النظم والعادات والمعتقدات) حتى الأفعال العابرة الصادرة عن فرد ما^(١). ولكن هذا الاعتراف ليس سوى خطوة أولية مؤقتة تعقبها خطوات عدة من عمليات الاستئصال والرد الرامية إلى تضيق نطاق الوقائع التاريخية الأولية حتى يصل إلى أدنى درجات العموم، ومثال ذلك أنهما يتصوران أن المجتمع هو حاصل جمع أفراد^(٢)، ولا يحبذان دراسة النظم دراسة مقارنة^(٣)، ويعتقدان أن الحوادث الكبرى يمكن أن تفسر بالحوادث الصغيرة والمصادفات^(٤)، وهما بصفة عامة يريان أن « الواقعة الاجتماعية » كما يقول بها بعض علماء الاجتماع تركيب فلسفى وليست واقعة تاريخية^(٥).

وفى بعض الأحيان يبدو أن لانجلوا وسينوبوس يرضيان بقائمة قصيرة لا تتضمن سوى ثلاثة أنواع من الوقائع هي:

(١) الكائنات الحية والأشياء المادية.

(٢) أفعال الناس سواء أكانت فردية أم جماعية.

(٣) الوقائع النفسية أو الدوافع والتصورات.^(٦) ولكن لانجلوا وسينوبوس سرعان ما يستبعدان الأفعال الجماعية من الصورة، ففي رأى سينوبوس أن السؤال عما إذا كانت تلك الأفعال من طبيعة واحدة كالأفعال الفردية مثار جدل من الناحية

(١) لانجلو وسينوبوس، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢) انظر على سبيل المثال نفس المصدر، ص ١٨٩، حيث يرى المؤلفان أن مجاميع مثل النول والكنائس ليس سوى وحدات سطحية تتألف من عناصر غير متجانسة؛ وص ١٩١ حيث لا يعد المجتمع «كائناً حقيقياً» له تركيب ووظائف، بل يحلل على أساس الأفراد وعلاقاتهم.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٤) «إن النفس تكره أن تكون للمسببات الكبيرة أسباب صغيرة، مثل أن يكون أنف كليوباتره قد أمكن أن يؤثر على الإمبراطورية الرومانية، وهذه الكراهية ميتافيزيقية..» نفس المصدر، ص ١٩٦.

(٥) نفس المصدر، ص ١٧٢.

(٦) نفس المصدر، ص ١٧٢ - ١٧٣.

الفلسفية ؛ أما من الناحية المنهجية - أو من وجهة نظر المشاهد - فليس هناك إلا مجموع الأفعال أو الألفاظ الفردية^(١).

وبهذه الإشارة إلى "المشاهد" نصل إلى بيت القصيد كما يقال ؛ ففي التاريخ وفقاً للانجلو وسينوبوس لا تشاهد الوقائع مباشرة بل يتم التثبت منها عن طريق استخلاصها من التحليل النقدي للوثائق^(٢). ولما كان المؤرخون لا يستطيعون الوصول إلى حوادث الماضي فإنهم يعتمدون على الشواهد التي يقدمها مؤلفو الوثائق الذين شاهدوا هذه الحوادث . ولكن هؤلاء المؤلفين - فيما يرى لانجلو وسينوبوس - لم يشاهدوا وما كان لهم أن يشاهدوا وقائع جماعية ؛ لأن هذه الوقائع ليست من قبيل ما يرى أو يسمع . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن لانجلو وسينوبوس قد عرفوا "المشاهدة" تعريفاً هو من الصرامة بحيث تدل على الإدراك الحسى أو الخبرة الحسية^(٣) . وهما بناء على ذلك يفترضان أن الظواهر الجماعية ليست فى عداد المعطيات الأساسية للمشاهدة أو الوقائع التاريخية الأولية . وكل ما عدا هذه المعطيات والوقائع النفسية التي يفترض أنها تفسر الأفعال الفردية والحوادث المفردة لا بد أن يكون تجسيمياً ميتافيزيقياً أو تركيبات منطقياً من تلك المعطيات^(٤). والظواهر المذكورة أعلاه هى من قبيل التركيبات المنطقية التي تستخلص معرفتها أو يتم الوصول إليها عن طريق التأليف أو البناء ، وهى من ثم أقل يقيناً .

ويبلغ النزاع بين المؤرخين العلميين وعلماء الاجتماع من أتباع دوركايم أقصى مداه عندما يحاول لانجلو وسينوبوس أن يثبتا أن التفسير التاريخى ذو طبيعة نفسية وأن يثبتا - وهو الأسوأ - أن المعرفة التاريخية ذاتية فى نهاية المطاف . ففيما يتعلق بالنقطة الأولى يرى المؤرخان أن من الضروري تفسير الأفعال الفردية بالرجوع إلى وقائع نفسية أى إلى دوافع الفاعلين^(٥). أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية فإنهما يريان

(١) Seignobos, *La méthode historique appliquée aux sciences sociales* (Paris 1901) , p. 107 .
لكن لاحظ أن النص الأصلي يخلو من التأكيد .

(٢) لا نجلو وسينوبوس ، المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(٣) نفس المصدر ،

(٤) يصل خوف لانجلو وسينوبوس من الأخطاء الميتافيزيقية الناجمة عن استخدام الألفاظ العامة والمجردة (مثل « المجتمع ، و « الدولة » و « الإنسانية » ، بل و « التطور ») حداً يذكرنا بالوضعيين المناطقة .

(٥) Seignobos المرجع المذكور أعلاه ، ١٠٨ - ١٠٩ .

أن المعرفة التاريخية ترتكز لا محالة على "التخيل". وذلك لأن المؤرخين إذ يحاولون التثبت من الوقائع كما أدركها مؤلفو الوثائق ليس أمامهم إلا أن "يتخيلوا" كيف كان ذلك الإدراك^(١).

ومن هذا نرى كيف أن المعسكرين الرئيسيين في نطاق الوضعية، وإن بدأ من الحرص الوضعي على التمسك الصارم بوقائع الخبرة، يتحركان في اتجاهين متضادين بحيث ينتهي المؤرخون العلميون إلى تصور اختزالي ذاتي النزعة للوقائع التاريخية .

فلنتذكر الآن أن طه حسين عند وصوله إلى فرنسا كان يعتقد اعتقاداً دجماطيقياً على غرار تين أن شروط التاريخ العلمي تلبى إذا استند إلى تصور كلي وموضوعي تماماً للتاريخ . غير أن الوضعية الفرنسية في ذلك التاريخ كانت قد خرجت عن قالب كونت وقالب تين على السواء وكانت في واقع الأمر قد تجاوزت أزهى أيامها . فقد أصابها التفكك في نفس اللحظة التي ولدت فيها عدة علوم . والوضعية التي وجدها طه في السنوات ١٩١٥ - ١٩١٩ لم تعد مذهباً متجانساً ، إن صح أنها كانت كذلك في يوم من الأيام . بل كانت تنقسم إلى مدرستين فكريتين على طرفي نقيض يسعى كل جانب منهما سعياً لا هوادة فيه إلى بسط هيمنته أو "استعمارها" على العلم المقابل^(٢).

وما كان لهذا الاستقطاب أن يغيب عن طه . فهو - وقد درس على كل من سينوبوس ودوركاييم - لا بد أنه اطلع على بعض الانتقادات المتبادلة بينهما صراحة أو ضمناً^(٣). وهو على أية حال قد علم على النحو المناسب بالجدل المنهجي ("الأزمة المنهجية") الذي دار بين "المؤرخين التاريخيين" (أنصار التاريخ السياسي الوقائعي)

(١) نفس المصدر ، ص ٢١٨ و ٢١٩ .

(٢) فيما يتعلق بمحاولة دور كايم استيعاب التاريخ في علم الاجتماع والهجوم المضاد الذي شنه سينوبوس ، انظر . Philippe Besnard, " The Epistemological polemic : François Simiand" , in idem (ed). *The sociological domain, etc* . (Cambridge 1983) , p 248 - 261 , p 248 - 261. p, 251 - 251.

(٣) انظر على سبيل المثال نص المناقشة الشهيرة بين دور كايم وسينوبوس حول التفسير في التاريخ وعلم الاجتماع (١٩٠٨) والذي نشر تحت عنوان : " L'inconnu et l'inconscient en histoire " , in *Bulletin de la Société Française de la Philosophie*, VIII (19080 , p. 17 - 247 .

و«المؤرخين الاجتماعيين» (أنصار التاريخ القائم على دراسة الوقائع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) ، وذلك عن طريق بوجليه^(١) وكذلك عن طريق لانجلوا وسينوبوس^(٢) .

وكان ذلك الاستقطاب هو أبرز معالم المشهد الوضعي. بل لقد كان أكثر الموضوعات طغياناً على الفكر الوضعي بصفة عامة . فقد اتخذت ثنائية الفرد والمجتمع صوراً شتى مما أدى إلى عدد من النقائص: منهجية وأنطولوجية وأخلاقية وأدبية . وفي إحدى هذه الصور كانت القضية تتعلق بدور الأفراد (العظماء) في التاريخ وكانت مدار جدل بين كثير من المؤلفين المألفين لطفه في باريس. ومثال ذلك أوجست كونت^(٣) وكورنو^(٤) ودوركاييم ولانجلوا وسينوبوس وبوجليه^(٥). واتخذت القضية في جانبها الأخلاقي صورة سؤال عن الإيثار والأثرة في حالة عظماء الرجال.^(٦) وعندما طرحت المشكلة في المجال الأدبي كانت تتعلق بدور العبقرية الفردية أو دور الذاتية في الأعمال الأدبية . وبإزاء هذا الجدل ذى الأوجه المتعددة لم ينحز طه إلى أى من الجانبين بل سعى إلى المصالحة كما سنرى في الفصل التالى .

(١) انظر Bouglé ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(٢) انظر أعلاه ، الفصل الخامس ، 152 - 153 وص 153 ، الحاشية (١) .

(٣) Auguste Comte , *Physique sociale . Cours de philosophie positive, Leçons 46 à 60*, ed.

Jeam - Paul Enthoven (Paris 1975) , p. 106, 115

(٤) A. A. Cournot, *Considérations sur la marche des idées et des événements dans les temps modernes, Oeuvres Complètes, vol. IV* , ed. André Robinet (Paris 1973) , p. 15 - 16.

(٥) Bouglé المرجع السابق ، الفصل الثالث .

(٦) انظر أعلاه ، ص 205 ، 206 .

الفصل السابع

مصالحات

أود في هذا الفصل الأخير أن أدرس خاصية مميزة لتفكير طه حسين ، وهي خاصية نلمح ظهورها في كتاباته التي ألفها في الفترة المبكرة من حياته وفي الفترة الباريسية ، ولكنها صارت بعد ذلك سمة بارزة في مرحلة نضجه . وأنا أعنى بذلك ميله إلى البحث عن صيغ تركيبية^(١) أو مصالحات لحل نقائص ناتجة عن اعتناقه للوضعية .

ففي الكتابات المبكرة أدى اتباع الحداثة الوضعية وبسطها على نحو منظم إلى نتائج نقدية تمس التراث الثقافي العربي ، وهو ما أفضى بدوره إلى إدخال تعديلات ضخمة على أفكار طه الموروثة وإلى إحداث انقسامات ثنائية . ومن ذلك مثلاً أن الإسهام العربي في التاريخ قد اختزل بحيث أصبح لا يتعدى تقديم المواد اللازمة لمناهج وضعت في الغرب ، والأسوأ من ذلك أن هذا الإسهام قد ألقى به في كومة واحدة مع المأثورات السامية والشرقية - في مقابل المأثورات الغربية المناظرة وفي مرتبة أدنى منها . ومن ذلك أيضاً أن المعجزات قد استبعدت من مجال التاريخ (العلم) وأحيلت إلى مجال الدين . ولكن طه وقد توصل إلى هذه النتائج حاول فيما يشبه رد الفعل الغريزي أن يرأب هذه التصدعات أو أن يرقعها . وقد رأينا كيف حاول في الرسالة التي أعدها عن أبي العلاء وكانت تتويجاً لكتابه المبكرة أن يرجح كفة الميزان

(١) يرى Ibrahim Amin Ghali في مقالته " Trois penseurs égyptiens " , *La Nouvelle Revue du Caire*, vol. I (1975), p. 219 - 239 , p. 238 أن البحث عن هذه الصيغ خاصية مشتركة بين مفكرى النهضة . وقد يكون هذا صحيحاً بصفة عامة ، ولكن حالة طه لها مميزاتها الخاصة .

لصالح طريقة المرصفي اللغوية (الكلاسيكية الجديدة) فرأى أن لا غنى عنها لدراسة الأدب العربى وأنها تكملة ضرورية للمنهج التاريخى .

وفى فترة الدراسة فى فرنسا ظهرت صدوع أخرى بعضها فى نطاق المعسكر الوضعى ذاته، مما استدعى أشكالاً أخرى من التوفيق . ففى مونبلييه سارع طه - متأثراً بلانسون بطريق مباشر أو غير مباشر - إلى الاعتراف بعامل سيكولوجى يضاف إلى موضوعية تين وينفرد بدور لا يرد إليها فى عملية الإبداع . ولما انتقل إلى باريس اكتشف أن أوجه الشقاق داخل الوضعية كانت عديدة وأشد خطراً . ففى القاهرة بدت الوضعية وكأنها مذهب متجانس متماسك مثل نسق تين ، أما فى باريس فقد تبين أنها حافلة بنقائض تنطوى على الشد والجذب بين قطبين هما : الموضوعية (الكلية) ، والذاتية (الفردية) .

وبعد أن اعتنق طه فى مونبلييه الصيغة التركيبية اللانسونية تأكد إيمانه بها فى باريس عندما أخذ يدرس على لانسون شخصياً . ولكن هذا الشكل من أشكال المصالحة ترك الباب مفتوحاً لنقائض أخرى ولصيغ تركيبية أخرى . فقد سعى طه - كما سنرى بعد قليل - إلى الجمع بين دوركايم وسينوبوس فى إطار جبهة واحدة ضد ابن خلدون باعتباره مفكراً شرقياً . غير أن هذا الحل نفسه قد أدى بالنسبة لطه إلى زيادة حدة التناقض بين الشرق والغرب . يضاف إلى ذلك أن تلك الفترة ذاتها قد شهدت اشتداد حدة التناقض بين العلم والدين . وهو تناقض نشأ فى القاهرة ، ولكنه ازداد حدة نتيجة لتحسن معرفة طه بالوضعية بصفة عامة واعتناقه لتفسير دوركايم الاجتماعى للدين بصفة خاصة . ويمكن أن يقال بصفة عامة إن بعض النقائض قد ظهرت واستدعت بعض جهود المصالحة فى القاهرة، ولكن عمق هذه الصراعات واتساع نطاقها لم يظهر بوضوح إلا فى باريس . ومنذ ذلك التاريخ فصاعداً كان على طه أن ينفق سنوات عديدة بحثاً عن حلول تركيبية لعلاج هذه الأشكال من الشقاق . ولما كان بعض هذه الحلول لم يوضع إلا بعد عودة طه إلى القاهرة بفترة طويلة، فإن البحث فى عدد من المصالحات لا بد أن يتجاوز حدود تعليمه النظامى فى مواضع عدة .

المركّب اللانسوني

فى مواجهة الأزمة المنهجية الوضعية أدرك طه أن لانسون هو الأستاذ الذى ينبغى أن يتّبع ؛ فقد كان رجلاً من أهل المصالحة والتوفيق فى تاريخ الأدب . والواقع أن الدعوة إلى التركيب كانت شائعة فى جو الفترة،^(١) ولكن لانسون كان يتميز بأنه يعمل فى الحقل الذى يحظى بمعظم اهتمام طه .

وفى مقالة يكثر الاستشهاد بها يحاول لانسون أن يطمئن كل الأطراف ولاسيما ذلك الفريق من عشاق الأدب الذين يحلو لهم أن يتخيلوا أن "المنهج" كابوس يتعين عليهم أن يقاوموا طغيانه المميت دفاعاً عن متعهم وقدرتهم على التذوق العقلى.^(٢) غير أن الواقع هو أن هذه المخاوف ليس لها ما يبررها وفقاً للانسون . وهو لن يحاول - فيما يقول - أن يلغى أى شكل من أشكال النقد الأدبى .^(٣) فهو على عكس ذلك يسعى - كجزء من سياسته ذاتها - أن يستوعب المساهمات الرئيسية التى قدمها سابقوه .^(٤)

والعنصر الأساسى فى منهج لانسون هو دعوة سديدة منعشة إلى العودة إلى النصوص. ففي رأيه أن الاهتمام ينبغى أن ينصب على الأعمال الأدبية، لا على الخلاصات والكتب التعليمية؛ فبدون قراءة النصوص الأصلية لذاتها يصبح تاريخ الأدب عملية عقيمة ترجع بنا إلى العصور الوسطى عندما كانت المعرفة تقتصر على الخلاصات والكتب التعليمية والحواشى والتعليقات.^(٥)

(١) انظر Guy Bourdè et Hervé Martin, *Les écoles historiques* (Paris 1983) , p. 217

(٢) G. Lanson, " La méthode de l'histoire littéraire ", in idem *Essais de méthode, de critique et d'histoire*, ed. Henri Peyre (Paris 1965) , p. 31-55, p. 31 - 23 .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

(٤) « ... لم أشغل نفسى قط بأن أكون من أصحاب الأصالة ولا بأن أتوصل إلى اكتشافات . ولم يكن هناك ما هو أحب إلى نفسى من أن أكون بصفة عامة قد وقعت على نفس الأفكار التى خطرت لمعاصرى عند قراءة نفس المؤلفات. » - Avant G. Lanson, *Histoire de la littérature française* (Paris 1951) , p. x .

(٥) نفس المصدر ، ص vi .

وبعد تحديد موضوع الدراسة المباشر، يبسط لانسون منهجاً نقدياً يجمع بين ثلاثة نهج رئيسية يرى أنها ينبغي أن تتيح معرفة شاملة متوازنة سليمة بالأعمال الأدبية. أولاً أن تدرس النصوص الأدبية بوصفها وثائق، مع استخدام الإجراءات "الدقيقة والإيجابية" للتاريخ العلمى كما قررها لانجلوا وسينوبوس^(١). وهو ما يقتضى دراسة الجيولوجرافيا والتسلسل الزمنى وسير المؤلفين ونقد النصوص، مع الاستعانة - كلما اقتضى الأمر - بتخصصات أخرى مثل العلوم المساعدة^(٢).

ثانياً : أن يسعى إلى تفسير الأعمال الأدبية عن طريق ربطها بالأوضاع التى تسببها. وهنا يذكر لانسون كل الجهود التى تهدف - عن طريق تطبيق "المناهج العلمية" - إلى الربط بين أفكارنا وانطباعاتنا الجزئية فى نطاق شكل تركيبى ، وبذلك تبين تقدم الأدب ونموه وتحولاته.^(٣) ولانسون يعنى هنا التركيبات النظرية لدى تين ولابرونتيير : أى نظرية الجنس والوسط واللحظة لدى الأول ، ونظرية تطور الأنواع الأدبية لدى الثانى .

ثم يستدرك لانسون فيرى أنه بعد استغراق كل هذه الوسائل الرامية إلى "تعليل" الأعمال الأدبية تبقى فضلة لا يمكن لأى من هذه التفسيرات أن يصل إليها ولا يمكن لأى من تلك العلل أن تفسرها ، وتلك الفضلة التى تند عن التفسير والتعليل هى قوام أصالة العمل الممتازة والطابع الفريد لمؤلفه. وتلك الفضلة التى تستعصى على التحليل هى - فى رأى لانسون - الموضوع الخاص لتاريخ الأدب. وهناك إذن حاجة إلى نهج ثالث يقتضى استخدام الملكات الذاتية ، ومن ثم كانت الحاجة - ثالثاً - إلى تناول النصوص الأدبية على نحو ذاتى أو من حيث هى مصدر للمتعة الجمالية أو موضوع للتذوق، وذلك من أجل إدراك ما هو أدبى أساساً وعلى نحو فريد فيها . فالأدب - فى رأى لانسون - ليس موضوعاً للمعرفة ، بل هو ضرب من الدربة أو التذوق أو اللذة . وهو ليس شيئاً يعرف أو يتعلم ، ولكنه شئ يمارس وينمى ويحب .^(٤)

(١) نفس المصدر، ص vii وانظر أيضاً نفس المؤلف، المرجع السابق، ص ٣٣ .

(٢) نفس المصدر، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) *Histoire de la littérature française*, p. vii

(٤) نفس المصدر، ص viii .

وفى إطار هذا النهج الأخير قد ينظر لانسون فى حالة سانت بيف ، وهى حالة صعبة. فهو من ناحية واحد من بين ثلاثة رجال أو أربعة يرى لانسون أنهم أساتذة النقد الأدبى . فقد وضع سانت بيف النقد على أسس راسخة عندما أقامه على أساس دراسة سير المؤلفين بوصفهم أفراداً أحياء.^(١) غير أنه من ناحية أخرى كان مفكراً أخلاقياً حول الأدب بأسره تقريباً إلى سيرة.^(٢) فهو بدلاً من استخدام السير لتفسير الأعمال الأدبية استخدم هذه الأعمال ليستخلص منها سير الحياة.^(٣) ولذلك كان لانسون لا يحبذ العودة إلى سانت بيف^(٤) ، وإنما يفسح مكاناً لنهجه القائم على ترجمة الحياة شريطة أن يستخدم فى تفسير النصوص .

وفى هذا الإطار ذاته قد ينظر لانسون فى حالة المذهب الانطباعى (لدى جول لومتر) وهو المذهب الذى يرى لانسون أنه مشروع تماماً ولا غبار عليه إذا بقى فى الحدود السليمة . وذلك أن لانسون إن كان يحذر من الانطباعية عندما تتخفى فى زى التاريخ أو المنطق غير الشخصى ، فإنه كان يرحب بالنوع الصريح الذى يعبر عن استجابة عقل من العقول لعمل أدبى^(٥) .

ويمكن أن نستنتج إذن أن نهج سانت بيف القائم على السيرة والانطباعية الصريحة ينبغى أن يستخدم فى حدود معينة لتناول عنصر الفردية الذى لا يقبل التحليل فى الأعمال الأدبية . وبذلك يكتمل منهج لانسون، على الأقل بالنسبة لأقواله المنهجية فى كتابه عن تاريخ الأدب الفرنسى . ولكنه فى بعض أعماله الأخرى يعيد فتح المسألة المنهجية لأن العنصر السالف الذكر ما زال مستعصياً - فيما يبدو -

(١) G. Lanson, *Méthodes de l'histoire littéraire & Hommes et livres* (Genève 1979), Avant-propos, p. vii .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر ، ص viii .

(٤) نفس المؤلف ، p . 23, " La méthode de l'histoire littéraire " .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٥ .

وما زال يثير المشكلات بالنسبة للانسون. ومن هذه المشكلات أنه يريد أن يخضع للتعريف الفرديات الأصلية التي هي بحكم طبيعتها ذاتها فريدة ممتنعة على القياس^(١).

وثمة مشكلة أخرى وهي أن تقديم شرح سليم لعنصر الفردية يقتضى الإشارة إلى ما هو عام وكلى . وذلك أن لانسون يرى أن الأفراد - مهما بلغت عظمتهم أو سما قدرهم - لا يمكن أن يعرفوا بمعزل تماماً عن الأشياء الأخرى.^(٢) فأعظم الكتاب حظاً من الأصالة هو إلى حد بعيد حافظة للأجيال السابقة وجامع للحركات المعاصرة. فلكي نجده في تفرد ينبغى أن نستبعد كل المواد الدخيلة . ولكننا عندما نفعل ذلك لا نعرف الكاتب الفرد إلا من حيث الإمكان . فإذا أردنا أن نعرف مزاياه الحقيقية و"شدته" الحقيقية، فلا مفر من أن نراه في تأثيره على الآخرين وإنتاجه لآثاره ، أى لا مفر من أن نتقصى تأثيره في الحياة الأدبية والاجتماعية. ومن ثم كانت ضرورة دراسة طائفة متنوعة من الوقائع العامة والأنواع الأدبية والتيارات الفكرية وأحوال الذوق والحساسية المحيطة بالكاتب العظيم وبالروائع الأدبية^(٣).

يضاف إلى ذلك أن الأجل والأعظم في العبقرية الفردية ليس هو عنصر التفرد الذي يفصلها عن الغير ، بل هو قدرتها على أن تكون في تفرد ذاتها ملخصاً ورمزاً للحياة الجماعية في فترة ما أو لجماعة ما . أى قدرتها على تمثيل الغير . ويتعين علينا إذن أن نحاول الإلمام بكامل المحيط الإنساني الذي يعبر عنه من خلال الكتاب العظام^(٤).

ولكن لانسون - إذ يعيد فتح أبواب البحث في تأثير العبقرية الفردية وصبغتها التمثيلية - يضيف عنصراً آخر إلى منهجه التركيبي ، وأعنى بذلك مساهمة من جانب دوركايم من شأنها أن تعرض فكره إلى مزيد من التوتر النقيض بين الفرد والمجتمع.

(١) نفس المصدر، ص ٢٥ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر، ص ٢٦ .

(٤) نفس المصدر، ص ٢٦ - ٢٧ .

وأياً ما كان الأمر، فلا شك أن مركب لانسون المنهجي - كما عرضناه - كان له تأثير باق على فكر طه حسين . ففي فترة مونبلييه سارع طه إلى الإقرار بقصور موضوعية تين والاعتراف بضرورة فضلة ذاتية تستعصى على التحليل في الأعمال الأدبية . وسنرى بعد قليل أن طه في الرسالة التي كتبها في باريس عن ابن خلدون قد طبق على المؤرخ القديم نهجاً نقدياً مركباً يتضمن عنصرين : عنصراً يستند إلى لانجولا وسينوبوس ، وعنصراً يستند إلى دوركايم .

وقد ظل طه بعد عودته إلى مصر بأربع سنوات محافظاً على المصالحة اللانسونية، وذلك عندما دافع عن اتباع نهج شامل في النقد يجمع بين تين وسانت بيف وجول لومتر وغيرهم إذا لزم الأمر.^(١) وقد اتبع نفس النهج الجامع في كتابه في الأدب الجاهلي (١٩٢٧) حيث دعا إلى الجمع بين نهجين في تاريخ الأدب : أحدهما "علمي" يمثل سانت بيف وتين وبيروننتير، والآخر "أدبي" أو "فني" يقوم على ممارسة الذوق^(٢).

بيد أننا نخطئ إذا افترضنا أن تمسك طه بالمركب اللانسوني كان صارماً وثابتاً طيلة حياته الأدبية الناضجة ، فسوف نرى فيما يلي أنه قد أتى في الثلاثينيات وقت انهار فيه المركب المذكور نتيجة اعتناق طه للانطباعية غير المقيدة . ويكفي الآن أن نفحص أسباب وفائه للانسون بقدر ما دام .

ففي العشرينيات لا بد أن لانسون بدا لطه، داعية الحداثة، بوصفه أكثر مؤرخي الأدب حداثة نظراً لنهجه التوفيقى . فلما كان هذا النهج يستوعب كل ما قدم الفكر النقدي الحديث من مساهمات تقريباً، ويفتح الباب واسعاً لدخول الهواء النقي والنور من كل الاتجاهات ، فلا بد أنه بدا أنسب منهج لدراسة الأدب العربي وإحيائه .

(١) القدماء والمحدثون في حديث الأربعة، الجزء ٢، في م لـ، المجلد ٢، الطبعة ٢ (١٩٧٤)، ص ٢٧٢ ٢٧٣ و ٢٨٤ نشرت المقالة لأول مرة في السياسة، ٢١ يناير ١٩٢٣ .

(٢) في الأدب الجاهلي ، في م لـ، المجلد ٥ (١٩٧٣)، ص ٤٥ وما يليها . لاحظ كيف يشير طه حسين في هذا السياق إلى أعمال لانجولا وسينوبوس (نفس المصدر، ص ٤٨ ، الحاشية ٢) ويؤكد على ضرورة تطبيق إجراءات التاريخ العلمي مثل استكشاف النصوص وقراءتها [تفسيرها] وتحقيقها وضبطها (نفس المصدر، ص ٥٢).

ولكن مخطط لانسون كان يتميز فى نظر طه بميزة إضافية، وهى أنه على مرونته قد استبقى مكاناً لنواة صلبة من الوضعية تتضمن مساهمات "علمية" من تين وبرونتير وسينوبوس. صحيح أن المكان المخصص لهذا العنصر من التفكير الوضعى قد ضاق نطاقه بسبب إدخال الانطباعية، ولكنه لم يبلغ تماماً . فقد استقبلت هذه الإضافة فى حدود معينة كعنصر أخير ، أى أنها بعبارة أخرى لم يسمح لها بالدخول إلا بعد استغراق كل أنواع الإجراءات العلمية .

ويضاف إلى كل ذلك أخيراً أن دعوة لانسون إلى العودة إلى النصوص الأصلية دون ركاز من الحواشى والكتب التعليمية والتعليقات على طريقة العصور الوسطى لا بد أن كان لها وقع الموسيقى على أذن طه، وهو الذى تمرد على الإسكولائية الأزهرية. ولابد أن إلحاح لانسون بصفة خاصة على ضرورة تقدير النصوص الأدبية لذاتها و"استساغتها" - إذا صح التعبير - قد ذكّر طه بأستاذه الأزهرى المرصفى . فقد كان أول من نبهه إلى الجوانب الجمالية فى النصوص الأدبية. ومن الممكن أن يقال فى نفس الوقت إن طه فى وفائه لأستاذه الفرنسى كان وفياً لنفسه. أفلم ينادى فى تجديد نكرى أبى العلاء بضرورة اتباع استراتيجية نقدية مركبة من عنصر تاريخى حديث وعنصر لغوى على طريقة المرصفى؟ وما دام قد خطا تلك الخطوة المبكرة فى الاتجاه الصحيح، فإن كل ما كان يحتاج إليه هو أن يوسع حدود كل من العنصرين بحيث تتسع لأفضل ما فى الفكر النقدى الحديث ؛ وبذلك تحشد الموارد القصوى لدراسة الأدب العربى .

جبهة موحدة ضد ابن خلدون

يرى طه فى رسالته عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية أن المؤرخ العربى القديم كان إلى جانب أبى العلاء أحد رجلين فذين فى تاريخ الآداب العربية . فقد امتاز كل منهما بابتكار خارق لم يتصف به أحد من المسلمين أساتذة كانوا أم تلامذة.^(١) وبعد

(١) انظر مقدمة طه حسين لـ فلسفة ابن خلدون الاجتماعية (الذى هو ترجمة للنص الأصلى الفرنسى)، ترجمة محمد عبدالله عنان ، فى م ك، المجلد ٨، الطبعة ٢ (١٩٧٥)، ص ٩.

أن كتب طه رسالته الأولى فى القاهرة عن أبى العلاء رأى أن من المناسب تماماً أن يخصص رسالة الدكتوراه الثانية فى باريس لدراسة المؤرخ العربى . ويبدو إذن أن العمل المتأخر كان تمة طبيعية للرسالة الأولى ، ولكن المشكلة هى أن نفهم بأى معنى كان كذلك .

يذهب أحمد عبدالسلام إلى أن الهدف الرئيسى للرسالة الباريسية كان إحياء التراث الفكرى الذى كان يلقي أعظم التأييد من طه ، أى التيار الإنسانى العقلانى الذى امتد من أرسطو حتى الفلاسفة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر.^(١) وقد كان ابن خلدون - فى رأى طه حسين - ينتمى إلى هذا التيار الذى تشبع به الفكر العالمى وكفل التقدم من قرن إلى قرن.^(٢) ويبدو إذن كما لو أن طه حسين وقد عرض أبا العلاء بوصفه شخصية عالمية فى نطاق التراث المذكور أراد أن يؤدى نفس الخدمة لابن خلدون . ولكن التفكير على هذا النحو يعنى الإخفاق فى إدراك الغرض الرئيسى من الكتاب موضوع النقاش .

وحقيقة الأمر أن طه حسين لم يرد بعد دراسته عن أبى العلاء تصوير ابن خلدون بوصفه مفكراً عقلانياً آخر بقدر ما أراد أن يثبت أن المؤرخ العربى كان - على خلاف ما قد يبدو لأول وهلة - مفكراً مسلماً شرقياً^(٣) ينتمى إلى عصره (العصور الوسطى). كان رجلاً لا يمكن - رغم مواهبه الفذة ولحات ذهنه الثاقبة وتلميحاته التى تتسم بما يشبه العصرية - أن يصنف فى عداد المحدثين فيما يتعلق بأهم الأمور، وهى أن يكون فى عداد المؤرخين وعلماء الاجتماع العلميين . ومن ثم كان طه حسين يتصدى للباحثين الأوروبيين مثل شولتس وجمبلوفتش وفون كريمر الذين اعتقدوا أن المفكر الذى ظهر فى العصر الوسيط استبق المؤسسين المحدثين للتاريخ وعلم

(١) للكلمة الفرنسية (*les philosophes*) معنى محدود تشير بمقتضاه إلى فلاسفة التنوير الفرنسيين أو الفلاسفة الذين اشتركوا إلى جانب ديرو فى تحرير الإنسيكلوبيديا .

(٢) Ahmed Abdesslem, *Ibn Khaldun et ses lecteurs* (Paris 1983) p. 51

(٣) انظر فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص ١٠٧ ، حيث يصف طه حسين ذهن ابن خلدون بأنه «شرقى محض» رغم المشابهات اللافتة للنظر التى توجد بينه وبين بعض الأذهان العظيمة فى العصور الغابرة والحديثة .

الاجتماع العلميين ؛ فهو - على خلاف هؤلاء الباحثين المعجبين بابن خلدون دون تحفظ - يقترح - ربما لأول مرة على الإطلاق - أن يدرس المؤرخ العربى فى حدود عالمه الشرقى الوسيطى . فرغم أن ابن خلدون قد وضع فلسفة اجتماعية على درجة عالية من الأصالة، فإنه فى رأى طه حسين لا يمكن أن ينسب إليه شرف تأسيس التاريخ أو علم الاجتماع كعلم قبل القرن التاسع عشر بفترة طويلة .

فإذا كانت هذه هى الرسالة الرئيسية للكتاب فبأى معنى يمكن أن يكون تنمية طبيعية لرسالة طه عن أبى العلاء؟ لنسترعى الانتباه أولاً إلى أن طه كان على ألفة بابن خلدون وأنه قرأه قراءة فأحصية فى الفترة المبكرة من حياته الأدبية. وذلك أن كتاباته الأولى بداية من مقالاته فى نقد جرجى زيدان (١٩١١) تحفل بالإشارات الصريحة والضمنية إلى المؤرخ العربى ، وإلى المقدمة بصفة خاصة. ومن ذلك أن أفكار طه عن تطور المجتمع العربى قبل ظهور الإسلام ويعدده مستمدة إلى حد بعيد من تعاليم ابن خلدون فيما يتعلق بالتقابل والتفاعل بين حياة الترحل وأحياء البداوة وبين سكنى الحضر . والأهم من ذلك بكثير أن ابن خلدون كان لطه نعم المحاور فى خطابه المبكر عن المنهج التاريخى الحديث . وهكذا نلاحظ أن طموح الكاتب الشاب إلى أن يبسط فى سلسلة من المقدمات الشروط اللازمة لكى يكون تاريخ الأدب علماً يذكر على نحو واضح بالسابقة الخلدونية فى مجال التاريخ عندما حاول مؤلف المقدمة أن يؤسس التاريخ كعلم قائم بذاته . ومن ذلك أيضاً أن الجانب العلمى من جبرية طه فى المرحلة المبكرة كانت تتضمن كما رأينا عنصراً خلدونياً .

ويترتب على ذلك أنه كان من المناسب والسديد تماماً بالنسبة لمؤلف ذكرى أبى العلاء أن يختار ابن خلدون موضوعاً لرسالته الباريسية. فأولاً كان الاختيار ملائماً لطالب أراد أن ينجز أقصى ما يستطيع فى أقصر فترة ممكنة . وقد كان هذا الاختيار أحد العوامل التى مكنت طه من كتابة رسالته فى زمن قياسي^(١) . وسوف نرى فيما يلى كيف عالج طه الموضوع باقتصاد بديع فى الطاقة وحقق منطقى .

(١) لم يكن من الممكن لطه أن يبدأ العمل فى رسالته قبل وصوله إلى باريس فى أوائل سنة ١٩١٦ . ونحن نعلم من ناحية أخرى أن الرسالة نشرت فى سنة ١٩١٧ .

ولكن الاختيار لم يكن يستند إلى عنصر الملاءمة فقط؛ فقد كان أيضاً منطقياً ولا مناص منه بمعنى هام . وذلك أن ابن خلدون لا بد قد واجه طه بمشكلة خطيرة . فهو لما كان محاوراً ذا وزن فيما يتعلق بالدراسة العلمية الحديثة لتاريخ الأدب العربى - وهى الدراسة التى كانت فى رأى طه نتاجاً أوروبياً من حيث الجوهر أو المنهج - فإنه يحق لابن خلدون فى بادئ الرأى أن يدعى "الحداثة". وكان لا بد للسؤال أن يثار عن مدى صحة هذا الادعاء. ولقد أثير بالفعل وأجيب عنه على نحو من الأنحاء فى "حياة الآداب" (١٩١٤) حيث انتقد طه ابن خلدون لأسباب عدة من وجهة نظر وضعية. وسوف نرى بعد قليل كيف استأنف طه النظر فى هذا السؤال وكيف طوره فى الرسالة الباريسية . ولكن ينبغى أن يكون من الواضح منذ الآن أن ابن خلدون كان يمثل تحدياً خطيراً بالنسبة لمناصر الحداثة الشاب أو الوضعى الناشئ، وأنه كان ينبغى أن يواجهه فى لقاء أخير لتصفية الحسابات .

إن مؤلف الرسالة الباريسية يقدم عن السؤال عن حداثة ابن خلدون إجابة تتميز بالطف والدقة ، ولكنها يمكن أن تكون مضللة . فهو يبذل قصارى جهده لكى يؤكد المرة تلو الأخرى أصالة ابن خلدون الفذة ، ولكى يعزو إليه الفضل فى كثير من التجديدات الرائدة التى تبدو عصرية. وهكذا رأى أن ابن خلدون هو أول مسلم كتب تاريخ الحركة الأدبية والعقلية للمسلمين بطريقة تكاد تكون حديثة؛^(١) وأن إنجازاه فى هذا المجال مثير للإعجاب بوجه خاص لأنه رأى فى العلم ظاهرة اجتماعية.^(٢) وأما أراؤه فى التربية فمن الممكن أن تقارن بأراء أساطين التربية الحديثة مثل هريبرت سبنسر^(٣) وبستالوتزى.^(٤) وفيما يتعلق بالتاريخ رأى طه أن ابن خلدون هو أول مؤرخ - لا فى العالم الإسلامى فقط بل فى العالم القديم والعصور المتوسطة أيضاً - نظر إلى

(١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص ١٥٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ١٥٨ .

(٣) نفس المصدر، ١٦١ .

(٤) نفس المصدر، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

التاريخ من حيث هو كل لا يتجزأ، وتخيّل طريقة لتمحيص الوقائع التي تكونه، وابتدع أيضاً علماً إضافياً يساعد على فهمه.^(١) وكثيراً ما تذكرنا أفكار ابن خلدون ببعض المفكرين العظام في مجال الفلسفة السياسية مثل أرسطو ومكيافيلي ومونتسكيو. بل إن المفكر العربي ليتفوق أحياناً على المفكرين الأولين.^(٢) فلقد كان في نهاية المطاف أول من استطاع أن يستخلص السياسة من الاعتبارات الدينية وأن يشرحها بطريقة أصح من الوجهة العلمية ولغاية ليست عملية.^(٣) وفيما يتعلق بمسألة الخلافة رأى طه - متأثراً في ذلك بفكرة طرحها كازانوف - أن ابن خلدون كان أول مسلم استطاع أن يقرر آراء شخصية نزيهة، آراء مدنية - إن صح التعبير - في مسألة كانت تعد إلى عهده دينية محضة.^(٤) كما لاحظ طه أوجه شبه بين ابن خلدون وكورنو^(٥).

وكل ذلك لا بأس به ، ولكنه لا ينبغي أن يصرف انتباهنا عن الاتجاه الأساسي لتفكير طه ، فهو يخصص فصلين متعاقبين هما الثاني والثالث لينقد استحقاق ابن خلدون من ناحيتين : أولاً كمؤسس للتاريخ العلمي ، ثم كممارس لعلم الاجتماع العلمي. وطه يحكم على ابن خلدون في كلتا الناحيتين وفقاً لمعايير من وضع أستاذه في السوربون: سينوبوس بالنسبة للتاريخ ودوركايم بالنسبة لعلم الاجتماع. فهما فيما يفترض طه الحجة العليا فيما ينبغي أن يعد علمياً في التاريخ وفي علم الاجتماع على التوالي .

فإذا بدأنا بالتاريخ وجدنا أن الهدف الرئيسي للنقد هو محاولة ابن خلدون ضمان صحة التاريخ وحسن فهمه عن طريق وضع منهج أكيد لتحقيق الوقائع التاريخية وعرض القوانين التي تعمل النظم الاجتماعية طبقاً لها ، والنقد الأساسي

(١) نفس المصدر، ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر، ص ٥٨ و ١٢٥ .

(٣) نفس المصدر، ص ٥٨ .

(٤) نفس المصدر، ص ١٢٩ . قارن

Paul Cazanov, *Mohammed et la fin du monde* (Paris 1911) p. 10-11 .

(٥) نفس المصدر، ص ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ .

الذى يوجهه طه إلى هذه المحاولة، معرفة على هذا النحو، هو أنها تنتمى إلى فلسفة التاريخ ولا تنتمى إلى التاريخ [العلمى] وفقا "للمؤرخين الحديثين" أو "المدارس الحديثة" [فى مجال الفكر التاريخى] .^(١) وذلك أن التاريخ فى نظر هؤلاء هو أساساً دراسة الآثار المادية التى خلفتها الأحداث الماضية ، والمؤرخ المحدث مطالب بأن يكتشف هذه الآثار ويفحصها وأن يثبت من ثم الحوادث التى تشير إليها، وكل ذلك على نحو منهجى دقيق .

أما ابن خلدون فلم يخطر بباله قط أن يدرس مثل تلك الآثار. بل إنه مثله مثل فيكو اكتفى بأن يجعل من الوقائع ذاتها موضوعاً للتأمل وأن يستخرج منها قوانين عامة تطبق على سير الحوادث فى الزمن وفى الحياة الاجتماعية.^(٢) ففى رأى ابن خلدون أن قواعد فحص الحوادث المروية وتحقيقها ترجع إلى أصل واحد هو وجوب البحث بطريقة نظرية عما إذا كانت الواقعة من الوقائع ممكنة فى ذاتها وعما إذا كانت غير مناقضة لطبائع العمران وما إذا كانت تتفق مع الزمان والمكان اللذين وقعت فيهما^(٣) .

والواقع أن ما يقوله طه عن أن ابن خلدون لم يدرك أن التاريخ هو أساساً دراسة الآثار المادية المتخلفة عن أحداث الماضى ليس إلا صورة معمة من النقد الذى وجهه طه فى "حياة الآداب" فيما يتعلق باقتصار ابن خلدون على الروايات الشفوية وما ترتب على ذلك من إهمال للوثائق المكتوبة^(٤) .

وبعد هذا الاعتراض الأول على ابن خلدون يضيف طه قوله إن المؤرخ العربى لم يقصد قط إلى تغيير طبيعة البحث التاريخى ؛ فقد بقى التاريخ بالنسبة له - كما كان بالنسبة لأسلافه - "ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو بجيل"، وإن كان قد اعتقد - عن وجه حق - أنه لا يكفى لرواية الأحداث بطريقة مفهومة سرد الوقائع المجردة، وإنما

(١) نفس المصدر، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) نفس المصدر، ص ٣٦ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) انظر الفصل الرابع أعلاه، ص 122 .

ينبغي للقصة أن تركز على معرفة "الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار". ولكن هذا النوع من المعرفة - فيما يرى طه - لا يقدمه التاريخ نفسه كما يتصوره ابن خلدون ، بل هو موضوع لعلم آخر ملحق به ضرورى له فى الواقع ولكنه فيما يرى ابن خلدون علم قائم بذاته معنى بالعمران^(١).

أما الباحثون الذين اعتقدوا أن ابن خلدون أراد أن يؤسس التاريخ كعلم، فقد ضللهم استخدامه لكلمة "علم" العربية التى ترجمت خطأ بكلمة "science" فى حين أنها لا تعنى إلا "المعرفة".^(٢)

يضاف إلى ذلك - فى رأى طه - أن المرء يكفيه أن ينظر فى ممارسة ابن خلدون لدراسة التاريخ ليدرك أنه لم يحاول أن يحقق الغاية العلمية المنسوبة إليه. فهو إن كان يبدو فى المقدمة وكأنه على وشك إحداث ثورة فى دراسة التاريخ، فإنه يتصرف فى تاريخه مثله مثل الرواة العرب من النوع المألوف الذين يروون الأحداث دون اختبار أو تمحيص^(٣).

وبعد تفنيد أحقية ابن خلدون بأن يعد مؤسس التاريخ العلمى ، ينتقل طه إلى النظر فيما إذا كان علم العمران (أو معرفة العمران كما يرى طه) وفقاً لابن خلدون يمكن أن يسوى بعلم الاجتماع أو إلى النظر - بعبارة أخرى - فيما إذا كان ابن خلدون عند تأسيسه لعلم العمران قد سبق إلى علم الاجتماع الحديث . وهنا أيضاً يجيب طه بالسلب مدعماً إجابته بعدة حجج مستمدة من دوركايم بصفة رئيسية .

ينتقد طه ابن خلدون لأنه لم يأخذ فى اعتباره إلا شكلاً واحداً من أشكال الاجتماع، أى الدولة المنظمة (أو الشعب أو الأمة)، وتطورها وتحولاتها فى التاريخ.

(١) طه حسين، المرجع السابق، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ٣٨ .

(٣) نفس المصدر، ص ٣٩ .

وهو لم يدرك أهمية الأشكال الاجتماعية الأخرى ، أى الفئات الخاصة داخل المجتمع الإسلامى، مثل الطرق الصوفية التى كان عليماً بوجودها^(١) .

والواقع فى نظر طه أن الشغل الشاغل لابن خلدون كان تاريخياً وليس اجتماعياً . فهو رغم اقتناعه بأن دراسته للمجتمع تمثل مبحثاً قائماً بذاته قد أجرى هذه الدراسة لا لذاتها ولكن من أجل التاريخ، ومن أجل التاريخ بوصفه عرضاً للأحداث السياسية ؛ ولذلك تناول المجتمع فى شكله السياسى الخارجى ، أى الدولة، ودرس هذا الشكل بطريقة أولية . وما كان اهتمامه بالقبيلة البدوية إلا نتيجة لاعتقاده أنها أصل كل الإمبراطوريات^(٢) .

وعلى مستوى أعمق يرى طه أن ابن خلدون لم يكن لديه تصور واضح للمجتمع مختلف عن تصوره للفرد؛ فهو لم يدرك أن للمجتمع وجوداً ثابتاً وحقيقة غير الحقيقة الفردية ، وأقام دراسته للمجتمع على أساس دراسته للأفراد مستنداً بصفة خاصة إلى بيانات مستمدة أصلاً من الدراسات الكلامية والميتافيزيقية عن الروح البشرية. ومن ثم كان قوام دراسة المجتمع بالنسبة لابن خلدون هو تطبيق قوانين علم النفس الفردى عليه^(٣) . بل إن ابن خلدون قد تصور دراسة تطور الدولة على غرار دراسة الفرد^(٤) .

ومن الواضح أن كل هذه الانتقادات تستند إلى آراء دوركايم عن الأولوية الأنطولوجية والمنهجية التى يتمتع بها المجتمع (ككل وليس بوصفه مجموع أعضائه) وإلى عدائه لإدخال العوامل السيكولوجية فى التفسير الاجتماعى .

بيد أن طه إذ يوجه نقده الأخير للطابع النظرى لمنهج ابن خلدون يطور بعض الاعتراضات التى أثارها فى "حياة الآداب" فيما يتعلق بلجوء ابن خلدون لما هو غيبى

(١) نفس المصدر، ص ٦١ و ٦٢ . ولاحظ إشارة طه لدوركايم صراحة فى نفس المصدر، ص ٦٦ . أما بالنسبة لرأى هذا الأخير فى أهمية الجماعات الخاصة فى نطاق المجتمع السياسى فانظر مقدمته للطبعة الثانية من كتابه فى تقسيم العمل الاجتماعى ، ترجمة حافظ الجمالى (بيروت ١٩٨٢) .

(٢) طه حسين، المرجع السابق، ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٤) نفس المصدر، ص ٦٣ .

فى التفسىر التارىخى . فطرىة ابن خلدون فى البعث الاجتماعى تعتمد - فىما بقول طه - على الخبرة فى الاستدلال، وهى تؤتى ثماراً طيبة طالما التزم بهذا الأساس. إلا أنه يتخلى أحياناً عن هذه الطرىة التجريبيه مفضلاً عليها طرىة كلامية أو ميتافيزيقية فى التفسىر . يحدث هذا - على سبيل المثال - عندما يسعى إلى تفسىر الانتصارات الكاسحة التى أحرزتها الدولة الإسلامية الناشئة على الدولة الفارسية ودولة الروم بالجوء إلى المعجزة^(١) وهو فى عدد من الحالات يستمد براهينه من الميتافيزيقا . ومن ذلك أن كل ما يقوله عن الروح البشرية وطريقتها فى الإدراك ليس إلا خلاصة ما وراء الطبيعة^(٢) .

ويخلص طه من كل ذلك إلى القول بأن ابن خلدون قد انتهى إلى بعض النظرات الاجتماعية العميقة الثاقبة، وحقق تقدماً عظيماً فى تاريخ الفلسفة الاجتماعية، ولكن مزيته لا تقل بحال من الأحوال إذا قيل إنه وضع فى المقدمة أول حجر فى أساس الفلسفة الاجتماعية ولم يضع علم الاجتماع ذاته^(٣) فقد كان فيلسوفاً اجتماعياً على قدر عظيم من الأصالة ولكنه لم يكن عالم اجتماع .

ونستطيع الآن أن نرى أن حجاج طه ضد ابن خلدون كان اقتصادياً على نحو بارع ؛ فهو على أساس المقدمات التى يستمدّها من أساتذته فى السوربون يشن هجومه على جبهتين: جبهة للتاريخ وجبهة لعلم الاجتماع، ويحدد مناطق الضعف فى النسق الخلدونى (مثل التقصير فى النظر إلى التاريخ بوصفه دراسة للآثار المادية للماضى ؛ والعلاقة الإشكالية بين التاريخ والمجتمع؛ والاستعانة بالتفسيرات الدينية والميتافيزيقية) ويستخدم النتائج التى توصل إليها فى كتاباته المبكرة . وطه لا يبدد شيئاً ولا يبعثر جهوده ، فهو ما إن يحدد الهدف حتى يحصر ابن خلدون بين مطرقة التاريخ العلمى أو الوثائقى وسندان علم الاجتماع الوضعى .

(١) نفس المصدر، ٦٤ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

ومع كل ذلك فإن المرء لا يمكنه أن يقاوم شعوره بأن ثمة شيئاً أساسياً معيباً في طريقة طه الجدلية البارعة، وذلك على الأقل لأن ابن خلدون - وقد أوقع في الفخ - لا يسمح له بأن يعرض قضيته بما لها وما عليها. والواقع أن طه يتناول موضوع بحثه بطريقة "تحليلية" عندما يعنى التحليل النظر في الموضوع بالتجزئة وفقاً لمعايير خارجة عنه وبحيث يكون بالضرورة قليل المناعة. فعلم العمران لا يعطى الكلمة أولاً في القسم التاريخي نظراً لأنه يفترض فيه أن يكون مبحثاً قائماً بذاته ، ويتم إبعاده بناء على ذلك إلى القسم الاجتماعي . فإذا انتقلنا إلى هذا القسم وجدنا طه حسين يدين علم العمران نظراً لنقائص مزعومة من وجهة نظر دوركايم .

وفي هذا النقد الذي يساق باسم الحداثة يتحدث طه بصوتين بحسب جانب السور الذي يقف فيه وبدون مراعاة للاتساق . فهو إذ يكتب تحت تأثير لانجلوا وسينوبوس ينقد ابن خلدون لأنه يفكر على نحو نظري في طبيعة الوقائع ذاتها، وهو ما يدينه بوصفه ضرباً من التأمل الفلسفي . وهو هنا لا يضع في اعتباره أن دوركايم نفسه قد فكر نظرياً في الوقائع الاجتماعية، وأنه تعرض بسبب ذلك لنقد الفرديين المنهجيين الذين اتهموه بالتأمل الأنطولوجي . فإذا انتقل طه إلى القسم الاجتماعي أيد ضمناً آراء دوركايم في أولوية المجتمع وطبيعته الكلية .

ومن هذا الجانب من السور ينتقد طه ابن خلدون مرة أخرى لاقتصراره على التاريخ السياسي ؛ وهي نقطة موضع جدل ، ولكن أقل ما يقال فيها إن طه يتجاهل عند إثارتها أن لانجلوا وسينوبوس - وهما في رأيه مثال الحداثة والعلمية في التاريخ - ينتصران للتاريخ السياسي على التاريخ ذي الوجهة الاجتماعية^(١).

(١) فيما يتعلق بالمعركة بين أنصار التاريخ السياسي (أى التاريخ كرواية للأفعال الفردية العابرة للحكام) وبين أنصار تاريخ الحضارة (التاريخ كوصف للوقائع الجماعية العامة الباقية في الزمان) يقول لانجلوا وسينوبوس إنهما لن ينتصرا لأى من الجانبين. انظر كتابهما المدخل إلى الدراسات التاريخية في النقد التاريخي ، ترجمة عبدالرحمن بدوى ، الطبعة ٢ (الكويت ١٩٧٧)، ص ١٨٧ - ١٨٨ . غير أن لانجلوا وسينوبوس منحازان بحكم المنطق للتاريخ السياسي نظراً لالتزامهما بالفردية المنهجية .

الأخوان كروازيه

يستحق تعليم طه فى مجال الدراسات الكلاسيكية أن يفرد له فصل كامل على أقل تقدير، وذلك لأهميته وتشويقه . ولكننا طلباً للتيسير سنقصر البحث على عدد من جوانب هذا التعليم التى كان لها تأثير على مسألتين : وتتعلق أولاهما بآراء طه حسين فى الشعر الجاهلى وسنتناولها على الفور، بينما تتعلق المسألة الثانية بنزعته الإنسانية فى مرحلة نضجه ، وذلك موضوع القسم التالى من هذا الفصل . ومن حسن الحظ أن طلب التيسير قد يبدو مناسباً نظراً لأن إنتاج طه فى هذا المجال لا يحتل إلا حيزاً محدوداً فى نطاق إنتاجه ككل ، فقد اكتمل معظم ذلك الإنتاج خلال السنوات الست (١٩١٩ - ١٩٢٥) التى أعقبت عودته إلى مصر، وهى الفترة التى اشتغل فيها بتدريس التاريخ القديم فى الجامعة الأهلية المصرية. وفى سنة ١٩٢٥ أصبحت هذه المؤسسة التعليمية جامعة حكومية وعندئذ عين طه حسين أستاذا للأدب العربى . وبداية من ذلك التاريخ صار اهتمامه بالمجال الكلاسيكى بالمعنى الدقيق للكلمة محدوداً ومتقطعاً . والواقع أن أعماله فى هذا المجال لم تؤلف لذاتها أو على سبيل الدراسة العلمية الصرف ، بل ألقت مع الالتفات إلى موضوعات قريبة فى البيئة المصرية . ونقول بعبارة أخرى إن طه حسين استغل معرفته بالتاريخ والأدب اليونانيين الرومانيين من أجل أوجه الشبه والتعارض التى يمكن استخلاصها فى دراسة مقارنة للأدب العربى ومن أجل الضوء الذى يمكن أن تلقيه على هوية مصر ومكانها فى الثقافة العالمية .

وفيما يتعلق بالمسألة الأولى المذكورة أعلاه يمكننا أن نتأمل كيف أفاد طه من المعرفة التى حصلها عن طريق كتاب ألفرد وموريس كروازيه تاريخ الأدب اليونانى فى دراسته للشعر الجاهلى . وسواء أكان طه قد قرأ هذا الكتاب أم لم يقرأه عندما ألف "حياة الخنساء"،^(١) فإننا نعلم أنه استخدمه ككتاب تعليمى فى دراسته لتاريخ الأدب اليونانى على ألفرد كروازيه فى السوربون، ونحن نعلم أيضاً أن الكتاب أصبح فيما

(١) انظر الفصل السادس أعلاه، ص 186 - 187 .

بعد مرجعاً رئيسياً لكتابات طه عن الأدب والتاريخ اليونانيين . ومن جوانب الكتاب التي لا بد قد راقى له أن المؤلفين، مثلهم مثل لانسون، كانا يؤيدان اتباع نهج تركيبى فى تناول الموضوع، نهج يجمع بين الآراء المنهجية لتين وبرونتيير وسانت بيف، مع التأكيد على دور الذوق الذاتى^(١) .

وإننا لنجد مايدل على تأثير الأخوين كروازيه فى كتاب طه حسين قادة الفكر (١٩٢٥)، وخاصة فى الفصل المخصص لهوميروس . ولكن الأخوين كروازيه لعبا أبرز دور لهما فى كتاب **فى الشعر الجاهلى** (١٩٢٦) ، وذلك أن نقاشهما للمسألة الهوميروسية وما كان لها من تفريعات كان مصدرا رئيسياً لتدعيم ادعاء طه أن نحل الشعر ظاهرة عالمية لا توجد فقط فى الثقافة العربية بل توجد أيضاً فى الثقافة اليونانية القديمة وغيرها من الثقافات. كما كان كتاب الأخوين كروازيه مصدراً غنياً بالمواد اللازمة للموازنات الكثيرة التى عقدها طه بين اليونان فى عصر هوميروس وبين بلاد العرب فى العصر الجاهلى . وعلى مستوى أخص أصبحت آراء الأخوين كروازيه فى وحدة وتأليف ونسبة ورواية الإلياذة نموذجاً يحتذى طه (إلى حد سنيينه بعد قليل) فى آرائه المناظرة عن الشعر الجاهلى .

فإلى أى حد كان تقليد طه للأخوين قريباً من الأصل؟ لقد أعد مفتاح طاهر قائمة مطولة لنقاط الاتفاق بين الأخوين كروازيه وبين طه حسين ، وهى قائمة قد تثير إعجاب القارئ بحكم تفصيلها، ولكنها حرة بأن تضلله^(٢) . وذلك أن مفتاح طاهر إذ يتبع منهجاً تحليلياً ممعناً فى التحليل وإذ يقتصر على تعداد أوجه الاتفاق يوحى للقارئ بأن تأثير الأخوين كروازيه كان ذا أهمية أساسية فى حين أنه لم يكن كذلك فى واقع الأمر .

ينبغى أن نلاحظ أولاً أن الاتفاق بين الجانبين لا يعنى دائماً أن طه استمد الرأى المعنى من مؤلفى تاريخ الأدب اليونانى . ومثال ذلك أن رأيه فيما يتعلق بأسبقية

(١) Alfred et Maurice Croiset, *Histoire de la littérature grecque*, vol. I (Paris 1887) p. 11 et sqq.

(٢) Miftah Tahar, *Taha Husany, sa critique littéraire et ses sources françaises* (Tunis 1976) p. 96 et sqq .

الشعر على النثر من الناحية الزمنية - وهو الرأى الذى يشترك فيه مع الأخوين كروازيه - يمكن أن يرد إلى مصدر أسبق ، وأعنى بذلك نالينو.^(١)

والأهم من ذلك أن طريقة طه فى تناول الموضوع تختلف فى بعض المواضع عن طريقة الأخوين كروازيه ؛ فهو على خلافهما لا يحاول على الإطلاق أن يفرق فى نطاق العمل موضوع النقد بين نواة صلبة من العناصر المبكرة أو الصحيحة وبين الزيادات المتأخرة . ومفتاح طاهر يدرك ذلك بوضوح، ولكنه لا يستخلص من هذه الحقيقة أى نتائج نقدية.^(٢) فهو لا يدرك أن الاختلاف المذكور أساسى ، أى أن جميع استعارات طه من الأخوين كروازيه وأوجه تقليده لهما تبدو قليلة الأهمية بالمقارنة ؛ لأنها لا تؤدي من الوجهة المنطقية إلا دوراً مسانداً فى الدعوى التى يقيمها ضد الشعر الجاهلى .

ويوحى الاختلاف المذكور بأن شك طه الراديكالى فى صحة الشعر الجاهلى كان يستند إلى مبادئ أخرى . أما ماهى هذه المبادئ فهو أمر لا يصعب تحديده .

لعلنا نذكر أن طه فى "حياة الخنساء" (١٩١٥) كان يعتقد بعض الآراء التى تذكر بالأخوين كروازيه، بصرف النظر عما إذا كان قد قرأ كتابهما أم لم يقرأه، وأنه كان يعتقد آراء أخرى تحت تأثير لانجلوا وسينوبوس الواضح. وفى الحالة الأولى كان طه يعتقد أن من الممكن أن يجنى بعض الفائدة من دراسة الشعر المروى شفهيًا أو السابق على عصر التاريخ أو الأسطورى . أما فيما يتعلق بالحالة الثانية فإنه قد رأى أن المصادر الرئيسية المكتوبة عن الخنساء - وهى التى صنفت بعد ظهور الإسلام بقرنين - لا تثبت للفحص النقدى : إذ يتبين عندئذ أنها لا يمكن التعويل عليها. وقد استمد طه القواعد التى يجب أن يجرى هذا الفحص وفقاً لها من لانجلوا وسينوبوس من ناحية ومن منهج الجرح والتعديل الإسلامى من ناحية أخرى^(٣).

(١) كارلو نالينو، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية، الطبعة ٢ (القاهرة ١٩٧٠) ، ص ٦٨ و ٩٥ .

(٢) مفتاح طاهر، المرجع السابق، ص ١٠٩ .

(٣) انظر أعلاه، ص 188 .

ولكن من الواضح أن طه فى سنة ١٩٢٦ - أى بعد أن كان قد درس كتاب الأخوين كروازيه واستكمل معرفته بلانجلوا وسينوبوس - تحول إلى موقف هذين الأخيرين . فقد انتهى إلى أن دراسة المأثورات الشفهية أو الأسطورية لا يمكن أن تثمر نتائج مفيدة ، يقول فى هذا الصدد: "...أكاد لا أشك فى أن ما بقى من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جداً لا يمثل شيئاً ولا يدل على شىء ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى".^(١) وهو قد شك أيضاً فى دوافع الرواة المسلمين وفى إمكانية التعويل عليهم كما شك فى الوثائق التى دون فيها الشعر الجاهلى^(٢) ، وذلك طبقاً لما أسماه لانجلوا وسينوبوس النقد الباطنى السلبى للأمانة والدقة.^(٣) وبهذا التطور أصبح طه يبنى آراءه بصفة رئيسية على أساس المبادئ التى وضعها لانجلوا وسينوبوس .

ويترتب على ذلك أن طه حسين لم يستلهم نظريته فى الشك فى الشعر الجاهلى من الأخوين كروازيه ، بل ولا من أى من علماء الدراسات اليونانية القديمة.^(٤) وذلك أن هذه النظرية كان لها تاريخ طويل يمكن الآن أن يعرض كما يلى. بدأ كل شىء فى القاهرة (سنة ١٩١١) عندما لاحظ طه - متأثراً بنالينو بصفة رئيسية - أن ما يدعى الشعر الجاهلى لا يطابق من حيث لغته (الشكل) أو محتواه الدينى النقوش التى كانت قد اكتشفت مؤخراً وكانت حميرية فى أغلبها. وقد حدث فى القاهرة أيضاً (سنة

(١) فى الشعر الجاهلى (القاهرة ١٩٢٦)، ص ٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٢ وما يليها .

(٣) فيما يتعلق بهذا النوع من النقد انظر لانجلوا وسينوبوس، المرجع السابق، الفصل الثامن . ولاحظ أن طه فى هذه المرحلة لم يعد يشير إلى المنهج الإسلامى فى الجرح والتعديل . ومن المهم أيضاً أن تلاحظ أن نالينو هو الذى فتح لطه باب البحث السلبى فى دوافع رواة الشعر الجاهلى المسلمين وإمكان التعويل عليهم. انظر الفصل الثالث أعلاه، ص 85 .

(٤) من أصحاب الرأى القائل بأن طه استلهم شكه فى الشعر الجاهلى من هذا المصدر مفتاح طاهر، المرجع السابق، ص ٨٧ - ٨٨ وجابر عصفور، المرایا المتجاوزة. دراسة فى نقد طه حسين (القاهرة ١٩٨٣)، ص ٢٥١ وما يليها وأحمد عثمان، الآداب الأوروبية القديمة (الأدب اليونانى والأدب اللاتينى) فى عبدالمنعم تليمة (إشراف)، طه حسين، مائة عام من النهوض العربى ، فكر، العدد ١٤ (القاهرة ١٩٨٩)، ص ٢٢٥ - ٢٧٦ ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .

١٩١٤) أن طه - تحت نفس التأثير - تشكك فى دوافع رواية هذا الشعر بعد الإسلام وفى إمكان الاعتماد عليهم. وفى مونبلييه (سنة ١٩١٥) حدد طه أوليات المنهج التى كان يحتاجها لبسط شكوكه ، أى :

(١) المبدأ العام الذى ينص على أن الماثورات الشفهية تنتمى بالضرورة إلى ما قبل التاريخ أو أنها أسطورية ، و(٢) الافتراض القائل بأن الدراسة النقدية للشعر الأسطورى المنتمى لما قبل التاريخ يمكن أن تثمر نتائج مفيدة للبحث التاريخى ، و(٣) قواعد أولية لنقد النصوص ، و(٤) قواعد أولية لنقد الأمانة والدقة فى حالة المصادر الرئيسية عن الشعر الجاهلى .

وكانت هذه المنهجية الأولية تتكون من عناصر مختلطة. فالمبدأ العام ، (١) يمكن بسهولة أن يرد إلى لانجلوا وسينوويوس . والافتراض ، (٢) قد يرجع أو لا يرجع إلى الأخوين كروازيه. ومجموعة القواعد ، (٣) لا بد أنها تتردد إلى نفس المصدر الذى يتردد إليه المبدأ العام (١). أما مجموعة القواعد ، (٤) فقد كانت ذات أصل إسلامى .

وفى سنة ١٩٢٦ تطورت الملاحظة المذكورة أعلاه فصارت حجتين رئيسيتين. أولاهما مؤداها أن لغة الشعر الجاهلى لا تطابق الأوضاع اللغوية التى كانت سائدة فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام^(١) والثانية مؤداها أن محتوى ذلك الشعر لا يعكس الأوضاع الدينية والفكرية والاجتماعية فى بلاد العرب القديمة.^(٢) وفى نفس الوقت صارت المنهجية العلمية المستخدمة فى دعم هاتين الحجتين، اللتين استندتا حتى ذلك الحين إلى مجرد ملاحظات، تستمد من لانجلوا وسينوويوس وليس من الأخوين كروازيه . فطه إن كان قد استبقى المبدأ العام (١) فإنه قد رفض الافتراض (٢) ، وعلى هذا النحو استطاع أن يضع أساساً أوطد لرأيه القائل بأن الصورة الصادقة للحياة فى بلاد العرب القديمة لا يمكن أن تلتبس فى الشعر الجاهلى (المروى شفها)، وللرأى الآخر القرين الذى مؤداه أن الصورة المذكورة لا يمكن أن تلتبس إلا فى

(١) طه حسين، فى الشعر الجاهلى ، ص ٢٤ وما يليها .

(٢) نفس المصدر، ص ١٥ وما يليها .

القرآن. وبما أن هذا الرأي الأخير متضمن في المبدأ العام المذكور آنفاً، فقد تقرر صراحة بفضل تأثير طريقة كازانوف في النقد القرآني^(١).

يضاف إلى كل ذلك أخيراً أن نقد طه المكمّل لرواة ومصادر الشعر بعد ظهور الإسلام^(٢) وإن كان قد استلهم أصلاً من نالينو، ودعم في مرحلة "حياة الخنساء" بمنهج النقد والتجريح الإسلامي، فقد أجرى في نهاية المطاف بناءً على وعي كامل بالنقد الباطن السلبي للأمانة والدقة كما قننه لانجلوا وسينوبوس.

ومن هذا يتضح أن طه توافرت لديه كل العناصر الرئيسية لبناء نظريته عن الشعر الجاهلي قبل سنة ١٩٢٦ بسنوات. وبمزيد من التدقيق نقول إن النظرية وقد بلغت مرحلتها الجنينية أثناء الفترة التي قضاها طه في مونتبييه كانت مكتملة وجاهزة تقريباً للصياغة في الفترة الباريسية، وذلك بفضل تأثير لانجلوا وسينوبوس من ناحية وكازانوف من ناحية أخرى. وقد أضيفت إليها عناصر أخرى إما في هذه المرحلة أو فيما بعدها، ولكن هذه العناصر ما كان يمكن أن تكون أساسية. وبهذا المعنى نستطيع أن نقول إن احتذاء طه لنموذج الأخوين كروازيه في النقد الهوميروسي لم يلعب من الناحية المنطقية إلا دوراً مسانداً رغم أنه كان واسع النطاق.

كما يثبت هذا التاريخ الطويل لآراء طه في الشعر الجاهلي زيف الاتهام الذي كثيراً ما وجه إليه بدعوى أنه سرق آراءه من مرجوليوت في مقالته "The Origins of Arabic Poetry"^(٣) وذلك أننا إذا راعينا تطوره ومنطق تفكيره تبين لنا أن مؤلف في الشعر الجاهلي لم يكن محتاجاً لدعم المستشرق الإنجليزي، وحتى لو افترضنا على سبيل الجدال ما نفاه طه من أنه اطلع على مقالة مرجوليوت قبل صياغة نظريته أو أثناء صياغتها^(٤) فإن أقصى ما يمكن أن يقال هو إن هذه المقالة كانت عاملاً حافزاً ليس إلا. ويتسرب على ذلك أن أي تطابق بين آراء المؤلفين يمكن أن يعزى إلى

(١) انظر الفصل السادس أعلاه، ص 214، 215، 216.

(٢) طه حسين، المرجع السابق، ص ٤٢ وما يليها.

(٣) نشرت في JIRAS, 1925, pp. 417 - 449.

(٤) في رسالة موجهة إلى مفتاح طاهر (انظر طه حسين، من الشاطئ الآخر (القاهرة ١٩٩٧)، ص ٢٩٤ أكد طه حسين أنه لم يقرأ مقالة مرجوليوت إلا بعد سنة من نشر في الشعر الجاهلي.

اعتمادهما على نفس المصادر وتعرضهما لنفس التأثيرات، وقد كان مرجوليوت نفسه من قوة الإدراك والإنصاف بحيث اعترف بذلك^(١).

النزعة الإنسانية الهلينية

أعنى بـ"النزعة الإنسانية الهلينية" تصور طه حسين لثقافة عالمية صدرت عن اليونان القديمة وشملت مصر والشرق الأدنى، وقد نشأ هذا التصور في البداية في الفترة القاهرية تحت تأثير أحمد لطفى السيد وبعض أساتذة طه في الجامعة الأهلية ولاسيما سانتلانا وماسينيون، وقد احتوت بعض الكتابات المبكرة لطه حسين على تأثيرات من هذا القبيل في صورة جنينية للنزعة الإنسانية. نرى ذلك في آراء متفرقة تتعلق - على سبيل المثال - بأهمية الإسهام اليوناني في الثقافة العباسية وانتماء أبى العلاء إلى التراث الأرسطى وسعة نطاق اهتماماته وأهميته العالمية.

ولكن إنسانية طه اتخذت طابعاً يونانياً لا شك فيه نتيجة لدراساته في السوربون، ولا سيما تاريخ الأدب اليوناني (على ألفرد كروازيه) والتاريخ اليوناني (على غوستاف جلوتز) والتاريخ البيزنطى (على شارل ديل). ويفضل دروس هؤلاء الأساتذة - بالإضافة إلى القراءات الأخرى الممكنة - انتهى طه إلى رأى مؤداه أن اليونان القديمة لعبت دوراً نشطاً وأساسياً في توحيد العالم وإنشاء ثقافة عالمية. وتلك هى المصادر التى استمد منه طه ما يكفى من المعارف لدعم وبسط مذهبه الإنسانى فى سلسلة الكتابات التى نشرها فيما بين ١٩١٩ وسنة ١٩٢٥ بوصفه أستاذاً للتاريخ القديم^(٢).

غير أن الدافع إلى وضع تصور إنسانى مكتمل للثقافة العالمية لم يأت من تلك المصادر وحدها، بل يبدو أنه نشأ عن اهتمام طه بهوية مصر ومصيرها فى عالم

(١) انظر "تنويه" (notice) مرجوليوت بكتاب فى الأدب الجاهلى لطه حسين فى - JIRAS, 1927, pp. 902 - 903, pp. 902 - 904.

(٢) هذه الكتابات هى كما يلى حسب ترتيبها الزمنى: صحف مختارة من الشعر التمثيلى اليونانى (القاهرة ١٩١٩)؛ آلهة اليونان (القاهرة ١٩١٩)؛ نظام الاثينيين لأرسططاليس (القاهرة ١٩٢١)؛ قادة الفكر (القاهرة ١٩٢٥).

قسمه هو نفسه إلى شرق وغرب. فهو في رسالته عن ابن خلدون قد عمد بدافع من حماسه للحدث إلى فصل المؤرخ العربى بوصفه مفكراً شرقياً لا يندرج فى تيار الفكر الغربى الذى يجرى من اليونان القديمة إلى أوروبا الحديثة . ومن ثم كانت هذه الثنائية القائمة بين الحضارة الغربية بجذورها اليونانية القديمة وبين شرق مختلف تماماً ممتنع على التغيير . وهى ثنائية قديمة قدم توسيديد ولنا أن نفترض أنها تعززت فى صورة أو أخرى بفضل أساتذة طه فى مجال الدراسات القديمة ولعلها تأكدت أيضاً بفضل قراعت أخرى فى نفس الفترة .

إلا أن هذه الثنائية أصبحت إشكالية أو نقيضية بالنسبة لـ طه . فقد كان مصرياً شرقياً معنياً بتحديث مصر. وذلك أنه إذا صح أن ثمة فجوة واسعة لا تسد أو لا تعبر بين الشرق والغرب، فكيف يمكن تحديث مصر والنهوض بالثقافة العربية؟ وعلى ضوء هذه المشكلة يمكننا أن نفهم لماذا بادر طه فور عودته إلى مصر إلى حل المشكلة فى سلسلة المؤلفات التى أشرنا إليها . وكانت هذه المؤلفات تمثل معظم إنتاجه فى مجال الدراسات القديمة. وهى تنقسم فى بعض الحالات بالطابع العلمى (الترجمة والتعليق) . وقد كتبت مع مراعاة احتياجات الطلاب المصريين (الذين لا علم لهم بالمجال المعنى). وكانت موجهة فى المقام الأول إلى المهمة العاجلة . ألا وهى البرهنة على أن الفجوة يمكن عبورها . ولتحقيق هذه الغاية كان الغرض من هذه المؤلفات أن تبرز للقراء المصريين مدى انتشار الثقافة اليونانية وأهميتها الدائمة .

فى كتاب **آلهة اليونان** الذى يتضمن دراسة أولية للديانة اليونانية يفترض طه - تحت تأثير فوستل دى كولانج بلا شك - أولوية الدين فى حياة اليونان . وهو لذلك يرى أن كل الآداب اليونانية (حاشا الفلسفة والتاريخ) والفنون التشكيلية والأخلاق ليست إلا آثاراً من آثار الدين اليونانى.^(١) كما يفترض طه تحت نفس التأثير أن الآريين القدماء كان لديهم دينان أحدهما منزلى يقوم على عبادة الموتى وعبادة النار المقدسة، بينما كان ثانيهما ديناً عاماً يحمل الناس على النظر فى طبيعة الأشياء وتقديسها.^(٢)

(١) **آلهة اليونان**، ص ٥١ .

(٢) نفس المصدر، ص ٥٢ . فيما يتعلق بالتفرقة كما يقيمها فوستل دى كولانج، انظر كتابه *La Cité antique* (Paris 1984), p. 136, 137, 138 .

ولما كان كتاب **آلهة اليونان** ملخصاً لأول مقرر من المحاضرات قدمه طه حسين في السنة الدراسية ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، فإنه عمل هزيل ، ولكن أهميته ترجع إلى أنه أول محاولة يبذلها مؤلفه لتنظيم المعارف التي كان قد حصلها مؤخراً من أجل معالجة المشكلة المذكورة أعلاه. ومن الملاحظ أنه يتبع نهجاً تطورياً في دراسة الديانة اليونانية، وهو ما يعنى من وجهة نظره أن هذه الديانة قد تغيرت نحو الأفضل أو تقدمت وارتقت فهو يود فيما يقول أن يدرس هذه الديانة كما تطورت مع تطور الحضارة اليونانية، وهى حركة كانت تنطوى - فيما يبدو - على إحراز مستوى أعلى من الرقى . ومن ثم رأى أن "... هؤلاء الآلهة [اليونانيين] كانوا فى أول أمرهم آلهة حرب وقتال ثم تحضروا قليلاً قليلاً حتى أصبحوا آلهة الحضارة والأمن" (١) .

وقد أتىح للديانة اليونانية نتيجة لتحقيق هذا الرقى أن تؤثر تأثيراً مفيداً خارج نطاقها المحدد. فقد ساعدت على توحيد اليونانيين فى جامعة واحدة (٢) . كما تطور بعض آلهة اليونان بحيث صار له تأثير كبير على الفلسفة والأدب. (٣) وكان هذا التأثير من الأهمية بحيث اعتقد بعض الفلاسفة أن المبادئ السامية فى الديانة المسيحية لم تكن إلا من أثار الفلسفة اليونانية (٤) .

غير أن هذه التطورات لم تكن بالأمر العارض ، وذلك أن مؤلف **آلهة اليونان** يعتقد أن اليونانيين كان لديهم استعداد طبيعى للحضارة . وهو يخصص للموضوع تحت هذا العنوان قسماً لعله كان محاضرة كاملة. (٥) وأهم جانب فى هذا الدافع الطبيعى كان عقلانية اليونان . يقول المؤلف فى هذا الصدد: "والمعلوم أن الأمة اليونانية لم تكد تشعر بوجودها وأن لها عقلاً يفكر حتى كلفت بالحياة العقلية وأثرتها على نفسها" (٦) .

(١) طه حسين، المرجع السابق، ص ٥٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ٨٧ .

(٣) نفس المصدر، ص ٧٠ .

(٤) نفس المصدر، ص ٧٧ .

(٥) نفس المصدر.

(٦) نفس المصدر، ص ٥ .

وعن طريق هذه الملاحظات يحاول طه أن يبيث الرسالة التي مؤداها أن العقل اليونانى - وقد تطور على نحو طبيعى نحو تصور أرقى للآلهة ونحو رؤية أكثر عقلانية للعالم - أثر فى العالم وصار مهماً له . وقد صيغت هذه الرسالة بوضوح فى مقدمة الكتاب، حيث يؤكد المؤلف على حاجة المصريين إلى دراسة التراث اليونانى كوسيلة لا غنى عنها لفهم العالم المعاصر ولتحديث ثقافتهم. وهو يرى أن دراسة التاريخ اليونانى لا تلقى إلا اهتماماً ضئيلاً، وهى كثيراً ما تلقى السخرية، فى حين أنها فى الواقع ينبغى أن تكون موضع اهتمام وطنى . يقول فى هذا الصدد: "...إن العلم بتاريخنا الخاص موقوف على العلم بتاريخ اليونان لشدة ما بيننا وبينهم من الصلة السياسية والأدبية منذ خمسة وعشرين قرناً وإن رقينا الحديث موقوف على درس هذا التاريخ لأن معنى هذا الرقى هو الأخذ بما يلائمنا من المدنية الحديثة وهذه المدنية يونانية قبل كل شيء".^(١)

ومعنى ذلك أن على المصريين أن يدرسوا التراث اليونانى إذا أرادوا أن يفهموا تاريخهم وأن يحققوا التحديث . وتلك هى العبرة المنشودة من القصة المروية فى آلهة اليونان. ولتبرير هذه العبرة يقدم طه سببين رئيسيين: أن الثقافة اليونانية ليست غريبة على مصر بل كانت دائماً قريبة منها؛ وأن الحضارة (الأوروبية) الحديثة يونانية فى أساسها ، وقد حاول طه فى المؤلفات التالية فى السلسلة المذكورة أن يفصل القول فى هذه الحجج .

ففى كتاب نظام الأثينيين لأرستطاليس، الذى هو ترجمة لكتاب أرسطو عن نظام الأثينيين، يقدم طه لأول مرة - فيما يبدو - موضوعاً رئيسياً هو طبع العالم القديم بالطابع الهلينى على يدى الإسكندر . فهو يحاول - مستعيناً بجلوتز بصفة رئيسية - أن يبين كيف تمكن الإسكندر بعد تحطيم قوة اليونان والفرس من أن يبنى على أنقاض الامبراطوريتين سلطناً هليينياً، أو هلنستياً إذا شئنا الدقة، يجمع بين الشرق والغرب. وهكذا سعت الأمة اليونانية، وقد بعثت على هذا النحو، إلى تضيق المسافة الفكرية بين الجانبين بأن تفرض عليهما معاً طريقة واحدة فى التصور والتفكير.^(٢)

(١) نفس المصدر، ص ٥-٦.

(٢) نظام الأثينيين لأرستطاليس فى م ك، المجلد ٨، الطبعة ٢، ١٩٧٥، ص ٢٠٦، قارن Gustave Glotz, *Alexandre et l'Hellénisation du monde antique* (Paris 1938) , p 243 sqq.

وفى قادة الفكر، وهو العمل الأخير الذى ألفه طه حسين بوصفه أستاذًا للتاريخ القديم، نراه يطور الموضوع حتى يصبح عرضاً عاماً لتقدم العقل اليونانى نحو العالمية أو بعبارة أخرى لعملية طبع العالم بالطابع الهلينى . ويبدو هنا أن طه يستلهم أوجست كونت إلى حد ما^(١) نظراً لأن العرض المذكور ينصب على تطور العقل البشرى وانتصار العقلانية والعلم فى نهاية المطاف . ولكن رأى طه فى التاريخ يختلف من عدة نواح عن قانون الأطوار الثلاث لدى الفيلسوف الفرنسى . أولاً، لأن هذا رأى لا يراد به وصف ما حدث فى التاريخ ولا يقصد به أن يكون قانوناً عاماً يقرر لكل ثقافة الطريق الذى يجب أن تسلكه . وثانياً، لأن طه يرى - على خلاف ما يراه كونت فى قانونه - أن العقل البشرى قد مر بخمسة أعصر يتميز ثلاثة منها بنشاط غالب واحد ويمثلها علم أو عدة أعلام . وهكذا نجد أولاً عصراً للشعر (الملحمى) يمثله هوميروس، ويتلوه عصر فلسفى يمثله سقراط وأفلاطون وأرسطو. وبعد ذلك يأتى عصر للقيادة السياسية يمثله علما هما الإسكندر ويوليوس قيصر. أما العصر الرابع (العصور الوسطى) وهو العصر الذى يغلب عليه الطابع الدينى ، فلا يقتصر على أى أعلام من ذلك القبيل ، ينما يصور طه المرحلة الخامسة والأخيرة (أى العصر الحديث) بوصفها عصراً يتضمن أنواعاً شتى من النشاط (وعددًا كبيراً من القادة فيما يبدو) .

ويبدو إذن أن مؤلف قادة الفكر يستمد إلهامه من مصدر آخر، هو دوركايم. فالقادة كما يتصورهم طه يذكرون بالمحسنين إلى الإنسانية لدى دوركايم، أى عظماء الرجال الذين هم نتاج للمجتمع ولكنهم يمثلونه ويقودونه إلى الأمام، لأنهم يجسدون مثله العليا. ولعل طه كان يفكر فى شىء من ذلك عندما استهل كتابه بطرح قضية المجتمع فى مقابل الأفراد (العظام) واختار حلاً وسطاً . فعظماء الرجال - فيما يقول - يتأثرون بالمجتمع وهم فى الواقع ظواهر اجتماعية، ولكنهم يؤثرون بدورهم فى المجتمع.^(٢)

(١) قارن كمال قلته، طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه (القاهرة ١٩٧٣)، ص ١٠٢ وما يليها.

(٢) قادة الفكر فى م ك، المجلد ٨، الطبعة ٢، ١٩٧٥، ص ١٨٩ وما يليها .

وأيا ما كان الأمر، فالمشكلة الرئيسية بالنسبة للمؤلف هي - كما ذكرنا - عملية طبع العالم بالطابع الهليني أو توحيد العالم . فهو لا ينظر إلى الإسكندر ويوليوس قيصر بوصفهما من كبار الفاتحين (أو بناء الإمبراطوريات) فقط ، بل ينظر إليهما أيضاً بوصفهما علمين كبيرين في مجال الفكر الإنساني ؛ فبينما وحد أولهما العالم القديم في اتجاه الشرق، وحد ثانيهما العالم في اتجاه الغرب تحت راية الثقافة اليونانية . وقد كان الإسكندر بالذات هو الذي "أتاح للآداب اليونانية والفلسفة اليونانية أن تتغلغلا في أعماق الشرق، وتؤثرا في نفوس الشرقيين، وتصبغاها هذه الصبغة اليونانية التي كانت قد أعدت من قبل لتكون صبغة عامة خالدة للعقل الإنساني كله".^(١)

ورغم أن هذه الصبغة قد فرضت بقوة السلاح، فقد كانت - وفقاً لطفه - فلسفية وعلمية في المقام الأول. وهذه الصبغة التي تكونت في الأصل بفضل الفلسفة اليونانية في القرن الخامس قبل الميلاد بلغت أعلى صورة لها وأقواها نفوذاً بظهور أرسطو. فقد شرع عن وعى في تنظيم العلم القديم ، وتقديم تفسير شامل يتضمن قوانين التفكير والتعبير وقوانين السيرة العامة والخاصة.^(٢) ويرى طه أن هذه القوانين ثابتة لا تتغير وملزمة للإنسان من حيث هو إنسان لا من حيث هو شرقي أو غربي، ولا من حيث هو قديم أو معاصر.^(٣) وذلك أن أرسطو يمثل على صعيد الفكر الأمة اليونانية الجديدة والوحدة العالمية الجديدة اللتين أنشأهما الإسكندر؛ فهو [أي أرسطو] هو الذي أنشأ على صعيد الفكر الدافع إلى جعل الفكر اليوناني عالمياً ورسم للإنسانية ما يجب أن تسلك إلى الرقي من سبيل.^(٤) وعلى نحو أكثر تحديداً يرى طه أن أرسطو كان فيلسوفاً تجريبياً بل وفيلسوفاً وضعياً يتمسك بالواقع المحس الذي لا شك فيه.^(٥) وهو يرى أيضاً أن أرسطو قد سبق أوجست كونت ، لأنه كان أول من أسس وحدة العالم

(١) نفس المصدر، ص ٢٦٦ .

(٢) نفس المصدر، ص ٢٥٧ .

(٣) نفس المصدر، ص ٢٥٨ .

(٤) نظام الأثينيين لأرسططاليس، ص ٣٠٦ و ٣١٩ .

(٥) نفس المصدر، ص ٣٠٠ .

ووحدة الفلسفة (المعرفة البشرية) بالإضافة إلى أنه كان أول رائد فيما يتعلق بعلم الاجتماع.^(١)

ومن هذا يبدو أن "الصبغة اليونانية" تعنى فى رأى طه العقلانية - وما يعتقد أنه امتداد لها فى العصر الحديث - أى العلم التجريبي . كما تدل هذه الصبغة ذاتها على حب اليونان للحرية ؛ ففي العصور القديمة اتخذ الفكر البشرى فى رأى طه صورتين : إحداهما كانت يونانية خالصة تتميز بالعقلانية وعشق الحرية سواء كانت سياسية أم فردية، بينما كانت الأخرى شرقية يطغى عليها الروح الدينى والملكية المطلقة المستبدة.^(٢) وقد أتيح للعقلية الأولى، بفضل امتيازها فى حد ذاتها مطامحها العالمية أن تحقق لنفسها السيطرة على حياة البشر . أما العقلية الأخرى فقد هزمت مرات وهى الآن تلقى السلاح وتسلم تسليمًا.^(٣)

وتلك هى إنسانية طه كما عبر عنها فى الفترة الممتدة من ١٩١٩ إلى ١٩٢٥ ، وهى إنسانية قامت كما رأينا على افتراضاته بشأن الطابع النموذجى للفكر اليونانى، وعلى توحيده المظفر للعالم عن طريق الفتح أحياناً ضد شرق مقاوم للتغيير متمسك بالدين والطغيان السياسى .

إلا أن ذلك الموقف لم يكن هو الحل النهائى الذى قدمه طه للصراع بين الشرق والغرب . فهو يبدو فى مستقبل الثقافة فى مصر (١٩٣٨) كما لو كان يؤرقه شعور بأن مذهب فى الإنسانية كما صاغه فى العشرينيات كان منحازاً إلى الغرب ، ويعلق أهمية مفرطة على استخدام القوة . وهو من ثم يعود إلى فتح القضية ، ويحاول أن يعرض وحدة العالم الفكرية عرضاً يسوده مزيد من التوافق على أن تحتل فيه مصر مكانة بارزة .

وفى هذه المحاولة الجديدة استبقى طه الاستقطاب بين الشرق والغرب، وإن كان الشرق قد أصبح يقتصر على الشرق الأقصى . فهناك الآن ثقافتان متباينتان تماماً

(١) نفس المصدر، ص ٣١٤ وما يليها .

(٢) طه حسين، المرجع السابق، ص ٢٠٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .

ومتنازعتان أشد النزاع على ظهر الأرض: إحداهما فى أوروبا ، وثانيتها فى الشرق الأقصى.^(١) وإذا كان ذلك كذلك، فالمسألة الأساسية هى ما إذا كانت مصر من الشرق أم من الغرب.^(٢) ويجدر أن نلاحظ هنا أن مصر التى يصفها طه حسين بأنها قديمة خالدة^(٣) لها فى رأيه - على غرار ما رأى لطفى السيد - ذاتية خاصة بها بمعزل عن تاريخها العربى والإسلامى. وما دامت مصر قد فصلت على هذا النحو عن خلفيتها العربية والإسلامية ، فإن المسرح أصبح مهياً لإحلالها فى موقع جديد على خارطة جديدة للعالم ؛ وذلك أن طه يجيب عن السؤال المطروح آنفاً بأن مصر جزء من الشرق الأدنى ، وأنها من ثم أقرب إلى الغرب بل وأنها جزء من أوروبا . فطه بعد أن أعاد وضع مصر فى الشرق الأدنى يعيد تجميع المنطقة بأسرها، مع اليونان وروما فى العصور القديمة بالإضافة إلى أوروبا الحديثة، فى نطاق حوض البحر المتوسط ، أو فى نطاق أسرة ثقافات البحر المتوسط .

ولتبرير هذه الخارطة الجديدة للعالم يشير طه إلى الروابط الوثيقة العريقة بين مصر وبلاد الشرق الأدنى من ناحية ، وبين الثقافات اليونانية والإيجية من الناحية الأخرى . وليس من الممكن أن يقال - فيما يرى - أن مثل هذه الروابط قد قامت بين مصر والشرق الأقصى.^(٤) كما يرى طه أن الأعضاء الغربيين والشرقيين الأدنى فى أسرة البحر المتوسط يتميزون بالتجانس الثقافى أساساً . فهو يتابع بول فاليرى فى تحليله للعقل الأوروبى إلى العناصر التالية: (١) حضارة اليونان (وما فيها من أدب وفلسفة وفن)؛ و(٢) حضارة الرومان (وما فيها من سياسة وفقه)؛ و(٣) المسيحية.^(٥)

(١) « ... قد يظهر أن فى الأرض نوعين من الثقافة يختلفان أشد الاختلاف، ويتصل بينهما صراع بغيض...أحد هذين النوعين هذا الذى نجده فى أوروبا منذ العصور القديمة، والآخر هذا الذى نجده فى أقصى الشرق منذ العصور القديمة أيضاً. طه حسين، مستقبل الثقافة فى مصر فى م ك، المجلد ٩، ١٩٧٣، ص ١٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر، ص ١٦ .

(٤) نفس المصدر، ص ١٨ .

(٥) نفس المصدر، ص ٢٨ .

وهو من ثم يرى أن الثقافة الإسلامية لها أساساً تكويني مماثل ؛ فهو يعتقد أن حلول الإسلام محل المسيحية في حالة الثقافة الإسلامية لا يغير على أى نحو هام التشابه الأساسى بين الجانبين ، لأن كلا الدينين يرجعان إلى منشأ واحد (هو الشرق الأدنى) ويشتركان في المبادئ الأساسية ، وتربطهما بالفلسفة اليونانية علاقات متشابهة . بل إن طه حسين يخطو خطوة أخرى فيرى أن إدخال الدين في المعادلة لا يغير الخواص الأساسية في أى من الحالتين، سواء أكانت حالة العقل الأوروبي أم حالة الحضارة الإسلامية. إذا صح أن المسيحية لم تفسخ العقل الأوروبي ، ولم تخرجه عن يونانيته الموروثة، ولم تجرده من خصائصه التي جاءت من إقليم البحر الأبيض المتوسط، فيجب أن يصح أن الإسلام لم يغير العقل المصري، أو لم يغير عقل الشعوب التي اعتنقته ؛ والتي كانت متأثرة بهذا البحر الأبيض المتوسط.^(١)

وهكذا نرى أن التقابل بين الغرب بتقديسه للعقل والعلم وبين الشرق بأديانه ونبواته، قد حلت محله الآن أرضية مشتركة تقف عليها أوروبا والشرق الأدنى على السواء، كما يوجد بينهما تراث واحد هو مزاج من العقل والروح . وينكر مؤلف مستقبل الثقافة في مصر أن الشرق الروحي الذي ييهر بعض الغربيين هو الشرق القريب ؛ فالشرق الروحي هو الشرق الأقصى في حين أن الشرق القريب هو مهد العقل ، وقد كانت هذه المنطقة ذاتها هي مصدر الأديان المنزلة التي أمن بها الأوروبيون وأهل الشرق القريب على السواء.^(٢) وربط الشرق الأدنى بالروحانية سخيّف سخيّف ربط أوروبا بالمادية^(٣) أو بالعقل .

وعلى هذا النحو وضع طه حسين حلاً نهائياً للتناقض بين الشرق والغرب ؛ ففي المصالحة النهائية التي عقدها بين أوروبا والشرق الأدنى لا يوجد غالب ولا مغلوب ؛ كلا وليس هناك احتكار على أى جانب للعقلانية أو الروحانية ، وإنما هناك على مدى القرون أخذ وعطاء من جميع الأنواع . وعن طريق هذه العلاقات نشأ تجانس في

(١) نفس المصدر، ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر، ص ٧٨ .

(٣) نفس المصدر، ص ٧٥ وما يليها .

وجهات النظر ، ويحاول طه حسين أن يؤكد هذه الفكرة على نحو درامى فيقول إن مصر كانت دوماً جزءاً من أوروبا فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية .^(١)

منطق القلب

إن التوفيق النهائى بين أوروبا والشرق الأدنى كما تحقق فى مستقبل الثقافة فى مصر يدل ضمناً على أن مؤلف هذا الكتاب قد حل أيضاً صراعاً آخر هو الصراع بين العقل (العلم) والدين (وخاصة الإسلام) . فالإسلام فيما يرى يتعايش مع عناصر يونانية ورومانية فى نطاق ثقافة الشرق الأدنى تماماً كما تتعايش المسيحية مع نفس العناصر فى نطاق الثقافة الأوروبية . وطه يعبر عن هذه الفكرة صراحة عندما يرى أن التوازن بين الحضارة والدين يمكن أن يتحقق، بل لقد تحقق بالفعل ، فقد حدث ذلك فى أوروبا عندما أدرك المخلصون من الأوروبيين أن الصراع ليس بين الدين والحضارة فى حد ذاتهما ، ولكن بين الذين يمثلون الدين والحضارة.^(٢) والتوازن أسهل تحقيقاً فى حالة الإسلام ؛ فهو دين لا يعرف الكهنوت ؛ يضاف إلى ذلك أن العرب المسلمين قد بينوا الطريق، فلم يتحرجوا من أن يأخذوا بأسباب الحضارة الفارسية واليونانية.^(٣)

والواقع أن هذا التوفيق هو بدوره مرحلة أخيرة فى عملية فكرية مضنية وطويلة بشأن النزاع بين العقل (العلم) والدين (الإيمان) . وفى المراحل المبكرة من هذه العملية كان طه يعتقد أن النزاع أساسى ولا حل له بمعنى من المعانى . فلننظر إذن فى مسار هذا التطور .

لقد ثارت المشكلة أولاً فى القاهرة فى سنة ١٩١٤ كجزء من وضعية طه المبكرة ، فقد نذكر أنه قرر عند ذاك أن المعجزات يجب أن تستبعد من مجال التاريخ (العلمى) لتدرج فى مجال العلوم الدينية . ثم خطا خطوة أخرى فى رسالته عن

(١) نفس المصدر، ص ٣٦ .

(٢) نفس المصدر، ص ٦٤ .

(٣) نفس المصدر.

أبى العلاء فألح إلى أن الدين من حيث هو كذلك يمكن أن يدرج فى مجال العاطفة والوجدان.^(١) وبداية من تلك النقطة فصاعداً نشأت لديه فكرة ظل يؤكد لها طيلة حياته، ألا وهى ضرورة الفصل بين العلم والدين بحيث يحتل كل منهما مكاناً خاصاً به فى حياة الإنسان . ولكن ماذا يعنى هذا الفصل بين القوتين ؟

لم يشغل هذا السؤال انتباهه إلا فى العشرينيات من القرن الماضى . ففى سنة ١٩٢٣ رأى أن الدين يؤدى غرضاً سيكولوجياً؛ إذ يقدم للأفراد ملاذاً مريحاً وشعوراً بالأمن فى لحظات الخطر العظيم.^(٢) كما تساءل بلهجة التمنى عما إذا كان يمكن للإنسان أن يجمع بين قوتى العقل والإيمان على تعارضهما.^(٣) ويمكن أن نستنتج من ذلك أن الفصل بين العلم والدين ينبغى فى الحالة المثلى أن يؤدى إلى وضع يحتل فيه كل منهما مكاناً خاصاً ، ويتوازن فيه مع الطرف الآخر ويكمله .

غير أننى سأتبث فيما يلى أن هذا المثل الأعلى مستحيل التحقيق على أساس المقدمات الوضعية التى أخذ بها طه، وأنه لم يدرك ذلك إلا بمضى الوقت عندما تخلى عن وضعيته . ولكن لننظر أولاً فى آرائه فى التعارض بين العلم والدين . فقد كان يعتقد فى سنة ١٩٢٦ أن هذا التعارض أساسى جوهري ولا سبيل إلى اتقائه. صحيح أن السياسة لعبت دوراً فى إفساد العلاقات بين العلماء والفلاسفة من ناحية وبين رجال الدين من ناحية أخرى، ولكن السياسة لا يمكن أن تتحمل المسئولية عن النزاع بين العلم (العقل) والدين من حيث هما كذلك .^(٤)

(١) يقول طه: "يلاحظ أن استحالة الدين من السذاجة إلى التركيب، ومن القوة إلى الضعف، طبيعى فى كل دين، وفى كل عقيدة مصدرها العاطفة والوجدان." تجديد ذكرى أبى العلاء فى م ك، المجلد ١٠، ١٩٧٤، ص ٧٨، الحاشية ١.

(٢) فى السفينة فى من بعيد فى م ك، المجلد ١٢، ١٩٧٤، ص ١٣ - ٢٠، ص ١٦ - ١٧ .
(٣) أيستطيع الإنسان حقاً أن يجمع فى نفسه بين هاتين القوتين، وأن يطمئن إلى كليهما اطمئناناً بريئاً من التناقض والاضطراب، يطمئن إلى الدين دون أن ينكر العقل، ويطمئن إلى العقل دون أن يجحد الدين؟ نفس المصدر، ص ١٨ . وقارن Cachia, Taha Husayn, his place in the Egyptian literary renaissance (London 1956) p. 80 .

(٤) بين العلم والدين فى من بعيد فى م ك، المجلد ١٢، ١٩٧٤، ص ١٥١ - ١٨٢، ص ١٦٩ وما يليها. نشرت لأول مرة كسلسلة من المقالات فى المجلة الشهرية الحديث، فبراير- مايو، ١٩٢٧ . انظر أيضاً لنفس المؤلف العلم والدين، السياسة الأسبوعية، ١٧ يوليو ١٩٢٦، ص ٥.

وكان طه يعتقد أن هناك ثلاثة أسباب جعلت هذه الخصومة أساسية ولا سبيل إلى اتقائها : أولاً، لأن الدين يثبت قضايا عن أمور مثل وجود الله ونبوة الأنبياء ، ويأخذ الناس بالإيمان بها، بينما لم يستطع العلم إلى الآن أن يثبتها.

ثانياً ، أن الخلاف بين الجانبين لا يتوقف عند هذه الأمور الإيمانية الأساسية، بل يمتد إلى مسائل محددة تتعلق بالكوزمولوجيا والفلك والجيولوجيا وعلم الأجنة.

وثالث الأسباب وأخطرها أن العلم يسعى إلى إخضاع الدين ذاته للبحث النقدي ، فيعالجه كظاهرة اجتماعية طبيعية مثل . اللغة والفقه والعادات . وكمثال على ذلك يذكر طه دوركايم الذي رأى أن الجماعة [من خلال الدين] تعبد نفسها أو تؤله نفسها.^(١)

ولكل هذه الأسباب رفض طه جميع المحاولات سواء أكانت فلسفية (الغزالي وابن رشد) أم تفسيرية (محمد عبده وأتباعه) للبرهنة على التوافق الأساسى بين العلم والدين . ورأى أنها محاولات بغير جدوى.^(٢) . ولحل الصراع بين الجانبين رأى طه أنه ينبغي وضع كل منهما فى مجال اختصاص منفصل بحسب ضرورته فى الطبيعة البشرية . كما رأى أن كلا منا يحمل فى نفسه "شخصيتين" إحداهما عاقلة (تبحث وتنتقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت إليه أمس)، بينما الثانية شاعرة ديانة طامحة إلى المثل العليا وتسعى إلى أمن الإيمان . ويكفى أن ينظر المرء فى نفسه ليرى الشخصيتين تعيشان جنباً إلى جنب . كما يضرب طه المثل بالعلماء والدارسين ورجال الدين الذين استطاعوا الجمع بين القوتين . فباستير على سبيل المثال كان من أشد الناس إيماناً بالمسيحية ، وأحرصهم على تأدية واجباته الدينية . وكذلك كان كثير من رجال الدين المسيحي ممن يتعاطون العلم ويجدون فيه ويستكشفون استكشافات قيمة فى تخصصات علمية شتى، منهم من يختص فى الجيولوجيا، ومنهم من يختص فى الفلك، ومنهم من يختص فى العلوم الطبيعية، بل منهم من يختص فى الفيلولوجيا،

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

ويتناول نصوص الكتاب المقدس بالبحث والنقد والتحليل.^(١) وقد كان باستطاعة طه أيضاً أن يستشهد بمثال مر بنا ، وهو مثال كازانوف الذي كان فيما روى شديد الإيمان بمسيحيته، ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس نسي كل شيء عن ديانتته وانصرف إلى دراسة النصوص الدينية دراسة نقدية .

ولكن ذلك كله من قبيل تحصيل الحاصل ؛ فهو ليس سوى تكرار لفكرة الحاجة إلى الفصل بين القوتين مع الجمع بينهما . والأمثلة التي يسوقها طه قليلة الجدوى لأنها لا تفسر بذاتها كيف استطاع أولئك العلماء والباحثون تحقيق ذلك التوازن . وليس فيما قاله تفسير لذلك، بل إنه يكاد يعترف بعجزه عن تقديم هذا التفسير، وخاصة عندما يذهب في بعض الأحيان إلى حد القول بأنه لا يحاول جواباً عن هذا السؤال.^(٢)

ويبدو أن هذا الافتقار للوضوح يرجع إلى أن طه لا يستخلص النتائج المنطقية لمقدماته ، فهو - وإن كانت لديه عن السؤال موضوع النظر إجابة يدل عليها ضمناً ما قيل حتى الآن أو يلمح إليها - يحاول أن يوحى للقارئ بأن الإجابة ينبغي البحث عنها ؛ وذلك أنه لما كان ملتزماً بالمقدمة الوضعية التي مؤداها أن العلم له السيادة الكاملة على مجال الوقائع ، فقد كان ملزماً أيضاً بالفكرة التي مفادها أن الأقوال الدينية التي يبدو وكأنها تصف مجرى الطبيعة أو التاريخ هي في الواقع أقوال معيارية أو رمزية أو أمثال تؤدي مهمة أخلاقية و/ أو سيكولوجية خالصة .

ويترتب على ذلك أن فصل الدين عن العلم عن طريق ربط الدين باحتياجات الإنسان وقيمه كان أفضل ما يمكن لطفه تقديمه بوصفه وضعياً مخلصاً لتحقيق نوع من التوازن بين الطرفين . ولكن من الواضح أن هذا الحل يسوى الصراع لصالح العلم. وذلك أن طريقة طه في عرض الدعاوى والدعاوى المضادة لكل طرف في مجالات مثل الكوزمولوجيا والفلك وما إلى ذلك مضللة بقدر ما توحى بأن النزاع

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

ما زال مفتوحاً، فى حين أنه أغلق من الوجهة المنطقية . فلكى يسود السلام بين العلم والدين لا بد لهذا الأخير من أن يتنازل عن كل دعاواه فيما يتعلق بتقديم معرفة عن الطبيعة، وأن يقصر حقه على ضرورته العاطفية و/ أو الأخلاقية .

يضاف إلى ذلك أن طه - بوصفه وضعياً - كان ملتزماً بالمحاولة العلمية الرامية إلى معاملة الدين نفسه كظاهرة اجتماعية أخرى . وهو عندما يعرض للأسباب التى تؤدى إلى أن يكون العلم والدين متنازعين بالضرورة، يتحدث عن هذه المحاولة كما لو كان مراقباً محايداً فى حين أنه كان يؤيدها . فهو فى رسالته عن ابن خلدون ينتقد هذا الأخير لأنه لم يعامل الدين كظاهرة اجتماعية ؛ فابن خلدون - فيما يرى طه - قد خطا خطوة فى الاتجاه الصحيح عندما جعل من النبوة ظاهرة بشرية مستمدة من الروح البشرى ذاته، ولكنه ظل مع ذلك يعتقد أن الدين مستقل عن المجتمع بشكل ما . يقول فى هذا الصدد: «...لو أن ابن خلدون شرح هذه النظرية بطريقة أبعد عن التحيز وأغضى لحظة عن إيمانه الخاص كما يفعل المحدثون، ولو أن السذاجة لم تضطره إلى بعض المبالغات فأى فرق يكون بينه وبين كثير من الفلاسفة المحدثين الذين اجتهدوا فى أن يشرحوا أصول الأفكار الدينية [بالرجوع إلى المجتمع] ؟ »^(١)

وغنى عن الذكر أن طه كان يضع دوركايم فى مقدمة هؤلاء "الفلاسفة المحدثين"؛ فدوركايم كما بين طه حاول أن يفسر الدين بالرجوع إلى وظيفته الاجتماعية ، أى الدافع الطبيعى لوضع الجماعة موضع التبجيل فوق الأفراد . ومن الممكن أن نجد شواهد أخرى على أن طه فى كتابه عن الشعر الجاهلى كان يؤيد وجهة نظر دوركايم، وذلك عندما شكك فى الصدق التاريخى للقصص القرآنى فيما يتعلق بإبراهيم وإسماعيل . فهو يقول إن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى . وهو يتناول على وجه التحديد قصة هجرة إسماعيل إلى مكة

(١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ص ٨٣ .

وأبوته للعرب العدنانيين بوصفها "حيلة" أو أسطورة لإثبات صلة مادية بين العرب واليهود.^(١) وقد أصاب جاك بيرك عندما رأى أن طه حسين يعد قصة أبوة إبراهيم للعرب أسطورة من أساطير الأصول على نحو يذكر بدوركايم.^(٢)

وهكذا نرى أن محاولة طه إقامة توازن بين العقل والإيمان كان لا بد أن تكون في صالح الطرف الأول طالما ظل على التزامه بالتصور الوضعي للعلم ، فقد كان على الطرف الثاني أن يتخلى عن حقوقه في مجال الوقائع ، وأن يعامل هو نفسه كواقعة لا تختلف عن غيرها من الوقائع . وقد كان ذلك - في رأيي - هو موقف طه في باريس وطيلة العشرينيات . وكانت أقواله فيما يتعلق بضرورة الفصل بين العلم والدين وضرورة الدين بل وضرورة تحقيق التوازن بين القوتين منسجمة تمام الانسجام مع التصور السالف الذكر ، وذلك رغم الظواهر . وكانت تلك الأقوال متمشية مع تراث راسخ من التفكير الوضعي يرى أتباعه أن لا غنى لحياة الإنسان عن شكل من أشكال الدين، على أن يكون بطبيعة الحال ديناً علمانياً . ومن أمثلة ذلك التراث يمكن أن نذكر دين الإنسانية لدى كونت وعبادة العلم لدى رينان وعبادة الإنسان الفرد لدى دوركايم .

ولم يطرأ أى تغير على موقف طه في هذا الموضوع إلا في الثلاثينيات، وعلى وجه التحديد بداية من الجزء الثاني من على هامش السيرة (١٩٣٧). ففي هذا الكتاب

(١) في الشعر الجاهلي ، ص ٢٦ - ٢٧ . وقارن لنفس المؤلف "الاتجاهات الدينية في الأدب المصري المعاصر" في طه حسين، من الشاطئ الآخر، (القاهرة ١٩٧٧)، ص ٧٥ - ٨٧ - ٧٨، ص ٨٠ . يسجل طه في هذه المقالة بعض النتائج التي توصل إليها في كتابه عن الشعر الجاهلي ويقول إنه شكك في بعض المعتقدات التي لا تمس الدين، وإن كانت قد ذكرت في القرآن أو في الأحاديث النبوية.

(٢) Jacques Berque, "Une affaire Dreyfus de la philologie arabe " in Jacques Berque et Jean-Paul Charnay (ed). Normes et valeurs dans l'Islam contemporain (Paris 1966) , p. 247 وفيما يتعلق بأراء دور كايم في أساطير الأصول انظر Emile Durkheim, Les formes élémentaires de la vie religieuse (Paris 1990) , p. 531 et sqq. ولكن لاحظ أن أراء طه حسين في القصة المذكورة أعلاه لم تكن مستمدة من نور كايم مباشرة ، ولعلها كانت مستمدة من رينان . انظر، Ernst Renan, Mahomet et les origines de l'Islamisme " in Œuvres Complètes, ed. Henriette Psichary (Paris 1947 - 1961) , vol. VII, pp. 168-220, p. 208.

زاد التأكيد على ضرورة الإيمان ، وضرورة تحقيق التوازن بينه وبين العقل. وهكذا نرى الراهب الشيخ الحكيم كلكراتيس - الذى ينطق باسم المؤلف - ينصح الفتى اليونانى الذى كان ينشد الحقيقة^(١) فيقول: "...إنى أرى يا بنى أن لنفسك غرائزها كما أن لجسمك غرائزه، وأن غرائز النفس كغرائز الجسم لا تصدر عن العقل ولا تنشأ عنه، وإنما تصدر عن الطبع وتنشأ عن المزاج، وحاجة النفس يا بنى إلى الإيمان كحاجة الجسم إلى الطعام والشراب."^(٢)

وقد يبدو لأول وهلة أن مثل هذه الأقوال التى تشبه أراء طه المقابلة فى العشرينيات لا تحمل شيئاً جديداً، وأن الحل الوسط المقترح بين العقل والإيمان ينحو عملياً نحو مصلحة الطرف الأول . وفى هذا الصدد يرى بيير كاكيا أن هذا الحل الوسط لا يوجد إلا على مستوى الكلام . وهو يقول: "ثمة اعتراف بالإيمان الدينى ، ولكن بوصفه إرضاء لحاجة عاطفية لا غير، وما زال العقل يحتفظ بالسلطة الكاملة فى توجيه العمل الإنسانى."^(٣) غير أننى أعتقد أن كاكيا مخطئ فى رأيه هذا، لأنه لا يدرك أن القضية القائلة بأن الدين يرضى حاجة عاطفية أو بأنه ذو طبيعة عاطفية قد صار لها الآن معنى جديد يتجاوز الافتراض الوضعى الذى مؤداه أن مجال الوقائع وقف على العلم (أو العقل) وحده . يقول كلكراتيس من جديد: "...إن غرور العقل... قد زين له أن يجعل للطبيعة قوانين ويفرض عليها قيوداً وأغلالاً... ولكن قوانينه لم تحط بكل شئ ... وما زالت الطبيعة حرة طليقة، وما زالت أكبر من العقل ، وأوسع من سلطانه وأبعد من مرماه ، وما زالت أحداث تحدث لا يستطيع العقل إنكارها ولا يستطيع تفسيرها، ولا يستطيع إخضاعها لقوانينه..."^(٤)

إن طه فى قوله هذا لا يرى أن فى الطبيعة من الأحداث التى لا تخضع للملاحظة ما يستعصى على التفسير العقلانى ، فالأحداث التى يعنىها تخضع للملاحظة ، ولكنها

(١) أنا مدين بهذه النقطة لكاكيا، المرجع السابق، ص ٩٧ .

(٢) طه حسين، على هامش السيرة، الجزء ٢، فى م ك، المجلد ٣ ، ١٩٨١ ، ص ١١٤ .

(٣) بيير كاكيا، المرجع السابق، ص ١٨ .

(٤) طه حسين، المرجع السابق، ٢١٣ ، ٢١٢ .

تستعصى ، وستظل تستعصى إلى الأبد، على مثل هذا التفسير. ولتوضيح هذه الفكرة يستشهد كلكراتيس بالمعجزات المنسوبة إلى المسيح ، فالعقل فيما يرى لا يستطيع أن يفسر كيف يحيا الميت بعد أن مات ، وكيف يبرأ الأكمه والأبرص ولا كيف يمشى الرجل على الماء، ومع ذلك فقد كان ذلك كله وقد عرفه الناس جميعاً.^(١) ومثل تلك الوقائع - كما رأى طه فيما بعد - لا يمكن أن تخضع لضوابط العلم، وهى تتصل بالإيمان ولا تتصل بالعقل.^(٢) وواضح أن هذا الرأى مباين تماماً لاستبعاد المعجزات من مجال التاريخ كما ورد فى "حياة الآداب" وأنه بعيد بعد ما بين السماء والأرض عن توبيخ طه لابن خلدون لأنه اعترف بإمكان اقتحام المعجزات لمجرى الأحداث العادى الخاضع للسببية .

وهناك الآن شىء جديد تماماً بالمقارنة مع موقف طه فى العشرينيات. فالإيمان - فى رأى كلكراتيس - يجد مكاناً قائماً بذاته لا يقتصر على الحياة العاطفية أو الأخلاقية للإنسان بل يمتد إلى الطبيعة الخاضعة للملاحظة ذاتها . وعالم الواقع الذى كان يبدو وقفاً على العقل نون سواء أصبح الآن مقسماً بين المعرفة العقلانية والإيمان .

ولكى نتأكد من أن كلكراتيس ينطق بآراء طه حسين، فإنه ينبغى أن نرجع إلى كتاب **مرآة الإسلام** (١٩٥٩) حيث يكرر نفس الأفكار تقريباً وهو يتحدث على نحو مباشر لا التواء فيه ، يقول : "...الدين من علم الله الذى لا حد له، والعلم الحديث كالعلم القديم محدود بطاقة العقل الإنسانى ، وبهذا العالم الذى يعيش الإنسان فيه."^(٣)

والفارق الرئيسى هنا، بالإضافة إلى إحلال معرفة الله اللامتناهية محل الطبيعة غير المحدودة، هو أن طه يحرص على توسيع نطاق برهانه على حدود المعرفة البشرية بحيث يشمل العلم الحديث ، وعلى هذا النحو لا يدع طه مجالاً لشك فى أنه قد تخطى عن الوضعية .

(١) نفس المصدر، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) طه حسين، "الاتجاهات الدينية فى الأدب المصرى المعاصر"، ص ٨٢ .

(٣) **مرآة الإسلام فى مائه**، المجلد ٧ ، ١٩٧٥ ، ص ٢٤٤ .

فما الذى حدا به إلى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة؟ ليس من الممكن تقديم إجابة مرضية عن هذا السؤال دون معرفة مفصلة بحياة طه حسين الروحية فى الثلاثينيات . بيد أن هناك شيئاً واحداً مؤكداً وينبغى أن يكون واضحاً، وهو أنه انتهى عندئذ إلى الإيمان بإمكان حدوث المعجزات . وهو فى مرآة الإسلام يقرر هذا المعنى بالإشارة إلى القرآن ، فالكتاب يخصص فصلاً كاملاً - هو الفصل الثانى - عن طبيعة القرآن الخارقة : "وأخص مزايا القرآن أن الذين يقرأونه أو يسمعونونه دون أن يؤمنوا به يكذبون على أنفسهم، فقلوبهم خاشعة وأنواقهم راضية، وعقولهم هى المعارضة المكذبة ، فهم حين يقرأونه أو يسمعونونه يناقضون أنفسهم: يظهرون الإباء ويضمرون الاستجابة..."^(١)

لنلاحظ كيف أن طه - حتى فى تلك الفترة المتقدمة من حياته - ما زال يؤمن بأن الصراع بين العقل والإيمان لا مفر منه حتى فى حالة القرآن، بل وخاصة فى هذه الحالة ؛ فمن شأن هذا الكتاب - فيما يرى صاحب مرآة الإسلام - أن يفضح ويؤجج التناقض الذى يقع فيه أولئك الذين يظهرون الشك فيه وإن كانوا قانعين فى أعماقهم. ويوحى هذا الرأى بدوره بفكرة أخرى، وهى أن القلب القانع هو الذى على صواب ، فى حين أن العقل المتشكك المعاند على خطأ أو غير معقول - إذا صح التعبير .

وإننا لنجد دليلاً آخر على أن هذه هى بالفعل وجهة نظر طه فيما يقوله عن الحاجة إلى قبول سلطة القرآن دون تشكك . ولكى يتحقق ذلك لا يكفى - فيما يفترض - أن يشعر المرء بالانبهار ببلاغة الكتاب أو بخواصه الجمالية على قوتها واستعصائها على المحاكاة.^(٢) فمن الضرورى أيضاً قبول النتائج التالية: (١) أن القرآن كله من عند الله؛^(٣) و(٢) أن صحة القرآن، كما رواه ونسخه المسلمون الأوائل،

(١) نفس المصدر، ص ٢٤٤ .

(٢) فيما يتعلق بهذا الجانب من إعجاز القرآن انظر نفس المصدر، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ و ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٣) نفس المصدر، ص ٢٧٣ .

لا يرقى إليها الشك؛^(١) و(٣) أن هذا النص يجب أن يقبل ويفهم كما قبله وفهمه النبي وأصحابه: في يسر وإسماح ، وفي غير تكلف ولا إسراف في التأويل .^(٢)

فإذا صح أن طه انتهى في الثلاثينيات إلى الإيمان بإمكان حدوث المعجزات، فإن لنا أن نفترض أنه فعل ذلك بناء على سلطة القرآن ، وذلك أن قبول المعجزة القرآنية دون تشكك هو - وفقاً لمراة الإسلام على أية حال - أساس لازم للإيمان بسائر المعجزات التي يرويها الكتاب كما فهمها المسلمون الأوائل .

وبذلك وجد طه حله النهائي للصراع بين العلم والدين ؛ فهو قد دعا في العشرينيات إلى إقامة توازن بين الجانبين، ولكن الحل الوسط الذي اقترحه كان في الواقع اسماً بسبب قناعاته الوضعية . بيد أنه في أواخر الثلاثينيات ارتأى حلاً وسطاً جديداً وحقيقياً يقتضى تحديد نطاق العلم . وإنى لأعتقد أنه كان يضمّر هذا الحل عندما رأى في مستقبل الثقافة في مصر أن الدين (سواء أكان هو الإسلام أم المسيحية) يمكن أن يتعايش تعايشاً سلمياً مع الفلسفة والعلم في نطاق ثقافة البحر المتوسط. ولقد كان هذا الحل ماثلاً في ذهنه عندما أثبت ما أنكره في العشرينيات ، أي أن النزاع بين العلم والدين إنما كان يثيره رجال على الجانبين وتستغله السياسة .

وغنى عن القول إن التوفيق الأخير الذي حققه طه بين العلم والدين كان يعنى الاتفاق ضمناً مع ابن خلدون . وهو المفكر الذي بدأ طه بتقده دفاعاً عن مذهب حديث ووضعى على وجه التحديد . ولكن ما يثير العجب حقاً أن هذا الانقلاب الشديد كان نتيجة للتسليم بالقرآن ، ذلك الكتاب الذي كان بداية رحلة طه التعليمية .

(١) نفس المصدر ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ٢٤٢ . وفي هذا الصدد (نفس المصدر، ص ٢٣٦ وما يليها) يوجه طه حسين الانتقادات المألوفة لكل من غره الإيمان بالعقل في الماضي البعيد أو في العصر الحديث فحاول في مجال الفلسفة أو التفسير أن يدرك ماهية الله وصفاته . ومما يثير الدهشة أن أبا العلاء نفسه لم يقل من هذا النقد ، انظر نفس المصدر، ص ٢٤٢ .

احتضار الوضعية

أدت محاولة طه حل النقائض السالفة الذكر عن طريق اتباع صيغ تركيبية إلى تحقيق درجة نسبية من الاستقرار فى تفكيره . يبدو هذا على نحو واضح فى حالة ثنائية الشرق - الغرب والجدل حول العلم فى مقابل الدين؛ فهناك يبدو أن طه قد حافظ إلى آخر حياته على التوازن الذى تحقق فى الثلاثينيات .

غير أن الأمر أقل وضوحاً فى حالة التوفيق اللانسونى بين العوامل الموضوعية والذاتية فى تاريخ الأدب . وقد كان هذا التوفيق الذى تحقق أثناء إقامة طه فى باريس وتوطد فى العشرينيات أول شكل من أشكال التوفيق التى توصل إليها . إلا أن الاستقرار الناتج لم يكتب له البقاء بعد الفترة المذكورة . وفى أواخر الثلاثينيات أعيد طرح قضية الموضوعية فى مقابل الذاتية، وعندئذ جنح تفكير طه النقدى نحو شكل من أشكال الانطباعية الجامحة التى لا تتفق مع أية إشارة يعتد بها إلى موضوع خارجى .

ونستطيع أن نرى ذلك بوضوح فى الكلمة التى أضافها طه حسين بعد الفراغ من كتاب مع المتنبى (١٩٣٦) ؛ فقد رأى عندئذ أن نقد الناقد لا يمكن بحال أن يقدم سيرة حياة أمينة للشاعر المنقود ، لأنه لا يصور إلا لحظات من حياة الناقد نفسه، لحظات شغل نفسه فيها بلحظات من حياة الشاعر.^(١) وصحيح أن طه استطرد فأكّد أنه ليس لديه شك فى أن العمل الأدبى مرآة لشيء ، ولكنه لم يستطع أن يحدد ما إذا كان هذا الشيء هو نفس المؤلف أم هو شيء آخر.^(٢) وثمة شواهد أخرى تؤكد أن تفكير طه قد اتجه وجهة جديدة تغلب عليها الذاتية . ومن ذلك أنه رأى فى مراجعة لكتاب العقاد رجعة أبى العلاء أن مؤرخى الأدب ربما خيل إليهم أنهم يصورون رجال التاريخ، ولكنهم فى حقيقة الأمر لا يصورون إلا أنفسهم ؛ والمؤرخ الأدبى إذا أراد أن

(١) مع المتنبى فى م ك، المجلد ٦ ، ١٩٨١ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢) نفس المصدر، ص ٢٨١ ، وقارن p ، (Leiden 1974) David Semah, *Four Egyptian literary critics* .

يبعث شخصاً من أشخاص التاريخ ويمنحه حياة جديدة فإنه لا يكاد يعتمد فيها إلا على الشواهد والقرائن ، ولا يكاد يستمدّها إلا من الوهم والخيال^(١) ، وفي كتاب لاحق هو مع أبي العلاء في سجنه (١٩٣٩) رأى طه أن تاريخ الأدب كالتاريخ السياسي يغلب فيه الظن ، ويكثر فيه الرجحان ، ويقل فيه اليقين^(٢).

وكل هذه العلامات تدل على أن المركب اللانسوني قد انهار . ولكننا إذا تمعنا الآن في انطباعية طه الجامعة أمكننا أن نتبين فيها، إلى جانب تأثير جول لومتر، تأثير النزعة الذاتية لدى لا نجلوا وسينوبوس^(٣). ومما له دلالة كبيرة أن طه قد عبر عن شكوكه في موضوعية التاريخ وهو يدرس أبا العلاء، وهو ما يعني أنه أثار هذه الشكوك في معرض النقد الذاتي ، أي أنه بعبارة أخرى قد رفض في الثلاثينيات نزعته الموضوعية المبكرة كما دعا إليها في رسالته عن أبي العلاء (١٩١٤).

وصحيح أنه ظل يبدى قدراً من الإخلاص للانسون في الأربعينيات والخمسينيات ، أي وهو في أوج نضجه . حدث ذلك عندما تحول إلى الاهتمام على نحو شبيه بدور كايم بالدور الاجتماعي والصبغة التمثيلية للكاتب، مع كل ما ينطوي عليه ذلك من تناقضات بين الفرد والمجتمع . ولكننا رأينا فيما تقدم أن طه كان في تناوله لهذا الموضوع يميل إلى تأكيد الدور الذي تؤديه تلقائية الفرد وحرية^(٤). وهنا أيضاً نستطيع أن نتبين تأثير سينوبوس . وعلى ضوء كل هذه الاعتبارات يمكننا أن نقول إن طه قد أخذ بداية من ١٩٣٦ فما بعدها يتخلى عن موضوعيته المبكرة وعن المحاولات التي بذلها في العشرينيات لتحقيق نوع من التوازن اللانسوني بين العوامل الموضوعية والعوامل الذاتية . وخلال تلك الفترة المتأخرة التي استمرت حتى آخر حياته كان أقرب بصفة عامة إلى جول لومتر وسينوبوس . وصحيح أنه ظل

(١) رجعة أبي العلاء للأستاذ العقاد في فصول في الأدب والنقد في م ك، المجلد ٥، ١٩٧٣، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ص ٢٥٨. نشرت المقالة لأول مرة في الثقافة، ١٧ يناير ١٩٣٧ .

(٢) مع أبي العلاء في سجنه في م ك، المجلد ١٠ ، ١٩٧٤ ، ص ٣٣٢ .

(٣) انظر أعلاه، ص ٢٢٢ .

(٤) انظر أعلاه، ص ٢٠٧ .

يمارس النقد الموضوعي^(١) وأن يصدر من الأقوال ما يبدو موضوعياً، فيتحدث عن الكاتب بوصفه نتاجاً للمجتمع أو مرآة له.^(٢) ولكن الموضوعية - كما مارسها وعبر عنها في تلك الفترة - لم تكن إلا بقية متبقية من وضعيته المبكرة التي ظلت تحتضر لفترة طويلة . فهي في تلك الفترة كانت قد انفصلت عن الحتمية، وتفوقت عليها اتجاهات أخرى تشده نحو الفردية والذاتية . كلا ولم يكن طه في تلك الفترة المتأخرة يلقي بالاً إلى التركيب والتوفيق ؛ فما زال هناك دور للعوامل الموضوعية ودور للعوامل الذاتية مع احتفاظ الأخيرة باليد العليا، ولكنه لم يبذل أى محاولة لإقامة التوازن بين الجانبين . وهكذا يبدو أن قول مؤلف مع المتنبي أن العمل الأدبي يشير إلى شيء لا يعرفه كان تعبيراً عن العجز أو عن التعب النظري ، ويعد أن أطلق هذه الصيحة لم يبذل أية محاولة أخرى للحفاظ على الموضوعية ولو في صورة منقحة .

ولقد يبدو إذن أن أواخر الثلاثينيات قد شهدت انهيار وضعيته طه على جميع الجبهات تقريباً . يصدق هذا سواء أكان التوفيق المنجز استمر متماسكا كما رأينا في حالة ثنائية الشرق مقابل الغرب والجدل حول العلم في مقابل الدين، أم تصدع كما هو الحال في التناقض بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي . وينبغي أن نلاحظ - فضلاً عن ذلك - أن الاستقرار الذي تحقق في الحالتين الأوليين كان نسبياً وبالمقارنة مع حالة الميوعة النظرية المطلقة التي سادت في مجال التاريخ (الأدبي) . أما فيما عدا ذلك فإن الحل الذي قدمه طه في مستقبل الثقافة في مصر للثنائية المذكورة أعلاه لم يكن يخلو من التوتر لأنه كان ينطوي على شد وجذب بين ضرورة تأكيد الهوية المصرية وبين النزعة القوية الأخرى نحو إدراج مصر في مجرى الثقافة الأوروبية .

(١) يمكننا أن نرى ذلك حتى في مع المتنبي ، حيث يصف طه بالتفصيل الأوضاع السياسية والاجتماعية التي أحاطت بالشاعر وأعماله.

(٢) انظر طه حسين، "الكاتب في المجتمع المعاصر" في طه حسين، من الشاطئ الآخر (القاهرة ١٩٩٧)، ص ١٣٣ - ١٦٦ ، ص ١٦٢ . وانظر أيضاً لنفس المؤلف "مع أدبائنا المعاصرين" في فصول في الأدب والنقد في م ك، المجلد ٥، ١٩٧٣، ص ٣٣٩ - ٣٤٦، ص ٣٣٩ وما يليها . نشرت المقالة لأول مرة في الثقافة، ٢ يناير، ١٩٣٩، وقارن جابر عصفور، المراساة المتجاوزة، دراسة في نقد طه حسين (القاهرة ١٩٨٣)، ص ٧٩ ، حيث يستشهد بهذه المقالة ، ولكنى أختلف معه في رأيه أن تشبيه المراساة يرتبط بالضرورة بالحتمية الاجتماعية .

أما فيما يتعلق بالتوفيق "النهائي" بين العلم والإيمان في مرآة الإسلام، فلا شك لدى أنه عبر عن حقيقة اعتقاد طه حسين (في تلك الفترة) وأنه أرضاه ووفر له شيئاً من الهدوء . ولكن لما كان برهانه يقوم على عمل من أعمال الإرادة ، أو على قفزة إلى رحاب الإيمان على طريقة كيركجارد ، أو على رهان مثل رهان بسكال أو أبي العلاء،^(١) فقد كان بطبيعته مقلقاً .

(١) هذا ما قاله أبو العلاء في رهانه :

قال المنجم والطبيب كلاهما لاتحشر الأجساد قلت إليكما
إن كان رأيكما فلست بخاسر أو صبح قولي فالخسار عليكم

ولاحظ أن طه حسين كان على علم برهان أبي العلاء . انظر تجديد ذكرى أبي العلاء، ص ٢٠٠ . كما كان على علم بالتوافق بين أبي العلاء وبسكال في موضوع الرهان . أطلعته على ذلك ماسينيون، محاضرات، ص ١٥٤ - ١٥٥ . ولاحظ أيضاً أن ماسينيون يشير إلى كلا المفكرين في سياق مناقشة عن النزاع بين العقل والوحي (أو الإيمان) .

الخاتمة

نقطة البداية فى قصة حياة طه هى وعيه الأساسى الحاد بالعزلة ، وما اقترن بذلك من رغبة لا تقل حدة فى تخطى الحواجز والتحرر ودخول العالم الرحب . وعلى ذلك الأساس تضمنت رحلة طه عددا من "الاختراقات" بالمعنى الدقيق للكلمة، وكان أولها اكتشافه للتعليم كوسيلة للنفاذ إلى العالم .

ولم يطل مقام طه فى الأزهر قبل أن يتمرد على التعليم الأزهرى ويشعر بالاختناق تحت وطأة المتون وما تراكم عليها من الشروح وشرح الشروح. وقد اهتدى فى الأزهر إلى شيخين ، هما محمد عبده وسيد على المرصفى ، فتحا له باب الإفلات من ذلك الركام وأرشداه إلى المصادر الأولى للثقافة العربية الإسلامية . وقد أتيح له بفضل المرصفى أن يكتشف درس الأدب وما ينطوى عليه من حرية أدبية تعنى من بين ما تعنى العودة إلى الأدب القديم والتنقل بين مجالات الثقافة العربية الغنية ودراسة النصوص الأدبية لذاتها دونما غرض سوى تمحيصها وتذوق خواصها الجمالية . وكان انصراف طه عن علوم الدين إلى درس الأدب على ذلك النحو "الإنساني" مقدمة لا بد منها للخروج من عالم الأزهر بأسره والإقبال على دراسة المعارف المدنية الحديثة كما كانت تقدم فى الجامعة المصرية.

ولقد كان لأحمد لطفى السيد نور حاسم فى تقدم تفكير طه فى هذا الاتجاه ؛ فهو الذى علم طه أن لمصر ذاتية "أبدية" أبعد غوراً وأوسع مدى من انتماءاتها العربية والإسلامية . كما كان "أستاذ الجيل" هو الذى علم الفتى الأزهرى المتمرد أن العلم الحديث والحضارة الغربية يمكن وينبغى أن يستقبلا دون تقييد بمجموعة مقننة من النصوص والقواعد الدينية . ولقد كان لطفى هو الذى عرف طه بالفلسفة اليونانية (وخاصة فلسفة أرسطو العملية) وبالمذهب الوضعى؛ وهو أول من أوحى له بفكرة

تحقيق "مزاج معتدل" من الثقافتين ، ولم يستطع طه أن يبلغ هذا المثل الأعلى على نحو يرضى عنه إلا فى سنة ١٩٣٨ عندما بسط مذهب الإنساني الناضج بتوجهه المتوسطى .

ولكن تعاليم لطفى كانت تفتقر إلى الإطار التاريخى والمنهجية التاريخية ، ولم يتحقق "اكتشاف التاريخ" إلا فى الجامعة المصرية . فهناك استطاع طه أن يحقق أعظم اختراقاته ، وكان التاريخ كما اكتشفه طه فى الجامعة يعنى فتح الباب على مصراعيه لدراسة عالم الإنسان شرقاً وغرباً ماضياً وحاضراً ، ومقارنة الآداب واللغات والاستعانة بعلوم وتخصصات شتى . وكان انتشاء طه بالإشراف على ذلك العالم المعرفى الرائع إيذاناً بتفتح وازدهار عقليين تجليا فى كتاباته المبكرة التى تواكبت مع دراسته الجامعية ، واهتدى فيها إلى المسألة المنهجية الأساسية فى دراسة تاريخ الأدب ودراسة التاريخ بصفة عامة . ولنا أن نقول إذن إن طه عندما اهتدى إلى تلك المسألة بدأ يرسى أسس حياته الفكرية بأسرها ويضع تخطيطاً لبرنامج عمله فى المستقبل ويبذر البذور التى استطاع أن يتعهدا وينميها فيما تلا ذلك من أيام . فى تلك اللحظة ولد طه الذى نعرفه .

وفى الجامعة تعلم طه عن نالينو بصفة خاصة كيف يدرس الأدب العربى دراسة تاريخية ، أى بالإشارة إلى الأوضاع الاجتماعية والبيئية المسببة للأعمال الأدبية . ونظراً لأن نالينو لم يعن بتنظيم هذه الأوضاع فى إطار نسق صارم فإن من الممكن أن يقال إنه علم طه شكلاً من أشكال الوضعية المعتدلة . غير أن نالينو عرف طه أيضاً بتيار فكرى آخر فى التراث الوضعى ، ألا وهو المنهج والنقد التاريخيان "العلميان" - وإن كان ذلك أيضاً فى صورة معتدلة مخففة .

وقد أمضى طه فى الجامعة فترة حافظ فيها على أصوليته الدينية والأدبية كما تلقاها عن شيخيه اللذين تقدم ذكرهما ، واكتفى فيها باستيعاب الدروس الجديدة . فلما اهتدى فى كتاباته المبكرة إلى المسألة المنهجية بدأت فترة أخرى من التمثل النشط تمكن بفضلها أن يستخلص لنفسه من دروس أساتذته مبادئ المنهج التاريخى الحديث كما ينبغى أن يطبق على دراسة الأدب العربى . ولكن دراسته الجامعية لم

تنته قبل أن يتجاوز أساتذته المستشرقين فيتحول عن الوضعية المعتدلة إلى الوضعية الصارمة ، ويعقد لنفسه بذلك صلات فكرية مباشرة مع فرنسا وهو ما زال مقيماً في مصر . وربما كان ماسينيون - الذي كان ناقدًا للتراث الوضعي - هو الذي عرف طه عن غير قصد بالوضعية الصارمة، بما في ذلك الموضوعية النسقية والمنهجية التاريخية والنقد التاريخي الراديكالي كما قعدهما لانجلوا وسينوبوس .

وعندما وصل طه إلى فرنسا حيث توجد منابع الفكر الوضعي افتتح مرحلة جديدة في تاريخ اهتمامه بالوضعية . وكان المذهب كما وجده عندئذ في مرحلة الأفول بعد أن تمخض عن عدة تخصصات اجتماعية ، وبعد أن تحلل في هذه العملية وانقسم إلى مدرستين رئيسيتين متنازعتين: المؤرخين العلميين الذين كانوا يناصرون منهجية فردية ذاتية، وعلماء الاجتماع على طريقة دوركايم الذين كانوا يدافعون، على نحو لا يقل عن ذلك هوادة، عن اتجاه كلي واتجاه موضوعي منهجين . ولما كانت هذه المرحلة قد تميزت بتكشف النقائض الوضعية على نحو واضح، فإنها شهدت أيضاً سعي طه على نحو واع ولا يخلو من التنظيم إلى رآب الصدوع الوضعية أو تسويتها عن طريق مجموعة من صيغ التركيب أو التوفيق .

ولقد استمرت جهود طه التوفيقية لوقت طويل ، ولكن يحسن هنا أن نقيم تفرقة أخرى نظراً لأن تفكيره في هذا الموضوع قد تعرض لتغير هام . ففي البداية - أي في الفترة التي شهدت سني دراسته في فرنسا والعشرينيات - حاول طه أن يخفف من وضعيته عن طريق إضافة عناصر أخرى يفترض أنها على أهميتها لا تؤثر على النواة الوضعية الصلبة . ففي المجال الأدبي أجاز - على غرار لانسون - نزعة سانت بيف النفسية وانطباعية جول لومتر شريطة تقييدهما ببعض الحدود . وفي نفس الفترة افترض طه أيضاً أن التاريخ العلمي وفقاً لسينوبوس وعلم الاجتماع وفقاً لدوركايم كانا متلائمين تماماً ، ويمكن أن يجمعا في جبهة واحدة ضد ابن خلدون .

وشبيه بذلك ما يمكن أن يقال عن الحلين اللذين قدمهما طه للتناقض بين الشرق والغرب والنزاع بين العلم والدين في العشرينيات . وذلك أن الحل المقترح في كلتا الحالتين لم يكن ينطوي إلا على تنازل اسمي لجانب الإيمان والروحانية (في مقابل

عقلانية الغرب وعلومه) . ففيما يتعلق بالتناقض بين الشرق والغرب رأى طه أن العالم قد توحد تحت راية الثقافة اليونانية . أما فيما يتعلق بالنزاع بين العلم والدين، فقد رأى أن الإيمان ضرورة عاطفية وأخلاقية، وهو قول يترتب عليه أن العلم يتمتع بالسيادة الكاملة على مجال الوقائع .

وفى كل تلك المحاولات الرامية إلى التوفيق كان الحل المنشود هو الحفاظ على سلامة وسيادة النواة الوضعية الصلبة . وصحيح أن هذه المحاولات التي كانت انعكاساً لتحلل الوضعية إبان أفولها كانت تعنى أن المذهب قد فقد نقاءه الأصلي، ولكنها لم تكن تنطوى - وفقاً لطه - على أى تنازلات كبيرة للعناصر المضافة أو تقتضى إدخال أى تعديل جوهري على المذهب .

بيد أن بحث طه فى الثلاثينيات عن تلك الصيغ التوفيقية أصبح ينطوى بالفعل على تلك التنازلات والتعديلات، وانتهى فى واقع الأمر إلى انهيار وضعيته انهياراً كاملاً . ففي المجال الأدبي تجاوزت انطباعية طه الجامعة الحدود المرسومة فى مركب لانسون . وصحيح أن طه سارع إلى الحد من ذلك الجموح فرأى أن الأعمال الأدبية انعكاس لشيء ما أو أنها تشير إلى شيء خارجي ما . ولكنه كان يجهل طبيعة الشيء المشار إليه، أو أنه رأى أن المشار إليه لم يكن سوى لحظات متفرقة فى حياة المؤلف . ومنذ تلك اللحظة صارت اليد العليا للعناصر الذاتية، ولم تكن أقوال طه الموضوعية بين حين أو آخر إلا علامات على احتضار الوضعية ببطء .

وفى نفس الفترة قدم طه تنازلات حقيقية لجانب الإيمان فى النزاع بين العلم والدين وللشرق (الأدنى) فى ثنائية الشرق والغرب .

* * *

أعتقد أن هذا العرض الذى قدمته لتطور طه بداية من سنة ١٩١١ فما تلاها أكثر تعقيدا من العروض الأخرى، وأرجو أن يكون أقرب إلى الصدق . فكل هذه العروض لا تولى عناية كافية لطول انشغال طه بالوضعية ، ولا تفى بحق هذه الظاهرة من البحث . وسبب ذلك أنها تهمل تطور طه المبكر فى القاهرة، بما فى ذلك دراسته

فى الجامعة المصرية وما واكبها من كتابات مبكرة، ولا تكاد تلم بالفترة التى قضاها فى فرنسا . ولا يستثنى من هذا النقد مفتاح طاهر الذى درس المؤثرات الفرنسية على طه حسين، ولكنه أجرى بحثه بطريقة تحليلية صرف .

وهناك انتقادات أخرى يمكن أن توجه إلى عدد من الباحثين الذين تعرضوا لتطور طه مثل بيير كاكيا ودافيد سماح وجابر عصفور . فالباحثان الأولان يميلان إلى القول بأن هذا التطور سار على شكل خط مستقيم من مرحلة موضوعية (علمية) إلى مرحلة أخرى ذاتية (انطباعية) . وفى مقابل هذين الباحثين قدم جابر عصفور عرضاً بنيوياً يقوم على تحليل مفصل لفكرة مركزية لدى طه ، أى قوله بأن الأعمال الأدبية انعكاس أو مرآة (لشئ خارجى) . ويرى صاحب هذا التحليل أن طه استخدم هذه الاستعارة بمعان متعددة بحيث يعكس الأدب تارة الواقع (الاجتماعى) الموضوعى ، ويعكس تارة أخرى نفس المؤلف أو المثل العليا للإنسانية . والمشكلة فيما يرى جابر عصفور أن طه، وقد أخفق فى إدراج هذه المعانى فى شكل دياكتيكى من أشكال الوحدة، تركها فى حالة من التجاور . ولما كانت هذه البنية تتكرر طيلة حياة طه حسين كناقذ، فإن جابر عصفور يميل إلى القول بأن آراء طه النقدية لم تتعرض لأى تغيير (جوهري) .

وفى اعتقادى أن هذين الرأيين كليهما ليس لهما فى تطور طه سند من الحقيقة لأنهما يبسطان الوقائع على نحو أو آخر ويبدو أن الحقيقة أشد تعقيداً من رأى كل منهما لأنها تجمع بينهما . فحقيقة الأمر أن تفكير طه النقدى ينطوى على نمط أو بنية، ولكن هذه البنية ذاتها تطورت بحيث أعطيت السيادة للذاتية فى نهاية المطاف . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نميز ثلاثة أطوار رئيسية فى تطور طه فى مجال النقد الأدبى ؛ ففي الطور الأول من التزام طه بالوضعية كانت كفة النقد الموضوعى هى الراجحة على نحو واضح . وذلك أن تفكيره حينذاك اتجه على نحو متزايد نحو الصرامة والعلموية، فانتقل كما رأينا من الموضوعية المفتوحة إلى الموضوعية النسقية . وصحيح أنه اعترف فى هذا الطور بأن عملية الإبداع تتضمن أيضاً عوامل سيكولوجية، ولكنه رأى أن هذه العوامل امتداد للظروف الموضوعية .

وصحيح أيضاً أن ما كتبه (خاصة عن أبى العلاء) يتضمن عنصراً من الانطبائية، ولكن هذه الانطبائية المبكرة جنينية غير مكتملة ولا تكاد تكون واعية . وهى لا تظهر إلا على سبيل الاستدراك ، ولا يعبر عنها إلا بطريقة غنائية دون أن يكون لها سند نظرى باستثناء التزام ضمنى بفكرة المرصفى عن النقد بوصفه مراناً للنوق . وفى تلك المرحلة ماكان طه ليقول إن الأعمال الأدبية انعكاس للحظات فى حياة المؤلف ، أو إن النقد انعكاس للحظات فى حياة الناقد .

ثم كان هناك طور ثان يمتد من سنة ١٩١٥ حتى أواخر العشرينيات ، وفى هذه الفترة عاد النمط المذكور إلى الظهور، لولا أنه يظهر فى هذه الحالة على شكل مركب أكثر توازناً واستقراراً . فالعوامل الذاتية، وقد أدخلت فى هذا المركب كقوة أساسية فى فعل الإبداع، يفترض فيها أن تتعايش مع العوامل الموضوعية بحيث يقاوم كل منهما طغيان الآخر ويحد منه . وتلك هى فترة التركيب اللانسونى التى حاول طه عن طريقه أن يخفف من وضعيته الصارمة (أو موضوعيته النسقية) دون أن يقدم أى تنازلات ضخمة فيما يتعلق بالأمور الجوهرية .

وفى النهاية - أى فى سنة ١٩٣٦ - دخل التفكير النقدى لدى طه طوراً ثالثاً صارت فيه الكلمة العليا للنزعة الذاتية . وتلك هى الفترة التى أفلتت فيها انطبائية طه من قيود المركب اللانسونى ، وأدت إلى انكماش المشار إليه الموضوعى بحيث أصبح مجرد شيء لا يعرف، اللهم إلا لحظات متفرقة فى حياة المؤلف . وكان طه خلال تلك الفترة التى استمرت حتى آخر حياته يصدر أحياناً أقوالاً تشى بالموضوعية بل ويمارس النقد الموضوعى، ولكن هذه المواقف كانت تتضاعل أمام أقوال وممارسات انطبائية أخرى . ويبدو أن الصيحة الانطبائية التى أطلقها طه فى سنة ١٩٣٦ كانت تعبيراً عن العجز أو علامة من علامات التعب النظرى . وبداية من تلك اللحظة فصاعداً لم يبذل طه أى محاولة للتوفيق بين العوامل الموضوعية والعوامل الذاتية . ومن ثم كانت فكرة احتضار وضعيته احتضاراً بطيئاً .

فلنسلم إذن بأن تفكير طه فى مجال النقد كان دائماً متعدد الجوانب أو تلفيقياً ، ولكن ينبغى أن نرى أن هذه النزعة التلفيقية قد تطورت واتخذت من ثم أشكالاً

متعددة . ففي بادئ الأمر - أى فى الفترة المبكرة من نشاطه ككاتب - انصب التأكيد على الموضوعية فى حين كان الجانب الذاتى كامناً على المستوى النظرى على الأقل ، ولم يعبر عنه إلا على نحو لا يكاد يثير الانتباه . وفى الفترة المتوسطة برز هذا الجانب وأفرد له مكان خاص وإن كان مقيداً فى إطار توازن لانسونى . واستمر هذا التوازن قائماً لفترة حتى جاءت المرحلة الثالثة والأخيرة التى رفعت فيها القيود ، وماعت الحدود النظرية ، ومالت كفة الميزان نحو الانطباعية الجامعة .

ويتضح من ذلك أن البنية موضوع الحديث لم تبق ثابتة - كما يعتقد جابر عصفور - بل تطورت وفقاً للمؤثرات العاملة ولاهتمامات طه فى الفترة المعنية . فقد كانت الموضوعية المبكرة على طريقة تين مناسبة لحماس طه الشاب فى طلب الدقة والصرامة ولرغبته فى عقد صلات فكرية مباشرة مع فرنسا . وكان التوازن السائد فى الفترة المتصارعة يعكس أقول الوضعية ، وما نجم عن ذلك من سعى نحو الإصلاح أما المرحلة الأخيرة التى تميزت بالميوعة النظرية وطغيان الذاتية فقد كانت تتجارب مع تأثير جول لومتر وسينوبوس . كما يتضح أن البنية التلفيقية لا تفسر شيئاً ، إذ إنها هى نفسها فى حاجة إلى تفسير ، وهى لا تفهم على أية حال إلا بالرجوع إلى تطور طه وخاصة من حيث التزامه بالوضعية .

* * *

وكثيرة هى الدروس التى يمكن استخلاصها من رحلة طه كما وصفت فى هذا الكتاب ، ولكن لنقتصر على النتائج الرئيسية فيما يتعلق بمحاولة طه الجمع والتوفيق بين ثقافته على أسس حدائيه وإنسانية . ففيما يتعلق بالموضوع الأول، يمكننا أن نبدأ بإبراز الجوانب الإيجابية فى فكر طه . لقد استقى مقدماته ومبادئه الهادية من أساتذته، ولكنه فعل ذلك على نحو نقدى عندما يعنى النقد التحليل وإعادة البناء والتطويع . ومثال ذلك أنه اعتمد على نالينو إلى حد بعيد، ولكنه لم يتلق تعاليم هذا الأخير بوصفها مذهباً نهائياً ، وإنما سعى على نحو منظم إلى إبراز وتعميم افتراضات نالينو بعد أن كانت ضمنية أو مبعثرة دون وضوح . وبذلك الطريقة حاول أن يستحدث تاريخ الأدب العربى كموضوع قائم بذاته .

وعن طريق هذا المسعى استطاع طه أن يضمن لنفسه مكاناً بارزاً في الفكر العربي الحديث بوصفه داعية لنوع فريد من أنواع الحداثة يقوم على امتلاك المناهج والإجراءات العلمية ، وعلى إحياء التراث والعودة إلى امتلاكه عن طريق الدراسة النقدية . وهو من هذه الناحية يختلف عن حداثيين مثل شبلى شميل وسلامه موسى؛ فقد اقتصرت جهودهما على الترويج لقضية العلم وتبسيط المعارف العلمية . وكان طه يتفق معهما على ضرورة استيراد هذه المعارف، ولكنه يركز على امتلاك القواعد والأدوات اللازمة للبحث .

ونظراً لأنه اقتصر على مهمة إتقان المنهجيات المستوردة، فقد استطاع أن يحقق إنجازاً فريداً في تاريخ الثقافة العربية . فقد تمكن أولاً من أن يستحدث في هذه الثقافة وعياً منهجياً كانت في أشد الحاجة إليه . وهو إذن أول مفكر عربي في العصر الحديث رفع مسألة المنهج إلى مستوى الوعي النظري^(١) ، وأعادها إلى ما يشبه مستواها عند ابن خلدون . وصحيح أن اطلاعه على المؤرخ العربي القديم قد سهل مهمته إلى حد بعيد ، ولكن لا بد أن يحمد له أنه أول عربي في العصر الحديث يقرأ المقدمة من زاوية منهجية^(٢) .

ويذكرنا بحثه عما هو أساسى وسعياً إلى مصادر الوضعية بالتعريف الذى وضعه فرتز رنجر للمذهب الحداثى بوصفه التمكن الواعى من تراث فكرى ما ، وهو ما يتضمن عملية من التوضيح أو الخروج إلى الموضوع . فإذا طوعنا التعريف بحيث

(١) تقصى Jack A. Crabbs Jr. فى كتابه *The Writing of history in nineteenth - century Egypt. A Study in national transformation* (Cairo 1983) ظهور الكتابة التاريخية على النحو الغربى فى مؤلفين مثل مصطفى كامل (انظر ص ١٥٩) ، ولكن أحداً من أولئك المؤلفين لم يدر حديثاً متواصلاً عن قضايا المنهج .

(٢) درس قراء المقدمة العرب فى القرن التاسع عشر ابن خلدون بطريقة انتقائية ، وذلك بغية استخلاص ما قد يقدمه من دروس عملية عن نهوض الحضارات وانحطاطها والمسائل الأخلاقية وشئون الإصلاح . انظر فى جدهان ، أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم الحديث ، الطبعة ٢ (بيروت ١٩٨١) ، ص ٩٣ ، وانظر أيضاً :

Ahmed Abdesslem, *Ibn Khaldun et ses lecteurs* (Paris 1983), ch. III

يتواعم مع حالة طه أمكن أن نقول إنه سعى إلى التمكن من المذهب الوضعي بوصفه أداة منهجية بدلاً من أن يقدم نسخة منه.^(١)

ولا بد أن يذكر في هذا الصدد أن مقالات طه في "حياة الآداب" تعد رغم قلة نضجها أثراً فريداً في حياة طه الكاتب وفي الفكر العربي الحديث ؛ وذلك أنه يحاول فيها أن يبسط في سلسلة من "المقدمات" المبادئ الأساسية لدراسة تاريخ الأدب العربي ، وذلك على غرار ما فعل ابن خلدون بالنسبة لتأسيس التاريخ كعلم قائم بذاته. وبذلك تقترب "حياة الآداب" غاية الاقتراب من أن تكون مقال طه في المنهج . وليس ذلك بالإنجاز الهين إذا تذكرنا أن طه لم يكن في تلك الفترة يعرف ديكرت .

ويضاف إلى ذلك - ثانياً - أن اقتصاد طه في الاهتمام بالمشكلات النظرية ، وقلة مبالاته بالنقاء النظري قد مكناه من أن يدخر طاقته للدراسة الفعلية للأدب العربي ، وأن يؤدي هذه المهمة ببراعة فائقة تدعو إلى الإعجاب وعلى نطاق لم يسبق له مثيل . وقد استطاع إذن أن يكرس جهوده للمهمة الملحة ، وهي إنشاء تاريخ الأدب العربي كعلم قائم بذاته،^(٢) وأن يكون ممثلاً بالنشاط فياضاً كثير التجارب والمغامرات في اتجاهات مختلفة، وأن يصل ويجول في عصور هذا التاريخ حتى يجعل منه حقيقة واقعة . فمن الناحية النظرية كانت جهود طه في إنشاء هذا العلم انعكاساً متأخراً لما أسمىناه أقول الوضعية ، أي مرحلة التفتت ، ومحاولات التوفيق والتفريق . ولكن لا ينبغي أن ننسى أن طه، في ظل هذا الأقول النظري واللجوء إلى الصيغ التوفيقية والتفريقية، قد بلغ أوج ازدهاره في إنشاء ذلك المبحث من الناحية العملية . ففي الفترة التي نعيشها، من أوائل العشرينيات حتى أواخر الثلاثينيات، أنتج دراساته الكبرى في تاريخ الأدب العربي على طول امتداده ونشر شبابه بحيث شملت ضجيج المجتمع العربي

(١) Fritz Ringer, *Fields of knowledge. French academic culture in comparative perspective*, (١٩٩٠ - ١٩٩٢) (Cambridge 1992), p. 8 .

(٢) لاشك أن تالينو كان هو الرائد في هذا المجال ، ولكن طه هو الذي صاغ المبادئ المنهجية علي نحو صريح ووسع نطاق البحث بحيث يشمل كل عصور التاريخ العربي .

وعجيجته عبر ذلك التاريخ . وليس من المهم هنا أنه ترك ثغرة هنا وثغرة هناك ، أو أن أحكامه على هذا الشاعر أو ذاك كان يعوزها الإنصاف ، أو أنه لم يتعمق فى تحليل القصائد ؛ فتلك أمور تترك للأجيال التالية . أما مهمته هو فقد كانت رفع الأنقاض التى قال فى "حياة الآداب" إنها تقف حائلاً دون التراث الثقافى العربى، ونفض الغبار عن معامله، وتهيته للدراسة والتذوق، والتشجيع من أجل ذلك على اقتحام كل المجالات والموضوعات دون تنطع أو وجل .

ولكن مذهب طه فى الحداثة رغم كل مزاياه لا بد أن يكون مخيباً للآمال من الناحية النظرية ، وذلك على وجه التحديد لأنه يعتمد اعتماداً كاملاً على منهجيات مستوردة لم يخطر له قط أن يتشكك فى صوابها . فهو بعد أن قرر أن مناهج التاريخ ينبغى أن تلتمس أساساً فى الوضعية الفرنسية، اقتصر إسهامه فى الموضوع على استرجاع مختلف الحلول التى قدمها المذهب تبعاً (أى الموضوعية الصارمة والمركب اللانسونى والذاتية المتطرفة) ومعاناة احتضاره مرة أخرى . وهو عندما بلغ نهاية الطريق فى سنة ١٩٣٦ ووجد أن أيا من الحلول المجربة لم يعد مقبولاً لم ينتهز الفرصة ليعلن انهيار وضعيته وليبرز من ثم وجه الحاجة إلى انطلاقة منهجية جديدة. فإذا استثنى تعبيره فى غير مبالاة عن التعب النظرى نراه يواصل العمل وكأن شيئاً لم يحدث ، ولكن التوقف عند مثل تلك الأزمات والتمعن فيها واستيعاب جوانبها المختلفة هو الذى يمكن العقل البشرى من تحقيق اختراقاته الكبرى .

ولكن أسوأ ما فى حداثة طه هو أنها لا تعطى الثقافة العربية حقها الكامل من الإنصاف وهى التى تعمل على إحيائها ، وذلك أن افتراضها أن المناهج العلمية صناعة غربية صرف يقتزن ضرورة بالفكرة التى مؤداها أن أفضل ما تفعله الثقافة العربية هو أن تجعل من نفسها موضوعاً تدرسه المناهج المستوردة ، وتستمد منه مادتها الغفل . وهى فكرة باطلة لا شك فى بطلانها . وقد وزعت الأتوار على هذا النحو الظالم منذ سنة ١٩١١، وتوطد التوزيع فيما بعد نتيجة لاعتناق آراء أخرى مثل الانتقادات الشاملة التى وجهها طه إلى الماثورات التاريخية العربية والسامية . وصحيح أنه خفف من هذه الآراء إن لم يتخل عنها فى الثلاثينيات عندما عقد الصلح

لآخر مرة بين الشرق والغرب ، ولكن هذا الرأي المتوازن ذاته لم ينجح - فى رأى - فى علاج الضرر .

لقد كان ابن خلدون هو أهم وأوضح ضحية للحدائث على طريقة طه حسين ؛ فهو قد اتخذ من المؤرخ العربى موقفاً ملتبساً بصفة منظمة . فبعد أن نقده فى كتاباته المبكرة لاقتصاره على الرواية الشفهية، استبعده فى الرسالة التى وضعها عنه فى باريس من نطاق مؤسسى وممارسى التاريخ والاجتماع العلميين . بيد أنه لا شك فى أن ابن خلدون قد لعب دوراً أساسياً فى تكوين ما قدمه طه بوصفه الدراسة العلمية أو الحديثة لتاريخ الأدب العربى . خذ مثلاً الخطوة الأولى فى هذا المشروع ، أى قرار الباحث أن يتخلى عن التفسير بالرجوع إلى التسلسل السياسى ليلتمس التفسير على ضوء العوامل الاجتماعية والبيئية العميقة . وانظر أيضاً فى الافتراض القائل بأن "الأخلاق" أو "الأداب" السائدة تحتل مكاناً بارزاً بين هذه العوامل ، أو فى الافتراض الأعم الذى مؤداه أن هذه العوامل جميعاً ينبغى أن تدرس فى سياق أو إطار طريقة كاملة فى الحياة سواء كانت بدوية أو متحضرة . كل تلك المبادئ مستمدة من ابن خلدون .

وهى مستمدة من نالينو أيضاً ، ولكن نالينو لم يكن إلا ناقلاً نظراً لأنه علم طه تاريخ الأدب العربى على أساس من هذه المبادئ . وهنا ينبغى أن نوضح نقطة هامة فيما يتعلق بمصادر نالينو ؛ وذلك أن بعض هذه المبادئ، مثل ضرورة تجاوز التسلسل السياسى التماساً للعوامل الاجتماعية العميقة، لها جذور فى التراث الغربى . فقد بينا أنفاً كيف أن نالينو كان له موقف فى الخلاف العريق حول تاريخ الحضارة فى مقابل التاريخ السياسى، وأنه أيد الجانب الأول . كما أننا تحدثنا عن التاريخ وفقاً لنالينو بوصفه شكلاً من أشكال الوضعية المعتدلة . وكل هذا صحيح، ولكن ينبغى أن نضيف إلى ذلك الآن أن بعض هذه المبادئ ذو أصول مختلطة ترجع إلى مصادر غربية كما ترجع إلى ابن خلدون، بحيث يودى هذا الأخير دوراً مسانداً فيقدم للمستشرق الإيطالى مزيداً من التأكيد لما تلقاه من ثقافته الأوروبية .

غير أن هناك مبدأ بعينه ساهم فى تكوين مشروع نالينو ولا بد أنه كان مستمداً من المؤرخ العربى ، وأعنى بذلك الافتراض المتعلق بضرورة الرجوع فى نهاية المطاف إلى طريقة العيش المتبعة فى الشعب المعنى . فذلك مبدأ خلدونى أصيل ، وهو بمثابة العمود الفقرى فى دراسة نالينو للشعراء العرب ، ولشعر الغزل العربى وفقاً لبيئات الشعراء ما بين بدوية أو حضرية . وما كان ليتمكن إجراء هذه الدراسة دون الاعتماد على التحليلات المفصلة التى أجراها ابن خلدون للمجتمع العربى والتى تدور حول التفاعل بين سكنى الصحراء والاستقرار الحضرى، مع كل ما يقترن بطريقتى العيش من أحوال بيئية ، واقتصادية ، وسياسية ، وأخلاقية ، وفكرية . ومعنى ذلك أن نالينو عندما قرر أن يدرس تاريخ الأدب العربى بوصفه تاريخاً للحضارة العربية وجد فى المقدمة الوسيلة التى لا غنى عنها لدخول المجتمع العربى . ويمكننا أن نقول بعبارة أخرى إن ابن خلدون - وليس دوركايم أو أى مصدر أوروبى آخر - هو الذى فتح أبواب المجتمع العربى لنالينو ولطه أيضاً .

ومن الواضح أن ابن خلدون لم يكن مؤرخاً للأدب ، ولكن بعض المبادئ المنهجية التى وضعها للتاريخ أسهمت إسهاماً كبيراً فى تكوين تاريخ الأدب العربى كما استهله نالينو ، وكما قدمه وعممه طه حسين . وما كان من الممكن قيام هذا التاريخ بوصفه "علماً" بدون ذلك الإسهام . والأمر نفسه يصدق على كل ما كتب طه حسين فى تاريخ الأدب العربى بل وفى تاريخ الإسلام (عن الخلفاء الراشدين والفتنة الكبرى وانتقال الحكم إلى بنى أمية ، أو لنقل بلغة ابن خلدون انتقال الحكم من الخلافة إلى الملك) ،

ومع ذلك فقد قصر نالينو وقصر طه حسين فى تقدير ابن خلدون ، وهو تقصير صارخ فى حالة طه حسين نظراً لأنه وقد درس على نالينو وقرأ ابن خلدون قراءة فاحصة فى نفس الوقت كان فى أفضل وضع ممكن لكى يدرك إسهام ابن خلدون فى الدراسة العلمية للأدب العربى وللتاريخ العربى .

وبعد أن قصر طه فى إدراك هذه الحقيقة فى كتاباته المبكرة أضاع فى باريس فرصة أخرى لإزالة الظلم ؛ وذلك أن طه وقد أكثر من الأمثلة التى تدل على أن المؤرخ العربى قد سبق المفكرين المحدثين فى مجالات متعددة، قد تفنن بكل ما لديه من حيلة

فى البرهنة على أن ابن خلدون لم يكن محدثاً ، ولم يكن علمياً فى المجال الأهم ، أى فيما يتعلق بالتاريخ وعلم الاجتماع ولولا حماسه بوصفه مناصراً للحدائثة والوضعية لدفعته بعض تلك الأمثلة إلى نتيجة مناقضة . خذ مثلاً ما لاحظ من تطابق بين ابن خلدون وكورنو (١٨٠١ - ١٨٧٧) ؛ فهو يرى أن المؤرخ العربى يقرر وجوب البحث عن أصل كل نظام حكومى فى نوع حياة الشعب الذى يضع أساسه ، أما كورنو فإنه يقول: "إن نوع الحياة بدوياً كان أو حضرياً، قروياً كان أو مدنياً هو ما يميزها (أى الأنظمة السياسية) . والواقع أن الانتقال من نوع من الحياة إلى نوع آخر هو العلة الفاعلة لما يصيبها من التقلبات".^(١)

ومن أوجه التطابق الأخرى التى لاحظها طه بين ابن خلدون وكورنو ما يتعلق بما اعتبره كلاهما القانون الذى يحكم ازدهار الحضارات واضمحلالها . وفى هذا الصدد ينقل طه عن كورنو ما يلى^(٢): "لقد لاحظ أقدم الفلاسفة هذا القانون وحاولوا تفسيره؛ فأخبرونا كيف يفسد كل نظام من الأنظمة ويفنى لى يحل محله نظام آخر مقضى عليه كذلك بالفساد والهلاك . إن التطرف المحتوم فى استخدام السلطة المطلقة يدفع الناس إلى طلب الحرية؛ وفى أعقاب الحرية تأتى الإباحة التى يؤدى الإسراف فيها، وقد أصبح لا يطاق ، إلى دفع الشعوب إلى نشدان خلاصها فى التضحية بحريتها . وتتضائل الأرستقراطية وتتركز حتى ينسى الناس خدمات الأجداد فلا نسمع بعد إلا برذائل الأحفاد أو بخيلائهم ، وعندئذ تهلك الأرستقراطية بتأثير سخط الشعب أو اضطهاد طاغية . ويؤسس الأبطال دولا فيهيئ خلفاؤهم الذين أفسدهم الملق وانغمسوا فى الملذات التى يحملها الجاه والسلطان أسباب انحطاطها وخرابها .

(١) طه حسين ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، م ك ، المجلد ٨ (بيروت ١٩٧٥) ، ص ١٢٥ . وفيما يتعلق بالنص المقتطف من كورنو انظر A.A. Cournot, *Traité de l'enchaînement des idées fondamentales dans les sciences et dans l'histoire* , Oeuvres complètes, vol.III , ed. Nelly Buyère (Paris 1982) , p. 406 ولاحظ أننى نقلت ترجمة محمد عبد الله عنان على ضوء الأصل الفرنسى لكورنو .

(٢) النص التالى المقتطف من كورنو أطول من النص الذى يورده طه حسين ، ولاحظ أننى لم أتقيد بترجمة محمد عبد الله عنان .

ولا تنجو الشعوب كما لا ينجو رؤساؤهم من ذلك القانون الحتمي : فهم يحرزون النصر بشجاعتهم وتقشفهم ثم تجعلهم ثمار هذا النصر يركنون إلى الترف والرخاوة؛ وتصبح القوة التي سمت حينما دعت الحاجة إلى توحيد الجهود على عدو مشترك، بفعل تلك الانتصارات ذاتها ويتأثير الغرور الناجم عنها، هي ذلك العدو المشترك الذي تتكاتف ضده كل الجهود . وبعد الحماسة التي كانت الأمة من الأمم تخوض بها غمار المشروعات الممكنة، يحل الفتور والاستسلام لظروف جديدة من شأنها أن تحيل تلك المشروعات إلى سراب . وتتكون دول كبيرة بأن تبتلع ما حولها من الدول الصغيرة الواحدة بعد الأخرى ، فإذا تمت عملية التكتل هذه ابتدأت عملية أخرى تسير في الاتجاه المضاد؛ وذلك أن الاستياء من المركزية يفشو، ويعقب مصائب الحروب الصغيرة المستمرة المتجددة وابل من السخط الناجم عن تعسف الولاة أو جور الضرائب؛ وتضعف الوطنية والروح الحربية، وتقصر يد الرئيس عن قمع الاعتداءات الخارجية والثورات الداخلية، وتتفصل عن الدولة كتل كبيرة منها لتتفتت بدورها حتى يصل الانقسام إلى نهايته ، وتبدأ عملية جديدة من إعادة البناء.^(١)

وقد كان طه حسين محققاً عندما لاحظ أن أوجه التشابه الوثيق بين المؤرخ العربي والمفكر الغربي لافتة للنظر،^(٢) ولكنه لم يستخلص النتائج التي تترتب على هذه الظاهرة . ومن ذلك أن التشابه في هذه الحالة لا يمكن أن يكون وليد المصادفة ؛ فكل ما قاله كورنو حتى الآن عن توقف النظم السياسية على طريقة العيش (سواء أكانت حياة ترحل أم استقرار، ريفية أم حضرية)، وعن القانون الذي يحكم نهوض الدول وانهارها (من تمركز للسلطة يتلوه التفكك لا محالة)، والآثار المدمرة للسلطة المطلقة والترف المسرف والضرائب الباهظة، والمصير الذي يلقاه الآباء المؤسسون لا محالة إذ يعقبهم أبناء مدللون منغمسون في الملذات، وتحلل العصبية [القبلية] وما إلى ذلك -- كل ذلك بضاعة خلدونية صرف . وإذا كان كورنو ينسب هذه الآراء إلى "الفلاسفة القدامى" فليس ذلك إلا من قبيل التضليل الذي ما كان ينبغي أن يخفى على طه .

(١) انظر طه حسين ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ . وفيما يتعلق بالنص المقتطف من كورنو انظر كتابه المشار إليه أعلاه ، ص ٤٨٠ - ٤٨١ ، ولاحظ أن التأكيد يرد في الأصل .

(٢) طه حسين ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص ١٢٥ .

ولكن سطو كورنو - والسطو هنا هو الكلمة المناسبة - على ابن خلدون ليس هو أهم ما فى الموضوع . فالأهم من ذلك أمر آخر خفى بدوره على طه، وهو أن الآراء التى أخذها كورنو ذات أهمية أساسية فى مشروعه . فهو يحاول أن يقدم فلسفة للتاريخ تشرح - على غرار فلسفة كونت - تقدم العقل البشرى عبر مختلف أشكال المعرفة أو العلوم، وإن كانت تسعى إلى تلافى مزالق النظر الفلسفى . ومعنى ذلك أنها فلسفة للتاريخ سببية الطابع ، أى أنها تعنى بعزل الحوادث بدلاً من أن تكون غائية تعنى بالغايات النهائية المزعومة للتقدم البشرى .^(١) وقد وجد كورنو من الضرورى لكى يجرى هذا البحث السببى أن يستبين فى الواقع التاريخى نظاماً جوهرياً للوقائع يتعلق بـ"طبائع الأشياء" ويخضع للقوانين الضرورية - على خلاف ما هو ناجم عن المصادفة أو عرضى سطحى . ولكن هذه التفرقة بدورها تشى بأصلها الخلدونى الصميم إذا ما عبر عنها بدقة .

وذلك أن كورنو على غرار ابن خلدون يسوى ما هو عارض بالمستوى السياسى للأشياء، بينما يسوى ما هو جوهري بالمستوى الاجتماعى ؛ وهو ما يذكرنا إذن بنقد ابن خلدون لمن سبقه من المؤرخين الذين فاتهم من التاريخ "باطنه" أو "مادته" وقنعوا على نحو أو آخر بظاهر التاريخ الذى لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون.^(٢)

والواقع أن ما يعنيه كورنو بـ"طبائع الأشياء" ليس سوى ما يسميه ابن خلدون "وقائع" و"طبائع العمران" .

ومن المثير للدهشة أن كورنو يطرح هذه الآراء فى إطار "المقدمة" الأولى من بين ثمان "مقدمات" لفلسفة التاريخ التى يقترحها أو علم الأسباب التاريخية.^(٣)

(١) A.A. Cournot,, *Considérations sur la marche des idées et des événements dans les temps modernes*, Œuvres complètes, vol. IV, ed. André Robinet (Paris 1973), p. 18 .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق على عبد الواحد وافي ، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٧٩) ، المجلد ١ ، ص ٢٨٢ .

(٣) كورنو ، المرجع السابق ، ص ١٠ وما يليها .

ومن النتائج الأخرى التى كان ينبغى لطفه حسين أن يستخلصها من مقارنته بين ابن خلدون وكورنو أن تعاليم هذا الأخير التى ضمنها فلسفته التاريخية شديدة القرب مما اعتبره علمياً، وذلك على الأقل لأنها شديدة القرب من علم الاجتماع الوضعى . ولهذه الأسباب كان بوجليه - الذى كان تابعاً لدوركايم ، والذى عرّف طه حسين بكورنو^(١) - متعاطفاً بصفة عامة مع فلسفة التاريخ التى وضعها كورنو ورأى أنه من المناسب أن يستعين بأراء هذا الأخير فى تأييد جانب دوركايم فى الجدل القائم حول التاريخ السياسى فى مقابل تاريخ الحضارة (أو التاريخ المستند إلى علم الاجتماع).

وقد كان دوركايم نفسه قميناً بإبداء التعاطف مع أفكار كورنو وبالتالى مع أفكار ابن خلدون . وبعبارة أخرى نقول إن دوركايم كان قميناً بأن يوافق على القضايا التالية التى طرحها المؤرخ العربى الكبير: (١) أنه يجب التحقق من صدق الروايات التاريخية أو كذبها بحسب تطابقها أو عدم تطابقها مع الواقع ("طبائع الأشياء")؛ و (٢) أن هذا الواقع ليس سياسياً ، بل اجتماعى فى أساسه، وهو يشكل فئة متميزة من الوقائع؛ و (٣) أن الوقائع الاجتماعية إذ تتميز بطبيعة خاصة تخضع لقوانين ضرورية ، وأنها يجب أن تكون موضوعاً لعلم قائم بذاته .

ومما يترتب على المنطق الذى يركز عليه تفكير دوركايم أن فلسفة التاريخ التى قدمها ابن خلدون علمية أو تؤذن بظهور دراسة الاجتماع بوصفه علماً نظراً لأنها تتضمن القضايا السالف ذكرها . يقول دوركايم: "العلم لا يظهر إلا عندما يتجه العقل، وقد طرح جانباً كل الاهتمامات العملية، إلى دراسة الأشياء لغير غرض سوى تصويرها . فهو يستطيع عندئذ، فى وقت لم تعد تتعجله فيه متطلبات الحياة، أن ينفق الوقت اللازم له ويحيط نفسه بكل الاحتياطات الضرورية لوقايته من الاقتراحات غير المعقولة . بيد أن هذا الفصل بين النظر والعمل يفترض دائماً عقلية متقدمة نسبياً ؛ وذلك أن الوصول إلى دراسة الوقائع دونما غرض سوى معرفة ما هى يقتضى من الإنسان أن يدرك أنها من نوع محدد دون غيره ، أى أنها ذات نحو ثابت فى الوجود،

(١) لاحظ أن استشهادات طه حسين بكورنو منقولة عن بوجليه ، انظر C.Bouglé, *Qu'es-ce que la sociologie* (Paris 1907), p. 90 - 91 et 93 .

ذات طبيعة تنجم عنها علاقات ضرورية . وبعبارة أخرى نقول إن الإنسان ينبغي أن يكون قد توصل إلى فكرة القوانين...^(١)

وخلاصة القول هي إن بعض آراء ابن خلدون قد انتهت - دون أن تنسب إليه - إلى تاريخ الأدب العربي كما وضعه نالينو ، وإلى فلسفة التاريخ السببية كما وضعها كورنو، وأنها لقيت في هذا القناع الأخير حظوة لدى بوجليه لأنها كانت تتفق على أنحاء متعددة مع ما كان يعد علمياً ووضعياً . أما أن طه قد فاته أن يدرك ذلك، فإنما يرجع إلى أنه كان وضعياً متطرفاً ومقسم الولاء . ولو أنه كان تابعاً خالص الولاء لدوركايم مثل بوجليه لأدرك أهمية ابن خلدون للفكر العلمي الحديث . ولكنه كان واقعاً أيضاً تحت تأثير سينوبوس الذي كان يرى أن كل فلسفات التاريخ ، وجميع التعميمات التاريخية ، تنم عن التفكير النظري الميتافيزيقي . وهو بدلاً من أن يبرز الجوانب الإيجابية في فكر ابن خلدون رأى أن يقرأه على نحو انتقائي بهدف التقاط ما هو سلبي وفقاً لأستازيه الوضعيين كل على حدة . ونظراً لأن الحداثة تعني هذا النوع من التصميم على التماس المناهج العلمية في الغرب دون سواء، ولأنها عجزت بالتالي عن إنصاف ابن خلدون، فإنها وسيلة معيبة لإحياء الإمكانات النظرية للثقافة العربية .

والواقع أن الأمر لا يقتصر على ابن خلدون دون غيره . فمن الملاحظ بصفة عامة أن طه في بحثه عن المنهج التاريخي والنقدي الصحيح يستعين إلى حد ما بأفكار إسلامية لا شك فيها . ولكن النتيجة النهائية للبحث تنطوي على إخفاء هذا الدور، وتغليب الجانب الغربي . ومثال ذلك أن مؤلف "حياة الخنساء" (١٩١٥) يستعين إلى حد ما بالمنهج الإسلامي في الجرح والتعديل، وهو يعترف بذلك صراحة . ولكن هذا الإسهام الإسلامي ما يلبث أن يختفى وتعطى الصدارة لمنهج سينوبوس في النقد الباطني للأمانة والدقة . وشبيه بذلك ما نراه في جبرية طه كما عبر عنها في ذكرى أبي العلاء (١٩١٤) ؛ فهذه الجبرية - كما تدل التسمية وكما رأى طه بحق - تتضمن عناصر إسلامية كلامية على وجه التحديد ، ولكنه لا يستخلص من ذلك النتيجة التي لا مفر

Emile Durkheim, " La sociologie en France au XIII siècle ", *Revue bleu*, Tome XIII (1990), (١)
p. 609 - 613, p. 610

منها، وهى أن ما يقدمه على أنه منهج علمى حديث قد دخلت فى تكوينه عناصر إسلامية . وقد نسلم بأنه كان ينبغى لطله فى انطلاقه نحو مزيد من الالتزام بالنزعة العلمية أن يخلص جبريته من طابعها الدينى لكى ينتهى إلى المفهوم العلمى الحديث، أو الحتمية كما وجدها لدى تين أو فى الوضعية الفرنسية . ولكن ذلك لا يعنى التسليم بافتراضه أن الإسهام الإسلامى فى الدراسة العلمية للأدب العربى كان يقتصر على تقديم المادة الخام للعقل الأوروبى الذى يشكلها وينظمها .

أما فيما يتعلق بمذهب طه حسين فى الإنسانية فإنه يعيبه نقص مشابه؛ وهو أمر لا ينبغى أن يثير الدهشة ، لأن هذا المذهب وثيق الصلة بالاتجاه الحداثى لدى طه . وذلك أولاً لأن آراء طه الإنسانية امتداد لمذهب الحداثى نظراً لأنها تضيف إلى الثقافة الغربية أبعادها القديمة من يونانية ورومانية . وثانياً، لأن إنسانية طه بوصفها تأكيداً لوحدة العالم وعالمية بعض القيم محاولة لرأب الصدوع التى نتجت عن الحداثة بين الشرق والغرب . وثالثاً، لأن هذه المحاولة إذ تبرز ما هو مشترك بين الجانبين تستهدف استرضاء الجانب الذى ينبغى تحديثه ونصرة قضية التحديث . وعلى ضوء هذه الروابط الوثيقة بين الحداثة والإنسانية لدى طه نستطيع أن نرى أن مذهب طه الإنسانية يعجز - على طريقته - عن إنصاف الثقافة العربية .

يصدق هذا بصفة خاصة على إنسانية طه فى أوائل العشرينيات (الفترة الممتدة من ١٩١٩ إلى ١٩٢٥) ؛ فهى تركز على نظرة متحيزة إلى العلاقات بين الشرق والغرب ، وذلك أن طه كان يفترض عندئذ أن وحدة العالم قد فرضها ، عن طريق الفتح أحياناً، الجانب الغربى العقلانى المحب للحرية على جانب شرقى يخضع للدين والطغيان السياسى . ولم يكن لهذا الجانب من العالم - وفقاً لهذه النظرة - من خيار سوى إلقاء السلاح ، وقبول السيطرة الغربية عن طيب خاطر . وقد انتهى طه نفسه إلى إدراك أوجه القصور فى هذا الرأى وحاول أن يعدل الكفة فى أواخر الثلاثينيات .

فهو فى مستقبل الثقافة فى مصر (١٩٣٨) يصور وحدة العالم على أساس علاقات الأخذ والعطاء التى امتدت منذ زمن سحيق عبر البحر المتوسط فيما بين

أوروبا من ناحية وبين مصر وحضارات الشرق الأدنى من ناحية أخرى . وسوف نتجه بتعليقاتنا منذ الآن إلى هذه الصورة المنقحة المتأخرة من النزعة الإنسانية وفقاً لطله .

فهو مصيب عندما يؤكد أن العلاقات التي تصل بلدان الشرق الأدنى كانت دوماً أوثق من العلاقات التي تربط هذه البلدان بالشرق الأقصى . وهو أيضاً محق عندما يبرز - جرياً على سنة فاليري - النقاط المشتركة بين جانبي البحر المتوسط . بل ولقد يقال إن اتجاهات مصر المتوسطية والشرق أوسطية ستظل على أهمية فائقة في المستقبل . وقد يكون من الصحيح أن يقال إن مصر تستطيع أو ينبغي أن تستكشف الآن أفاقاً جديدة في اتجاه الشرق ، فتعقد صلات وثيقة مع البلدان الآسيوية مثل الهند والصين واليابان ، ولكن لا يقل عن ذلك صدقاً أن يقال إن اهتمام مصر بأوروبا والشرق الأدنى ينبغي أن يظل سائداً ، وذلك على الأقل لأسباب تاريخية وجغرافية .

ولكننا وقد سلمنا بكل ذلك لا ينبغي أن نساير طه إلى آخر الشوط فنغفل مثله أوجه الخلاف والصراع بين جانبي المتوسط . فالصلات الوثيقة العريقة مع أوروبا لم تنزل قط جميع الخلافات والنزاعات . كلا ولا يمكن لقيام هذه الصلات ووجود النقاط المشتركة أن يكون ضماناً على أن الوفاق سيسود في المستقبل ؛ فالاتفاق النظري على الأمور الأساسية أو التي تعد كذلك لم يكن في يوم من الأيام ضماناً للوفاق بين الأطراف المعنية . وذلك أن الفرق في نطاق الدين الواحد والأحزاب السياسية التي تشترك في نفس الأيديولوجيا ومدارس الفكر التي تعمل من أجل نفس الغايات مشهورة بخصوماتها الضارية حول تفاصيل دقيقة أو مسائل تتعلق بموضع التأكيد ، والحروب بين الإخوة هي في بعض الأحيان أسوأ وأقسى صور الصراع .

إن العناصر المشتركة التي يجدها طه بين الثقافة الغربية وثقافة الشرق الأدنى توهم بالوفاق والوحدة لا شيء إلا لأنه توصل إليها نتيجة لعملية من التحليل الاختزالي الذي يجردها من الظروف التاريخية . فإذا نظرنا إلى هذه العناصر في سياقها ، وجدنا أنها كانت موضوعاً لتفسيرات مختلفة بل ومتضاربة في بعض الأحيان .

والواقع أن طه إذ يسرف في تأكيد ما هو مشترك والتقليل من أهمية الفروق بين الجانبين لا يدع مجالاً كبيراً لإبراز هوية مصر ، ورغم أن تأكيد هذه الهوية "الأبدية" هو الخطوة الأولى في نظريته الإنسانية المتأخرة، فإن الخطوات التالية - بما في ذلك الزعم بأن مصر كانت دائماً جزءاً من أوروبا - تنحو نحو إبطال مفعول ذلك التأكيد . وهو ما يوحي بأن هذه الخطوة الأولى قد اتخذت أساساً لفصل مصر عن أصولها الإسلامية العربية بحيث يسهل إعادة وضعها في أوروبا .

ولقد يقال إن هذا الانطباع زائف ، وإن ما يعنيه طه في المقام الأول ليس هو إلحاق مصر بالغرب وإنما هو تأكيد حاجة مصر إلى توخي أهداف مرغوب فيها مثل العقلانية والديمقراطية بل والإيمان الديني (بعد التوفيق بينه وبين العقل).^(١) ولكننا ينبغي حتى بعد إعادة صياغة الفكرة على هذا النحو أن نضع نصب أعيننا دائماً أن توخي مثل هذه المثل العليا المشتركة لا يجوز أن يستبعد إمكان الخلاف والنزاع بل وضرورتهما ؛ فبدون ترك هذا الهامش للخلاف لا يبدو من الواضح كيف يمكن لمصر أن تؤكد هويتها .

ومن المؤكد أن طه المؤرخ ما كانت لتغيب عنه الصراعات العريقة المتجددة على السيطرة في البحر المتوسط ، وما كان له أن يغفل عن أن مصر ينبغي أن تدافع عن مصالحها في وجه مخططات الغرب الطموحة المتواصلة في المنطقة . ولكن الاعتراف بهذه الحقائق لم يكن مدرجاً في صميم رؤيته الإنسانية؛ فهي رؤية مفرطة في ذهنيته ومثاليته بحيث لا يمكنها مراعاة تعقيدات التاريخ وتشابك الأفكار مع اعتبارات القوة . ومثال ذلك أنه أحب فرنسا حباً أنساه أنها لم تكن امتداداً أو تجسماً حديثاً لليونان القديمة . ورغم أنه كان على علم مؤكد بالحروب الاستعمارية الفرنسية في ظل الجمهورية الثالثة،^(٢) فإنه كان يفترض أن الفكر الفرنسي في تلك الفترة يمكن فصله فصلاً كاملاً عن مظاهر القوة تلك .

(١) للاطلاع على تفسير ثاقب ينحو هذا النحو في تعاطفه مع إنسانية طه حسين انظر بهاء طاهر ، « نحن والغرب في أدب طه حسين » ، في أبناء رفاعة (القاهرة ١٩٩٢) ، ٨٦ - ١٤٩ .

(٢) انظر طه حسين ، « صرعى الحضارة » ، في فصول في الأدب والنقد ، م ك ، المجلد ٥ ، ص ٥٣٤ - ٥٥١ ، ص ٥٤٧ .

ولقد كانت أراؤه التبسيطية مشروطة إلى حد ما بالظروف السياسية التي كتب في ظلها مستقبل الثقافة في مصر ؛ وذلك أن توقيع المعاهدة الإنجليزية المصرية (١٩٣٦) واتفاقية مونترو (١٩٣٧) كان إيذاناً بالنسبة لطله صاحب الاتجاه السياسى المعتدل بحلول عصر جديد يمكن لمصر فيه أن تتطلع إلى الانضمام إلى مجتمع الأمم المتحضرة المستقلة^(١) وهو لم يكن على وعى بالأخطار المحدقة التي ستعرض لها مصر والشرق الأدنى نتيجة لأشكال جديدة من التدخل والسيطرة الأجنيين . ولم يحدث إلا فيما بعد، عقب إنشاء دولة إسرائيل في سنة ١٩٤٨ والعدوان الثلاثى في سنة ١٩٥٦، أن اتضحت الصورة وكشفت عن دمامتها . ومن الملاحظ في الوقت الحاضر أن فكرة ثقافة البحر المتوسط، وقد أعادها الطرف الأقوى إلى الحياة، تلقى تأييداً متزايداً في الغرب ، ولكن ثمة شعوراً في العالم العربى أن هذه الدعوة ليست إلا الغطاء الحلو لقرص الدواء المر .

وينبغى للعالم العربى الآن أن يتخذ من الغرب موقفاً أقرب إلى الواقعية ، وأكثر تحلياً بروح النقد . فلا غنى لمصر ولا للعالم العربى عن استقبال علوم الغرب وثقافته، ولكن لا ينبغى أن يكون ليهما أى أوهام عن وجود وفاق أساسى مع أوروبا . فكل القضايا التي ينطوى عليها هذا الحوار الثقافى لا بد أن تحل في إطار من النضال، على أن يراعى أن شيئاً كائناً ما كان لا يمكن أن يؤخذ بناء على مجرد الثقة ، ولا بد لكل شيء - بما في ذلك العقلانية والمناهج العلمية - أن يكون من حيث المبدأ موضوعاً للنقاش ؛ وذلك أن المعايير التي تحدد ما هو عقلانى أو علمى لا تتمتع إلا باستقرار نسبي أو صحة نسبية . ومن المعروف أن لعقلانية الغرب وإنسانيته أوجه قصورهما وجوانبيهما المظلمة . وليس من الممكن تحديث العالم العربى حقاً إلا عندما يشارك في إنتاج المعارف وإنتاج الأدوات اللازمة لتحصيلها ؛ وهى عملية تقتضى في نفس الوقت حشد كل الموارد المناسبة التي ينطوى عليها تراثه كما تقتضى فرض طابعه .

(١) طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، م ك ، المجلد ٩ ، ١٩٧٣ ، ص ٧ .

وقد يرد طه على ذلك فيقول إن السعى إلى هذه المطامح ينبغي أن تسبقه فترة من التعلم يتعين فيها على مصر أن تقنع بامتلاك ناصية المنهجيات الغربية . ولكن هذا النهج التدريجي المعقول - وإن كان ضرورياً من الناحية العملية - لا يمكن أن يقبل كهدف طويل الأجل لبرنامج للتحديث، دعك من أن يقبل كنظرية عن وحدة العالم . ويصدق هذا بصفة خاصة بالنظر إلى أن الأجيال الشابة من المثقفين العرب، بما فيهم المؤيدون لمضاعفة الحوار مع أوروبا، يتخذون موقفاً ناقداً من الغرب ، ويدركون أن المناهج المستوردة لا يمكن أن تقبل بحسب قيمتها الظاهرة أو أن تجمع بطريقة تلفيقية صرف .

ملحق

تقرير ماسينيون عن اتجاهات الأفكار الفلسفية في البلاد الناطق بالعبية

تقديم

فيما يلي ترجمة للتقرير الذي كتبه لويس ماسينيون عن الفترة التي قضاها محاضراً في الجامعة المصرية (٢٥ نوفمبر ١٩١٢ - ٢٤ أبريل ١٩١٣)، وهو تقرير لم ينشر من قبل ولم يزل نصه الأصلي الفرنسي مخطوطاً، وقد تفضل الفقيه دانييل ماسينيون فأذن لي بترجمته ونشره باللغة العربية. ويتألف النص الأصلي الذي حصلت منه على نسخة فوتوغرافية من ١٤ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة، بالإضافة إلى صفحة الغلاف التي كتب عليها بخط اليد اسم المؤلف وعنوان التقرير. وفي نهاية التقرير ترد بالفرنسية عبارة: «باريس، ٤ يوليه ١٩١٣»، كما يرد توقيع ماسينيون. كما يتضمن النص بعض التصوييات التي كتبت بخط اليد، وإن لم يكن من الواضح ما إذا كانت من عمل ماسينيون. ويجدر أن أذكر في هذا الصدد أن تأكيد الكلمات أو العبارات بوضع خط تحتها هو بدوره من عمل المؤلف، في حين أن جميع الحواشي من عملي.

وقد حرصت في الترجمة على أن أستخدم بقدر الإمكان نفس الألفاظ العربية التي استخدمها ماسينيون تعبيراً عن الاصطلاحات الفلسفية العربية في محاضراته (التي كان يلقيها بالعربية). ولما كانت الصورة الفوتوغرافية التي في حوزتي ليست واضحة في جميع المواضع، فقد لجأت أحياناً إلى التخمين في قراءة الكلمات المعنية. وفي مثل هذه المواضع نبهت إلى عنصر الشك بإدراج علامة استفهام بين معقوفتين، كما أضفت في بعض الحالات كلمة أو أكثر بين معقوفتين طلباً لمزيد من الفائدة.

والواقع أن لتقرير ماسينيون قيمة كبيرة من الناحية التاريخية، نظراً لما يحتويه من معلومات مفصلة دقيقة لا تقتصر على محاضراته ، بل تشمل حالة تعليم الفلسفة في مؤسسات التعليم المصرية، بما في ذلك الجامعة المصرية والأزهر ودار العلوم، في أوائل القرن العشرين . كما يتضمن التقرير معلومات شيقة عن كتاب منسين في مجال التأليف الفلسفي أو الفكري . وهي إذن لا غنى عنها لمن يريد أن يؤرخ للحياة الفكرية في مصر في ذلك العصر . ومن اللافت للنظر أن ماسينيون لم يفته أن يلاحظ بين المستمعين إلى محاضراته طالباً فذاً هو "الشيخ" طه حسين كما يسميه، وتشهد ملاحظاته في هذا الصدد على ثاقب بصره كما تشهد على نبوغ "الشيخ" المبكر .

ع . ص . م .

ماسينيون (ل .)

تقرير عن بعثة لدراسة اتجاهات الأفكار الفلسفية فى البلاد الناطقة باللغة العربية

فيما يلي ملخص لكل ما اضطلعت به من عمل فى القاهرة (مصر) فى غضون الفترة الممتدة من ١٩١٢ إلى ١٩١٣ أثناء المهمة التى أوفدتنى فيها وزارة المعارف العمومية من أجل دراسة اتجاهات الأفكار الفلسفية فى البلاد الناطقة باللغة العربية، وذلك بوصفى محاضراً فى تاريخ المذاهب الفلسفية بالجامعة المصرية (عقد لإلقاء محاضرات من ١٠ نوفمبر ١٩١٢ حتى ١٠ يونيو ١٩١٣) ، وهو المقرر الدراسى الذى تفضلت إدارة العلاقات الخارجية الفرنسية بدعمه مادياً ومعنوياً أثناء السنة الدراسية .

القسم الأول - السمات العامة للاتجاهات الفلسفية الراهنة فى البلاد الناطقة باللغة العربية

يبدو للوهلة الأولى أن هناك أوجه شبه لافتة للنظر بالحركة الفلسفية الغربية فى اللغة اللاتينية فى بداية عصر النهضة . ففى كل مكان تقريباً ثمة حركة نشطة لدراسة ونشر مخطوطات الفلاسفة القدامى مثل الفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد . وهناك محاولة يبذلها الكتاب المعاصرون لصياغة مفاهيمهم من حيث الشكل والأسلوب وفقاً لهذه النماذج الكبرى .

ولكن تظهر الخلافات عند إلقاء النظرة الفاحصة . فالعرب ليسوا هم الذين اضطلعوا من تلقاء أنفسهم بهذا الجهد الرامى إلى بعث الحضارة القديمة عن طريق المطبعة، وذلك أن معظم طبعاتهم الجديدة للفلاسفة [القدامى] تقتصر على تزييف الطبقات "الأولى" التى أعدها مستعربون أوروبيون .

يضاف إلى ذلك أن اللغة العربية الفصحى بالنسبة للشرق المعاصر بعيدة كل البعد عن أن تكون لغة ميتة موت اللاتينية بالنسبة لعصر النهضة. ففي الصحف الرئيسية وفي التعليم وأقوال المتعلمين وأحاديثهم تظل العربية الفصحى هي اللغة المستخدمة بصفة عامة وإن كانت مشوهة إلى حد ما . وهي على أية حال اللغة التي كان على أن أتعلمها في القاهرة وفي بغداد لكي أتابع الأحاديث التي تدور في أوساط المتعلمين وأتذوق ما تعدّه أفضل العقول المسلمة المذاق الحقيقي الباقي للتراث العربى .

ويترتب على ذلك أن أهم مسألتين بالنسبة لمستقبل الحركة الفلسفية العربية هما ما يلي :

(أ) هل يستطيع الفكر العربى أن يكبر تحت وصاية العلم الأوروبى وهل يمكنه عندما بلوغ فترة النضج أن يتحرر منها ويصبح غنياً بالمؤلفات الأصيلة ؟

(ب) هل اللغة العربية أداة مرنة بما يكفى لتمكين الناطقين بها من تحقيق تطور فلسفى جديد ؟

وللإجابة عن هذين السؤالين حاولت أن أخص أدناه: (ثانياً) خبراتى الشخصية مع الطلاب والمستمعين الذين حضروا دروسى بالجامعة المصرية؛ و(ثالثاً) التجارب التي حاولت اكتسابها فى غير ذلك من مراكز التعليم المصرية مثل الأزهر ودار العلوم ودار الدعوة والإرشاد ؛ و(رابعاً) الوضع الحالى للمؤلفات المطبوعة سواء أكانت نصوصاً قديمة أم مؤلفات جديدة .

والصفحات التالية تخص القاهرة أساساً ، وذلك أن القاهرة - بحكم وضعها الجغرافى المركزى والحرية الثقافية التى تتمتع بها - ما زالت هى المركز الحقيقى للحركة الفلسفية فى اللغة العربية . وتكفى بعض الملاحظات فى نهاية القسم الثالث لبيان ما يجرى فى الوقت الراهن فى الأماكن الأخرى من أجل بعث الفلسفة فى اللغة العربية .

القسم الثانى - الجامعة المصرية

تقدم المقررات فى الجامعة المصرية للطلاب المقيدين وفقاً للوائح والمستمعين غير المقيدين ، وجميعهم من العرب والمسلمين . ومن المرجو أن تقرر الحكومة المصرية الاعتراف بأن الموظفين الذين يحصلون على شهادات نتيجة لامتحانات آخر العام يحق لهم أن يحظوا بوضع خاص . ونظراً لأن المفاوضات التى بدأت فى هذا الموضوع بين الجامعة ووزارة المعارف العمومية ما زالت معلقة ، فإن عدد الطلاب المقيدين منخفض إلى حد كبير . أما المقرر الذى أدرسه - وهو من المقررات التى يحضرها بانتظام أكبر عدد من الطلاب هذا الشتاء - فقد بلغ متوسط عدد الحضور فيه حوالى العشرين (حيث بلغ أعلى رقم ٥٠ و ٢٦ بينما كان أدناها ١٢) . وإنه لمن المهم أن توضع مكتبة الجامعة فور استكمال الفهرس تحت تصرف الطلاب لكى يجدوا فيها بعد طول انتظار مؤنلاً للدراسات التى لا بد منها للنهضة الثقافية المرجوة .

ومنذ إنشاء الجامعة لم يضطلع بتدريس مقرر تاريخ المذاهب الفلسفية إلا أستاذ واحد، وكان إيطالياً وهو الدكتور سانتلانا . وقد اختار موضوع "الصلات بين المدارس الفلسفية اليونانية والفرق الإسلامية" . غير أن دروسه التى كان يحررها ويتمرن على إلقائها مقدماً لم تكن فى حقيقة الأمر إلا ترجمة لمقرر شديد التبهر ألقى [من قبل] على جمهور إيطالى من ذوى الثقافة النقدية الأوروبية الكاملة . ولما كنت قد أعطيت حرية الاختيار، فقد بدا لى أننى ينبغى أن أختار موضوعى على نحو مختلف وأن أطبق منهجاً مختلفاً تماماً .

أولاً من حيث الموضوع : إذ كيف يمكن شرح مختلف المذاهب الفلسفية شرحاً مفصلاً أمام جمهور لعله يجهل حتى مبادئ المفردات الفلسفية ؟ والواقع أن الطلاب والمستمعين كانوا ينقسمون إلى فئتين متساويتين من حيث العدد هما :

(أ) الطلاب الذين تخرجوا من المدارس الحكومية والمطلعون على معظم الأفكار العصرية ولكنهم لم يتعلموا مناهجنا إلا على نحو سطحى ، والأسوأ من ذلك أنهم قد تلقوا هذا الإعداد الفكرى بلغة أجنبية هى الإنجليزية دون أن

تتاح لهم أى فرصة لتنمية معرفتهم بالعربية عن طريق التفكير بلغتهم الأصلية، وأنهم بالتالى عاجزون تماماً عن التفكير على نحو أصيل . إذ يبدو من المستحيل تقريباً (كقاعدة عامة) ابتكار أى شىء بلغة مستعارة وبأداة مصنعة، وذلك أن تلك الأداة لن تسمح أبداً للطاقات الكامنة فى أعماق الشخصية بأن تؤدي دورها بنفس المرونة التى تتوافر للغة الأصلية .

(ب) الطلاب الذين تخرجوا من جامعة الأزهر الدينية والذين يجهلون أفكارنا ومناهجنا تماماً ولكنهم يتمتعون بالميزة الكبرى وهى أنهم تعلموا التفكير بلغتهم الأصلية : أى العربية . فلماذا كتب عليهم - وأسفاه ! - أن تنتهى التمرينات المنطقية التى فرضت عليهم طيلة سنين إلى مباحكة لفظية شكلية فى معظم الحالات ، إلى ترديد بىغوى لا صلة له بالواقع ؟ ومع ذلك فإن هذه الفئة من الطلاب ، إذا افترضنا أن أفرادها يتساوون فى الذكاء مع أفراد الفئة الأخرى ، أخرى بأن تنتج لنا كتاباً يمتازون بالأصالة . وصحيح أن الفئة الأولى تزود الإدارة الإنجليزية بموظفين كيّسين قادرين على أن يعرضوا أفكار العصر ونظرياته بلباقة وأن يحاكوا عن غير وعى وبموهبة جديرة بالإعجاب الاتجاهات الفكرية للطائفة الغالبة (فالمسلمون الهنود من نوى الثقافة العربية خبراء متميزون فى هذه اللعبة) . ولكن الفئة الثانية - وهى الوحيدة التى تعلمت التفكير بلغتها - هى وحدها التى يحتل يوماً ما أن يظهر فيها فلاسفة . وذلك ما يثبته بوضوح تاريخ السنوات الأخيرة بظهور جمال الدين الأفغانى والشيخ [محمد] عبده . ومما سرى عنى أننى وجدت بين طلابنا عقلاً من المرتبة الأولى، كفيفا صاحب بصيرة ثاقبة، هو الشيخ طه حسين . وكان من قبل طالبا فى الأزهر، وقد أسهم فى الجريدة بمقالات أساسية رفيعة المستوى .

وإزاء هذا الجمهور كان واجبى محدداً تماماً: أن أحادثهم أولاً وأتعرف عليهم وأدخل معهم فى علاقة حقيقية وأحاول التفاهم معهم بالعربية؛ ولهذا ينبغى :

(١) أن أتخلى عن الدروس المقررة التي تكتب ويجرى التمرن على إلقائها مقدما، وأن أستعويض عنها بمحاضرات أقدمها بلغة الحديث دون أن أتحرز ، كما يتحرز المعلمون العرب ، من توجيه الالتفاتة المفاجئة إلى أفضل الطلاب حتى أوقظ انتباه الجميع؛ وذلك لكي أتعلم معهم التفكير والتدبر على نحو جماعي وبطريقة منظمة في موضوعات منسقة ، متيحاً لهم أن يروا في تغير الإيقاع واللهجة ، بل وفيما يعترى العبارة من تردد وتعثر ، عمل الفكر الذي ينظم نفسه بنفسه والجهد الذي يبذله إذ يسعى في نفس الوقت إلى امتلاك ناصية الأفكار المنشودة والألفاظ المعبرة عنها .

(٢) أن أتخلى عن طريقة العرض التي تجرى وفقاً للتسلسل الزمني والمناطق الجغرافية وتنتقل دون هوادة من فرقة إلى أخرى ومن علم من أعلام الرجال إلى علم آخر ؛ فتلك طريقة وثائقية ولاشك أنها مفيدة في حالة الكتابة ولكنها جافة لاحياة فيها إذا استخدمت في محاضرات تلقى حقيقة بلغة الحديث . وأن أتخير أرضاً صلبة هي المصطلحات : أي سلسلة الألفاظ المجردة التي تترجم بالعربية حصيلتنا البشرية الصغيرة من الأفكار العامة، وبذلك يحتفظ المرء لنفسه خلال المناقشة بشيء محدد وثابت هو السلسلة النقدية المؤلفة من الألفاظ التي سكتها اللغة العربية واستقرت عليها بصفة نهائية وصارت تحمل صورة مازالت معروفة متداولة من ماليزيا إلى المغرب . وأن أقدر مع المستمعين ما لكل من هذه المفردات العربية من قيمة حقيقية بأن أتتبع في المعجم أصولها الشعبية، وتخصيصها لأفكار مترجمة عن اليونانية، ومدلولاتها عند مختلف الفلاسفة العرب ، ثم انتقالاتها في نهاية المطاف إلى اللغات [الأوروبية] الحديثة عن طريق لاتينية العصور الوسطى .

قائمة المحاضرات^(١)

العنوان: تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية

أولاً - مقدمات تمهيدية : عن المنهج المتبع (نشرت الترجمة الفرنسية فى Revue du

(Monde Musulman, t. XXI).

ثانياً - مراجع الموضوع

دراسة الألفاظ الدالة على الأفكار العامة:

ثالثاً - سادساً : " المستخدمة فى: المنطق : الكليات - المقولات - الأحكام - القياس.

سابعاً - عاشراً : " المستخدمة فى: الرياضيات : العدد - الحساب - القضاء والدمر^(٢) - النسبة والضروب^(٣) .

حادى عشر- رابع عشر: " المستخدمة فى: علم الطبيعيات والكيمياء : الطبيعية ، العلية ، القانون - المادة والصورة والقوة - الذرة ، الوحدة - العالم .

خامس عشر- ثامن عشر : " المستخدمة فى : علم الحياة : الحياة - العضو ، التناسل - النوع ، التطور - الغريزة .

تاسع عشر- ثانى وعشرين : " المستخدمة فى علم النفس : الإحساس، الفكر، الإرادة - الفهم والعقل - النطق والكلام (أصل اللغات) - الحب .

(١) نشرت هذه المحاضرات فى صورة كتاب : لويس ماسينيون ، محاضرات فى تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية ، تحقيق زينب الخضيرى (القاهرة ١٩٨٣) .

(٢) « القضاء » و « الدهر » حسب تعبير ماسينيون (انظر نفس المصدر ، ص ٤١) أى المكان والزمان على التوالى .

(٣) « الضروب » (نفس المصدر ، ص ٤٦) هى الإيقاع .

ثالث وعشرين - سادس وعشرين: " المستخدمة فى : علم الاجتماع : الأخلاق - العقد و العدالة - الأمة والدولة - فلسفة التاريخ .

سابع وعشرين - ثلاثين: " المستخدمة فى: الإلهيات^(١) : الإله - الوجود ، الوحدة ، وحدة الوجود - الحق والدين - علم الأديان .

حادى وثلاثين - إجمال : الدور الخاص الذى تؤديه اللغة العربية فى العالم، نحوها و قيمتها كطريقة للتعبير عن الفكر الفلسفى .

ثانى وثلاثين - خامس وثلاثين : السمات المميزة للغة الفلسفية العربية منظوراً إليها فى آثارها: أ) العلوم وترتيبها - ب) رؤوس المسائل والمذاهب الرئيسية (جدول بحسب التسلسل الزمنى) .

سادس وثلاثين - مسألة اللغة الدارجة : هل ستصبح أداة صالحة للاستخدام فى التفكير الفلسفى .

سابع وثلاثين- تاسع وثلاثين: الظروف الراهنة لنهضة فلسفية عربية: أ) المفهوم السائد للعلم والفلسفة؛ الترجمات العربية الحديثة؛ ب) الحالة الراهنة للثقافة العامة فى المراكز العربية (توزيعها على خارطة العالم : الصحافة ، الجمعيات العلمية ، الجامعات ؛ ج) المهمة المنوطة باللغة العربية فى العالم .

أربعين - الخاتمة . البحث عن الحق؛ قاعدة استخدام المصطلح الفلسفى - التاريخ والشهود - إمكانية التوصل إلى يقين جماعى .

ويقع النص العربى لهذه المحاضرات - والذى تكرم الطالب توفيق أفندى مرعشلى بطبعه على الآلة الكاتبة ووقعت عليه للمستمعين - فى مجموعة تتكون من ١١٠ صفحة من القطع الكبير تتلوا ثلاثة فهارس (الصفحات ١١١ - ١٢٣) : فهرس للمحاضرات وجدول لأسماء الأعلام (٢٢٨ أوروبياً ٢٣٥ عربياً)

(١) يقول ماسينيون « الإلهيات » (نفس المصدر ، ص ١٢٧ وما يليها) قاصداً الميتافيزيقا (كما يسميها بالفرنسية) أو ما بعد الطبيعة .

وجداول للاصطلاحات الفلسفية التي ورد ذكرها (٤٠٢ اصطلاحاً أوروبياً و ٥٩٦ اصطلاحاً عربياً) . والجدول الأخير بمثابة مكنز حقيقى للاصطلاحات الفلسفية العربية يتضمن ٩٩٨ مادة .

وقد أمكن ملاحظة النتائج التى تمخض عنها المقرر فى امتحانات نهاية السنة (١٩ أبريل ١٩١٣ : هيئة المتحنيين : السيد ماسينيون ، الشيخ طنطاوى ، الشيخ المهدى) . وقد تضمن برنامج الامتحان :

(أ) المسائل التالية :

- ١ - اصطلاحات المنطق : المقولات العشر .
- ٢ - اصطلاحات الرياضيات : فكرة العدد .
- ٣ - اصطلاحات الكيمياء : فكرة الذرة .
- ٤ - اصطلاحات علم الحياة : فكرة الحياة .
- ٥ - اصطلاحات علم الحياة : فكرة النوع .
- ٦ - اصطلاحات علم الحياة : فكرة الغريزة .
- ٧ - اصطلاحات علم النفس : أصل اللغات .
- ٨ - اصطلاحات علم الاجتماع : فكرة الأخلاق .
- ٩ - اصطلاحات علم الاجتماع : فلسفة التاريخ .
- ١٠ - اصطلاحات الإلهيات : المناقضات^(١)
- ١١ - اصطلاحات الإلهيات : وحدة الوجود عند ابن عربى .
- ١٢ - اصطلاحات الإلهيات : علم الأديان .

(١) يسميها ماسينيون « مناقضات العقل المجرد » (لدى كانط) (نفس المصدر ، ص ١٣٩) ؛ ويسميها مراد ومبه (المعجم الفلسفى ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ٧٠٨) « نقائض » .

(ب) تفسير النصوص التالية (اختياري) :

- ١- الغزالي : المنقذ ، الصفحات ١٠ - ٢٠ (الفلاسفة) :
- ٢- الغزالي : إحياء ، المجلد الأول ، الباب الثالث^(١) ، الصفحات ٤٣ - ٤٩ :
(تطور المفردات الفنية) .
- ٣ - ابن رشد : ما بعد الطبيعة^(٢) ، ص ٧ (الجواهر) .
- ٤ - ابن تيمية : وحدة الوجود^(٣) (في الألوسى ، جلاء العينين^(٤) ، ط ، ١٢٩٨ ، ص ٥٤ - ٦١) .

٥ - ابن خلدون : المقدمة (الفصل الخاص بالمنطق)،

وبصفة عامة حفظ الطلاب המתحنون مذكراتهم عن ظهر قلب، وذلك بفضل تلك القدرة المثيرة للإعجاب التي يتمتع بها الشرقيون . فلما قوطعوا وطلب إليهم أن يشرحوا بان ضعفهم البالغ بصدد الأسئلة ٢ و٤ وه وه ٩ التي تنصب على مبادئ العلوم التي لم يدرسوها ، بينما كانوا شديدي الدقة بصدد الأسئلة ١ و٦ و٧ التي عرضت عرضاً وافياً في التعليم العربي القديم . إلا أن طالباً بلا نظير هو الشيخ طه حسين قدم عن السؤال ١٠ شرحاً بلغ فيه غاية الدقة في التعبير لمناقضات العقل المجرد وفقاً لكانط . وكان السؤال ١١ يتناول في تاريخ الأديان نقطة خلافية كادت تثير تضارب الآراء بين أعضاء لجنة الامتحان؛ فاتفقت الآراء على استبعادها، ولنفس الأسباب استبعد الشرح الاختياري للنصوص لما قد يثيره التفسير من تضارب في الآراء .

(١) يقول ماسينيون في النص الفرنسي « الفقرة ٢ » ؛ فلعله يقصد الباب الثالث من كتاب العلم في إحياء علوم الدين ، ففيه فقرة عنوانها « بيان ما بذل من ألقاظ العلوم » .

(٢) ارجح الظن أن الكتاب المقصود لابن رشد هو تلخيص ما بعد الطبيعة [لأرسطو] .

(٣) فيما يتعلق بموقف ابن تيمية من مذهب وحدة الوجود انظر لويس ماسينيون ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٤) يقصد ماسينيون نعمان خير الدين أبو البركات الألوسى (١٨٣٦ - ١٨٩٣) الذي ألف كتاباً في الدفاع عن ابن تيمية بعنوان جلاء العينين في المحاكمة بين الأحمدين .

القسم الثالث

أما في الأزهر - وهو الجامعة الدينية العتيقة التي ستبلغ الألف عام من عمرها عما قريب - فإن تعليم الفلسفة لم تتغير أساليبه على أي نحو ملموس ، وذلك رغم الإصلاح العميق الذي أدخلته الحكومة الإنجليزية على نظامه التأسيسي في العام الماضي، وهي التي ما كانت لتأسف على زعزعته استناداً إلى هذه الذريعة . وكان بوسعي أن ألاحظ ذلك بنفسى وأن أكتشف أن الأسلوب القديم في التدريس ما زال يمارسه أحد أساتذة المنطق، وهو الشيخ الدسوقي . وكان هذا الأسلوب يقتضى تلاوة الكتاب المدرسى كاملاً عن ظهر قلب على التلاميذ الذين يقرعونه - بما في ذلك المتن والهامشية والتقرير- ومزج هذه التلاوة بتعليقات شديدة الإيجاز تنصب في كثير من الأحيان على الشكل أكثر مما تنصب على معنى المقدمات . أما بالنسبة لأقسام الفلسفة الأخرى التي زاد فيها تغلغل التأثير الأوروبي فإن اختفاء الأسلوب القديم لم يؤد إلا إلى عدم الاتساق ، كما أن ادعاء بعض الأساتذة اتباع نوع من التوفيق التحديثي قد جعلهم يتقبلون في الأطر القديمة لتعريفاتهم ودون أن يطرف لهم جفن مبادئ غربية من شأنها أن تدمرها (قارن في علم النفس لمحمد شريف عرضه للثنائية الإنسانية) . يضاف إلى كل ذلك أن هناك نقصاً في الدروس التي لا غنى عنها في التربية الفكرية للنخبة .

أما في مدرسة إعداد المعلمين ، أو ما يسمى دار العلوم في الناصرية، فإننا نجد تعليماً يفتخر به المصريون عن حق لما يتوخاه من جهد لإحياء أفضل نثر عربي، وهو تقليد للجاحظ فولتير العرب ، نثر واضح مفعم بالحيوية والنشاط مجرد من الزخارف الزائفة ومن الجناس والسجع . ولكن التعليم الفلسفي لا يجري على نحو منسق في دار العلوم . وإننا لنجد في الكتيبات العديدة التي كتبها أساتذتها بحماس شديد وخصوصية كبيرة ميلاً يخلو من الحذر إلى ما تتضمنه المذاهب التوفيقية والثيوسوفية الأوروبية من أكثر العناصر شبهة في نظر العقل .

غير أن أكثر المؤسسات [التعليمية] إثارة للاهتمام في القاهرة هي دار الدعوة والإرشاد التي أسسها منذ عامين الشيخ رشيد رضا، وهو سوري من طرابلس وتلميذ

لمحمد عبده ؛ فنحن نجد فيها أولاً تدريباً تربوياً يتميز بالاتساق والتجانس ويتجه على نحو واضح إلى هدف محدد هو تقديم تعليم عملي وعصرى . والواقع أن هؤلاء الطلاب يراد لهم أن يكونوا النواة: ١) لجماعة من وعاظ المساجد الذين يعملون على تجديد الإسلام على الصعيد المحلى ، و٢) لجماعة من الدعاة الذين ينقلون الرسالة الإسلامية إلى الخارج .

كما أن التوحيد والشريعة كما يدرسان هناك قد أخليا (ربما أكثر من اللازم) من المقدمات التمهيدية الفلسفية والمباحثات المذهبية التي يغرم بها الأزهر، وخلصا من كل ما قد يخل بالدفاع المباشر عن الدين . ويؤدى حماس رشيد رضا فى اتباع ابن تيمية وإصلاحه الظاهري إلى استبعاد كل نزعة صوفية نظرية (أو يردها إلى حد أدنى من الزهد الذى لا يتعارض فى شئ مع العمل المباشر الملح) . وفى معية رشيد رضا نجد الدكتور توفيق صدقى ، وهو طبيب على درجة عالية من الأصالة الفكرية، فهو يسعى إلى تسخير أحدث نتائج النقد الإنجيلي لتمجيد النبى وإلى أن يؤسس نزعة حدائثة إسلامية، وذلك بأن ينطق النص الذى جاء به القرآن بصرف النظر عن التفاسير القديمة بكل ما يعلمنا إياه العلم اليوم بوصفه الحق .

أما فى خارج مصر فينبغى التنويه بالمركز الفكرى الهندوسى الكبير فى عليكره (جامعة سيد أحمد خان حيث تأسست مؤخراً رابطة "خدام الكعبة"، وهى رابطة للعمل النضالى على صعيد العالم الإسلامى) والتجمعات الجاوية و"دار الفنون" فى القسطنطينية . ويجدر بالذكر أن نشاط الأساتذة السوريين لم يتح له بعد أن ينتشر بحرية فى وطنهم .

القسم الرابع

وبناء على الحالة الراهنة للأعمال الفلسفية المطبوعة باللغة العربية - سواء أكانت نشرأ لنصوص قديمة أم طباعة لمؤلفات جديدة - فإن من الممكن استخلاص النتائج التالية :

(١) قليلة هي دور النشر التي تنسق مطبوعاتها توحيداً لغاية محددة . فدار الدعوة تنشر بصفة منظمة في مجلة المنار التابعة لها الأعمال القديمة لابن تيمية وتطبع الأعمال الجديدة التي تصدر عن نفس المنطلق، وذلك مثل الكتاب الذي ألفه السلامي بعنوان غاية الأمان في الرد على النبهاني^(١)، وهو فقيه سوري معاصر نو نزعات صوفية. وينوي أحمد زكي باشا نشر الأعمال التي مازالت مخطوطة للجاحظ وأبي حيان. أما الناشر الكردي [؟] فيواصل نشر الفلاسفة القدامى مثل ابن رشد والغزالي (الذي نشر له هذا العام مقاصد الفلاسفة) . أما فيما يتعلق بالمؤلفات الأصيلة المعاصرة في مجال الفكر الفلسفي فيكفي أن نذكر المقالات التطورية للدكتور شبلي شميل ، وهو مسيحي ، والدكتور توفيق صدقي والشيخ جميل الزهاوي وهما مسلمان . بل إن هذا الأخير قد ذهب إلى أن اللهجات العربية الدارجة كما تستخدم اليوم يمكن أن تتطور لتصبح لغات حقيقية للتعبير عن الفكر الفلسفي ، وهي نظرية تنطوي على مخاطر(انظر المحاضرة السادسة والثلاثين) .

خاتمة

إن التجربة العملية لتدريس المقرر الذي عرضته أعلاه وعالجته بأكمله في ٤٠ محاضرة بداية من ٢٥ نوفمبر ١٩١٢ حتى ٢٤ أبريل ١٩١٣ قد بينت كل ما يمكن توقعه من جمهور عربي مسلم يستمع إلى دروس في تاريخ المذاهب الفلسفية . فثمة انتباه مستمر مفعم بالاحترام إزاء كل عمل مجرد من أعمال العقل؛ وافتتان بالفلسفة اليونانية لا يخلو من سذاجة رغم دلالاته؛ واستعداد كبير للعمل الفكري المشترك وقدر من العجز عن العمل المنفرد .

وقد خصصت صحيفة الشعب التابعة للحزب الوطني - التي اعتقدت أن من واجبها أن تهاجم الجامعة المصرية - عددها الصادر في ٢٨ ربيع الثاني (٣١ مارس

(١) يسميه ماسينيون بالفرنسية refutation d'al-Nabhani . ولكنه يشير إلى الكتاب بعنوانه العربي في كتابه المذكور سابقاً ، ص ١٨٢ .

١٩١٣) لنقد محاضراتى . وأعلنت أن دراسة الاصطلاحات الفلسفية المستعارة من العلوم لا تفيد إلا بعد دراسة عميقة لكل من هذه العلوم ، وإن لا حظت أن تجربة المحاضر فى "إلقاء" المحاضرات دون قراءتها قد نجحت فى نظر الجمهور الذى قدر "بيان" المحاضر (وقد حضر هذه المحاضرات مراراً صاحب السعادة شفيق باشا نائب رئيس مجلس الجامعة) . وأعرب الناقد عن أسفه لأن المحاضر قد أطلع الطلاب بسرعة ولكن بوضوح على الانتقادات السديدة التى وجهت إلى بعض تعريفات الاصطلاحات الفلسفية كما قررها أصلاً الغزالي أو ابن رشد أو ابن عربى أو روسو أو دارون .

ومحال أن يكون هناك لوم أحب إلى نفس المحاضر من هذا اللوم . فقد أكد لديه أن المهمة التى جاء للتعاون فى أدائها ضرورية فى البلاد العربية، وذلك أن الطلاب العرب منذ أمد بعيد قد تعودوا عن طريق تعلم الكتب التى يحفظونها عن ظهر قلب أن يتقبلوا قضايا من أشد القضايا تناقضاً فى تجاور فج وتعريفات من أشد التعريفات تعارضاً . فهى تجمع مثلاً فى مجال الإلهيات بين ذرية الأشعرى ومشائية ابن سينا، وفى مجال الأخلاق بين وحدة الوجود الصوفية لدى ابن عربى وبين الزهد التقليدى البسيط لدى ابن تيمية . فقد ناضلت هذه ضد تلك، وما زالت هذه منذ ذلك الحين هى النقيض المنطقى لتلك . وقد أن الأوان لأن نفهم ذلك وأن نكف عن تدريس مثل هذه التوفيقية التى تخلو من الاتساق تحت قناع التقاليد . كما أن الأوان لكى يتعلم الطلاب وزن حدود هذه القضايا المتضاربة والمقارنة بينها من حيث مبنائها وتنسيقها وتحديد علاقاتها ونتائجها حتى عندما يضافى عليها كل شىء ضمان الأسماء الشهيرة وسلطتها، وحتى لو انتهى ذلك بهم إلى أن يختاروا لاستعمال عقولهم تعريفاً واحداً من بين كل التعريفات المتناقضة المقترحة لتلك الحدود، وحتى لو اضطروهم ذلك إلى أن يكفوا عن "تحميل" الكلمة الواحدة كل المعانى المتعارضة التى نسبت لها عبر العصور والمذاهب . فتلك عملية لا تختلف عن هزيمة تستهدف إخفاء الافتقار إلى المنهج وإعطاء كل شخص الحق فى مناقضة نفسه مع مراعاة العرف اللغوى .

الببليوجرافيا

اختصارات مستخدمة فيما يلي :

م ك = المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين (بيروت: دار الكتاب اللبناني) .

EI² *Encyclopaedia of Islam, new edn.*

JRAS *Journal of the Royal Asiatic Society*

مؤلفات لطفه حسين

(أ) باللغة العربية

(ترد الإشارة إلى معظم مؤلفات طه حسين كما نشرت في م ك، والتي هي أبعد ما تكون عن الكمال الذي يوحى به العنوان. وقد رتبت المؤلفات التالية بحسب التسلسل الزمني للطبعات الأولى. وفي الحالات التي استخدمت فيها طبعات أخرى قدمت معلومات إضافية عن المجلد الذي ترد فيه من م ك)

طه حسين، "النقد حقيقته . أثره في الأمم . شروطه ومضار الغلوفية"، البيان، ١٩١١ (تاريخ الطبع خلال السنة المذكورة غير مؤكد)، ص ٣٧٧ - ٣٨٣ .

... ، "نقد صاحب الهلال" ١، الهداية، يونيه - يوليه ١٩١١، ص ٤٤٧ - ٤٦٢ .

... ، "نقد صاحب الهلال" ٢، الهداية، أغسطس - سبتمبر ١٩١١، ص ٦٠١ - ٣٢٦ .

- ... ، "رد على رد"، نفس المصدر، ٦٣٢ - ٦٣٩ .
- ... ، "نقد صاحب الهلال" ٣، الهداية، أكتوبر- نوفمبر ١٩١١، ص ٨١٢ - ٨١٣ .
- ... ، "هل تسترد اللغة مجدها القديم؟"، نفس المصدر، ص ٧٦١ - ٨٠٣ .
- ... ، "حياة الآداب" ١، الجريدة، ١٥ يناير ١٩١٤ .
- ... ، "حياة الآداب" ٢، الجريدة، ١٩ يناير ١٩١٤ .
- ... ، "حياة الآداب" ٣، الجريدة، ٢١ يناير ١٩١٤ .
- ... ، "حياة الآداب" ٤، الجريدة، ٢٦ يناير ١٩١٤ .
- ... ، "حياة الآداب" ٥، الجريدة، ٢٩ يناير ١٩١٤ .
- ... ، "حياة الآداب" ٧، الجريدة، ٧ فبراير ١٩١٤ .
- ... ، "حياة الآداب" ٨، الجريدة، ٢٨ فبراير ١٩١٤ .
- ... ، "حياة الآداب" ٩، الجريدة، ٨ مارس ١٩١٤ (*) .
- ... ، "شعراؤنا والرياء"، الجريدة، ١٠ فبراير ١٩١٤ .
- ... ، ذكرى أبى العلاء (القاهرة ١٩١٥)؛ الطبعة الثالثة: تجديد ذكرى أبى العلاء (القاهرة ١٩٣٠)؛ م ك، المجلد ١٠، ١٩٧٤ .
- ... ، "حياة الخنساء" ١، السفور، ١٢ نوفمبر ١٩١٥، ص ٢ - ٣ .
- ... ، "حياة الخنساء" ٢، السفور، ١٩ نوفمبر ١٩١٥، ص ٢ - ٣ .
- ... ، آلهة اليونان، تحقيق محمد حسين جبره (القاهرة ١٩١٩) .
- (*) «حياة الآداب» ٦ لم تنشر .

... ، نظام الاثنينين لأرستطاليس (القاهرة ١٩٢١)؛ م ك، المجلد ٨ ، الطبعة الثانية، ١٩٧٥ .

... ، "القدماء والمحدثون؛ أبونواس"، السياسة، ٢٣ يناير ١٩٢٣، فى حديث الأربعاء؛ فى م ك، المجلد ٢، الطبعة ٣، ١٩٧٤، ص ٣٦١ - ٣٧٠ .

... ، "القدماء والمحدثون"، السياسة، ٣١ يناير ١٩٢٣، فى حديث الأربعاء؛ فى م ك، المجلد ٢، ١٩٧٤، ص ٣٧١ - ٣٧٧ .

... ، " قادة الفكر (القاهرة ١٩٢٥)؛ فى م ك، المجلد ٨، الطبعة ٢، ١٩٧٥ .

... ، " حديث الأربعاء ١ (القاهرة ١٩٢٥) .

... ، " حديث الأربعاء ٢ (القاهرة ١٩٢٦) .

... ، " حديث الأربعاء ٣ (القاهرة ١٩٤٥) .

أعيد طبعها جميعا فى م ك، المجلد ٢، الطبعة ٢ ، ١٩٧٤ .

... ، فى الشعر الجاهلى (القاهرة ١٩٢٦) .

... ، فى الأدب الجاهلى (القاهرة ١٩٢٧) .

... ، "بول كازانوف"، السياسة الأسبوعية، ٢٧ مارس ١٩٢٦، ص ٩ - ١٠ .

... ، "العلم والدين"، السياسة الأسبوعية، ١٧ يوليو ١٩٢٦، ص ٥ .

... ، "بين العلم والدين"، سلسلة مقالات نشرت فى الحديث، فبراير- مايو ١٩٢٧؛ أعيد طبعها فى من بعيد، فى م ك، المجلد ٢، ص ١٥١ - ١٨٢

... ، الأيام ١ (القاهرة ١٩٢٩) .

... ، الأيام ٢ (القاهرة ١٩٤٠) .

... ، الأيام ٣ (بيروت ١٩٦٧) .

أعيد طبعها جميعا فى م ك، المجلد ١، ، ١٩٨٠ .

- ... على هامش السيرة ١ (القاهرة ١٩٢٣).
- ... على هامش السيرة ٢ (القاهرة ١٩٢٣).
- ... على هامش السيرة ٣ (القاهرة ١٩٢٧).
- أعيد طبعها جميعا فى م ك، المجلد ٣، ١٩٨١ .
- ... حافظ وشوقى (القاهرة ١٩٢٣)؛ م ك، المجلد ١٢، ١٩٧٤ .
- ... فى الصيف (القاهرة ١٩٢٣)؛ أعيد طبعه (بيروت ١٩٨١).
- ... "محمد عبده"، الوادى، ١١ يوليه ١٩٢٤ .
- ... "الفيلسوف تين"، الجهاد، ١ مارس ١٩٣٥ .
- ... من بعيد (القاهرة ١٩٣٥)؛ م ك، المجلد ١٢، ١٩٧٤ .
- ... "فى السفينة" فى من بعيد، فى م ك، المجلد ١٢، ١٩٧٤، ص ١٣ - ٢٠ .
- ... "فى الطريق"، نفس المصدر، ص ١٠٧ - ١١٥ .
- ... مع المتنبي، مجلدان (القاهرة ١٩٣٦)؛ م ك، المجلد ٦، ١٩٨١ .
- ... مستقبل الثقافة فى مصر (القاهرة ١٩٣٨)؛ م ك، المجلد ٩، ١٩٧٣ .
- ... مع أبى العلاء فى سجنه (القاهرة ١٩٣٩)؛ م ك، المجلد ١٠، ١٩٧٤ .
- ... "مع أدبائنا المعاصرين"، الثقافة، ٢ و ١٧ يناير ١٩٣٩؛ فى فصول فى الأدب والنقد، فى م ك، المجلد ٥، ١٩٧٣، ص ٢٣٩ - ٢٤٦ .
- ... "رجعة أبى العلاء للأستاذ عباس محمود العقاد"، الثقافة، ١٧ يناير ١٩٣٩، فى فصول فى الأدب والنقد، فى م ك، المجلد ٥، ص ٣٥٦ - ٣٦٢ .
- ... "صرعى الحضارة"، سلسلة من ثلاث مقالات، الثقافة، ١٦ و ١٧ يوليه و ٦ أغسطس ١٩٤٠، على التوالى؛ فى فصول فى الأدب والنقد، فى م ك، المجلد ٥، ص ٥٣٥ - ٥٥١ .

- ... "كتاب السياسة لأرسططاليس، ترجمة أحمد لطفى السيد"، الكاتب
المصرى، ديسمبر ١٩٤٧؛ فى مقالات عرض ونقد، فى م ك، المجلد ١٦،
١٩٨١، ص ٢٣٤ - ٢٤٠ .
- ... "من مشكلات أدبنا الحديث"، الجمهورية، ١١ ديسمبر ١٩٥٢؛ فى خصام
ونقد، فى م ك، المجلد ١١، ١٩٧٤، ص ٥٤٠ - ٥٥٢ .
- ... "الأدب والحياة، الجمهورية، ١٨ ديسمبر ١٩٥٢، نفس المصدر، ص ٥٥٢ - ٥٦٣ .
- ... "الأدب والحياة أيضا"، الجمهورية، ٢٥ ديسمبر ١٩٥٢، نفس المصدر،
ص ٥٦٤ - ٥٧٤ .
- ... "الحياة فى سبيل الأدب"، نفس المصدر، ص ٦٠٠ - ٦١٣ .
- ... "يونانى فلا يقرأ"، الجمهورية، ٥ مارس ١٩٥٤؛ فى خصام ونقد، م ك،
المجلد ١١، ١٩٧٤، ص ٥٨٧ - ٥٩٩ .
- ... خصام ونقد (بيروت ١٩٥٥)؛ م ك، المجلد ١١، ١٩٧٤ .
- ... "مرأة الغريبة"، نفس المصدر، ٥٣٩ - ٥٣٥ .
- ... أحاديث (بيروت ١٩٥٧)؛ م ك، المجلد ١٢، ١٩٧٤ .
- ... "مصطفى عبدالرازق كما عرفته"، مقدمة لكتاب من آثار مصطفى
عبدالرازق، تحقيق على عبدالرازق (القاهرة ١٩٥٧)؛ فى كتب ومؤلفون، فى
م ك، المجلد ١٦، ص ١٩٨١، ص ٤٣ - ٥١ .
- ... "إنو لتمان"، المجلة، ديسمبر ١٩٥٨، ص ١١ - ١٤ .
- ... "مرأة الإسلام (القاهرة ١٩٥٩)؛ م ك، المجلد ٧، ١٩٧٥ .
- ... "فى درس الأدب وتاريخه"، الألب، أبريل ١٩٥٩، ص ١٢ - ١٤ .
- ... "أستاذى وصديقى لويس ماسينيون"، فى ذكرى: لويس ماسينيون
(القاهرة ١٩٦٣)، ص ٢٧ - ٣٠ .

.... "المرحوم الأستاذ أحمد لطفى السيد"، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد ١٨ (١٩٦٥)، ص ١١٢ - ١١٦ .

.... ، كتب ومؤلفون (بيروت ١٩٨٠) ؛ م ك ، المجلد ١٦ ، ١٩٨١ .

.... مقالات عرض ونقد، فى نفس المصدر.

.... "أدبنا الحديث ما له وما عليه"، فى نفس المصدر.

(ب) ترجمات وتقارير

...., Taha Hussein, *Le livre des jours*, tr. Jean Lecerf et Gaston Viet (Paris 1974)

(الترجمة الفرنسية للأيام ١ و٢ . تقديم أندريه جيد)

...., "visita a Rome di Taha Husein Bey", *Oriente Moderno*, XXX (1950). p. 100 - 101

(تقرير عن كلمة ألقاها طه حسين بالفرنسية عن "ماهى العربية الكلاسيكية؟".
النص الكامل للكلمة لم ينشر)

...., Taha Hussein, *Au delà du Nil*, ed. Jacque Berque (Paris (1977)

(منتخبات من كتابات طه حسين مترجمة إلى الفرنسية تحت إشراف جاك بيرك)

....., *Adib ou l'aventure occidentale*, tr. Amina et Moënis Taha-Hussein (Paris 1988)

(الترجمة الفرنسية لـ أديب. تقديم فيليب كاردينال)

طه حسين من الشاطئ الآخر. كتابات طه حسين الفرنسية، ترجمة وتحقيق
عبدالرشيد الصادق محمودى (بيروت ١٩٩٠)؛ الطبعة ٢، مزيده ومنقحة (القاهرة
١٩٧٧).

مؤلفات عن طه حسين وما يتصل بذلك من موضوعات

(أ) بالعربية

- إبراهيم، ساميه حسن، الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور (القاهرة ١٩٨٥).
- ابن خلدون، المقدمة، ٣ مجلدات، تحقيق على عبدالواحد وافى (القاهرة ١٩٧٩).
- أبو الأنوار، محمد، الحوار الأدبي حول الشعر، الطبعة ٢ (القاهرة ١٩٨٧).
- أمين، عثمان، رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده (القاهرة ١٩٦٥).
- بدوى، عبد الرحمن (إشراف)، إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين (القاهرة ١٩٦٢).

- موسوعة المستشرقين (بيروت ١٩٨٤).

- البستاني، سليمان (ترجمة)، إلياذة هوميروس، مجلدان (بيروت، بدون تاريخ).
- بوحسن، أحمد، الخطاب النقدى عند طه حسين (بيروت ١٩٨٥).
- ثروت، عبدالخالق، خطبة ألقاها فى احتفال افتتاح الجامعة المصرية، المقتطف، المجلد ٣٤ (١٩٢٩)، ص ١٢٨ - ١٤٠.
- جابريللى، فرانشييسكو، "طه حسين الناقد"، فى طه حسين كما يعرفه كتاب عصره (القاهرة: دار الهلال، بدون تاريخ)، ص ١٦٣ - ١٨٠.
- جاويش، عبدالعزيز، الإسلام دين الفطرة والحرية (القاهرة ١٩٨٣).
- جدعان، فهمى، أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث، الطبعة ٢ (بيروت ١٩٨١).
- جمعه، محمد لطفى، الشهاب الراصد، ٤ مجلدات (القاهرة ١٩٢٦).
- الجمنى، عمر مقداد، "ملاحم من الرؤية التاريخية عند طه حسين"، الحياة الثقافية، العدد ٥٥، ١٩٩٠، ص ٢٥ - ٣٢.

الجميعى، عبد المنعم الدسوقي ، الجامعة المصرية والمجتمع، ١٩٠٨ - ١٩٤٠ (القاهرة ١٩٨٢).

الجندي ، أنور، "صفحات مجهولة من حياة طه حسين، ١٩٠٨ - ١٩١٦"، في طه حسين كما يعرفه كتاب عصره (القاهرة: دار الهلال، بدون تاريخ).

جويدي ، إغناسيو، محاضرات في أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب، مجلة الجامعة المصرية (القاهرة، بدون تاريخ).

الحمصى ، قسطاكي، منهل الورد في علم الانتقاد، ٣ مجلدات (القاهرة ١٩٠٧).

الدسوقي ، عبدالعزيز، تطور النقد العربي الحديث في مصر (القاهرة ١٩٧٧).
دوركهايم، إميل، في تقسيم العمل الاجتماعى، ترجمة حافظ الجمالى (بيروت ١٩٨٢).

دياب، عبد الحى ، التراث النقدى قبل مدرسة الجيل الجديد (القاهرة ١٩٦٨).
رزق، يونان لبيب، الأحزاب السياسية في مصر (القاهرة ١٩٨٤).
رضا، محمد رشيد ، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، مجلدان (القاهرة ١٩٣٣).

زكى ، أحمد، خطبة ألقاها في حفل افتتاح الجامعة المصرية، المقتطف، المجلد ٢٤ (١٩٠٩)، ص ١٤١ - ١٤٥ .

زيدان، جرجى تاريخ أداب اللغة العربية، مع مقدمة بقلم شوقي ضيف، ٤ مجلدات (القاهرة، بدون تاريخ).

...، "رد على انتقاد"، الهداية، أغسطس- سبتمبر ١٩١١، ص ٦٢٤ - ٦٣١

سانتلانا، دافيد، المذاهب اليونانية الفلسفية في العالم الإسلامى ، تحقيق محمد جلال شرف (بيروت ١٩٨١).

- سيفان، كامل، أمين الخولى فى مناهج تجديده (القاهرة ١٩٨٢).
- السكوت، حمدى وجونز، مارسدن، أعلام الألب فى مصر، ١، طه حسين، الطبعة ٢ (القاهرة- بيروت ١٩٨٢).
- السيد، أحمد لطفى، المنتخبات ١، تحقيق إسماعيل مظهر (القاهرة ١٩٣٧).
- ... ، المنتخبات ٢، تحقيق إسماعيل مظهر (القاهرة ١٩٤٥).
- ... صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية فى مصر، تحقيق إسماعيل مظهر (القاهرة ١٩٤٦).
- ... "ما للسياسة والعلم"، فى نفس المصدر.
- ... تأملات فى الفلسفة والسياسة والاجتماع، تحقيق إسماعيل مظهر (القاهرة ١٩٤٦).
- الشايب، أحمد، أدب اللغة العربية بمصر فى النصف الأول من القرن العشرين، الطبعة ٢ (القاهرة ١٩٦٦).
- شميل، شبلى، كتاب فلسفة النشوء والارتقاء فى مجموعة الدكتور شبلى شميل، المجلد ١ (القاهرة ١٩١١).
- الصعيدى ، عبدالمتعال، تاريخ الإصلاح فى الأزهر وصفحات من الجهاد فى الإصلاح (القاهرة، بدون تاريخ).
- طاهر، بهاء، أبناء رفاعة (القاهرة ١٩٩٣).
- الطلخاوى ، سيف النصر، شيخ أدباء مصر سيد بن على المرصفى (القاهرة ١٩٨٤).
- طه حسين، سوزان، معك، ترجمة بدر الدين عرودى (القاهرة ١٩٧٩).
- الطهطاوى، رفاعة رافع، تخلص الإبريز فى تخلص باريز، تحقيق محمود فهمى حجازى (القاهرة ١٩٧٤).

- عبد، محمد، رسالة التوحيد (القاهرة: دار الشعب، بدون تاريخ).
- ... ، الإسلام دين العلم والمدنية، تحقيق عاطف العراقي (القاهرة ١٩٨٧).
- عثمان، أحمد، "الآداب الأوروبية القديمة (الأدب اليوناني والأدب الروماني)" في عبد المنعم تليمة (إشراف) طه حسين، مائة عام من النهوض العربي ، فكر، العدد ١٤ (القاهرة ١٩٨٩).
- عصفور، جابر، المرايا المتجاوزة. دراسة في نقد طه حسين (القاهرة ١٩٨٣).
- علبي ، أحمد، طه حسين رجل وفكر وعصر (بيروت ١٩٨٥).
- ، طه حسين، قصة مكافح عنيد (بيروت ١٩٩٠).
- الغزالي ، إحياء علوم الدين، تحقيق بدوي طبانة، ٤ مجلدات (القاهرة ١٩٥٧).
- الغمرائي ، محمد أحمد، النقد التحليلي لكتاب في الشعر الجاهلي (بيروت ١٩٨١).
- الفارابي، كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق، تحقيق محسن مهدي (بيروت ١٩٦٨).
- ... ، كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي (بيروت ١٩٧٠).
- الفي، محمد كامل، الأزهر وأثره في النهضة العربية الحديثة (القاهرة ١٩٦٥).
- القبانى ، عبدالمعظم، طه حسين في الضحى من شبابه، ١٩٠٨ - ١٩١٣ (القاهرة ١٩٧٦).
- قلته، كمال، طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه (القاهرة ١٩٧٣).
- الكاشف، محمد صادق، طه حسين بصيرا (القاهرة ١٩٨٦).
- الكيالى، سامى، مع طه حسين، المجلد ١ (القاهرة ١٩٥٢)؛ المجلد ٢ (القاهرة ١٩٨٦).

- كيلانى، محمد سيد، طه حسين الشاعر الكاتب (القاهرة ١٩٦٢).
- لانجلوا وسينووبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية، فى النقد التاريخى، ترجمة عبدالرحمن بدوى ، الطبعة ٣ (الكويت ١٩٧٧).
- ماسينيون، لويس، محاضرات فى تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية (القاهرة ١٩٨٣).
- ... ، « تقرير عن بعثة لإجراء دراسات عن اتجاهات الأفكار الفلسفية فى البلاد الناطقة باللغة العربية (القاهرة ١٩١٢) . (كتب أصلا بالفرنسية وترد ترجمته فى ملحق الكتاب .
- مبارك، زكى ، البدائع، المجلد ١ (القاهرة ١٩٣٥).
- محمد، أحمد الصاوى ، "الدكتور طه حسين فى باريس"، الهلال، ١٩٢٨، ص ١١٨١ - ١١٨٢ .
- محمودى ، عبدالرشيد (الصادق) محمودى، "طه حسين وديكارت"، فصول، المجلد ٣ (يوليه/ أغسطس/ سبتمبر ١٩٨٢)، ص ١٠٤ - ١١٣ .
- مندور، محمد، فى الميزان الجديد (القاهرة ١٩٧٧).
- نالىنو، كارلو، علم الفلك عند العرب (روما ١٩١١).
- ، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية ، الطبعة ٢ (القاهرة ١٩٧٠) .
- هيكل، محمد حسين، تراجم مصرية وغربية (القاهرة ١٩٨٠).
- ، مذكرات فى السياسة المصرية، ٣ مجلدات (القاهرة ١٩٩٠).

(ب) بالإنجليزية والفرنسية

Abdessalem, Ahmed, *Ibn Khaldun et ses lecteurs* (Paris 1983) .

Ahmed, Jamal Muhammad, *The Intellectual origins of Egyptian nationalism*, reprint (Oxford 1986)

Berque, Jacques “ Une affaire Dreyfus de la philologie arabe” in Jacques Berque et Jean Charnay (éd.) . *Normes et valeurs dans l'islam contemporain* (Paris 1966) .

... (éd.) , *Au-delà du Nil* (Paris 1977) .

Besnard, Philippe (ed.) , *The sociological domain. The Durkeimians and the founding of french sociology* (Cambridge 1983).

... “ The epistemological polemic : François Simiand” in *ibid*, pp. 248 - 261 .

Bloch, Marc, *Apologie pour l'histoire , le métier d'historien* (Paris 1997) .

Bouglé, C., *Qu'est-ce que la sociologie* (Paris 1907).

Bourdé, Gui et Martin, Hervé, *Les Ecoles historiques* (Paris 1983) .

Cachia, Pierre, *Taha Husayn, his place in the Egyptian literary renaissance* (London 1956)

Casanova, Paul, *Mohammed et la fin du monde* (Paris 1911) .

...., *Mohammed et la fin du monde. Notes complémentaires I* (Paris 1913)

...., *Mohammed et la fin du monde . Notes complémentaires II* (Paris 1924)

Cassirer, Ernst, *The Problem of Knowledge. Philosophy, science and history since Hegel* (New Haven-London 1969).

Clark, T.N., *Prophets and patrons : the French university and the emergence of the social sciences* (Cambridge 1973) .

Collingwood, R.H., *The Idea of history* (Oxford 1994) .

Comte, Auguste, *Philosophie première, cours de philosophie positive, leçons 1 à 45* éd . Hermann, 2 t., t. 1 (Paris 1975) .

... ,Physique sociale. *Cours de philosophie positiviste, leçon 46 à 60*, éd. Jean-Paul Enthoven (Paris 1975).

Cournot, A. A., *Considérations sur la marche des idées et des événements dans les temps modernes, Œuvres complètes* ol. IV, éd. André Robinet (Paris 1973) .

..., *Traité de l'enchaînement des idées fondamentales dans les sciences et dans l'histoire, Œuvres complètes*, vol. III, éd. Nelly Bruyère (Paris 1982) .

Crabbs, J., *The Writing of history in nineteenth-century Egypt. A Study in national transformation* (Cairo 1983) .

Croiset, Alfred et Maurice, *Histoire de la littérature grecque*, 5 vol. (Paris 1887 - 1899).

De Coulanges, Numa Denis Fustel, *La Cité antique*, (Paris 1984) .

De Smedt, S.J., P. Ch., *Principes de la critique historique* (Liège- Paris, 1883) .

Delanoue , Gilbert, *Moralistes et politiques musulmans dans l'Egypte du XIX^e siècle*, 2 vols. (Paris - Le Caire 1982).

Dellau, Gérard et Roche, Anne, *Histoire / Littérature ; Histoire et interprétation*

du fait littéraire (Paris 1977) .

Destrenau, C. et Moncelon, J., *Massignon* (Paris 1994) .

Diderot, *Lettre sur les aveugles*, in *Œuvres philosophiques*, éd. Paul Vemière (Paris 1964).

Durkheim, Emile , *Le socialisme* (Paris 1992) .

... , *Les règles de la méthode sociologique* (Paris 1988) .

..., *Les formes élémentaires de la vie religieuse* (Paris 1990) .

..., *De la division du travail sociale* (Paris 1998).

..., " Discours aux lycéens de Sens ", *Cahiers internationaux de la sociologie*, XLIII (1967).

..., "Linconnu et l'inconscient en histoire", *Bulletin de la Société Française de Philosophie* (1908) .

..., Compte rendu d'Antoine Labriola, *Essais sur la conception de l'histoire*, *Revue philosophique*, XLIV (1897).

Ehrad,J.et Palmade, G., *L'Histoire* (Paris 1964) .

Fakkar Rouchdi, *Origines des relations culturelles contemporaines entre la France et le monde arabe* (Paris, 1973) .

Gabriedli Francesco, " Adab ", in *Ef²* .

Gardet L., " Kasb " , in *Ef²* .

Ghali, Ibrahim Amin, " Trois penseurs égyptiens ", *La Nouvelle Revue du Caire*, vol. I (1975) , pp .219 -239 .

- Glutz, Gustave, *Alexandre et l'Hélénisation du monde antiques* (Paris 1938) .
- Herrick, Jane , *The Historical thought of Fustel de Coulanges* (Washington, D.C. 1954).
- Hournai, Albert, *Arabic thought in the liberal age, 1789-1939* (Cambridge 1984).
- ..., *Islam in European thought* , reprint (Cambridge 1993).
- Langlois Ch-V. et Seignobos, Ch., *Introduction aux études historique* (Paris 1992).
- Lanson, G., " La méthode de l'histoire littéraire " in *Idem Essais de méthode, de critique et d'histoire*, éd, Henri Peyre (Paris 1965).
- ..., *Histoire de la littérature française* (Paris 1951).
- ..., *Méthodes de l'histoire littéraire & Hommes et livres* (Genève 1979) .
- Louca, Anouar, " Taha Hussein et l'Occident ", *Cultures*, II (1975),pp. 118 - 142 .
- ..., " Taha Hussein ou la continuité de deux rives ", *Qantara*, juillet-août 1992, dossier spécial, pp. vii-viii.
- Louca, Leila, " Le discours autobiographique de Taha Husayn selon la clôture du *Livre des jours* " *Arabica*, vol .XXXIV (1992) , pp. 246-357.
- Lukes, Steven , *Emile Durkheim, His life and work* (Harmondsworth 1975).
- Malti-Douglas, Fedwa, *Blindness and autobiography* (Princeton 1988).
- Margoliouth, D.S., " The Origins of Arabic poetry ", *JRAS*, 1925, pp. 417-449.
- ..., Notice on *Fi 'l-adab al-jāhilī*, *JRAS* , 1927, pp. 902- 904 .

Marin , Germain, " L'Université Egyptienne " *"Revue du Monde Musulman* , XIII (1911) , pp . 149 - 157 .

Massignon' Louis, "L'histoire des doctrines philosophiques arabes à l'université du caire ", *La Revue du Monde Musulman* XIII (1911), p. 1 - 19 .

..., "Rapport : Mission d'études sur le mouvement des idées philosophiques dans les pays de langue arabe " (manuscrit, juillet 1913) .

..., *La Passion de Halláj, martyr mystique de l'Islam* , , 4 vol . (Paris, 1975) .

Nallino, Maria, " Taha Hussein e l'Italia," in Taha Hussein, *Omaggi degli arabisti Italiani a Taha Hussein in Occasion del settantacinquesimo compleanno*, L'Istituto Universitario Orientale (Napoli 1964) , pp. 53-65 .

Nicholson, Reynold Alleyne, *Studies in Islamic poetry*, reprint (Cambridge 1969).

Renan, Ernst, "Mahomet et les origines de l'Islamisme ", (*Œuvres complètes*, éd. Henriett Psichary (Paris 1947 -1961) , vol. VII, pp. 168-220.

..., *L'histoire du peuple d'Israël* , (*Œuvres complètes*, vol. VI.

..., *La vie de Jésus*, (*Œuvres complètes*, vol.IV.

Ringer, Fritz, *Fields of knowledge. French academic culture in comparative perspective, 1890-1920* (Cambridge 1992) .

Robson, J., "al -Djarh wa'l-Ta 'dil " in *Ef*².

Said, Edward W., " Islam, the philological vocaion ,and French culture : Renan and Massignon " in Malcolm H. Kerr (ed.) , *Islamic Studies : A tradition and its problems* (California 1980), pp. 53-72 .

- Saint- Simon, Claude-Henri de, *Introduction aux travaux scientifiques du XIX^e siècle* (Œuvres (Paris 1966), t. VI.
- Salama, Ibrahim, *L'Enseignement Islamique en Egypte* (Le Caire 1939).
- Seignobos, Ch., *La méthode historique appliquée aux sciences sociales* (Paris 1901).
- Semah, David, *Four Egyptian literary critics* (Leiden 1974).
- Tadié, Arelette, " Le troisième Livre des Jours ", *La Nouvelle Revue du Caire*, vol. I (1975) , pp. 49-58.
- Tàhà Husain, Suzanne , " *Le Progrès écoute : Suzanne Taha Hussein* ", *Le Progrès Egyptien* , 18 mai 1980 .
- Tahar, Miftah, *Taha Husain, sa critique littéraire et ses sources françaises* (Tunis 1976).
- Taine, Hyppolyte , *Introduction à la littérature anglaise* (Paris 1911) .
- ..., *Philosophie de l'art* (Paris 1985).
- Valikiotis, P.J., " Kawmiyya " in *Ef²* .
- ..., *The History of modern Egypt from Muhammad Ali to Mubarak* (London 1991).
- Watt, W.M., *Islamic philosophy and theology* (Edinburgh 1979).
- Weisz, George, " The Republican ideology and the social sciences : the Durkheimians and the history of social economy at the Sorbonne " in Philippe Bessard (ed.) *The sociological domain* .. pp. 90- 119 .
- Wellek, René, *A History of modern criticism 1750-1950* (Cambridge 1983) .

Wendell, Charles, "Lutfi al-Sayyid " ,in *Ef*².

....., *The Evolution of the Egyptian national image from its origins to Ahmad Lutfi al-Sayyid* (Berkely, Los Angeles, London 1972).

Wilson, Edmund, *To the Finland Station . A Study in the writing and acting of history* (New York 1947).

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعل الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار چينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزنى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إيوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صعد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانتقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصه إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	أن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
٤٣ - الذهب المزبوج	أوكتايفو پاث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغفور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جورجاني
٤٩ - الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد يرادة وعثمانى الليود ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التديعى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرdash
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتن	ت : صبرى محمد عبد الفنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أولل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فزاد متولى وهريدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فر	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسى العجوز ت . س . إليوت
٧٣ - نقد استجابة القارئ جين . ب . تومكينز
٧٤ - صلاح الدين والمالِك فى مصر ل . ا . سيمينوفا
٧٥ - فن التراجُم والسير الذاتية أندريه موروا
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى مجموعة من الكتاب
٧٧ - تاريخ النقد الألبى الحديث ج ٢ رينيه ويليك
٧٨ - العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد روبرتسون
٧٩ - شعرية التأليف بوريِس أوسبينسكى
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع» ألكسندر بوشكين
٨١ - الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
٨٢ - مسرح ميجيل ميجيل دى أونامونو
٨٣ - مختارات غوتفريد بن
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكى أقطاى
٨٦ - طول الليل جمال مير صادقى
٨٧ - نون والقلم جلال آل أحمد
٨٨ - الابتلاء بالغرب جلال آل أحمد
٨٩ - الطريق الثالث أنتونى جيدنز
٩٠ - رسم السيف (قصص) نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق باربر الاسوستكا
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح كارلوس ميجيل
الإسبانوأمرىكى المعاصر مايك فيذرستون وسكوت لاش
٩٣ - محدثات العولة صمويل بيكيت
٩٤ - الحب الأول والصحة أنطونيو بويرو بايخو
٩٥ - مختارات من المسرح الإشبانى قصص مختارة
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة فرنان برودل
٩٧ - هوية فرنسا (المجلد الأول) نماذج ومقالات
٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى بيفيد روينسون
٩٩ - تاريخ السينما العالمية بول هيرست وجراهام تومبسون
١٠٠ - مساطة العولة بيرنار فاليط
١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج) عبد الكريم الخطيبى
١٠٢ - السياسة والتسامح عبد الوهاب المؤدب
١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آباء برتولت بريشت
١٠٤ - أوبرا ماهوجنى چيرارچينيت
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع د . ماريا خيسوس روبييرامتى
١٠٦ - الأدب الأندلسى نخبة
١٠٧ - صورة الفنان فى الشعر الأمريكى المعاصر
- ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومى
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الفانمى وناصر حلاوى
ت : مكارم القمرى
ت : محمد طارق الشرقاوى
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالى
ت : عبد الحميد شيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحى يوسف شتا
ت : ماجدة العنانى
ت : إبراهيم الدسوقى شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح

ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوى
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إيوار الخراط
ت : بشير السباعى
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحى
ت : رشيد بنحرو
ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوى
ت : عبد العزيز شبيل
ت : أشرف على دعدور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الفلسفي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ - حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيات حماد كوني وسكان المستنق	رول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سميرة رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الليل الصغير في كتلة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيل الكسندر وفنادولينا	ت : أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	جون جراي	ت : أحمد فؤاد بليغ
١٢٥ - التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديفي	ت : سمحة الخولي
١٢٦ - فعل القراءة	ثولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعي
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيث	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولوريس أسيس جاروت	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من ندد ت. س. إلبوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إلبوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كوتو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - منكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف	إيفلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - باريسيفال	ريشارد فاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣ - قضايا التطور في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكارى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراغة	فيولين فاتويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التمساني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكتوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحي
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسباني	الخاندرى كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوجنا الاسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهري
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	چان لاکوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ. ن. ألفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندراناث طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التلفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوة	و . ب . بيتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحي العشري
١٨٤ - القاهرة .. حاملة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنور	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزْجْ علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	الئين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - ساحت نامہ إبراهيم بك ج١	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من نقد الأنجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل نصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إبورين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندائى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الألبى الحديث ج١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألفاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شارازر	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهبولة تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاستنير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوربان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الفرتوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان بوسوسير	جوناثان ككر	ت : محمود حمدى عبد الفنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ نوم ثلثين حتى رجل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامہ إبراهيم بك ج٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايبولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كانو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدائيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابريل جارشيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مازق البطل الوحيد	نورمان كيما	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سينسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج ١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعيسى مديولى أحمد
٢٣٩ - العرى فى الأدب الإسرائيلى	جيلزافر - رايوخ	ت : نانية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروقتسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابريل جرشيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحدثة فى مصر	ولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباطة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روينسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عبادة كحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني	نخبة	ت : فاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد منوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	ت : علي يوسف علي
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلي	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونيتيرا	ت : بدر الدين عروكي
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزي ج ٢	جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ١	وليم جيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ٢	وليم جيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الفريية	توماس سي . باترسون	ت : شوقي جلال
٢٧٢ - الألبيرة الأثرية في مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوي
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود علي مكي
٢٧٥ - س. س. إليوت شاعرًا ونقادًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمساني
٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزي
٢٧٨ - البدايات	إسمحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الألب الهندي الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوي	ت : جلال الحفناوي
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وليبرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافو	ت : علي البعبي
٢٨٤ - هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عثمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامي	حسن نظامي	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج ٢	زين العابدين المراغي	ت : محمود سلامة علاوي
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمي	أنتوني كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائي	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطي
٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج ١	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج ٢	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٢ - مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بنوي
٢٩٧ - فن النحويين اليونانية والسورانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهواني	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تفاعوا بليوه	ت : مصطفى حجازي السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة برومثيروس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيري وبهاء جاهين
٣٠١ - أسطورة برومثيروس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيري ومحمد الجندي
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بوذا	جين هوب ويورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطي للتاريخ	جان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	بيفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتي	ت : جمال الجزيري
٣١٠ - يونج	ناجي هيد	ت : محيي الدين محمد حسن
٣١١ - مقال في المنهج الفلسفي	كوانجود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دي بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعدي
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعي
٣١٥ - جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحي
٣١٦ - محاكمة سقراط	آ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلاغذ	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب العربي في السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايترو ياسييفاك وكريستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن العربي	بليو، إيوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يوناني قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدي	ت : محمود سلامة علاوي
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كريستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٢٢٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٢٢١ - عندما جاء السرددين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٢٢٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٢٣ - الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٢٢٤ - لقطات من المستقبل	أرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٢٢٥ - عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٢٢٦ - متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٢٢٧ - فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٢٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٢٩ - تاريخ الأدب فى إيران ج٢	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٣٠ - اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٢٣١ - قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٢٣٢ - سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٢٣٣ - العالم البرجوازي الزائل	نابون جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٢٣٤ - الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٢٣٥ - الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢٣٦ - سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٢٣٧ - الصبية الطاشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٢٣٨ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جا	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٢٣٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٢٤٠ - بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٢٤١ - مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٤٢ - قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٢٤٣ - الفن الإسلامى فى الأندلس (مقدسة)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٤ - الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٥ - التيارات السياسية فى إيران	حجت مرقضى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٤٦ - الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٢٤٧ - متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٢٤٨ - أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٤٩ - محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٢٥٠ - أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربيني
٢٥١ - التصحر : التهديد والمجابهة	ألان جرينجر	ت : عاطف معتمد وأمال شاور
٢٥٢ - تلميذ باينبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٢٥٣ - حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبرى محمد حسن
٢٥٤ - حادثة شكسبير	إسماعيل سراج النين	ت : نجلاء أبو عجاج
٢٥٥ - سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٢٥٦ - نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

- ٢٦٧ - القلم الجريء نخبة
٢٦٨ - المصطلح السردي جيرالد برنس
٢٦٩ - المرأة في أدب نجيب محفوظ فوزية العشماوى
٢٧٠ - الفن والحياة في مصر الفرعونية كليلا لويت
٢٧١ - المتصوفة الأولون في الأدب التركي ج٢ محمد فؤاد كوبريلى
٢٧٢ - عاش الشباب وانغ مينغ
٢٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه أمبرتو إيكو
٢٧٤ - اليوم السادس أندريه شديد
٢٧٥ - الخلود ميلان كونديرا
٢٧٦ - الغضب وأحلام السنين نخبة
٢٧٧ - تاريخ الأدب في إيران ج٤ على أصغر حكمت
٢٧٨ - المسافر محمد إقبال
٢٧٩ - ملك في الحديقة سنيل باث
٢٨٠ - حديث عن الخسارة جونتر جراس
٢٨١ - أساسيات اللغة ر. ل. تراسك
٢٨٢ - تاريخ طبرستان بهاء الدين محمد إسفنديار
٢٨٣ - هدية الحجاز محمد إقبال
٢٨٤ - القصص التي يحكيها الأطفال سوزان إنجيل
٢٨٥ - مشتري العشق محمد على بهزادراد
٢٨٦ - بقاء عن التاريخ الأدبي النسوى جانيت تود
٢٨٧ - أغنيات وسوناتات جون دن
٢٨٨ - مواعظ سعدى الشيرازى سعدى الشيرازى
٢٨٩ - من الأدب الباكستاني المعاصر نخبة
٢٩٠ - الأرشيفات والمدن الكبرى نخبة
٢٩١ - الحافلة الليكسية مايف بينشى
٢٩٢ - مقامات ورسائل أندلسية فرناندو دي لاجرانخا
٢٩٣ - في قلب الشرق ندوة لويس ماسينيون
٢٩٤ - القوى الأربع الأساسية في الكون بول ديفيز
٢٩٥ - آلام سياوش إسماعيل فصيح
٢٩٦ - السافاك تقى نجارى راد
٢٩٧ - نيتشه لورانس جين
٢٩٨ - سارتر فيليب تودى
٢٩٩ - كامى ديفيد ميروفتس
٤٠٠ - مومو مشيانيل إنده
٤٠١ - الرياضيات زيادون ساردر
٤٠٢ - هوكنج ج. ب. ماك ايفوى
٤٠٣ - ربة المطر والملابس تصنع الناس تودور شتورم
٤٠٤ - تعويذة الحسى ديفيد إبرام
٤٠٥ - إيزابيل أندريه جيد
٤٠٦ - المستعربون الإسبان في القرن ١٩ مانويلا مانتاناريس
- ت : البراق عبد الهادى رضا
ت : عابد خزندار
ت : فوزية العشماوى
ت : فاطمة عبد الله محمود
ت : عبد الله أحمد إبراهيم
ت : وحيد السعيد عبد الحميد
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : حمادة إبراهيم
ت : خالد أبو اليزيد
ت : إيوار الخراط
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : جمال عبد الرحمن
ت : شيرين عبد السلام
ت : رانيا إبراهيم يوسف
ت : أحمد محمد نادى
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
ت : إيزابيل كمال
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : بهاء جاهين
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
ت : عثمان مصطفى عثمان
ت : منى الدرويش
ت : عبد اللطيف عبد الحليم
ت : نخبة
ت : هاشم أحمد محمد
ت : سليم حمدان
ت : محمود سلامة علاوى
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : ياهر الجوهري
ت : ممدوح عبد المنعم
ت : ممدوح عبد المنعم
ت : عماد حسن بكر
ت : ظبية خميس
ت : حمادة إبراهيم
ت : جمال أحمد عبد الرحمن

٤٠٧ - الألب الإسباني المعاصر بقلم كلبه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ - معجم تاريخ مصر	جوان فورتشكنج	ت : عنان الشهاوى
٤٠٩ - انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة
٤١٠ - خلاصة القرن	كارل بوير	ت : الزواوى بغودة
٤١١ - همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ٣)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ - الجمهورية العالمية للأدب	باسكال كازانوف	ت : أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى واللم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سياسات الزمر الحاكمة فى مصر للشانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماريو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ - مكرو ميچاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا ج ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ - إسرا مات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ - لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ - من طاووس حتى فرح	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ - النخبش وقصر آخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ - بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت : ثريا شلبى
٤٢٨ - الخزنة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ - هيجل	ليود سبنسر وأندرجى كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ - كانط	كرستوفر وانت وأندرجى كلیموفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ - فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ - ماكياڤلى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ - جويس	بيفيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدي الجابرى
٤٣٤ - الرمانسية	بونكان هيث وچودن بورهام	ت : عصام حجازى
٤٣٥ - توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زيرج	ت : ناجى رشوان
٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج ١)	فردريك كويلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ - رحالة هندي فى بلاد الشرق	شيلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ - بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بييرس	ت : عايدة سيف النولة
٤٣٩ - موت المرابى	صدر الدين عينى	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوى
٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة	أروندهاتى روى	ت : فخرى لييب
٤٤٢ - حتشيسوت (المرأة الفرعونية)	قوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتى
٤٤٣ - اللغة العربية	كيس نرستينج	ت : محمد الشرقاوى

٤٤٤ - أمريكا اللاتينية : الثقافات القبيحة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علماني
٤٤٥ - حول وزن الشعر	برويز ناتل خانلري	ت : محمد محمد يونس
٤٤٦ - التحالف الأسود	ألكسندر كوكيرن وجيفري سانت كلير	ت : أحمد محمود
٤٤٧ - نظرية الكم	ج. پ. ماك ايفوي	ت : معدوح عبد المنعم
٤٤٨ - علم نفس التطور	ديلان ايفانز - أوسكار زاريت	ت : معدوح عبد المنعم
٤٤٩ - الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيري
٤٥٠ - ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا - ريبككارايت	ت : جمال الجزيري
٤٥١ - الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ - لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجنانزي / أوسكار زاريت	ت : محي الدين مزيد
٤٥٣ - القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ - خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ - تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كوبلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ - لا تنسني	مريم جعفري	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ - النساء في الفكر السياسي الغربي	سوزان مولر اوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ - المورييسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن
٤٥٩ - نموهم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتتبرج	ت : جلال البنا
٤٦٠ - الفاشية والنازية	ستوارت هود - ليتزا جانستز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ - لكان	داريان ليدر - جودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ - طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبد الرشيد الصادق محمودي	ت : عبد الرشيد الصادق محمودي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٠٦٣ / ٢٠٠٢